دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة المجلد 13

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

الشياطين 2





الأعمال الأدبية الكاملة

[illegible]

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الاولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

الشياطين

٢

« الشياطين » (Biessy) : نشرت هذه الرواية اول مرة في مجلة «الرسول الروسي» فالجزء الاول والثاني نشرا سنة ١٨٧١ ، والجزء الثالث نشر سنة ١٨٧٢ .

الفصل السابع

عند جماعتنا

إن الدار التى يسكنها فرجنسكى فى شارع النملة تملكها زوجته • هى مبنى من خشب لا يشتمل الا على طابق واحد • فليس هناك مستأجرون • وقد دعا فرجنسكى نحو خمسة عشر شخصاً بحجة الحفلة • ولكن هذا الاجتماع لا يشبه فى شىء السهرات التى تقام فى هذه المناسبات بالأقاليم • لقد اتفق الزوجان مرةً واحدة الى الأبد ، منذ بداية حياتهما الزوجية ، على أن الاحتفال بأعياد الميلاد أمر سخيف ، « اذ لا شىء يبعث على البهجة » • وقد استطاعا فى بضع سنين أن ينعزلا انعزالا تاما عن كل مجتمع • وأصبح الناس يعدونه ، رغم أنه رجل موهوب ورغم أنه ينعم ببعض الثراء ، أصبحوا يعدونه امرءاً شاذاً يحب العزلة ، وقالوا عنه، عدا ذلك ، انه « يعبّر عن نفسه بتكبر » • أما السيدة فرجنسكى التى كانت تمارس مهنة التوليد ، فانها بسبب هذه المهنة كانت توضع فى أدنى درجات السلم الاجتماعى ، رغم المنصب الذى يشغله زوجها فى الادارة • غير أنها كانت لا تتصف بالمذلة التى تناسب وضعها ؛ وقد أصبحت سيداتنا جميعهن منذ أن انعقدت تلك العلاقة الحمقاء النكراء بين السيدة فرجنسكى والكابتن لبيادكين ، وهى علاقة حرصت السيدة فرجنسكى على أن تعلنها فى كل مكان تقيداً بالمبدأ ، أقول أصبحت سيداتنا

جميعهن ، حتى أكثرهن تسامحاً ، يشحن عنها وجوههن ويدرن لها ظهورهن باحتقار واضح • غير أن السيدة فرجنسكى رضيت هذا كأنه هو بعينه ما كانت تنشده وتسعى اليه • ومع ذلك كانت هذه السيدات القاسيات تستنجد ، فى اللحظات الهامة ، بآرينا بروخورفنا (أى السيدة فرجنسكى)، ماوسعهن أن يفعلن هذا ، ويؤثرنها على المولدات الثلاث الأخريات بالمدينة• وكانت نساء مالكى الأراضى فى المنطقة تعتمد على خدمات السيدة فرجنسكى فى كثير من الأحيان أيضا • فالى هذا الحد كانت الثقة كبيرة بعلمها وحظها ومهارتها فى الحالات الصعبة • وقد أصبحت فى النهاية لا تمارس المهنة الا من أجل الأثرياء ، لأنها كانت تحب الربح حباً شديداً • وكانت تشعر شعوراً كاملا بما لها من سلطان ، فهى لا تتحرج أى تحرج ، وهى ترخى العنان لطبيعتها حراً طليقا • فاذا كانت تقوم بواجبات مهنتها فى أحسن البيوت ، روّعت النساء التى تولّدهن ، وربما روّعتهن عن عمد ، مظهرةً أشد الاحتقار للمواضعات الاجتماعية ، أو مستهزئة « بأقدس » الأمور ، وذلك حتى فى اللحظة التى يمكن أن تكون فيها هذه « الأمور المقدسة » أنفع ما تكون • لقد روى أحد أطبائنا ، وهو نفسه مولّد ، أن امرأة من النساء اللواتى تولّدهن ، جاءها المخاض يوماً ، فكانت تعانى آلاماً شديدة ، فذكرت اسم الله العلى القدير ، فما كان من آرينا بروخوروفنا الا أن أطلقت مزحة متحللة على حين فجأة فنزلت المزحة على المرأة المسكينة نزول الصاعقة ، وأحدثت فيها من الروع والهول ما عجّل خلاصها تعجيلا كبيراً• على أن السيدة فرجنسكى ، رغم أنها عدمية المذهب ، تتقيد بأكثر العادات الاجتماعية بلىّ حين يكون فى ذلك نفع لها • من ذلك أنها لا تعفى نفسها أبداً من حضور حفلة تعميد الطفل الذى وُلد على يديها • وهى ترتدى لهذه المناسبات ثوباً من حرير أخضر طويل الذيل ، وتعقد شعرها فى مؤخرة الرأس كعكةً معقدة ذات ضفائر وجدائل ، بينما هى فى العادة

تستطيب اهمال هندامها • ومع أنها طوال مدة الاحتفال الديني تصطنع وضعاً وقحاً يستثير رجال الدين ، فانها متى انتهى الاحتفال الديني تحرص على أن تقدم الشمبانيا للمدعوين بنفسها (وهي لهذا الغرض انما جاءت وازّينت) ، وويلٌ لمن ينسى ، حين يقبل الكأس ، أن ينفح المولّدة « بالهدية الصغيرة » •••

ان المدعوين الذين كانوا في ذلك المساء عند فرجنسكي (وأكثرهم رجال) يتظاهرون بأنهم اجتمعوا عرضاً ومصادفة • لم يكن ثمة عشاء ولا موائد للعب • غير أن مائدتين مغطاتين بغطاء غير نظيف جداً كانتا قد ضُمتا احداهما الى الأخرى في وسط الصالون المفروشة جدرانه بورق أزرق قديم ، وعليهما سماوران يغلي ماؤهما الى جانب صينية كبيرة محمّلة خمسةً وعشرين كأساً وسلةً ملأى بقطع من خبز أبيض كالذي يُقدَّم في المدارس الداخلية للبنات أو البنين • وكانت أخت ربة الدار هي التي تصب الشاي ، وهي عانس في نحو الثلاثين من العمر ليس لها حاجبان ، وشعرها مصفر اللون ؛ انسانة صموت لا تتكلم ، ولا تضمر لأحد حباً ، تعتنق الأفكار الجديدة ، ويخشاها فرجنسكي نفسه في سره • لم يكن في الصالون من النساء الا ثلاث : السيدة فرجنسكي ، وأختها ، وأخت السيد فرجنسكي التي وصلت من بطرسبرج منذ هنيهة ولم يتسع وقتها بعدُ حتى لتغيير ملابسها •

ان آرينا بروخوروفنا ، المشعّثة الشعر ، التي ترتدي ثوباً من صوف ضارب اللون الى خضرة ، سيدة مهيبة المظهر ، غير دميمة ، عمرها سبعة وعشرون عاما • انها تتأمل المدعوّين بعينيها الجريئتين وكأن نظرتها تقول : « أترون ؟ لست أخشى أحداً » • أما الآنسة فرجنسكي ، أخت السيد فرجنسكي ، وهي طالبة تؤمن بالمذهب العدمي ، فانها فتاة قصيرة سمينة حمراء الخدين ليست بالدميمة أيضاً • ولقد جلست الى جانب آرينا

بروخوروفنا ، وجعلت تُجيل على الحضور نظرة قلقة نافدة الصبر ، وفي يدها لفافة ورق • وكان فرجنسكي نفسه يعاني من ألم في ذلك المساء • ومع ذلك جلس على مقعد أمام المائدة • وكان جميع الحضور جالسين • فاذا نظر الناظر الى الطريقة التي صُفّت بها المقاعد أدرك أن الأمر أمر اجتماع (جلسة) • ولكن كان واضحا مع ذلك أن المجتمعين ينتظرون شيئا ما ، فهم من أجل مخادعة الانتظار انما يسترسلون في محادثات صاخبة وان تكن تافهة • حتى اذا دخل ستافروجين وفرخوفنسكي صمتوا جميعاً على حين فجأة •

ولكن يجب عليّ أن أتوقف هنا لأقدم بعض الايضاحات •

أظن أن هؤلاء الناس ، وقد أُبلغوا من قبل ، انما اجتمعوا على أملٍ ممتع هو أن يعلموا ببعض الامور الهامة • انهم يمثلون زهرة الراديكاليةِ الحمراء في مدينتنا القديمة ، وقد كانت عناية فرجنسكي باختيارهم لهذه « الجلسة » عناية كبيرة • يجب أن أقول أيضا أن عدداً منهم (هو قلة على كل حال) لم يكونوا قد جاءوا قبل ذلك اليوم الى عند فرجنسكي • وكان واضحا أن أكثرهم لا يدرك هدف الاجتماع ادراكاً واضحا • غير أنهم جميعا ينظرون الى بطرس ستيفانوفتش على أنه رسولٌ وفد من الخارج مزوّداً بسلطات كاملة • ان هذه الفكرة التي ترضي غرورهم طبعاً كانت قد رسخت في نفوسهم منذ البداية • ومع ذلك كان بعضهم قد تلقى تعليمات محدّدة من قبل • فان بطرس ستيفانوفتش قد استطاع في الواقع أن يشكّل عندنا خلية من « خمسة » ، على غرار ما فعل في موسكو ، وعلى غرار ما فعل أيضا في جيش اقليمنا كما عُلم فيما بعد • ويظهر أنه أنشأ خلية رابعة في ولاية س ••• فهؤلاء الخمسة « المختـــارون » كانوا يجلسون في ذلك الاجتماع الى المائدة المشتركة ، ويجيدون اصطناع هيئة أناس عاديين فلا يحزر المرء دورهم • لقد عُرفت الآن أسماؤهم فليست سراً : انهم ليبوتين،

وفرجنسكى ، وشيجالوف (ذو الأذنين الطويلتين ، وهو أخو السيدة فرجنسكى) وليامشين ، ورجل يقال له تولكاتشنكو ، وهو انسان عجيب فى نحو الأربعين من العمر يقال انه يعرف الشعب معرفة رائعة ، ولاسيما قطاع الطريق واللصوص ، ويواظب على التردد الى الحانات (لا بهدف دراسة الشعب فقط) ويفتخر بملابسه الغليظة ، وحذاءيه المطليين بالقطران ، وهيئته الماكرة ، وكلامه الشعبى العامى . لقد سبق أن اصطحبه ليامشين فى الماضى الى سهرات ستيفان تروفيموفتش مرةً أو مرتين ، فلم يحدث فى الحضور كبير أثر . ولقد كان يعمل فى السكك الحديدية ، ويظهر فى مدينتنا من حين الى حين ، حين يصبح بغير عمل فى العادة . ان هؤلاء الأشخاص الخمسة قد شكلوا أول خلية ، مقتنعين بأنهم ليسوا الا خلية واحدة بين مئات الخلايا وألوف الخلايا المنتشرة فى روسيا كلها والمرتبطة جميعها بلجنة مركزية ، قوية سرية ، مرتبطة أوثق الارتباط ، أيضا ، بسائر الحركة الثورية فى أوروبا . يجب علىّ أن أعترف مع ذلك آسفاً بأن هناك خلافاً قد بدأ يظهر بينهم . لقد كانوا منذ الربيع يعوّلون على وصول بطرس ستيفانوفتش الذى أبلغهم عن وصوله تولكاتشنكو أولاً وشيجالوف بعد ذلك ؛ ورغم أنهم قد توقعوا منه أشياء خارقة وانتظموا تلبيةً لأول نداء صدر عنه دون أن يبدوا أى اعتراض ، فانهم ما ان تشكلت حلقتهم حتى شعروا جميعاً بأنهم قد أهينوا وأُسيء اليهم ، وأغلب ظنى أن مردّ ذلك الى شعورهم بأنهم تعجلوا فى الموافقة . ولا شك أنهم انما لبوا نداء فرخوفنسكى خشية أن لا يُتهموا بعد ذلك بأنهم جبنوا . ولكن كان فى وسع بطرس ستيفانوفتش، فيما يبدو لهم، أن يعترف لهم ببطولتهم، فيفضى اليهم بسرٍ خطير ما . وذلك مالم يفعله فرخوفنسكى . فانه لم يخطر بباله أن يرضى رغبتهم المشروعة هذه فى الاطلاع ، فلم يفض اليهم بأى سر . وكان على وجه العموم يعاملهم بصرامة قصوى ، بل يعاملهم

معاملة لا تخلو من الاحتقار • فكان ذلك يتـسير حنقهم ، حتى لقـد كان شيجالوف يحض الآخرين على «المطالبة بايضاحات» • ولكن لا الآن طبعاً، لا عند فرجنسكى حيث يضم الحفل كثيرا من الغرباء •

وعلى ذكر « الغرباء » يجب أن أشير الى فكرة تراودنى ، هى أن أعضاء الحلقة كانوا ميالين فى ذلك المساء الى الاعتقاد بأن مدعوى فرجنسكى لا بد أن يكون بينهم أفراد منضمون الى حلقات أخرى مجهولة عندهم لكنها تنتمى الى نفس التنظيم وقد شكلها فرجوفنسكى أيضاً ، بحيث أن جميع الحضور كان يشتبه بعضهم فى بعض ويمثّل بعضهم على بعض ، وذلك أمر يضفى على الاجتماع طابعا عجيبا ، روائيا ان صح التعبير • على أن هناك أيضا أشخاصا لا يمكن الاشتباه فيهم • من ذلك أن ضابطا برتبة ميجر ، وهو قريب فرجنسكى ، ولا شأن له بهذه الأمور البتة ، ولا دُعى الى الحفلة ، كان قد جاء من تلقاء نفسه ليعبّر للسيد فرجنسكى عن تمنياته بمناسبة عيد ميلاده • وكان يستحيل طبعا أن يُرفض استقباله • ثم ان فرجنسكى لم يكن قلقاً من هذه الناحية ، لأن الميجر « عاجز عن الوشاية». ذلك أنه ، رغم غبائه ، كان طوال حياته يحب أن يتردد على أشد البيئات الراديكالية تطرفاً ، لا لأنه كان يشاركها آراءها ، بل لأنه كان يستمتع بالاصغاء الى أحاديثها • ثم انه هو نفسه قد تعرض للخطر • فحين كان شاباً ، وقعت فى يده حزمٌ من منشورات تحريضية ، وأعدادٌ من جريدة « الناقوس » ، فرأى أن من الجبن أن يرفض توزيعها ، رغم أنه لم يجرؤ أن يفضها • اننا ما نزال نلقى فى روسيا أناساً كثيرين من هذا النوع • وكان باقى المدعوين يمثّلون اما نموذج الشخص الجـريح الكرامة ، الحانق الحاقد ، واما نموذج الشاب الذى تشتعل نفسه حماسة وسماحة • وكان هناك اثنان أو ثلاثة من أساتذة المدارس الثانوية ، أحدهم أعرج فى الخامسة والأربعين من العمر ، وهو رجل شرّير شديد الغرور ؛ وكان

هناك بضعة ضباط منهم واحد من سلاح المدفعية متخرج من المدرسة الحربية حديثاً ، وهو فتى صموت كان لا يعرف بعدُ أحداً ، وكان يمسك بيده قلماً ، وما ينفك يدوّن فى دفتره دون أن يشترك فى الحديث . ولقد لاحظه الجميع ، ولكنهم تظاهروا بأنهم لا يرون شيئاً . وكان بين الحضور أيضاً ذلك الطالب المتشرد الذى ساعد ليامشين على دسِّ صورٍ خليعة فى حمْل بائعة الأناجيل المتجولة ، وهو شاب مديد القـامة ضخم الجسم تتصف حركاته بقلة الاكتراث وشدة الحذر فى آن واحد ، وتتميز ابتسامته بالسخر دائماً ، ويبدو عليه أنه واثق بنفسه كل الثقة ، راضٍ عنها كل الرضى . وكان ابن عمدتنا حاضراً كذلك (وهو ذلك الفتى الفاسق الذى أتيح لى أن أتكلم عنه بمناسبة المغامرة التى وقعت لامرأة الليوتنان الشابة)، ولا أدرى لمَ كان حاضراً . انه لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال السهرة. يجب أن أذكر أيضا أن الحفل قد ضمّ كذلك تلميذا من تلاميذ المدارس الثانوية عمره ثمانية عشر عاما ، وهو ولد مشعث الهيئة شديد الحماسة مظلم الوجه كان يبدو عليه أنه يضيق ذرعاً بصغر سنه ويشعر من ذلك بجرح فى كرامته . ان هذا الصبى هو منذ الآن زعيم جماعة من المتآمرين جنّدهم من بين تلاميذ الصف الأعلى ، كما عُلم ذلك فيما بعد على دهشة من الناس جميعا . لم أقل حتى الآن شيئا عن شاتوف : لقد كان جالساً الى أحد أطراف المائدة ، متقهقراً قليلاً عن الآخرين ، مطرقاً الى الأرض ، صامتا ، مكفهر الوجه . وقد رفض الشاى والخبز ، ولم يترك قبعته لحظةً كأنما هو يريد أن يُظهر أنه انما جاء لعمـل ، ولم يجىء مدعواً ، وأنه سينصرف متى شاء . وغيرَ بعيد عنه كان يجلس كيريلوف . وكان صامتا هو الآخر ، لكنه لم يكن خافض العينين . بالعكس : كان يجيل نظـرته الثابتة الكابية بانتباه على كل من يأخذ زمام الكلام ، ويصغى الى جميـع الناس بدون أية دهشة . وكان الذين لم يسبق لهم أن رأوه ينظرون اليه خلسةً شاردى اللب .

هل كانت السيدة فرجنسكى على علم بوجود « الخمسة » ؟ لا أدرى على وجه اليقين • ولكن من حق المرء أن يخمِّن أن زوجها قد أطلعها على كل شيء • أما الطالبة فكان واضحاً أنها لا تعرف السر • ثم ان لها مشاغلها الخاصة على كل حال : كانت لا تنوى أن تمكث عندنا الا يوما أو يومين ، لتطوف بعد ذلك على جميع المدن الجامعية « بغية أن تعرف عن كثب آلام الطلاب الأشقياء وأن تحضهم على الاحتجاج » • وهى تحمل عدة مئات من نسخ منشورٍ مطبوع على الحجر كانت قد كتبته هى نفسها فيما يخيَّل الىَّ • شيء غريب : ان التلميذ والطالبة ، رغم أنهما يلتقيان هنا أول مرة، قد شعر كل منهما نحو الآخر بكره فظيع • يحسن أن نشير الى أن الميجر هو عمُّ الفتاة ، وأنه يراها الآن عند آل فرجنسكى بعد فراقٍ دام عشر سنين • وحين دخل ستافروجين وفرخوفنسكى الى الصالون كان خداها حمراوين كالجمر : ذلك أنها كانت قد تشاجرت منذ هنيهة مع عمها حول « قضية المرأة » •



تهالك فرخوفنسكى على كرسى من الكراسى باهمال ملحوظ ، تقريباً دون أن يحيى أحداً • كانت هيئته تعبر عن الاشمئزاز ، وتكاد تعبر عن الاستعلاء • أما ستافروجين فقد سلَّم على الحفل بأدب • ولم يكن أحـد غيرهما ينتظر ، ومع ذلك اصطنع الجميع ، بما يشبه التواطؤ والاتفاق ، هيئة من لا يلاحظهما • وما ان جلس ستافروجين حتى سألته السيدة فرجنسكى بلهجة قاسية :

ــ ستافروجين ، هل تريد شاياً ؟

فأجاب ستافروجين قائلاً :

ـ أتمنى .

فأمرت السيدة فرجنسكى أختها بقولها :

ـ صبى شاياً لستافروجين .

ثم اتجهت الى فرخوفنسكى فسألته :

ـ وأنت هل تريد شاياً ؟

فأجابها فرخوفنسكى :

ـ طبعاً . من يلقى على ضيوفه مثل هذه الأسئلة ؟ واعطينى حليباً أيضاً : فان مذاق الشاى عندك كمذاق دواء ، وأنتم تحتفلون اليوم بعيد ميلاد .

ـ ما هذا الكلام ؟ أتراك من أنصار الاحتفال بالأعياد . لقد تناقشنا فى هذا الأمر منذ برهة .

كذلك قالت الطالبة ضاحكة .

فدمدم التلميذ يقول فى الطرف الآخر من المائدة :

ـ كلام قديم !

فانبرت الطالبة تردُّ عليه قائلةً وهى تضطرب على كرسيها :

ـ كلام قديم ؟ ان محاربة الأوهام الاجتماعية ، حتى البريئة منها ، لا يمكن أن تكون كلاماً قديماً بحال من الأحوال . بالعكس : هى جديدة دائما بكل أسف .

ثم أضافت تقول مستدركة :

ـ هذا عدا أنه ليس هناك أوهام اجتماعية بريئة غير ضارة .

فصاح التلميذ يقول مضطربا أشد الاضطراب :

ـ كل ما أردت أن أقوله هو أن الأوهام الاجتماعية أمور بالـ
محاربتها طبعاً ، ولكن فيما يتعلق بالأدعياء فان جميع الناس يعرفـ
سخافات تافهة ، وانه ليس يجدينا أن نضيع فى الكلام عليها و
ما أكثر ما يبدده الناس كافة ! فالأفضل أن ينفق المرء وقته فى
نافعة ...

هتفت الطالبة تقول :

ـ انك تسهب فى الكلام وتطنب ، ولا يفهم المرء عنك شيـ

قال التلميذ :

ـ يخيّل الىّ أن من حق كل انسان أن يتكلم ، واننى اذ
أن أعبّر عن رأيى كما يعبر عن رأيه أى انسان آخر ...

فقاطعته ربة البيت نفسها قائلة على حين فجأة بشراسة :

ـ لا أحد يحرمك من حق الكلام . كل ما هنالك أنه يُط
أن توجز ، لأن أحداً لا يفهم عنك .

قال التلميذ مدمدماً وقد أوشك أن يهوى الى قاع الكمد و

ـ اسمحى لى أن ألفت نظرك مع ذلك الى أنك لا تعاملينني
كاف . واذا لم أكمل عرض رأيى ، فليس يرجع ذلك الى انني
الأفكار ، وانما يرجع الى أننى أملك أفكاراً كثيرة مسرفة فى الكثر

ثم أمسك عن الكلام وقد أرتج عليه وارتبك أشد الارتباك .

قالت الطالبة :

ـ اذا كنت لا تحسن التعبير عما بنفسك فخير لك أن تصمت

فوثب التلميذ عن كرسيه ، وصاح يقول وقد احمر خجلاً
أن ينظر فيما حوله :

ـ أردت أن أقول انك انما حاولت أن تلمعي لأن السيد ستافروجين دخل . هذا ما أردت أن أقوله !

فهتفت الطالبة تقول :

ـ أفكارك وسخة ، لا أخلاقية ، تدل على ضحالة فكرك ! أرجوك أن لا توجِّه اليَّ الكلام بعد الآن .

قالت ربة الدار :

ـ حين دخلت يا ستافروجين كان أحدهم ينادي بحقوق الأسرة : هو هذا الضابط الذي ترى (قالت ذلك وأشارت الى قريبها الميجر) . طبعاً ، لست أنا من سأصدِّع رءوسكم وأضجركم بهذه الترهات السخيفة التي سوِّي أمرها منذ مدة طويلة . ولكن من أين نشأت هذه الحقوق العائلية وهذه الواجبات العائلية التي اتخذت صورة أوهام اجتماعية راهنة . هذا هو السؤال . ما رأيك ؟

سألها ستافروجين :

ـ ماذ تعنين بقولك « من أين نشأت ؟ »

فتدخلت الطالبة تقول وهي تلتهم ستافروجين بعينيها التهاماً ان صح التعبير :

ـ نحن نعلم مثلاً أن وهم وجود الله انما نشأ عن الرعد والبرق . فمن المعروف أن الانسان البدائي قد ارتاع من الرعد والبرق فعبد العدو الذي لا يُرى ، شاعراً أمامه بضعفه . ولكن من أين نشأ وهم الأسرة ؟ من أين نشأت الأسرة ذاتها ؟

قالت السيدة فرجنسكي محاولةً وقف الطالبة عن الكلام :

ـ ليس هذا هو الأمر تماماً .

قال ستافروجين :

ـ أخشى أن يجيء الجواب على هذا السؤال خاليا من الحشمة •

فصاحت الطالبة متعجبة ً وهى تثب عن كرسيها من جديد :

ـ كيف هذا ؟

ولكن ضحكات مخنوقة سُمعت آتية ً من جهة فئة الأساتذة ، فسرعان ما استجاب لها بالضحك ، على الطرف الآخر من المائدة ، ليامشين والتلميذ والميجر ذو الصوت الجهير •

فقالت السيدة فرجنسكى لستافروجين معقبة ً :

ـ عليك أن تؤلف تمثيليات هزلية •

وأعلنت الفتاة رأيها مستاءة ً تقول :

ـ هذا لا يشرّفك يا سيد ••• لا أدرى ما اسمك •••

فجمجم الميجر قائلا :

ـ وأنت كفّى عن التحرك والتململ • لكأنك قاعدة على ابرة •••

ـ أرجوك أن تسكت وأن تعفينى من أمازيحك وتشبيهاتك الكريهة• اننى أراك أول مره ، ولا أريد أن أعرف شيئاً عن قرابتنا •

ـ أنا عمك مع ذلك • حملتك على ذراعى حين لم تكونى الا طفلة صغيرة •

ـ لا يهمنى أن تكون قد حملتنى على ذراعيك • لم أطلب منك أن تحملنى ، واذا كنت قد حملتنى ، أيها الضابط القليل الأدب ، فلأنك كنت تجد فى ذلك لذة لك • واسمح لى أن أنبّهك الى أنك لا يجوز لك أن تخاطبنى بصيغة المفرد ، اللهم الا من حيث اننى مواطنة ؟ اننى أمنعك من ذلك مرة ً واحدة الى الأبد •

قال الضابط لستافروجين وهو يضرب بقبضته المائدة :

ـ هن جميعا كذلك ! اسمح لى : اننى أحب اللبرالية وأحب جميع الأفكار الحديثة ، وأصغى متلذذاً الى الأفكار الذكية ، ولكننى لا أستطيب هذا كله الا من الرجال • اعلمْ ذلك • أما من النساء ، من هـــذه هاته الشابات الثرثارات ، فلا ثم لا ••• ان ذلك فوق طاقتى •

ثم قال للفتاة صارخا وقد أصبحت لا تطيق الاستقرار فى مكانها :

ـ لا تتحركى هذا التحرك كله ! أنا أيضا أطلب الكلام • لقـــد أُهنت !

دمدمت ربة الدار تقول مستاءة :

ـ انك تمنع الآخرين من الكلام ، وأنت نفسك لا تعرف أن تقول شيئا •

فقال الميجر غاضباً حانقاً وهو يلتفت نحو ستافروجين :

ـ لا ، سأقول كل ما فى قلبى • اننى لم أشرف بمعرفتك يا سيد ستافروجين ، ولكننى أتوجه بالكلام اليك لأننى آخر من دخل • لولا الرجال لهلكت هذه النسوة كالذباب • ذلك هو رأيى • وقضية المرأة كلها ما هى الا دليل جديد على نقص أصالتهن • أؤكد لك أن هذه القضية انما اخترعها الرجال ، حماقةً منهم ، فجلبوا لأنفسهم الشقاء • الحمد لله على اننى لست متزوجا ! انهن جميعا متشابهات متماثلات ، ولا يستطعن حتى أن يبتكروا أعمال سيدات • فالرجال هم الذين يبتكرون لهن هذه الأعمال أيضا • أنظر الى هذه ! لقد حملتها على ذراعى • وحين كانت فى العاشرة من العمر كنت أرقص معها المازوركا • وها هى ذى اليوم تصل ، فأهرع طبعاً الى تقبيلها ، فاذا هى تعلن لى فوراً أن الله غير موجود • كان

فى وسعها أن تدع لى فسحةً من الوقت لأقبّلها • ولكنها لم تفعل • كانت مستعجلة ! صحيح أن النــاس الأذكياء أصبحوا لا يؤمنون بوجود الله ، وذلك لأنهم أذكياء • أما أنت ، أيتها الحمقاء الصغيرة ، (كذلك قلتُ لها) ، فماذا تعرفين عن الله ؟ ان طالبا من الطلاب هو الذى بث فيك هذه العقيدة • فلو علّمك أن تشعلى مصابيح أمام الأيقونات ، لأشعلت مصابيح أمام الأيقونات !

أجابت الطالبة باحتقار ، كأنها تتواضع فترضى أن تنــاقش شخصاً كهذا الشخص مدةً طويلة :

ـ أنت تكذب لا أكثر ! وأنت رجل شرير ! لقــد عرفتُ كيف أبرهن لك منذ قليل على صحة أدلتى • قلت لك انهم كانوا يعلموننا فى دروس الدين ما يلى : « اذا كرّمت أباك وأقرباءك ، فسيوهب لك العمر المديد والثراء الطائل • » • هذا موجود فى الوصايا العشر • فاذا كان الله قد رأى أن من الضرورى أن يكافىء على الحب ، فمعنى ذلك أن الهك هذا غير أخلاقى • تلك هى التعابير التى صغت بها برهانى • وأنا لم أسق لك هذا البرهان منذ أول كلمة ، وانما سقته بعد أن زعمتَ أنك تؤكد حقوقك علىّ • فهل الذنب ذنبى اذا كنت أنت بليد العقل فلم تفهم شيئاً حتى الآن ؟ انك غاضب حانق ، وهذه هى الحالة النفسية لجيلكم كله •

قال الميجر :

ـ حمقاء !

فقالت الفتاة :

ـ غبى !

قال الميجر :

ـ هكذا ••• اشتمينى الآن !

قال ليبوتين بصوته الحاد الضئيل :

ـ اسمح لى يا كابيتون مكسيموفتش : ألم تعلن لى أنت نفسك أنك لا تؤمن بالله ؟

ـ وماذا يعنى هذا ؟ أنا ، شيء آخر ! ••• ربما كنت أؤمن ، ولكننى لا أومن ايماناً كاملاً • ورغم اننى لا أومن ايماناً كاملاً فاننى لا أقول بأن علينا أن نطلق على الله رصاص البندقية ! حين كنت ما أزال أخدم فى سلاح الفرسان ، كان يتفق لى كثيرا أن أفكر فى الله • الشعراء يسلمون بأن الفرسان لا يزيدون على أن يشربوا ويلهوا • ولقد كنت أشرب فعلاً • ولكن هل تصدق ؟ لقد كان يتفق لى أن أثب عن سريرى كما أنا ، فآخذ أرسم اشارة الصليب أمام الأيقونة ، وأدعو الله أن يهب لى الايمان • ذلك اننى حتى فى ذلك الحين كان الهدوء لا يجد الى نفسى سبيلاً ، فأنا لا أنفك أتساءل : هل الله موجود أم هو غير موجود ؟ انظر الى أى حد كان الأمر يعذبنى • وكنت فى الصباح أعود الى اللهو والقصف طبعاً ، وكان ايمانى يزول فيما يبدو • وقد لاحظت على كل حال أن الايمان يضعف فى النهار بوجه عام •

سأل فرخوفنسكى ربة الدار هو يتثاءب :

ـ أليس عندكم ورق للعب ؟

هتفت الطالبة تقول وقد احمر وجهها استياء من أقوال الميجر :

ـ اننى أؤيد سؤالك كل التأييد •

وقالت السيدة فرجنسكى بخشونه وهى تلقى على زوجها نظرة عتب:

ـ اننا نضيع وقتاً ثميناً فى الاستماع الى أحاديث سخيفة •

فقالت الطالبة وقد نفد صبرها :

ـ كنت أريد أن أشارك فى الجمعية التى تبحث آلام الطلبة واحتجاجهم . أما وأننا نضيع الوقت فى أقوال لا أخلاقية ...

فأسرع التلميذ يقول :

ـ لا شىء يوصف بأنه أخلاقى أو غير أخلاقى .

فقالت الطالبة :

ـ أعرف هذا كل المعرفة يا حضرة التلميذ ، أعرفه قبل أن يعلّموك اياه بزمان طويل .

فأجاب الآخر غاضبا :

ـ وأنا أؤكد أنك لست أكثر من طفلة وصلت من بطرسبرج لتلقى علينا دروسا ، مع أننا نعرف هذه الأمور أحسن مما تعرفينها كثيرا . ان جميع الناس فى روسيا يعلمون منذ بيلنسكى أن الوصية القائلة « كرّم أباك وأمك » هى وصية لا أخلاقية . ولكنك لم تعرفى حتى كيف ترددينها بنصّها الصحيح .

سألت السيدة فرجنسكى زوجها حازمةً :

ـ أسوف ينتهى هذا ؟

انها بصفتها ربة الدار كانت تحمر خجلاً من تفاهة هذا الشجار ، و لاسيما أنها كانت تلاحظ ابتسامات ودهشة بعض الأشخاص الذين يجيئون اليوم أول مرة .

قال فرجنسكى رافعاً صوته :

ـ يا سادة ، اذا كان أحد منكم يريد أن يتكلم فى موضوع أهم ، أو كان لديه ما يقرؤه لنا ، فاننى أدعوه الى البدء بدون اضاعة للوقت .

فتدخل الأستاذ الأعرج الذى ظل الى ذلك الحين صامتاً ملتزماً وضع التحفظ ، تدخل فقال بصوت مترفق .

ـ اسمحوا لى أن ألقى سؤالاً : أنحن هنا فى جلسة ، أم فى اجتماع زيارة يضم عدداً من الناس لا أكثر ؟ اننى ألقى هـــذا السؤال من باب المحافظة على الشكل ، وحتى لا أظل فى شك وحيرة من أمرى .

فأحدث هذا السؤال « الماكر » أثره : فنظر كل واحد الى جـيرانه كأنه ينتظر منهم جـواباً ، ثم اذا بجميع الأعين تتجه نحو فرخوفنسـكى وستافروجين كأنما ذُكرت كلمة السر .

قالت السيدة فرجنسكى :

ـ اقترح اجراء تصويت لنعرف أنحن فى جلسة أم لا ؟

فتدخل ليبوتين فقال :

ـ أضم صوتى الى هذا الاقتراح ، رغم أنه غامض قليلا .

فانطلقت أصوات من جميع الجهات تقول :

ـ وأنا أيضا ! وأنا أيضا !

قال فرجنسكى مؤيداً :

ـ أعتقد فعلاً أن هذا سيدخل على حديثنا شيئا من النظام .

قالت ربة الدار :

ـ فلنقترع . يا ليامشين اجلس الى البيانو ، أرجوك . فى وسعك أن تقترع من هناك حين يجىء الأوان .

هتف ليامشين محتجاً :

ـ كيف ؟ أيضاً ؟ لقد اصطنعت دور العارف بما فيه الكفاية .

ـ أرجو وألح في الرجاء • اجلس واعزف ! أم تراك لا تريد تخدم « القضية » ؟

ـ أؤكد لك أن أحداً لا يتجسس علينا يا آرينا بروخوروفنا • ذل منك خيال محض • ثم ان النوافذ عالية جداً • وحتى لو سمعنا النساء فانهم لن يفهموا شيئاً •

جمجم أحدهم يقول :

ـ نحن أنفسنا لا نفهم ، فكيف يفهم الآخرون ؟

قالت آرينا بروخوفنا تشرح لفرخوفنسكي :

ـ أقول لك ان الحذر لا يكون مفرطا مهما يكن شديدا • ان أتخذ هذا الاحتياط على أساس أن من الممكن أن يكون ثمة تجسس علين فاذا سمع الناس الموسيقى قالوا لأنفسهم ان عندنا حفلة •

قال ليامشين متبرما :

ـ ليكن ما تريدين •

وجلس الى البيانو وأخذ يعزف لحن فالس ، ضاربا على أصابع البيا ضربات قوية كأنه أصم ، جارياً في العزف على ما تشاء المصادفة تقريبا

قالت السيدة فرجنسكي :

ـ الذين من رأيهم أن يكون الاجتماع « جلسة » ، عليهم أن يرفعو أيديهم •

فرفع بعضهم أيديهم ، ولم يحرك بعضهم الآخر ساكناً ، ورفع بعض ثالث أيديه ثم خفضها ثم رفعها من جديد •

هتف أحد الضباط يقول :

ـ ما هذا ؟ لم أفهم شيئا !

وقال آخر :

ـ أنا أيضا لم أفهم شيئاً !

وصرخ ثالث قائلاً :

ـ أما أنا فقد فهمت • اذا كان الجواب « نعم » ، تُرفع اليد •

ـ ولكن ما معنى « نعم » ؟

ـ معناها أن رأيك أن يكون الاجتماع « جلسة » •

ـ لا ، أبداً ، بالعكس !

قال التلميذ مخاطباً السيدة فرجنسكى :

ـ أنا اقترعت مؤيداً فكرة « الجلسة » •

ـ فلماذا لم ترفع يدك اذن ؟

ـ لقد نظرت اليك ، فرأيت أنك لم ترفع يدك ، فلم أرفع يدى أنا أيضاً •

ـ هذا غباء ! أنا لم أرفع يدى لأننى كنت أتولى اجراء الاقتراع • أيها السادة ، سنجرى الآن اقتراعاً على العكس : من كان رأيه أن يكون الاجتماع جلسة فليبق ساكناً ولا يرفعنْ يده • ومن كان رأيه أن لا يكون الاجتماع جلسةً فليرفع يده اليمنى •

سأل التلميذ :

ـ من كان رأيه أن لا يكون الاجتماع جلسة ؟

صرخت السيدة فرجنسكى تقول حانقةً :

ـ أتراك تفعل هذا متعمداً ؟

ـ لا ، من فضلك ! من الذى يجب أن يرفع يده ؟ أهو الذى يريد أن يكون الاجتماع جلسة أم هو الذى لا يريد ذلك ؟ يجب توضيح هذا •

كذلك هتفت بضعة أصوات •

ـ من كان رأيه أن لا يكون الاجتماع جلسة •

صرخ ضابط يسأل :

ـ طيب • فماذا يجب عليه أن يفعل ؟ أيرفع يده أم لا يرفعها ؟

قال الميجر :

ـ هيء هيء ! اننا لمّا نتعود على البرلمان بعد !

قال الأستاذ الأعرج :

ـ يا سيد ليامشين ، معذرة ••• انك تحدث من الصخب ما يجعلنا عاجزين عن أن يسمع بعضنا بعضاً ويفهم بعضنا عن بعض •

هتف ليامشين يقول للسيدة فرجنسكى :

ـ أؤكد لك أنه مامن أحد يتنصت على النوافذ ياآرينا بروخوروفنا• لا أريد أن أعزف • لقد جئت اليك زائراً لا ضارباً على البيانو !

قال فرجنسكى يسأل الحضور :

ـ أيها السادة ، أجيبونى ببساطة : أنحن فى جلسة أم لا ؟

فقالت الأصوات تجيبه من كل جانب :

ـ بلى ! بلى !

ـ فاذا كان الأمر كذلك فلا داعى الى الاقتراع • أأنتم موافقون أيها السادة ؟ هل يجب الاقتراع ؟

ـ لا ، لا داعى الى الاقتراع ، فهمنا !•••

ـ هل لأحد رأى مخالف ؟

ـ لا ، الجميع متفقون !

هنا نادى صوت يقول :

ـ ولكن ما معنى أننا فى جلسة ؟

لم يجب أحد .

ـ يجب انتخاب رئيس .

ـ هو صاحب الدار طبعاً . هو مضيفنا !

فبدأ فرجنسكى يتكلم فقال :

ـ اذا كان الأمر كذلك أيها السادة فاننى أعود الى اقتراحى الذى عرضته منذ قليل : من كان عنده ما يقرؤه لنا فليتكلم بدون اضاعة للوقت.

خيَّم صمت شامل . والتفتت جميع الأنظار مرةً أخرى نحـــو ستافروجين وفرخوفنسكى .

قالت السيدة فرجنسكى تسأل فرخوفنسكى :

ـ فرخوفنسكى ، هل لديك ما تعلنه لنا ؟

فأجاب بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى قائلاً وهو يتمطى ويتثاءب تثاؤباً ذا صوت :

ـ لا شيء البتة . ولكننى أريد كأسا من الكونياك .

ـ وأنت يا ستافروجين ؟

ـ لا ، شكراً ، لا أشرب !

ـ أنا سألتك هل تريد أن تتكلم ، ولم أسألك عن الكونياك !

ـ أتكلم ؟ عمَّ ؟ لا .

قالت تخاطب فرخوفنسكى :

ـ ستؤتى بالكونياك .

نهضت الطالبة لتشرع فى الكلام ، ولم تكن قد انقطعت عن التحرك والاضطراب على كرسيها :

ـ لقد جئت لأتكلم عن آلام الطلاب التعساء وعن الوسائل التى يجب استعمالها لحملهم على القيام باحتجاج جماعى ...

ولكنها لم تلبث أن توقفت عن الكلام فجأة : فعلى الطرف الآخر من المائدة كان قد وقف منافس سرعان ما جذب اليه جميع الأنظار . انه شيجالوف المتجهم المظلم الوجه ، وقف ببطء ، ووضع على المائدة ، بحزن وأسى ، دفتراً سميكاً مغطى بكتابة دقيقة . وظل واقفاً لا يتكلم . أخذ بعض الحضور يتأملون الدفتر متعجبين . ولكن ليبوتين وفرجنسكى والأستاذ الأعرج بدا عليهم الرضى الشديد .

قال شيجالوف بلهجة حزينة لكنها جازمة :

ـ أطلب الكلام .

فقالت فرجنسكى :

ـ الكلام لك .

فعاد الخطيب يجلس ، وانتظر لحظة ، ثم شرع يتكلم بفخامة فقال :

ـ أيها السادة !

ولكن أخت السيدة فرجنسكى قاطعته بخشونة اذ قالت تخاطب فرخوفنسكى :

ـ اليك الكونياك !

ووضعت أمام فرخوفنسكى ، وهى تقلب شفتها احتقارا ، زجاجة وقدحاً جاءته بهما دون صينية ودون صحن .

فتوقف الخطيب عن الكلام بوقار • وصرخ فرخوفنسكي يقول له وهو يصب لنفسه الكونياك :

ـ لا عليك ! أكملْ ! •••

ـ أيها السادة ، انني اذ أسألكم الانتباه ، واذ أسألكم أيضاً ، كما سترون فيما بعد ، أن تساهموا معي وأن تساعدوني في هذا العمل الذي له شأن كبير وله خطورة أساسية ، يجب عليَّ أن أقدِّم لكم بعض الايضاحات التمهيدية •

قال بطرس ستيفانوفتش فجأة يسأل السيدة فرجنسكي :

ـ هل عندك مقص يا آرينا بروخوروفنا ؟

فسألته هذه محملقةً :

ـ مقص ؟ ماذا تريد أن تعمل بالمقص ؟

فقال وهو يتفرس بهدوء في أظافره الطويلة السوداء :

ـ نسيت أن أقصَّ أظافري • كان عليَّ أن أقصَّها منذ ثلاثة أيام•••

فاحمرت آرينا بروخوروفنا ، ولكن الطالبة أعجبها عدم التحرج هذا الذي أظهره فرخوفنسكي ، فقالت :

ـ أظن أنني رأيت المقص منذ لحظة على النافذة •

وقامت فجاءت بالمقص ومدَّته الى فرخوفنسكي ، فتناوله منها حتى دون أن ينظر اليها ، وأخذ يرقب بطرس ستيفانوفتش حاسداً كارهاً •

تابع شيجالوف كلامه فقال :

ـ انني وقد عكفت عكوفاً تاماً على دراسة تنظيم مجتمع المستقبل الذي يجب أن يحل محل مجتمعنا الحالي ، وصلت الى الاقتناع بأن جميع

منشئي المذاهب الاجتماعية منذ أقدم العصور الى أيامنا هذه ، انما كانوا أناساً حالمين ورواةَ حكايات خرافية ، وحمقى ، يناقضون أنفسهم ولا يفهمون شيئاً فى مجال العلوم الطبيعية ، ولا يعرفون شيئاً عن هذا الحيوان الذى يسمى بالانسان . ان أفلاطون وروسو وفوريه ليسوا الا أعمدة من ألومنيوم . انهم ، فى أكثر تقدير ، يصلحون للعصافير لا للبشر ، فلما كانت الأشكال الاجتماعية للمستقبل يجب تحديدها الآن تحديداً دقيقاً بعد أن قررنا جميعا أن علينا أن ننتقل الى الفعل بغير تردد ، فاننى أعرض مذهبى فى تنظيم العالم .

ثم نقر شيجالوف على دفتره وقال :

ـ ها هو ذا . لقد كنت أريد أن أعرض عليكم كتابى بأكبر ايجاز ممكن . لكننى أرى أن علىّ أن أضيف اليه كثيراً من الايضاحات الشفهية. لذلك سيحتاج عرضى الى عشر سهرات على الأقل ، تبعاً لعدد فصول الكتاب .

هنا سُمعت بضع ضحكات . وتابع شيجالوف كلامه يقول :

ـ يجب علىّ ، عدا ذلك ، أن أنبهكم الى أن مذهبى لم يكتمل اكتمالا تاماً ... (وهنا انطلقت ضحكات أخرى) ... فلقد تهت فى شعاب مقدماتى نفسها ، وجاءت نتيجتى متناقضة تناقضا مباشراً مع الفكرة الأساسية التى يقوم عليها المذهب . اننى وقد انطلقت من فكرة الحرية التى ليس لها حدود قد انتهيت الى فكرة الاستبداد الذى ليس له حدود . ولكننى أضيف الى ذلك أنه لا يمكن أن يكون هناك حل آخر للمشكلة الاجتماعية غير الحل الذى خلصت اليه .

ازدادت الضحكات . ولكن الشبان فقط هم الذين كانوا يضحكون، أعنى الأغرار الذى ليس لهم سابق دراية ان صح التعبير . أما السيدة

فرجنسكى وليبوتين والأستاذ الأعرج ، فقد كانت وجوههم تعبّر عن شيء من الأسف والغضب .

قال أحد الضباط يسأله محاذراً :

ـ اذا لم تستطع أنت نفسك أن تكمل مذهبك ، واذا كنت قد هويت من ذلك الى اليأس ، فماذا نستطيع أن نفعل نحن ؟

فأجابه شيجالوف يقول بلهجة قاطعة :

ـ انك على حق أيها الضابط ، ولا سيما باستعمالك كلمة اليأس هذه . نعم ، لقد حوصرت باليأس . ومع ذلك يستحيل على المرء أن يقول شيئاً آخر غير الذى قلته فى كتابى . ليس هناك أى مخرج غير هذا المخرج . لن يعثر أحد على غير هذا أبداً . لذلك أسارع فأدعو الحضور ، دون اضاعة للوقت ، الى سماع قراءة كتابى خلال عشر سهرات ، والى أن يقولوا لى بعد ذلك رأيهم . فاذا رفضتم أن تصغوا الىّ ، فلا يبقى علينا بعد ذلك الا أن نفترق ، فيعود الرجال الى مكاتبهم ، وتعود النساء الى مطابخها . لأنكم اذا نبذتم مذهبى فلن تجدوا حلاً آخر ، لن تجدوا أى حل آخر . ستضيعون وقتكم ، ثم تجدون أنفسكم مضطرين حتما أن تعودوا الى مذهبى .

أخذ الحضور يتحركون . وسألت بعض الأصوات : « أهو مجنون ؟ » .

قال ليامشين ملخصاً :

ـ الموضوع اذن هو على وجه الاجمال موضوع يأس شيجالوف : أيجب عليه أن ييأس أم لا ؟

فقال التلميذ :

ـ ان باس شيجالوف مسألة شخصية .

فانطلق ضابط يقول مرحاً :

ـ اقترح أن نجرى اقتراعاً لنعرف هل ليأس شيجالوف قيمة عامة ، وهل يستحق كتابه عناء الاستماع اليه !

فتدخل الأستاذ الأعرج فقال :

ـ ليس هذا هو الأمر ....

ان للأستاذ الأعرج فى العادة ابتسامةً خفيفة ساخرة ، فلا يعرف المرء أهو مازح فى كلامه أم هو جاد .

وتابع الأستاذ الأعرج يقول :

ـ لا يا سادة ، ليس هذا هو الأمر . ان السيد شيجالوف قد أسرف فى التفرغ لأداء مهمته ، ثم هو عدا ذلك مسرف فى التواضع . اننى أعرف كتابه . انه من أجل أن يحل المسألة الاجتماعية حلاً نهائيا ، يقترح تقسيم الانسانية قسمين غير متساويين . فعُشْرٌ ينال الحرية المطلقة وينال سلطةً بغير حدود على تسعة الأعشار الأخرى ، وتسعةُ أعشار يجب عليهم أن يفقدوا شخصيتهم وأن يصبحوا أشبه بقطيع ، فاذا ظلوا خاضعين خضوعا تاما بغير حدود أمكنهم أن يصلوا شيئاً فشيئاً بعد سلسلة من التحولات الى حالة البراءة البدائية ، الى شيء يشبه جنة عدن الأولى ، مع بقائهم مضطرين الى العمل . والاجراءات التى ينادى بها المؤلف ليجرِّد تسعة أعشار الانسانية من ارادتهم وليحوِّلهم الى قطيع بواسطة التربية ، انما هى اجراءات ممتازة الى أبعد الحدود . انها قائمة على حقائق العلوم الطبيعية ، وانها لمنطقية تماما . قد لا يسلِّم المرء ببعض النتائج التى ينتهى اليها ، ولكن من المستحيل على المرء أن ينكر ذكاء المؤلف وأن يجحد معارفه .

وانه لمن المؤسف حقا أن لا نستطيع ، بسبب الظروف ، أن نوافق له على السهرات العشر التى يطلبها ، والا لكنا سمعنا كثيرا من الأمور الشائقة الهامة حتماً .

قالت السيدة فرجنسكى تسأل الأستاذ الأعرج بشىء من القلق :

ـ هل يمكن أن تنظر نظرة جد الى هذا الرجل الذى لم يعرف ماذا يصنع بالانسانية فردّ تسعة أعشارها الى العبودية ؟ اننى قد اشتبهت فى الأمر منذ مدة طويلة .

فسألها الأعرج :

ـ أأخاك تعنين ؟

ـ مرةً أخرى ، روابط الدم ! أأنت تسخر منى ؟

قالت الطالبة مستاءةً :

ـ انه لجبن أن نعمل فى سبيل الارستقراطيين وأن نخضع لهم خضوعنا لآلهة !

قال شيجالوف يختم الكلام بلهجة السلطة :

ـ ان ما اقترحه ليس جبناً ، وانما هو الجنة ، الجنة الأرضية ، ولا جنة سواها .

هتف ليامشين يقول :

ـ أما أنا فاننى اذا لم أعرف ماذا أصنع بتسعة أعشار الانسانية ، عمدت الى نسفهم بدلاً من أن أنظم الجنة الأرضية ، ولم أبق على قيد الحياة الا عدداً من الناس المتعلمين الذين سوف يعيشون فى دعة وسلام وفقاً لمبادىء العلم .

قالت الفتاة محتجة :

ـ يجب أن يكون المرء مهرّجاً حتى يقول مثل هذا الكلام !

فهمست السيدة فرجنسكى تقول لها :

ـ هو مهرّج فعلاً ، ولكنه نافع .

وتدخل شيجالوف يقول ملتفتاً نحو ليامشين بقوة :

ـ قد يكون هذا هو الحل الأمثل للمشكلة . انك تجهل حتماً ، يا سيدى المازح ، أنك قد قلت الآن شيئاً عميقاً كل العمق . ولكن لما كانت فكرتك مستحيلة التحقيق تقريبا ، فلا بد من الاكتفاء بالجنة الأرضية مادام يجب أن نسميها بهذا الاسم .

فأفلت من لسان فرخوفنسكى قوله :

ـ ما هذه السخافات !

لقد قال فرحوفنسكى هذا الكلام بما يشبه الغفلة ، دون أن يرفع رأسه ، وكان ما يزال يقلّم أظافره بكثير من عدم الاكتراث .

فسرعان ما تدخل الأعرج ، وكأنه كان لا ينتظر الا اللحظة المواتية ليهاجم بطرس ستيفانوفتش ، تدخل فقال :

ـ لماذا سخافات ؟ صحيح أن حب شيجالوف للانسانية فيه شيء من التعصب . ولكن تذكر أن فوريه ، ولا سيما كابيه ، وحتى برودون، كانوا أنصاراً لبعض الحلول الاستبدادية الشديدة ، وكانوا يبدون من النظرة الأولى خياليين . بل لعل السيد شيجالوف أقرب منهم الى التعقل والتروى. أؤكد لكم أنه يكاد يستحيل على المرء بعد قراءة كتابه أن لا يسلّم ببعض أفكاره . انه ربما كان أقل ابتعاداً عن الواقعية من الآخرين ؛ وتكاد جنته الأرضية أن تكون هى الجنة الحقيقية ، الجنة التى يتوق اليها البشر بعد

أن فقدوها ، اذا صدق أن تلك الجنة قد وُجدت حقاً في يوم من الأيام •

جمجم فرخوفنسكي يقول مرةً أخرى :

ـ كنت أتنبأ فعلاً بأن أسمع كلاماً من هذا النوع •

قال الأعرج وقد ازداد غضبه استعاراً :

ـ اسمح لي ! ان الكلام على تنظيم المجتمع المقبل والنقاش حــوله يكادان أن يكونا الآن ضرورةً لجميع الناس الذين يفكرون • ان هرتسن لم يهتم طوال حياته الا بهذا • وأنا أعلم من مصدر ثقة أن بيلنسكي كان يقضي سهرات كاملة في المناقشة مع أصــدقائه حول المسألة الاجتماعية محدِّداً أدق التفاصيل من نظام المجتمع المقبل •

قال الميجر :

ـ بل هناك أشخاص أصبحوا من ذلك مجانين !

وتشجع ليبوتين فتجرأ أن ينتقل الى الهجوم فقال :

ـ حين يناقش المرء فانه قد يصل الى نتيجة ما ، وهذا خير دائما من أن يلتزم الصمت مصطنعا وضع دكتاتور •

فقال فرخوفنسكي بدون اكتراث :

ـ أنا حين قلت : « هذه سخافات » ، لم أقصد شيجالوف البتة •

ثم أضاف يقول وهو يرفع عينيه قليلاً :

ـ اسمعوا أيها السادة ؛ في رأيي أنا أن جميع هذه الكتب ، وفورييه، وكابيه ، و «حق العمل» ، وأفكار شيجالوف ، في رأيي أن هذا كله يشبه ألوف الروايات التي تصدر كل يوم : تسلية فنية ! وأنا أفهم أن تضجروا في هذه المدينة ، فتأخذون بتسويد ورق •

استأنف الأعرج كلامه فقال وهو يتحرك مضطربا على كرسيه :

ـ من فضلك ! ما نحن الا ريفيون فعلاً ، ونحن اذن نستحق الشفقة • ولكننا نعرف أنه لم يحدث بعد فى هذا العالم شىء خطير كل الخطورة ، فلا داعى اذن لأن نشكو الجهل وأن نرثى لحال أنفسنا • ان هناك منشورات من أصل أجنبى تدعونا أن نضم جهودنا لتحطيم كل شىء، اذ مهما نفعل فى سبيل شفاء المجتمع ، فلن نصل الى شفائه يوماً ، على حين أننا بقطع رقاب مائة مليون نبسّط الموقف ونجمل اجتياز الهوة أضمن • هذه فكرة ممتازة حقاً ، ولكنها لا تقل استحالةً على التحقيق عن فكرة شيجالوف التى تعاملها بهذا الاحتقار كله •

أفلت اسان بطرس ستيفانوفتش فقال وهو يقرّب الشمعة كأنه لا يشعر بالغلطة التى يرتكبها :

ـ هذا كله حسن جداً ، ولكننى لم أجىء الى هنا من أجل أن أناقش •••

ـ انه لمما يدعو الى الأسف ، الى الأسف الشديد ، أنك لم تجىء الى هنا من أجل أن تناقش • وانها لخسارة حقاً أن تكون الآن مستغرقاً هذا الاستغراق كله فى العناية بزينتك !

ـ ما شأنك وزينتى ؟

قال ليبوتين مجازفاً من جديد :

ـ ان تغيير العالم بقطع مائة مليون رقبة لا يقل صعوبة عن تغيير العالم بالدعاية • وقد تكون الطريقة الأولى أصعب ، ولا سيما فى روسيا •

وقال ضابط :

ـ ان جميع الآمال معقودة الآن على روسيا •

فأجاب الأعرج :

ـ نعم ، يظهر أنهم يعقدون على روسيا آمالاً كباراً . نحن نعلم أن اصبعاً سرية قد أشارت الى وطننا الحبيب وعدّته أقدر جميع بلدان العالم على تحقيق هذا العمل العظيم . ولكن اليكم ما أريد أن ألفت اليه الانتباه : اذا حُلَّت المشكلة الاجتماعية تدريجياً بالدعاية ، فانني أظل أربح شيئاً ما : أربح أولاً امكان التمتع بالثرثرة ، وأربح ثانياً المكافأة التي تعطيني اياها الحكومة المقبلة اعترافاً بالخدمات التي أكون قد قدمتها للقضية الاجتماعية . أما اذا حُلَّت المشكلة حلاً فورياً ، أي اذا قطعت مائة مليون رقبة ، فما الذي يمكن أن أربحه أنا ؟ ان المرء حين يدعو الى مثل هذه العقائد يعرّض لسانه لخطر القطع .

قال فرخوفنسكي :

ـ سيقطع لسانك أنت حتماً .

ـ أرأيت اذن ؟ ولما كنت لا تستطيع ، في أحسن الظروف ، أن تفرغ من هذه المذبحة في أقل من خمسين سنة ، أو في أقل من ثلاثين سنة ، لأنك لن تذبح خرافاً ، ولأن من الممكن أن لا تمكّنك الضحايا من ذبحها ، أفليس الأفضل اذن أن يطوي المرء أمتعته وأن يهاجر الى مكان بعيد في جزيرة هادئة فيقضي هنالك بقية أيامه هادئاً ؟ صدّقني اذا قلت لك ان دعايتك هذه لن تزيد على أن تشجع الناس على المهاجرة .

قال الأعرج هذه الجملة الأخيرة وهو ينقر على الطاولة باصبعه .

لقد انتصر . انه أحد الرءوس القوية في الاقليم . وكان ليبوتين يبتسم وقد بانت في وجهه معان مفهومة . وكان فرجنسكي يبدو مصعوقاً. وكان الآخرون يتابعـون المناقشة باهتمام شـديد ، ولا سيما السيدات

والضباط • أدرك الجميع أن صاحب فكرة المائة مليون من الروس قد أحرج وغُلب ، فهم ينتظرون النهاية •

قال فرخوفنسكي مدمدماً بلهجة فيها مزيد من عدم الاكتراث ، بل فيها كذلك شيء من الضجر :

ـ يجب أن أعترف بأنك قد قلت الآن فكرةً صحيحة • ان فكرة الهجرة فكرة ممتازة • ومع ذلك ، رغم المحاذير الواضحة التي ذكرتها ، فان الجنود الذين يعتنقون عقيدتنا وينضمون الى قضيتنا يزداد عددهم يوماً بعد يوم • وسوف نستغني عنك • ان الأمر أمر دين جديد يجب أن يحل محل الدين القديم • ان الأمر أمر قضية خطيرة ، لذلك يزداد عدد جنودنا • أما أنت فما عليك الا أن تهاجر • وأنا أنصحك بأن لا تهاجر الى جزيرة هادئة من الجزر ، بل الى مدينة درسدن • أولاً لأن هذه المدينة لم تعرف الأوبئة يوماً ، فأنت لا بد أن تخاف الموت حتماً من حيث أنك رجل مثقف • وثانيا لأن مدينة درسدن ليست بعيدة عن الحدود الروسية ، فيسهل ارسال ايراداتك اليها من وطنك الحبيب • وثالثاً لأن هذه المدينة ملأى بما يسمى كنوز الفن ، وأنت رجل فنان ، لأنك كنت أستاذاً للأدب فيما أظن • ورابعاً وأخيراً لأن هذه المدينة صورة مصغَّرة عن سويسرا : فهذا يفيدك في استنزال الوحي الشعري ، لأنك تنظم شعراً ولا شك • الخلاصة : كنز كبير في علبة صغيرة •

قامت حركات شتى • الضباط يضطربون على كراسيهم • لو انقضت دقيقة واحدة أخرى لأخذ الجميع يتكلمون في آن واحد معاً • ولكن الأعرج انقضَّ على الطُعْم • قال :

ـ لا ، قد لا نترك « القضية » المشتركة ! ••• سوف نرى •••

فما ان سمع فرخوفنسكي منه هذا الكلام حتى قال يسأله فجأة :

ـ ماذا ؟ أتقبل أن تدخل فى جماعتنا اذا أنا عرضت عليك ذلك ؟

ووضع المقص على المائدة •

ارتعش الجميع • ان الشخص اللغز قد حسر القناع عن وجهه فجأة• حتى لقد جرؤ أن يذكر كلمة « جماعة » •

أجاب الأعرج بشىء من الارتباك :

ـ ان كل من يعد نفسه رجلاً شريفاً لا يمكنه أن يتقاعس عن القيام بمهمته ، ولكن •••

قاطعه بطرس ستيفانوفتش قائلاً له بلهجة صارمة :

ـ اسمح لى • دعنا الآن من « لكن » • اننى أعلن لكم أيها السادة أننى أطالب بجواب واضح بيِّن • أنا أفهم تماما اننى اذ جئت الى هنا واذ جمعتكم ، قد أصبح لكم علىَّ حق تقديم ايضاحات (وهذا كشف آخر لم يكن متوقعاً) ، ولكن يستحيل علىَّ أن أمدكم بايضاحات وشروح ما جهلت حالتكم النفسية • اننى أترك جانبا الكلمات التى لا فائدة منها ولا طائل تحتها ـ ذلك أننا لا يمكن أن نتكلم ثلاثين سنة أخرى كما تمَّ حتى الآن طوال ثلاثين سنة ـ وأسألكم ماذا تفضِّلون : أتفضِّلون الطريقة البطيئة ، أى الروايات الاجتماعية وتنظيم مصائر الانسانية على الورق لألف سنة قادمة ، بينما الحكم الاستبدادى يبتلع اللقم السائغة التى تسقط فى أفواهكم وتدعونها تفلت منكم ، أم تفضِّلون حلاً سريعاً أياً كان هذا الحل ، حلاً يفك أيديكم من وثاقها ويتيح للانسانية أن تنظم نفسها بحرية كاملة ، لا على الورق بل فى الواقع ؟ يصيح بعضهم قائلا : « بل نريد قطع مائة مليون رقبة » • ان هذا الكلام قد لا يكون الا مجازاً • ولكن هبوا أنه ليس مجازاً بل حقيقة • لماذا تخافون منه اذا كان الحكم الاستبدادى سيقضى ، أثناء استغراقنا فى الأحلام البطيئة التى ندونها على الورق ،

سيقضى لا على مائة مليون فحسب ، بل على خمسمائة مليون ؟ لاحظوا أيضا أن المريض الذى ليس الى شفائه من سبيل ، لا يمكنكم أن تشفوه مهما تصفوا له من وصفات طبية • ثم انكم اذا تأخرتم تتيحون له أن تسرى عدواه الينا جميعا ، وأن يجهز على القوى الفتية التى ما يزال فى وسعنا أن نعتمد عليها ، فيكون فى هذا هلاكنا جميعا • اننى أسلّم معكم بأن الاسترسال فى أقوال لبرالية بليغة أمر ممتع جدا ، على حين أن العمل فيه بعض المخاطر ••• ثم اننى لست خطيبا • فأنا انما جئت الى هنا لأنقل اليكم بلاغاً ؛ لذلك اطلب الى حفلكم الكريم أن يقول بكل بساطة دون تصويت ما الذى يسرّه أكثر من سواه : أأن يتخبط فى المستنقع بسرعة السلحفاة ، أم أن نطوى الطريق طياً بسرعة السهم ؟

هتف التلميذ يقول متحمساً :

ــ رأيى أن نطوى الطريق طياً بسرعة السهم •

وقال ليامشين :

ــ وأنا أيضا •

وجمجم أحد الضباط :

ــ الاختيار واضح لا لبس فيه •

وكذلك قال ثانٍ فثالث •

والشىء الذى فجأ الحضور خاصةً هو أن لدى فرخوفنسكى بلاغاً يجب أن ينقله ، وأنه وعد بالكلام •

قال فرخوفنسكى وهو يجيل على الحفل بصره :

ــ أيها السادة ، أرى أنكم جميعكم تقريبا من أنصار الحل الذى تنادى به المنشورات وتدعو اليه •

فصاحت أغلبية الأصوات تقول :

ـ نعم ، جميعنا ، جميعنا •

وتدخل الميجر فقال :

ـ أعترف لكم بأننى أميل الى حل ٍ أكثر انسانية ، ولكننى أنحاز الى رأى المجموع •

وقال فرخوفنسكى يسأل الأعرج :

ـ يبدو أنك لا تعارض أنت أيضا ، هه ؟

فأجاب الأعرج وقد احمر وجهه :

ـ ليس معنى هذا أننى ••• ولكن اذا انضممت الى رأى المجموع فما ذلك الا لأننى لا أريد أن أحدث اضطرابا •••

ـ هكذا أنتم جميعا ! انكم مستعدون لأن تناقشوا وتجادلوا مدة ستة أشهر ، ولكنكم تصوّتون فى النهاية كسائر الناس • أيها السادة ، أأنتم جميعا مستعدون حقا ؟ فكروا فى الأمر !

(مستعدون لأى شيء ؟ ـ سؤال غامض ولكنه جـذاب الى أقصى الحدود) •

تعالت أصوات كثيرة تقول :

ـ طبعاً ، جميعاً !

وكان الحضور من جهة أخرى ينظر بعضهم الى بعض •

قال فرخوفنسكى :

ـ قد تستاءون فى المستقبل من أنكم تعجلتم فى الموافقة ؟ هذا يحدث لكم فى جميع الأحيان تقريبا •

اضطرب الحفل ، بل اضطرب اضطرابا شديدا •

صاح الأعرج يقول بلهجة غاضبة :

ـ اسمح لى مع ذلك أن ألفت انتباهك الى أن الأجوبة على أسئلة من هذا النوع لا يمكن أن تكون الا شرطية • لقد سمعت جوابنا ، ولكنك قد ألقيت سؤالك بطريقة تبلغ من الغرابة •••

ـ ما غرابتها ؟

ـ ما هكذا تُلقى أسئلة كهذه الأسئلة •

ـ علمنى اذن كيف يجب القاؤها • على كل حال ، كنتُ واثقاً أنك ستكون أول نادم •••

ـ لقد انتزعت منا موافقتنا على عمل فورى ، ولكن ما هى الحقوق التى لك علينا ؟ أين سلطاتك الكاملة ؟

ـ كان ينبغى أن تفكر فى هذا قبل الآن ! لماذا أسرعت تجيب ؟ أتوافق من أجل أن تتراجع على الفور !

ـ فى رأيى أن الصراحة الطائشة فى سؤالك تدل دلالة واضحة على أنك لا تملك لا سلطات كاملة ولا حقوقاً ، وتدل على أنك لم تشأ بطرح سؤالك الا ارضاء حب الاطلاع عندك •

هتف فرخوفنسكى يقول وكأنه قد تنبه الى الخطر :

ـ ولكن ما هى المسألة ؟ ما هى المسألة ؟

قال الأعرج :

ـ أقول ان المرء حين يريد أن يضم أعضاء ، انما يفعل ذلك سراً ، ولا يفعله بحضور عشرين شخصاً لا يعرفهم •

كان الأعرج قد بلغ من الحنق حداً لا يستطيع معه أن يسيطر على نفسه ، وأن يكتم ما يدور فى خاطره • فالتفت فرخوفنسكى نحو الحفل وهو يتظاهر بقلق شديد :

ـ أيها السادة ، أرى من واجبى أن أعلن لكم ان هذا كله ليس الا سخافات ، وأن حديثنا قد مضى بنا الى أبعد مما نريد • أنا لم أضمَّ بعدُ أعضاء ، وليس لأحد حق فى أن يقول اننى أهتم بهذا • نحن لا نزيد على أن نعلن آراءنا • أليس كذلك ؟

ثم أضاف يقول وهو يلتفت نحو الأعرج :

ـ لقد نبهتنى الى الخطر على كل حال • أنا لم أكن أتخيـــل أن الكلام هنا فى أمور بريئة كل البراءة محظـــور الا على انفراد • أتراك تخشى وشاية ؟ هل يمكن أن يكون بيننا جاسوس ؟

هاج الحضور • وطفق الجميع يتكلمون فى آن واحد •

تابع فرخوفنسكى كلامه فقال :

ـ اذا كان الأمر كذلك أيها السادة ، فالشخص الوحيد المعرَّض للخطر بينكم هو أنا • لذلك أطالبكم بأن تجيبوا عن سؤال سألقيه عليكم ، ان كان ذلك يناسبكم طبعاً ، فانكم أحرار على كل حال :

ـ ما هو السؤال ؟ ما هو السؤال ؟

ـ هو سؤال سيبيِّن بوضوح هل علينا أن نكمل حديثنا • أم أن على كل واحد منا أن يتناول قبعته صامتاً ثم يمضى لشأنه •

ـ السؤال ! السؤال !

ـ اذا علم أحدنا أن اغتيالاً سياسياً يُهيَّأ ، فهل هو يشى بالمؤامرة متنبئاً بجميع النتائج ، أم هو يبقى فى بيته منتظراً الأحداث ؟ ان الآراء قد

تختلف . فالاجابة عن هذا السؤال ستبين لنا بوضوح هل يجب علينا أن نفترق أم يجب علينا أن نبقى معاً ، لا في هذه السهرة وحدها بل بعدها أيضاً .

ثم قال فرخوفنسكى للأعرج :

ـ اسمح لى أن أخاطبك أنت أولاً من أخاطب .

ـ لماذا أنا بالذات ؟

ـ لأنك أنت الذى بدأت . أرجوك ، لا تتملص . لن يفيد المكر فى شىء . على كل حال ، افعل ما تشاء ، فأنت حر .

ـ معذرة ، ان سؤالا كهذا السؤال اهانة .

ـ أوضح مزيدا من الايضاح ، أرجوك .

قال الأعرج :

ـ أنا لم أكن شرطياً سرياً فى يوم من الأيام .

ـ أوضح مزيداً من الايضاح ، من فضلك . لا نضيّعن وقتنا .

انشل الأعرج من فـرط الغضب فلبث صامتا ، واكتفى بأن أخذ يرشق عدوّه من تحت نظارتيه بنظرات مثقلة كرهاً وبغضا .

ـ أنعم أم لا ؟ أتشى أم لا تشى ؟

كذلك صرخ فرخوفنسكى يسأله .

فصرخ الأعرج يقول بصوت أعلى أيضا :

ـ لا أشى طبعاً .

وتعالت أصوات عدة تقول :

ـ ولا أحد يشى طبعاً •

وتابع فرخوفنسكى استجوابه ، فقال يسأل الميجر :

ـ اسمح لى أن أسألك أنت يا حضرة الميجر : أتشى أم لا تشى ؟ لاحظ أننى أتجه بالسؤال اليك بالذات •

ـ لا ، لا أشى •

ـ واذا علمت أن رجلاً يستعد لأن يقتل أو يسرق رجلاً آخر ، رجلاً عادياً ، فأنت تنبّه الى الجريمة ، أليس كذلك ؟

ـ طبعاً ، لأن الأمر هنا أمر شخصى وليس وشاية سياسية • أنا لم أكن من الشرطة السرية فى يوم من الأيام •

وتعالت أصوات من جميع الجهات تهتف :

ـ ولا أحد كان من الشرطة السرية فى يوم من الأيام • لا داعى الى القاء مثل هذه الأسئلة • سيكون جواب الجميع واحدا • ليس ههنا جواسيس •

صاح الطالب يسأل :

ـ ولكن لماذا ينهض ذلك السيد ؟

ـ هذا شاتوف • لماذا تنهض يا شاتوف ؟

كذلك سألت السيدة فرجنسكى •

كان شاتوف قد نهض فعلاً على حين فجأة • انه يحمل قبعته بيده ، ويحدّق الى فرجوفنسكى • كان يبدو عليه أنه يريد أن يقول له شيئاً ما ، ولكنه يتردد وقد اصفرّ لونه من شدة الغضب • ومع ذلك سيطر على نفسه وكظم غيظه واتجه نحو الباب صامتاً •

صرخ فرخوفنسكى يقول له بلهجة ملغزة :

ـ ما تفعله يلحق بك ضرراً ياشاتوف •

فأجابه شاتوف قائلاً :

ـ كما يلحق نفعاً بالجاسوس الوغد الذى هو أنت •

وخرج •

فتعالت الصرخات وصيحات التعجب فى كل جهة :

ـ تمت التجربة •

ـ وكانت نافعة •

ـ بعد فوات الأوان !

ـ من دعاه ؟ كيف دخل الى هنا ؟ من هو ؟ من شاتوف ؟ أتراه يشى أم لا ؟

قال أحدهم :

ـ لو كان خائناً لأظهر غير ما يبطن ، ولكنه لم يعبأ بنا وخرج •

صاحت الطالبة :

ـ وهذا ستافروجين ينهض • انه هو أيضا لم يجب عن السؤال !

كان ستافروجين قد نهض فعلاً ، وكان كيريلوف قد اقتدى به على الطرف الآخر من المائدة •

قالت ربة الدار تخاطب ستافروجين بجفوة :

ـ اسمح لى يا سيد ستافروجين ! نحن جميعا قد أجبنا عن السؤال ، وأنت تنصرف دون أن تقول كلمة !

جمجم ستافروجين يقول :

ـ لا أرى ضرورة للاجابة عن السؤال الذى يهمكم •

ـ ولكننا عرّضنا أنفسنا للخطر ، وأنت لم تعرّض نفسك لشيء •

بهذا صاحت عدة أصوات •

أجاب ستافروجين ضاحكا ، ولكن عينيه كانتا تسطعان :

ـ فيم يعنينى أن تعرضوا أنفسكم للخطر ؟

فهتفت أصوات كثيرة تقول متعجبة :

ـ كيف هذا ؟

ونهض عدد من الحضور فجأة •

صرخ الأعرج يقول :

ـ اسمحوا لى أيها السادة ، اسمحوا لى • ان فرخوفنسكى أيضا لم يجب عن السؤال ، وانما اكتفى بالقائه •

فأحدثت هذه الملاحظة أثراً خارقاً • نظر الجميع بعضهم الى بعض • وانفجر ستافروجين ضاحكاً عند أنف الأعرج وخرج يتبعه كيريلوف • وهرع فرخوفنسكى وراءهما الى حجرة المدخل •

ـ ماذا تفعل ؟

كذلك تمتم يقول وهـــو يمسك يد ستافروجين ويشـــد عليها بكل ما أوتى من قوة • وتابع كلامه :

ـ اذهب الى عند كيريلوف • وسألحق بكما • يجب أن أكلمك • لا بد أن أكلمك • لا غنى عن هذا •

أجابه ستافروجين بخشونة :

ـ لا لي أنا •

ـ بل لا غنى عنه لك أنت يا ستافروجين • سأشرح لك هذا في البيت

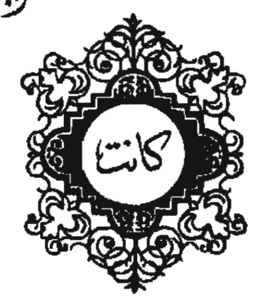
كذلك قال كيريلوف متدخلاً في الأمر • وقال يطمئن فرخوفنسكي:

ـ سيصحبني الى بيتي •

وخرجا •

الفصل الثامن

ابن القيصر ايفان



أول حركة قام بها بطرس ستيفانوفتش هي أنه عاد بأقصى سرعة الى المدعوين ليهدىء النفوس ، ولكن أغلب الظن أنه رأى أن ذلك لا يستحق العناء ، لأنه ترك « الجلسة » بعد دقيقتين ، وطار يلحق بستافروجين وكيريلوف • وفيما كان يركض تذكر شارعاً صغيراً يمكن أن يوصله الى عمارة فيليبوف بسرعة أكبر • فسلك ذلك الشارع غاطساً في الوحل حتى الركبتين ، فاذا هو يصل الى المنزل فعلاً في اللحظة التي كان فيها صاحباه يجتازان البوابة •

قال كيريلوف :

ـ كيف ؟ أوصلت ؟ حسن جداً • ادخل •

وقال ستافروجين سائلاً كيريلوف حين لمح في حجرة المدخل سماوراً يغلي فيه الماء :

ـ ألم تقل لنا انك تعيش وحيدا ؟

فأجاب كيريلوف بقول مدمدماً :

ـ سترى مع من أعيش •

وما ان دخلوا حتى أخرج فرخوفنسكي من جيبه الرسالة الغفل التي

عهد بها اليه فون لمبكه ، ووضعها على المائدة أمام ستافروجين • وجلس الثلاثة • فقرأ ستافروجين الرسالة صامتاً • ثم سأله :

ـ هيه ، وبعد ؟

فقال فرخوفنسكى :

ـ ان هذا الشقى سيفعل ما يكتبه • وما دام مرتبطا بك فقل ما الذى يجب عليّ أن أفعله • أؤكد لك أنه قد يذهب منذ الغد الى فون لمبكه •

ـ فليذهب !

ـ كيف هذا ؟ يمكننا أن نمنعه •

ـ أنت مخطىء : انه ليس مرتبطاً بى • على كل حال ، لا يهمنى الأمر • انه لا يستطيع شيئاً ضدى • وانما هو يهددك أنت •

ـ وأنت أيضاً •

ـ لا أظن ذلك •

ـ ولكن الآخرين قد لا يوفرونك • كيف لا تفهم هذا ؟ اسمع يا ستافروجين • انك تتلاعب بالألفاظ • أيكون هذا من حرصك على المال ؟

ـ هل الأمر أمر مال ؟

ـ طبعاً • يجب دفع ألفين ، أو ألف وخمسمائة على الأقل • أعطنى هذا المبلغ غداً أو حتى اليوم ، فأرحّله فى مساء غدٍ الى بطرسبرج • ذلك ما يريده فى حقيقة الأمر • لاحظ أن من الممكن حتى ترحيل ماريا تيموفئفنا معه اذا شئت •

لكأنه كان طائش اللب ، فهو يتكلم مضطرباً دون تفكير ، وهو يرسل

أقوالا خطرة دون أن يتبصر بالعــواقب • وكان ستافروجين يلاحظه مدهوشا •

قال ستافروجين :

ـ ليس هناك أي سبب يدعونى الى ترحيل ماريا تيموفئفنا •

ـ وربما كنت لا تريد لها أن ترحل •

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وضحك ضحكة ساخرة •

ـ ربما •

صرخ بطرس ستيفانوفتش يقول وقد نفد صبره واستعر حنقه :

ـ الخلاصة : أتعطى المال أم لا ؟

فأجابه ستافروجين وهو يتأمله مظلم الوجه :

ـ لا ، لن أعطيه !

ـ ايه يا ستافروجين ! اما أنك تعلم شيئاً ما ، واما أنك فعلت شيئاً ما ! انك ••• تمزح !

قال فرخوفنسكى ذلك وتقبض وجهه ، وارتعش طرفا شفتيه ، ثم اذا هو ينفجر ضاحكاً ضحكةً غريبة على حين فجأة •

قال نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين بهدوء :

ـ لقد قبضتَ من أبيك المال المتأتى عن بيع أرضك • دفعت لك أمى عن ستيفان تروفيموفتش مبلغ ستة آلاف أو ثمانية آلاف روبل • ففى وسعك اذن أن تدفع ألفاً وخمسمائة روبل من هذا المبلغ • كفانى مادفعته حتى الآن من مالٍ فى سبيل الآخرين • ما أكثر ما أعطيت ذات اليمين وذات الشمال ! هذا مزعج أخيراً •••

قال ستافروجين ذلك ثم ابتسم من أقواله نفسها •

ـ ! ••• انك تمزح الآن ! •••

نهض ستافروجين • فسرعان ما وثب فرخوفنسكى عن كرسيه ، وأسند ظهره الى الباب بحركة آلية كأنه يريد أن يمنع ستافروجين من الخروج • وفيما كان نيقولاى فسيفولودوفتش يرفع ذراعه لينحيه ويخرج، اذا هو يعدل على حين فجأة ، ويقول :

ـ لن أدع لك شاتوف •

فارتعش بطرس ستيفانوفتش • وحدّق كل من الرجلين الى عينى صاحبه •

وعاد ستافروجين يتكلم فقال :

ـ ذكرتُ لك منذ قليل لماذا أنت فى حاجة الى دم شاتوف • انك تريد أن تستخدم دم شاتوف فى ترسيخ الرابطة التى تشد جماعتك بعضها الى بعض • لقد حملته على الانصراف ، بحذق وبراعة • كنت تعلم أنه سوف يرفض أن يقول : « لن أشى » ، وأنه يجد أن الكذب عليك جبن منه وعار • ولكن أنا ، ما حاجتك الىّ أنا الآن ؟ انك تلاحقنى منذ لقائنا فى الخارج • والشروح التى قدمتها لى فى هذا الشأن حتى الآن ليست الا هذيان محموم • ومع ذلك تحضنى على أن أعطى ليبادكين ألفاً وخمسمائة روبل من أجل أن يدفع فدكا الى قتله • اننى أعرف : أنت تظن أننى أريد أن أدفع الى قتل زوجتى فى هذه المناسبة نفسها • وتتخيل أنك بهذه الجريمة تمسك بى وتسيطر على ، أليس هذا صحيحاً ؟ ولكن فيم تفيدك هذه السلطة ؟ فيم يمكننى أن أنفعك ؟ أعود فأقول لك مرة أخرى : أنعم النظر الىّ ، واعرف أننى است الرجل الذى تنشده ، ودعنى وشأنى !

سأله فرخوفنسكى لاهثاً :

ـ هل جاء اليك فدكا ؟

ـ نعم ، جاء . والسعر الذى يطلبه هو أيضا ألف وخمسمائة روبل. على كل حال ، سوف يؤكد لك هذا بنفسه . ها هو ذا !

قال ستافروجين مادا ذراعه .

فالتفت بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى فجأة : ان شخصا جديدا يخرج من الظل ويقف على العتبة : انه فدكا وقد ارتدى معطفاً قصيراً ، لكنه حاسر الرأس كأنه فى بيته . كان يبتسم ، كاشفاً عن أسنانه البيضاء المنضودة . ان عينيه السوداوين اللتين تلتمعان التماعاً ضارباً الى صفرة تتفحصان وجوه الشبان الثلاثة بحذر . لم يكن يدرك ما يجرى ، ولم يعزم أمره على الدخول . واضح أن كيريلوف هو الذى جاء به . وعلى كيريلوف انما تلبثت نظرته السائلة أخيراً .

قال ستافروجين :

ـ لا شك أن استقدمته الى هنا ليشهد الصفقة ، وربما لير ى أن المال قد أصبح بين يديك منذ الآن ، أليس كذلك ؟

ودون أن ينتظر جوابا ، أسرع ستافروجين يخرج متعجلاً . فخرج فرخوفنسكى عن طوره ، وهرع يدركه تحت البوابة .

صاح فرخوفنسكى يقول وهو يمسك ستافروجين من كوعه :

ـ قف ! لا تخط خطوة واحدة أخرى .

حاول ستافروجين أن يتخلص بحركة مفاجئة ، ولكنه لم يستطع ذلك . فثار غضبه فأمسك بيده اليسرى شعر فرخوفنسكى ، وقلبه على الأرض بكل ما أوتى من قوة ، واجتاز الباب . ولكنه ما ان قطع ثلاثين خطوة حتى كان فرخوفنسكى قد أدركه مرة أخرى .

ودمدم فرخوفنسكى يقول بصوت متقطع :

ـ لنتصالح ! لنتصالح !

فرفع نيقولاى فسيفولودوفتش منكبيه ، وظل سائراً فى طريقه دون أن يلتفت •

ـ اسمع ، سأجيئك بليزافتا نيقولايفنا منذ الغد ، هل تريد ؟ لا ؟ لماذا لا تجيب ؟ قل ما تشاء فأنفّذ • اسمع ، سأترك لك شاتوف ، هل تريد ؟

ـ هو اذن صحيح أنك كنت قد قررت قتله ؟

كذلك صرخ ستافروجين •

فعاد فرخوفنسكى يتكلم فقال متعجلاً :

ـ ولكن ما حاجتك الى شاتوف ؟

كان صوته يختنق فى حلقه • وكان فى جريه الى جانب ستافروجين لا ينفك يشده فى كل لحظة من كمه ، ربما دون أن يشعر بذلك •

ـ اسمع ، سأتركه لك ، فلنتصالح • حسابك مثقـل ••• ولكن فلنتصالح !

وأخيراً نظر اليه ستافروجين فدُهش : ليس هـذا الصوت صوتـه نفسه ،وليست هذه النظرة نظرته نفسـها التى كانت له منذ قليل عنـد كيريلوف • ان أمام نيقولاى فسيفولودوفتش سـتافروجين الآن شخصاً آخر • اللهجة مختلفة : ان فرخوفنسكى يتوسل الآن ويضرع ويبتهل ، زائغ الهيئة تماماً ، كرجل يُسلب أعزّ ما يملك أو سُلب أعزّ ما يملك •

هتف ستافروجين يسأله :

ـ مابك ؟

ولكن فرخوفنسكى لم يجب ، فهو ما يزال يركض بقربه و يحدّق اليه بنظرة ضارعة متوسلة لا تنثنى •

دمدم يقول مرة أخرى :

ـ فلنتصافح • اسمع ! أنا أيضاً عندى تحت الجـزمة سكين ، مثـل فدكا تماماً • ولكننى أريد أن نتصالح •

فصاح ستافروجين يقول غاضبا ، ولكن على دهشة :

ـ ماذا تريد منى أخيراً ؟ اذهب الى الشيطان ! ما هذا السر ؟ أأنا لك تميمة ؟

همس فرخوفنسكى يقول :

ـ اسمع ! سوف نثير روسيا ، سوف نحدث ثورة فى روسيا ••••

كان كمن يهذى • وتابع كلامه :

ـألا تعتقد أننا نستطيع أن نفعل هذا ؟ سوف نحدث من الاضطرابات والزلازل ما يجعل كل شىء ينهار • ان كارمازينوف على حق : أصبح المرء لا يستطيع أن يتشبث بأى شىء • كارمازينوف ذكى جداً • عشر حلقات أخرى كهذه الحلقة فى روسيا ، ثم يصبح القبض علىّ مستحيلاً •

فقال ستافروجين رغم ارادته :

ـ حلقات مؤلفة من أغبياء كهؤلاء ؟

ـ أوه ! كن أكثر غباءً يا ستافروجين ! كن أنت نفسك أكثر غباءً ! على كل حال ، لا داعى لأن يتمنى لك المرء ذلك : فما أنت بالذكى جداً• ولكنك خائف ، لا تملك الايمان • أبعاد الأمر ترعبك • ضخامة المهمـة تبث فى نفسك الهلع • ولماذا تعدهم أغبياء ؟ ليسوا بالأغبياء الى هذا الحد : ما من أحد يملك اليوم تفكيراً خاصاً به • العقول الأصيلة المستقلة نادرة

جداً فى هذا الزمان . فرجنسكى انسان نقى جداً ، أنقى عشر مرات من أناس مثلك ومثلى . ما قيمة هذا على كل حال ؟ أما ليبوتين فهو وغد . لكننى أعرف نقطة الضعف فيه . ما من وغد الا فيه نقطة ضعف . صحيح أن ليامشين ليس له نقطة ضعف . ولكننى ممسك به . بضع حلقات أخرى كهذه الحلقة ، ثم يصبح تحت تصرفى فى كل مكان جوازات سفر، ومال . هذا وحده شىء كثير . ليس هذا بالقليل . ويصبح لى مخابىء مضمونة آوى اليها . فاذا وضعوا أيديهم على احدى الحلقات ، فاتتهم الحلقات الأخرى . ستحدث اضطرابات ، وثورات ... هل يمكن أن لا تصدِّق أننا نستطيع نحن الاثنين كلَّ شىء ؟

ـ خذ شيجالوف ، ودعنى وشأنى ! ...

ـ شيجالوف رجل عبقرى . هل تعرف أنه عبقرى من مستوى فورييه ، ولكنه أجرأ من فورييه ، وأقوى من فورييه ؟ سوف أهتم به . لقد اخترع « المساواة » .

قال ستافروجين لنفسه وهو يتفرس فى فرخوفنسكى من جديد : « انه محموم . انه يهذى » . واستمرا يسيران جنباً الى جنب .

وعاد فرخوفنسكى يتكلم فقال :

ـ مشروعه عظيم . انه يخلق التجسس . جميع أعضاء المجتمع فى مشروعه يتجسس بعضهم على بعض ، وعليهم أن ينقلوا كل مايصل الى علمهم . كل واحد ينتمى الى الجميع ، والجميع ينتمون الى كل واحد . كل البشر عبيد ومتساوون فى العبودية . وفى الحالات القصوى يُلجأ الى الافتراء والى القتل . وليس الشىء الرئيسى هو أنهم جميعا متساوون . قبل كل شىء ، يجب خفض مستوى التعليم والعلوم والمواهب . ان المستوى العالى لا يصل اليه الا أصحاب المواهب . اذن فلا مواهب . ان أصحاب

المواهب يستولون دائماً على السلطة ويصبحون طغاةً مستبدين . ليس في وسعهم أن يفعلوا غير ذلك . ولقد أساءوا دائماً أكثر مما أحسنوا . فيجب الغاؤهم أو انزال عقوبة الموت فيهم . شيشرون سيُقطع لسانه . كوبرنيك ستُفقأُ عيناه . شكسبير سيُرجم بالحجارة . هذا هو مذهب شيجالوف . هذه هي الشيجالوفية ! يجب على العبيد أن يكونوا متساوين . بدون استبداد لم توجد في يوم من الأيام لا حرية ولا مساواة . ويجب أن تعمّ المساواة القطيع . هذه هي الشيجالوفية . هأهأهأ ! ... أيدهشك هذا ؟ أنا من أنصار شيجالوف .

كان ستافروجين يُغذّ الخطى ليصل الى بيته بأقصى سرعة . قال يحدث نفسه : « اذا كان هذا الرجل سكران ، فأين أمكنه أن يسكر ؟ أيكون الكونياك الذى شربه منذ قليل هو الذى أسكره ؟ » .

ـ اسمع يا ستافروجين ! ان توطئة الجبال فكرة ممتازة . ليست هذه الفكرة سخيفة مضحكة . أنا من رأى شيجالوف . لا حاجة الى التعليم . كفى علماً ! حتى بدون العلم تكفينا الموارد التى نملكها الآن ألف سنة أخرى . ولكن علينا أن نقيم الطاعة . الشىء الوحيد الذى يفتقر اليه العالم انما هو الطاعة . ان الظمأ الى التعليم قد أصبح منذ الآن ظمأ ارستقراطياً . وما ان تُمكّن الأسرة أو الحب من القيام حتى تنشأ الرغبة فى التملك على الفور . سوف نقتل هذه الرغبة : سوف ننمى الادمان على السكر ، سوف نغذى الافتراء والتخرص ، والسعاية والنميمة . سوف نغرق البشر فى فجور لا عهد بمثله من قبل ، سوف نقتل كل عبقرية قبل أن تولد . سوف يكون جميع الناس متساوين : مساواة مطلقة . « نحن نعرف مهنتنا ونحن أناس شرفاء ، ذلك كل ما نحتاج اليه » . هذه هى الاجابة التى أجاب بها العمال الانجليز فى الآونة الأخيرة . الضرورى وحده ضرورى . ذلك هو الشعار الذى يجب أن ترفعه الانسانية بعد

الآن • ولكن سوف يجب علينا أن نمنحها من حين الى حين بعض الانتفاضات نوفرها لهم نحن القادة • ان العبيد يجب أن يكون لهم سادة• طاعة كاملة ، امحاء للشخصية مطلق • ولكن شيجالوف يسمح بالانتفاضات، مرة كل ثلاثين سنة • وعندئذ يهجم الجميع على الجميع ويلتهم بعضهم بعضاً ، ولكن الى حد ، للتغلب على الضجر فحسب • الضجر شعور أرستقراطى • ان مجتمع شيجالوف لن يعرف الرغبات • لنا نحن الرغبة والألم • أما العبيد فلهم الشيجالوفية •

ـ أتستثنى نفسك ؟

ـ وأستثنيك أيضا • هل تعلم أننى فكرت فى أن أترك العالم للبابا• فليخرج حافى القدمين ، وليظهر للشعب قائلا : « انظروا كيف صيّرونى» فاذا الجميع يتبعونه ، حتى الجيش • البابا فى القمة ، ونحن حوله ، وتحتنا الجماهير الخاضعة لنظام شيجالوف • وانما ينبغى فقط أن يقوم اتفاق بين الأممية والبابا • وسيحدث هذا • سيوافق العجوز فوراً • ماذا بقى له أن يفعل غير هذا ؟ تذكر كلماتى • هأهأهأ ! ••• أهذا غباء شديد ؟ ••• قل لى أهذا غباء ؟ أهو غباء أم لا ؟ •••

دمدم ستافروجين يقول غاضبا :

ـ كفى !

ـ كفى ! اسمع • لقد عدلت عن البابا • ليذهب شيجالوف الى الشيطان ! وليذهب البابا الى الشيطان ! نحن فى حاجة الى شىء راهن ، شىء يمكن أن يلهب النفوس • أما أفكار شيجالوف فهى مسرفة فى الرهافة والتعقيد • هى مثل أعلى ينتمى الى المستقبل • ان شيجالوف صائغ مجوهرات • وهو غبى ككل محب للبشر • لا بد لنا من الاندفاع فى أعمال

ضخمة ، وشيجالوف يحتقر هذا النوع من الأعمال . اسمع : فى الغرب سيكون البابا ، وعندنا ... ستكون أنت !

غمغم ستافروجين يقول وهو يسرع فى خطاه مزيداً من الاسراع :

ـ دعنى وشأنى . أنت سكران !

فصاح بطرس ستيفانوفتش يقول كأنه فى نشوة :

ـ ستافروجين . انك جميل ! وأثمن ما فيك هو أنك ينفق لك أحياناً أن تجهل ذلك . آه ... لقد درستك دراسة عميقة ! اننى كثيراً ما أنظر اليك خلسةً . بل ان فيك شيئاً من البراءة أيضاً ، شيئاً من السذاجة ، هل تعرف هذا ؟ نعم ، ان فيك هذا . لا بد انك تتألم من هذه السذاجة ، لا بد أنك تتألم منها صادقاً . اننى أحب الجمال . صحيح أننى عدمى ، ولكننى أحب الجمال . هل العدميون لا يحبون الجمال ؟ ان العدميين لا يحبون الأصنام المعبودة . أما أنا فأحب الأصنام المعبودة . أنت معبودى ! انك لا تسىء الى أحد ، ومع ذلك يكرهك جميع الناس . أنت تعامل الناس معاملة أندادٍ مساوين لك ، ومع ذلك فانهم يخافون منك . هذا حسن جدا . لا أحد سيجىء يربت على كتفك . انك ارستقراطى ؟ والارستقراطى الذى يجىء الى الديموقراطية يسحر العقول ويأسر النفوس الى أقصى حد . ليس يكلفك شيئاً أن تضحى حياتك أو حياة انسان آخر . أنت من نحن فى حاجة اليه . أنت من أنا فى حاجة اليه . ولا أعرف شخصاً آخر مثلك . أنت الزعيم ، أنت الشمس ، أما أنا فلست الا دودة من دود الأرض ...

قال فرخوفنسكى ذلك ثم تناول يد ستافروجين فجأة وقبّلها . ارتعش نيقولاى فسيفولودوفتش . وبحركة عنيفة سحب يده . ووقف الاثنان كلاهما .

دمدم ستافروجين يقول لصاحبه :

ـ أنت مجنون •

فأسرع بطرس ستيفانوفتش يستأنف كلامه فقال :

ـ ربما كنت أهذى • نعم ، ربما ••• لكننى أنا الذى اكتشفت بأى شىء يجب البدء • هذه فكرة ما كانت لتخطر ببال شيجالوف فى يوم من الأيام • أمثال شيجالوف كثيرون جداً ! لكن رجلاً واحداً فى روسيا عرف ما هى الخطوة الأولى التى يجب القيام بها ، وعرف كيف يجب القيام بها • هذا الرجل هو أنا • ما بالك تنظر الىّ هكذا ؟ أنا فى حاجة اليك • أنا لا غنى لى عنك • أنا بدونك صفر • لست بدونك الا ذبابة ، الا فكرة فى قمقم ، الا كولومب بغير أمريكا ! •••

كان ستافروجين ما يزال ساكناً جامداً يتأمله بانتباه محاولاً أن يقرأ فى عينيه المجنونتين •

وتابع فرخوفنسكى كلامه فقال بصوت لاهث متعجل ، وهو يشد ستافروجين من كمّ معطفه فى كل لحظة :

ـ اسمع ، سنبدأ بأن نثير اضطرابات • سبق أن قلت لك ذلك • سوف نتسلل الى أعمق أعماق الشعب • هل تعرف أننا أقوياء قوة رهيبة منذ الآن ؟ ان الذين يعملون من أجلنا ليسوا فقط أولئك الذين يقتلون ويشعلون الحرائق ويستعملون المسدس بالطريقة الكلاسيكية وأولئك المسعورين الذين يعضون • حتى ان هؤلاء قد يكونون أميل الى الاعاقة والعرقلة • اننى لا أقبل شيئاً بدون انضباط • أنا وغد ، ولست اشتراكياً • هأهأ ! اسمع ، اننى أضع الجميع فى الحساب : ان معلم المدرسة الذى يستهزىء مع تلاميذه بالههم ومهادهم واحد منا ؟ والمحامى الذى يدافع عن موكله القاتل المثقف مشيراً الى أنه أعلى ثقافة من الذين قتلهم ، والى

أنه اضطر أن يقتل للحصول على المال ، هو واحد منا ؟ وتلامذة المدرسة الذين يقتلون أحد الفلاحين نشداناً لاحساسات خارقة هم منا ؟ والمحلَّفون الذين يبرِّئون جميع المجرمين بغير استثناء هم منا ؟ ووكيل النيابة الذي يرتعش خوفاً متى خطر بباله أنه لم يظهر قدراً كافياً من اللبرالية هو منا . ثم أضف الى هؤلاء ، الموظفين والكتاب . ان كثيرين منهم ينتمون الينا دون أن يخطر ذلك ببالهم ! ثم ان طواعية التلاميذ والحمقى طواعية مطلقة . أما المعلمون فانهم ممتلئون غيظاً . كل شيء في كل مكان ليس الا غروراً وشهوة حيوانية لا عهد بمثلها من قبل .. هل تتصور مدى المساعدة التي يمكن أن تقدمها لنا الأفكار الجاهزة الرائجة ؟ حين سافرت أنا ، كانت فكرة لتريه هي الشائعة في الناس ، فكانوا يزعمون أيامذاك أن الجريمة أصبحت لا تعدُّ اختلالاً بل دليلاً على سلامة الحس ، بل واجباً أخلاقياً ، أو احتجاجاً كريماً في أقل تقدير . « كيف يمكن لانسان مثقف أن لا يقتل اذا هو احتاج الى مال ؟ » . ولكن هذا ليس الا بداية. اننا منذ الآن نرى الاله الروسي قد أذعن للخمرة الرخيصة الثمن . فالشعب يشرب ، والأمهات تشرب ، والأولاد يشربون ، والكنائس خالية مقفرة . وماذا نسمع في محاكم القرويين ؟ « سطل خمرة ، والا فمائتا جلدة ! » . دع لهذا الجيل أن يكبر فقط ! خسارةٌ أننا مستعجلون ، فلو كان في وسعنا أن ننتظر ، لما أصبحوا جميعهم الا أشد سكراً . خسارةٌ أيضا أنه لا توجد بروليتاريا . ولكنها ستوجد ... ستوجد !... نحن سائرون الى هذا .

جمجم ستافروجين يقول مستأنفا السير :

ـ خسارةٌ أيضاً أننا غدونا أغبياء حقاً .

ـ اسمع ! لقد رأيت طفلاً في السادسة من عمره يقود الى البيت امه التي كانت سكرى تماما وكانت تمطره بوابل من أقذع الشتائم ...

هل تصدّق أن هذا قد سرّني ؟ حين سنستولى على السلطة ، فقد نراهم يشفون من دائهم ••• وسوف نطردهم الى الصحراء أربعين عاما اذا وجب الأمر • أما الآن فنحن فى حاجة الى جيل أو جيلين اثنين من الفاسـقين الداعرين • نحن فى حاجة الى فساد لا نظير له ، الى تحلل دنىء ، يحيل الانسان حشرةً قذرة حقيرة قاسية أنانية • ذلك ما نحن فى حاجة اليه • وعدا هذا سنعطيهم قليـلاً من « الدم الجـديد » حتى يألفوا ويتعودوا • ما بالك تضحك ؟ اننى لا أناقض نفسى • اننى لا أناقض الا محبى البشر وشيجالوف • أنا وغد ولست اشتراكيا • هأهأهأ ! ••• خسارةٌ فقط أننا لا نملك الوقت الكافى • لقد وعدت كارمازينوف بأن نبدأ فى شهر أيار (مايو) ، وبأن يكون كل شىء قد تمّ فى أول أكتوبر (تشرين الأول) • لن يطول الأمر ، كما ترى • هأهأهأ ! ••• هل تعـرف ما سأقوله لك يا ستافروجين ؟ ان الشعب الروسى ، رغم شتائمه البذيئة وتجديفاته ، كانت روح الاستهتار غريبةً دائما عنه • هل تعلم أن الأقنان كان يحترم بعضهم بعضا أكثر مما يحترم رجل مثل كارمازينوف نفسه : كانوا يتلقون جلدات السياط ، ولكنهم استطاعوا أن يدافعوا عن آلهتهم ، أما كارمازينوف فقد ترك الهه •

قال ستافروجين :

ـ هذه أول مرة أصغى فيها الى كلامك يا فرخوفنسكى ، ويجب أن أقول لك اننى مذهول مشدوه • ما أنت بالاشتراكى حتماً ، وانما أنت رجل ••• طامح ، رجل سياسى •

ـ بل أنا وغد ، وغد ، كما قلت لك • هل تحب أن تعرف من أنا ؟ سأقول لك : الى هذا انما أريد أن أصل • اننى لم أقبّل يدك عبثاً بغـير هدف • ولكن يجب أن يؤمن الشعب بأننا نعرف ماذا نريد ، على حين أن الآخرين « يشهرون الهراوة ويضربون ذويهم » • آه ••• ليتنا نملك

وقتاً ! ان بلاءنا الوحيد هو افتقادنا الوقت الكافي • سوف تنادى بالتدمير ••• فلماذا ••• لماذا كانت هذه الفكرة فاتنة آسرة الى هذا الحد ؟ نعم ، يجب على المرء أن يرخى أعضاءه أحيانا ! ••• سوف تشعل حرائق ! ••• سوف ننشر أساطير • ومن أجل تحقيق هذا ستفيدنا أيسر حلقة صغيرة• سأجد لك بين هذه الحلقات هواة يطلقون النار فرحين ، بل يرون أنهم نالوا شرفاً عظيماً لأنهم كانوا الأوائل • وعندئذ انما تبدأ البلبلة والثورة • وسنشهد انقلابا لا عهد للعالم بمثله من قبل ••• سيهبط على روسيا ضباب كثيف ••• وستبكى الأرض آلهتها القديمة ••• ويومئذ نخرجه ••• نخرج من ؟

ـ من ؟

ـ ابن القيصر ، ايفان •

ـ كيف ؟

ـ ابن القيصر ، ايفان ! أنت ، أنت !

فكّر ستافروجين لحظة •

ثم سأل المجنون وهو ينظر اليه بدهشة عميقة :

ـ محتال ! هذه اذن خطتك ؟

وعاد فرخوفنسكى يتكلم فقال بصوت عذب ، بصوت يشبه أن يكون صوت عاشق ولهان (وكان فى الواقع يبدو سكران) :

ـ سوف نقول انه « مختبىء » • هل تعلم ماذا تعنى هذه الكلمة « مختبىء » ؟ ولكنه سيظهر ، سيظهر • سوف نخلق أسطورة أجمل من أسطورة سوبتزى • « انه موجود ، ولكن أحداً لم يره بعد » • ما أروع الأسطورة التى يمكن خلقها فى هذا الشأن ! ولكن الشىء الرئيسى هو أن

ذلك سيكون قوةً جديدة • وحاجتنا انما هي الى قوة جديدة • الى قوة جديدة انما نحن نتوق • ما الذى تجيء به الاشتراكية ؟ لقــد حطمت القوى القديمة ، ولكنها لم تخلق قوى جديدة • أما نحن فسنملك قوة ، ويالها من قوة ! على شرط أن نملك رافعة ، ولو لحظةً قصيرة ، رافعةً تتيح لنا أن نرفع الأرض • وسيثور الجميع حينذاك •

قال ستافروجين وهو يبتسم ابتسامة سخرية :

ـ هل يمكن أنك تعتمد عليّ جاداً ؟

فقال فرخوفنسكى :

ـ لماذا تبتسم ، ولماذا تبتسم ابتسامة فيها هــذه السخرية كلها ؟ لا تروّعنى ! أنا الآن أشبه بطفل • تكفى ابتسامة كابتسامتك لقتلى خوفاً• اسمع ! لن أُظهرك لأحد ، لن أظهرك لأحدٍ البتة • انه موجود ، ولكن أحداً لم يره • انه مختبىء • مع ذلك ربمــا كان من الممكن اظهارك ، لواحدٍ من مائة ألف مثلاً • وستضج الأرض كلها حينذاك : « لقــد رئى ، لقد رئى ! » • ألم يروا ايفان فيليبوفتش ، ألم يروا الاله يهوه مختطفاً من السماء فى عربة من نار • ألم يروا «بأعينهم» ؟ وأنت لست ايفان فيليبوفتش • أنت جميل ، وأنت ذو كبرياء كاله ، ولست تسعى الى شيء لنفسك ؟ سوف تحيط به هالة التضحية : « المختبىء » ! أسطورة • ذلك هو الشيء الرئيسى ! سوف تنتصر ، تكفيك نظرة لتنتصر • انه يجيء بحقيقة جديدة و « يختبىء » • وسننطق ، الى هذا ، بحكمين أو ثلاثة من أحكام سليمان • لا حاجة الى الجرائد • حلقاتنا ستتولى نشر الشائعة • ويكفى أن نلبى طلباً من عشرة آلاف طلب حتى يتجه الجميع الينا • فى كل قرية سيعرف كل فلاح أن فى مكان ما جذعاً يجب عليه أن يودعه التماسه • وستنتشر فى الأرض كلها شائعة تقول : « لقد صــدر قانون

جديد ، قانون عادل ! » • البحار ستهتاج ، والمنزل الخشبى القديم سيتهاوى • وعندئذ نفكر فى شيد بناء من حجر ، لأول مرة • و « نحن » الذين سنشيده ، نحن وحدنا •

قال ستافروجين مدمدماً :

ـ جنونٌ هذا كله •

ـ لماذا ؟ لماذا لا تريد ؟ أتخاف ؟ ولكن لئن كنت أتشبث بك ، فما ذلك الا لأنك لا تخاف من شيء • أيكون هذا ابتعادا عن العقل • ما أنا الآن الا كولومب بدون أمريكا • هل يمكن أن يكون كولومب بدون أمريكا عاقلاً ؟

لزم ستافروجين الصمت • وفى أثناء ذلك وصلا ، ووقفا أمام درجات البـاب •

همس فرخوفنسكى يقول فى أذن نيقولاى فسيفولودوفتش :

ـ اسمع • سأدبر كل شيء بغير مال • سأفرغ منذ الغد من ماريا تيموفئفنا •••• ولن يكلفك هذا شيئاً • وفى غدٍ سأجيئك بليزا • هل تريد ليزا غدا ؟

حدث ستافروجين نفسه فتساءل مبتسماً : « أتراه فقد عقله حقا ؟ » • وفتح الباب •

سأله فرخوفنسكى وهو يمسك ذراعه :

ـ ستافروجين ، هل أمريكا لنا ؟

فأجابه ستافروجين بجفاء :

ـ فيم يفيدنا هذا ؟

ـ لا تريد ؟ كنت أتوقع هذا ! •••

كذلك صرخ بطرس ستيفانوفتش وقد ثارت ثائرته على حين فجأة • وتابع كلامه فقال :

ـ أنت تكذب ، أيها السيد الشرير الفاجر الداعر • لست أصدقك• ان لك لشهوة ذئب ! ••• افهم أخيراً أن حسابك أشد ثقلاً من أن أتنازل عنك • أنت فريد فى العالم • لقد اخترعتك منذ لقائنـــا فى الخارج • اخترعتك وأنا ألاحظك • لولا أننى لاحظتك خلسة لما خطر ببالى شىء •

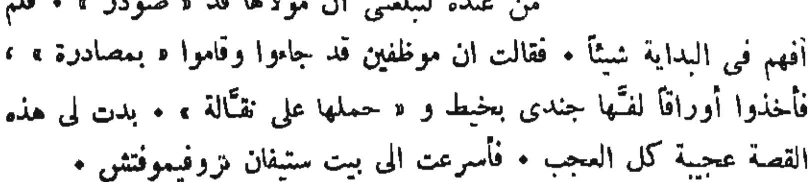
صعد ستافروجين السلم دون أن يجيب •

وصرخ فرخوفنسكى :

ـ ستافروجين ! اننى أمهلك يومين ••• بل أمهلك ثلاثة أيام • لكننى لا أستطيع أن أمهلك أكثر من ذلك • لا بد لى من جواب •

الفصل التاسع

«مصادرة» في بيت ستيفان تروفيموفتش



في تلك الأثناء حدث أمر أدهشني كثيراً وأدخل في نفس ستيفان تروفيموفتش أشدّ الاضطراب • ففي الساعة الثامنة من الصباح هرعت اليّ ناستاسيا من عنده لتبلغني أن مولاها قد « صودر » • فلم أفهم في البداية شيئاً • فقالت ان موظفين قد جاءوا وقاموا « بمصادرة » ، فأخذوا أوراقاً لفّها جندي بخيط و « حملها على نقّالة » • بدت لي هذه القصة عجيبة كل العجب • فأسرعت الى بيت ستيفان تروفيموفتش •

وجدته في حالة غريبة جدا : كان منفعلاً ، مضطرباً ، وكان وجهه في الوقت نفسه يعبر عن معنى الانتصار • وعلى مائدة ، الى جانب كأس من الشاي لم يُشرب منها شيء ، كان هناك سماور يغلي ماؤه • ان ستيفان تروفيموفتش يدور حول المائدة ، أو يمشي في الغرفة طولاً وعرضاً ، دون أن يدرك ماذا يفعل • وهو يلبس ، على عادته ، ثوب التريكو الأحمر ، ولكنه ما ان رآني حتى أسرع يرتدي صديريته وردنجوته ، وذلك أمر ما كان يفعله أبداً في الماضي حين يفاجئه صديق وهو بثوب التريكو •

ــ « أخيراً يصل صديق » ! (بالفرنسية) •

قال ذلك وتنفس من أعماق صدره • ثم تابع كلامه :

ــ « عزيزي » (بالفرنسية) ، أنت الشخص الوحيد الذي بعثت

أنبئه بما حدث ، ولا أحد يعرف شيئاً البتة • يجب أن نقول لناستاسيا أن تغلق الباب ، ولا تدع لأحد أن يدخل ، الا «هم» طبعاً ••• «هل فهمت؟» (بالفرنسية) •

كان ينظر الىّ قلقاً كأنه ينتظر جواباً • وأسرعت أسأله طبعاً عمّا حدث ، فاستطعت كيفما اتفق أن أستخرج من أقواله المفككة التى تقطعها وقفات واستطرادات لا داعى لها أن موظـــفاً من موظفى الاقليم قد جاءه «فجأة» فى الساعة السابعة من الصباح •

ـ « معـذرة ، لقد نسيت اســمه • ما هو من أبنـاء هذه البـلاد » (بالفرنسية) ولكننى أعتقد أن لمبكه هو الذى جاء به • « شخص غبى ألمانى الهيئة اسمه روزنتال » •

ـ أتراه هو بلومر ؟

ـ بلومر • نعم ، هذا هو الاسم الذى ذكره • « هل تعرفه ؟ شخص أهبل يدل وجهه على رضاه عن نفسه ، وهو مع ذلك قاس صلب جاد » (بالفرنسية) • هيئته هيئة رجل من رجال البوليس ، من رجال البوليس السرى • « اننى أعرفهم » (بالفرنسية) • كنت ما أزال نائماً • وطلب منى أن يلقى نظرة على كتبى ومخطوطاتى ، هل تتخيل هـــذا ؟ « نعم ، أتذكر ، لقد استعمل هذه الكلمة » (بالفرنسية) • لم يعتقلنى ، ولكنــه أخذ الكتب ••• « كان يقف بعيداً » (بالفرنسية) ، ولما بدأ يشرح لى الغرض من زيارته ، كان وجهه يدل على أنه يتصور أننى ••• « الخلاصة كان وجهه وجه من يظن أننى سأهوى عليه فوراً وآخذ أضربه ضرباً عنيفاً • جميع أمثاله من أبناء الطبقة الدنيا هم كذلك » (بالفرنسية) حين يجدون أنفسهم أمام رجل محترم • طبيعى أننى فهمت كل شىء على الفور • « اننى أتهيأ لهذا منـذ عشرين سنة » (بالفـــرنسية) • فتحت له جميع

الأدراج وأعطيته المفاتيح : أعطيته المفـاتيح بنفسى ، سلـّمته كل شىء . « كنت رصيناً وهادئاً » (بالفرنسية) . أخذ من الكتب طبعات هرتسن الأجنبية ، والنسخة المجلدة من « الناقوس » ، وأربع نسخ من قصيدة ، « الخلاصة » ، أخـذ كل ذلك » (بالفرنسية) . وأخذ أوراقاً ورسـائل وأخذ « بعض مسوداتى التاريخية والنقدية والسياسية » (بالفرنسية) . ذلك كله حملوه . لقد قالت ناستاسيا ان جندياً حمل هذه الأشياء كلها على نقالة مغطاة بفوطة ، نعم ، « هكذا » (بالفرنسية) ، بفوطة .

كان يهذى . من ذا يستطيع أن يفهم من كلامه شيئاً ؟ وطفقت ألقى عليه الأسئلة من جديد : هل جاء بلومر وحيداً ، أم كان معه أحد ؟ من أمره بالمجىء ؟ بأى حق ؟ كيف جرؤ ؟ ما هو التفسير الذى ذكره ؟

ـ « كان وحيداً ، وحيداً ، نعم » (بالفرنسية) ... على كل حال كان هناك شخص آخر « فى حجرة المدخل ، أتذكر ذلك ، ثم ... » (بالفرنسية) . نعم كان هناك شخص آخر على كل حال ، فيما أظن . وفى المدخل كان يرابط حارس . يجب أن نسأل ناستاسيا . هى تعرف ذلك كله خيراً مما أعرفه أنا . « كنت أنا مهتاجاً اهتياجاً شديداً ، كمـا تعلم » (بالفرنسية) . « وكان يتكلم ، ويتكلم ... قال أشياء كثـيرة جداً ... » (بالفرنسية) . ولكنه لم يتكلم الا قليلاً ، وانما كنت أنا الذى أتكلم . رويت قصة حياتى كلها ، من هذه الناحية طبعاً . « صحيح أننى كنت مهتـاجاً اهتياجاً شـديداً ، ولكننى كنت رصيناً ، أؤكد لك » (بالفرنسية) . على اننى أخشى أن أكـون قد بكيت . أما النقالة فقد أخذوها من عند صاحب الدكان التى تقع بجانبنا .

ـ رباه ! كيف أمكن أن يقع هذا كله ! ولكن ناشدتك الله ياستيفان تروفيموفتش ، تكلم بشىء من الدقة والوضوح ! ان ما تقصه علىّ حلم .

ـ « عزيزى » (بالفرنسية) ... أنا نفسى أعتقد بأننى أحلم ... « هل تعلم ؟ » (بالفرنسية) . « لقد نطق باسم تلياتنيكوف » (بالفرنسية) وأظن أن تلياتنيكوف هذا هو الذى كان مختبئاً عند المدخل . نعم ، أتذكر الآن : لقد اقترح علىّ أن استدعى وكيل النيابة ودمترى متريتش فيما أظن ... « دمترى متريتش الذى ما يزال مديناً لى بخمسة عشر روبلاً ربحتها منه فى اللعب بالورق ... أقول هذا بالمناسبة عابراً ... الخلاصة : اننى لم أفهم كثيرا . » (بالفرنسية) . ولكننى كنت أمكرَ منهم . ماشأنى ودمترى متريتش ! أظن اننى رجوته أن يُبقى الأمر سراً ، نعم توسلت اليه ، ضرعت اليه ... أخشى أن أكون قـــد أسرفت فى التـذلل له . « ما رأيك ؟ » ... الخلاصة أنه قبل ... بل لا ... اننى أتذكر أنه هو الذى قال ان الأفضل أن يبقى الأمر سراً مكتوماً ، لأنه لم يجىء الا لالقاء نظرة عابرة ، على حد تعبيره ... ولا شىء غير ذلك ، نعم ، لا شىء غـير ذلك ، فاذا لم يعثر على شىء بقى الأمر عند هذا الحد ولم يتجاوزه . لذلك افترقنا « صديقين » . « اننى راض كل الرضى » .

هتفت أقول له مستاءً استياء الصديق من صديقه :

ـ ما هذا الذى تقوله ؟ أيعرض عليك ضمانات هى من حقك فى مثل هذه الحالة ثم ترفضها بنفسك ؟

ـ كان الأحسن أن أتنازل عن الضمانات . علام أحدث فضيحة ؟ لقد كان من الأفضل أن نفترق صديقين مؤقتاً ... ذلك أن الأمر اذا شاع فى المدينة ، « فان أعدائى ... ثم علام وكيل النيابة ، علام هذا الخنزير وكيل النيابة الذى أساء الأدب معى مرتين ، والذى ضُرب ضرباً مبرحاً فى احدى السنين عند تلك الفاتنة الجميلة ناتاليا بافلوفنا ، حين اختبأ فى مخدعها . ثم ... يا صديقى » ، لا تواجهنى باعتراضات تلو اعتراضات،

ولا تؤسنى وتثبط عزيمتى ، أرجوك ، فحين يكون المرء تعيساً فلا شىء أبغض اليه وأبعد عن قدرته على الاحتمال من أن يسمع أصدقاءه يقولون له انه ارتكب غلطة . ولكن هلاّ جلست وشربت كأساً من الشاى ! أما أنا فأعترف بأننى متعَب كثيراً ... يخيَّل الىّ أننى أحسن صنعاً اذا أنا اضطجعت ووضعت كمّادة خلٍ على رأسى . ما رأيك ؟

صحت أقول له :

ـ حتماً . بل أنت فى حاجة أيضاً الى جليد . انك مضطرب اضطرابا شديدا . وجهك شاحب ويداك ترتعشان . اضطجع ، ارتح قليلاً ، ولا تقل شيئاً . سأبقى جالساً الى جانبك انتظر أن تتحسن حالك .

لم يشأ أن يضطجع . ولكننى ألححت . وجاءتنا ناستاسيا بخلٍ فى طاسة . فبللت بالخل منشفة ووضعت المنشفة على رأسه . ثم صعدت ناستاسيا على كرسى وأخذت تشعل قنديلاً أمام الأيقونة . لاحظتُ ذلك مدهوشاً . فاننى لم أرَ عند صاحبى قبل ذلك قنديلاً قط .

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول لى وهو يرمقنى بنظرة ماكرة :

ـ أنا الذى أمرت ناستاسيا بذلك بعد انصرافهم رأساً . « اذا كان لدى المرء أشياء من هذا النوع ، وجاءوا يعتقلونه ، فان هذا يكون له أثره ، لأنهم لا بد أن ينقلوا ما رأوا ...

أشعلت ناستاسيا القنديل ، وظلت واقفةً فى العتبة ، مسندة خدها الى راحة يدها اليمنى ، وأخذت تتأمل مولاها وقد ظهر على وجهها حزن شديد .

فدمدم ستيفان تروفيموفتش يقول لى :

ـ « أبعدها » بأية حجة من الحجج . اننى أكره هذه الشفقة الروسية . ثم ان هذا يضايقنى ويزعجنى .

ولكن ناستاسيا خرجت بعد لحظة من تلقاء نفسها . ولاحظت أنه لا ينقطع عن النظر الى الباب والاصغاء الى أيسر ضجة صادرة عن حجرة المدخل .

قال وهو يلقى عليّ نظرة ذات دلالة :

ـ « يجب على المرء أن يكون مستعداً ، كما تعلم » . فى أية لحظة قد يأتون ، فيقتادوننى ، فاذا أنا أختفى فى مثل لمح البصر .

ـ عجيب ! ما هذا الذى تقول ؟ من ذا يختفى ؟ من الذى يقتادك ؟

ـ « يا عزيزى » لقد سألته ملحاً حين انتهى عما سيفعلونه بى .

صحت أقول مستاءً :

ـ ليتك سألته أيضا الى أين سينفونك !

ـ ذلك بعينه ما عنيته بسؤالى . ولكنه انصرف دون أن يجيبنى . فيما يتعلق بالملابس والثياب ، ولا سيما الثياب الدافئة ، سوف يكون الأمر على مايحبون . فاذا أذنوا لى بحملها كان هذا من حسن حظى ، ولكنهم يستطيعون أيضا أن ينفونى مرتدياً معطف جندى . غير أننى (هنا خفض صوته وهو ينظر الى الباب الذى خرجت منه ناستاسيا منذ هنيهة) قد دسست خمسة وثلاثين روبلاً فى بطانة جيب صديريتى التى كانت مفتوقة . أنظر ، هى هنا ، جُسَّها بيدك . أظن أنهم لن ينتزعوا منى صديريتى . ومن أجل التمويه ، تركت سبعة روبلات فى محفظة نقودى ، فكأننى أقول لهم : « هذا كل ما أملك » ، ثم انى تركت قليلاً من النقود على المائدة ، بحيث لا يحزرون أننى خبأت المال ، بل يعتقدون أن هذا كل شىء فعلاً . الله يعلم أين سأقضى الليلة !

خفضت رأسى أمام هذا الجنون . واضح أن اعتقال الناس وتفتيشهم لا يكون بهذه الطريقة التى يصفها . لقد خلط كل شىء ما فى ذلك شك .

صحيح أن هذه القصة كان يجرى مثلها قبل تطبيق القوانين الجديدة . وصحيح أيضا أنه قد اقتُرح عليه اجراءٌ أقرب الى الأصول المتبعة ، ولكنه « كان أمكرَ منهم » فرفض ... ولا شك أن الحاكم فى الماضى ، منذ زمن غير بعيد ، يستطيع فى بعض الحالات القصوى ... ولكن أين « الحالة القصوى» هنا ؟ ذلك ما كان يدهشنى .

قال ستيفان تروفيموفتش فجأة :

ـ لا شك أنهم تلقوا برقية من بطرسبرج .

ـ برقية ؟ بشأنك ؟ عن مؤلفات هرتسن وقصيدتك ؟ انك فقـدت عقلك . لا يُعتقل الناس لأسباب كهذه .

لقد غضبتُ فعلاً . فصعَّر وجهه ، وظهر عليه التأذى ، لا من لهجتى بل من قولى انه ليس ثمة ما يدعو الى اعتقاله .

دمدم يقول بهيئة ملغزة :

ـ هل يعرف المرء فى هذا الزمان لماذا يمكن أن يُعتقل ؟

فاذا بفكرة مجنونة تلمع فى ذهنى على حين فجأة ، فأقول له :

ـ ستيفان تروفيموفتش ، قل لى وأنا صديقك الذى لن يخونك : أأنت تنتمى الى جمعية سرية ما ؟

فما كان أشد دهشتى حين لاحظت أنه هو نفسه لا يعرف . ذلك أنه أجابنى بقوله :

ـ هذا يتوقف على الجهة التى تنظر منها الى الأمور ...

ـ كيف ؟

ـ حين ينذر المرء نفسه لفكرة التقدم من أعماق قلبه ، وحين ...

مَنْ ذا يستطيع أن يجزم ؟ رب شخص يتخيل أنه لا ينتمي الى أية جمعية، حتى اذا نظر الى الأمر من كثب اكتشف نقيض هذا تماما .

ـ مستحيل . اما أنه ينتمي واما أنه لا ينتمي !

ـ يرجع عهد هذا الأمر الى أيام بطرسبرج ، الى الوقت الذي أردنا فيه انشاء مجلة . ذلك مصدر كل شيء . لقد انصرفنا حينذاك فنسونا ، ثم تذكرونا الآن . عزيزي ، ألا تعرف كيف تجري الأمور ؟

كذلك هتف متوجعاً ، وتابع كلامه يقول :

ـ يعتقلونك ويُركبونك زحّافة ويمضون بك الى سيبريا الى الأبد أو ينسونك في معقل من المعاقل .

قال ذلك وانفجر يبكي منتحباً . كانت دموعه تسيل غزيرةً على خديه ، وظل ينشج هذا النشيج المتشنج خلال خمس دقائق ، ضاغطاً بمنديله الأحمر على عينيه .

اضطربتُ من ذلك اضطرابا شديدا . ان هذا الرجل الذي كان لنا بمثابة نبي منذ عشرين سنة الى الآن ، وكان معلمنا ، وكان امامنا ، وكان يعاملنا بتلك الأبهة وتلك الفخامة كلها ، وكان يتسلط علينا من علٍ ، وكنا نقدسه تقديساً من أعماق قلوبنا ، ونعدُّ وجوده بيننا شرفاً لنا ، ان هذا الرجل ينتحب الآن انتحاب صبي مذنب ينتظر أن يُجـلد بالسوط . شعرت نحو بشفقة عميقة . انه يؤمن بأن الزحافة آتيـة لنقله كايمـانه بوجودي قربه ، بل انه ينتظر وصولها في هذا الصباح نفسه . انه يؤمن بأنهم سيجيئون لاعتقاله في هذه اللحظة ذاتها . وذلك كله بسبب مؤلفات هرتسن ، وبسبب قصيدة لا أدري ما هي ! ألا ان هـــذا الجهل بالواقع وانفصال عنه يبلغان من التمام والقوة ما يجعل حالة الرجل مؤثرة ومغيظةً في آن واحد .

وأخيرا كفّ عن البكاء ، وقام عن ديوانه ، وعاد يمشي في الغرفة طولاً وعرضاً ، مع استمراره في التحدث اليّ • ولكنه كان ينظـــر من النافذة من حين الى حين ، ويصيخ بسمعه الى أيسر ضجة • وكان حديثنا متقطعاً لا تسلسل فيه ، وكانت جميع الأقوال التي يمكن أن أســوقها له لأطمئنه لا تحدث فيه أي تأثير • كان لا يصغي الا قليلاً ، ولكنه كان في حاجة كبيرة الى أن أهدىء روعه وأطمئن نفسه ، والى أن يسمعني أتكلم في هذا المعنى بغير توقف • ورأيت أنه أصبح لا يستطيع الاستغناء عني، وأنه لن يدع لي أن أنصرف بحال من الأحوال ، فبقيت وقضينا معاً أكثر من ساعتين • وتذكر أثناء الحديث أن بلومر أخذ منشورين وجدهما بين أوراقه •

هتفت أقول بغير روية ولا حذر :

ـ منشورات تحريضية ؟ هل يُعقل أن تكون •••

فأجاب بلهجة مغتاظة :

ـ دسوا لي منها نحو عشرة ••• فتخلصت من ثمانية ولم يعثر بلومر الا على اثنين •••

كان يتكلم تارة بتعالٍ وسخط ، وتارةً بشكوى ومذلة •

واحمر وجهه استياءً على حين فجأة ، وقال :

ـ « أتضعني مع أولئك الناس ! » • هل تستطيع أن تفترض أن من الممكن أن أشترك مع هؤلاء الأوغاد الأنذال ، مع هؤلاء الجواسيس ، مع ابني بطرس ستيفانوفتش ، مع هذه « النفوس الزاخرة جبناً وحقارة ! » • آه ! ••• رباه ! •••

ـ ذلك ما أتساءل عنه وأشك فيه ! أتراهم خلطوا بينك وبين شخص آخر ••• ولكن لا ••• هذا سخف ! ••• مستحيل !

ـ « اسمع » ... اننى أشعر أحيانا بأننى « سأحدث هنالك فضيحةً ما » . آه ... لا تخرج . لا تدعنى وحيداً ! « لقد انتهت حياتى الفكرية والثقافة الآن . أشعر بهذا . » . هل تعلم أن من الممكن أن أهجم على أحد الناس وأن أعضه ، كما فعل الملازم الثانى ...

قال ذلك ورشقنى بنظرة غريبة وجلة ، ولكنها فى الوقت نفسه نظرة يقرأ فيها المرء معنى الرغبة فى التخويف . كان الحنق يستولى عليه . وكان يبدو غاضبا مزيداً من الغضب على شخص ما وعلى شىء ما ، كلما انقضى الوقت ولم تصل « الزحافة » . كان مسعورا من شدة السخط فعلاً . وفجأة اصطدمت ناستاسيا ، التى كانت فى حجرة المدخل ، اصطدمت بحمالة المعاطف فأسقطها على الأرض . فتجمد ستيفان تروفيموفتش فى مكانه من شدة الهلع . ولكن حين اتضح له الأمر ، أخذ يصرخ فى وجه ناستاسيا ، وقرع الأرض بقدمه ، وطرد ناستاسيا الى المطبخ . وبعد دقيقة، قال لى بهيئة يائسة :

ـ لقد هلكت يا عزيزى !

وجلس بقربى ، وحدّق الى عينى بنظرة تثير الشفقة . وأردف يقول :

ـ « يا عزيزى » ، أنا لست خائفاً من سيبريا ، أحلف لك ...

حتى لقد ترقرق الدمع فى عينيه . وأضاف قائلاً :

ـ وانما أنا خائف من شىء آخر ...

فأدركت من النظر فى وجهه أن هناك أمراً خطيراً خطورة خاصة يريد أن يقوله لى ، ولكنه يتردد منذ برهة فى الافصاح عنه . وهمس يقول أخيراً بلهجة تحمل معنى السر :

ـ أنا انما أخاف العار .

ـ أى عار ؟ صدّقنى يا ستيفان تروفيموفتش : ان كل شىء سيتضح فى هذا اليوم نفسه لمصلحتك .

ـ أأنت واثق بأنهم سيغفرون لى ؟

ـ يغفرون لك ماذا ؟ ما معنى هذا التعبير ؟ أى جريمة ارتكبت ؟ أؤكد لك أنك لم تجن أى ذنب .

ـ « ما يدريك يا عزيزى ؟ » . لقـــد كانت حيـــاتى كلها ... « يا عزيزى » ... لسوف ينبشون ماضىّ كله ... فاذا لم يعثروا على شىء ، كان ذلك « أسوأ وأنكى » عندى .

ما كان أشد دهشتى حين سمعت منه هذه الجملة الأخيرة ! ...

ـ أسوأ وأنكى عندك ؟

ـ نعم .

ـ لا أفهم !

ـ صديقى ، صديقى ، لا تهمنى سيبريا ، لا تهمنى آرخانجلسك ، لا يهمنى فقدان جميع حقوقى . ان المرء لا يموت الا مرةّ واحدة .... أما ما أخشاه فهو شىء آخر ...

هنا عاد الى الهمس ، والهيئة المروّعة ، ولهجة السر .

ـ فما الذى يخيفك ؟ ما الذى يخيفك ؟

فقال أخيراً زائغ العينين :

ـ السوط .

فعدت أهتف خائفاً على عقله :

ـ من ذا الذى يمكن أن يجلدك بالسوط ؟ وأين ؟ ولماذا ؟

ـ أين ؟ هناك ، حيث يتم الجلد بالسياط •

ـ ولكن أين ؟

ـ آه ••• عزيزي •••

كذلك دمدم يقول لي بما يشبه الهمس في الأذن :

ـ آه ••• عزيزي ••• تخسف الأرض فجأة تحت قدميك ، فتغور الى منتصف جسمك ••• جميع الناس يعرفون هذا •

صحت أقول وقد فهمت أخيراً ماذا يريد أن يقول :

ـ حكايات خرافية • هل يُعقل أنك ما تزال تصدق هذه الحكايات الخرافية القديمة ؟

وانفجرت ضاحكاً •

ـ حكايات خرافية ؟ لا دخان بلا نار • الذين ذاقوا هذا لا يفتخرون به طبعاً • لقد تصورت بالخيال ألف مرة كيف تجري الأمور •

ـ ولكن أنت ، علام يجلدونك ؟ انك لم تفعل شيئاً •

ـ تماما ، سوف يرون أنني لم أفعل شيئاً فيجلدونني •

ـ وهل أنت مقتنع بأنهم لهذا الغرض انما سيقتادونك الى بطرسبرج؟

ـ يا صديقي ، قلت لك انني غير آسف على شيء • « لقد انتهت حياتي الفكرية والثقافية » • منذ أن ودّعتني في سفورشنيكي لم يبق للحياة من قيمة عندي • ولكنه العار ! العار ! « ما عساها تقول حين تعلم ؟» •

قال ذلك واحمر احمرارا شديدا ، ونظر اليّ يائساً • فخفضت عينيّ • ثم قلت له :

ـ لن تعلم شيئا لأن شيئاً لن يحدث . انك تدهشنى كثيراً فى هــذا الصباح ، حتى ليبدو لى أننى أكلمك لأول مرة فى حيــاتى يا ستيـــفان تروفيموفتش .

ـ يا صديقى ، ليس هو الخوف . هبْهم غفروا لى ، وأعادونى الى هنا دون أن يصنعوا بى شيئاً . لقد هلكت مع ذلك . . « ستظل تشتبه فىّ طوال حياتى » ... أنا الشاعر ، أنا المفكر ، أنا الرجل الذى قدستنى على مدى عشرين عاماً ...

ـ لن تخطر لها هذه الفكرة على بال .

دمدم يقول باقتناع عميق :

ـ بلى . لطالما تكلمنا معا فى بطرسبرج أيامَ الصـــوم الكبير قبل رحيلنا ، حين كنا كلانا خائفين ... « سوف تشتبه فىّ طوال حياتها » . من ذا الذى يستطيع أن يحوّلها عن هذا الخطأ ؟ مستحيل ! ومن ذا الذى سيصدقنى أنا فى هذه المدينة الصغيرة الحقيرة ؟ ... « ثم النساء ! » ... سوف تكون هى سعيدة . صحيح أنها ستتألم ، ستتألم كثيراً ، ستتألم ألماً صادقاً ، لأنها صديقة حقا ، ولكنها فى قرارة نفسها ، فى سرها ، ستُسر سروراً عظيماً ... سأكون قد زودتها بسلاح ضدى مدى الحياة ... آه ... لقد تحطمت حياتى . عشرون عاماً انقضت فى سعادة كاملة ... والآن ! ...

قال ذلك ودفن وجهه فى يديه .

فقلت مقترحاً :

ـ ستيفان تروفيموفتش ، ألا يحسن أن تنبىء فرفارا بتروفنا فورا بما حدث ؟

فما سمع هذا الاقتراح حتى وثب عن ديوانه وقال :

ـ معاذ الله ! مستحيل ! أبداً ! يستحيل أن أفعل هذا بعد الذي جرى في سفورشنيكى ! أبداً !

وسطعت عيناه .

أحسب أننا لبثنا على هذه الحال ساعة بل أكثر ، ننتظر حادثاً يجب أن يقع فيما نتصور . وتمدد من جديد ، وأغمض عينيه ، وظل مستلقياً قرابة عشرين دقيقة دون أن ينطق بكلمة ، حتى ظننت أنه قد نام ، أو أنه غفا فى أقل تقدير . وها هو ذا ينتصب فجأة ، فينزع عن رأسه المنشفة المبللة ، ويثب عن الديوان ، ويهرع الى المرآة ، فيعقد رباط عنقه مرتعش اليدين ، وينادى ناستاسيا بصوت مرعد ، ويأمرها بأن تهيىء له معطفه الجديد ، وقبعته ، وعصاه .

قال بصوت لاهث :

ـ نفد صبرى . هذا فوق ما أطيق . اننى ذاهب الى هناك بنفسى .

سألته وأنا أنهض أيضا :

ـ الى أين ؟

ـ الى لمبكه . يا عزيزى ، لا بد لى أن أذهب اليه . هذا واجبى . اننى رجل ، اننى مواطن ، ولست قشة حقيرة . ان لى حقوقا . واننى لأطالب بأن تُحترم حقوقى ... لقد أهملت حقوقى هذه مدة عشرين عاما ، أهملتها طول حياتى اهمالاً اجرامياً ... أما اليوم فاننى أطالب بها . يجب عليه أن يقول لى كل شىء . نعم ، كل شىء . لقد تلقى برقية ، ولكننى لا أسمح له بأن يعذبنى . ليقتلنى ، ليقتلنى ، ليقتلنى !

كان يصرخ بصوت حاد وهو يقرع بقدمه الأرض .

قلت له بأكبر هدوء ممكن رغم ما تثيره حالته فى نفسى من قلق شديد عليه :

ـ اننى أؤيدك • هذا أفضل حتما من أن تبقى هنا نهباً للعذاب • ولكننى لا أؤيد فرط اهتياجك • انظر الى وجهك فى المرآة • ما هـــذه الهيئة ؟ كيف يمكنك أن تمثل هناك على هذه الحال • « يجب أن تكون رصيناً هادئاً مع لمبكه » • انك لا تتورع الآن عن الهجـــوم على الناس وعضّهم •

ـ اننى أسلمهم نفسى • اننى أرمى نفسى فى فم الأسد •

ـ سأرافقك •

ـ لم أكن أتوقع غير هذا من صداقتك • اننى أقبل تضحيتك هـذه التى هى تضحية صديق حق • ولكنك لن تصحبنى الى منزل لمبكه • لا يجب عليك ، وليس من حقك أن تعرض نفسك للخطر بصحبتى مدةً أطول • أوه ! « صدقنى : سأكون هادئاً » • اننى أشعر فى هذه اللحظة بأننى سأكون « فى مستوى أقدس ما أقدّس » •

قلت أقاطعه :

ـ ربما دخلت معك • ان لجنتهم السخيفة قد أبلغتنى أمس بواسطة فيسوتزكى أنه يعتمد عليّ ، ودعتنى الى الاشتراك فى حفلة الغد مفوضاً (هذه هى التسمية فيما أظن) ••• فسأكون اذن فى عداد الشبان الستة المكلفين بمراقبة الخدمة ، وملاطفة السيدات ، واصطحاب المدعوين الى أماكنهم • وسنضع على أكتافنا اليسرى عقدة من شرائط بيض وحمر • لقد أردت أن أرفض ، ولكننى أستطيع أن أدخل الآن الى المنزل بحجـة أننى أريد التحدث الى جوليا ميخائيلوفنا • سنذهب اذن معاً •

كان يصغى ويهز رأسه ، ولكن كان يبدو عليه أنه لا يفهم شيئاً • ووصلنا الى العتبة • فاذا هو يقول لى ماداً ذراعه نحو الايقونة :

ـ عزيزى ، عزيزى ، اننى لم أؤمن بهذا ••• ولكن ••• فليكن ، فليكن ••• هيّا بنا •

قال ذلك ورسم اشارة الصليب على نفسه •

قلت محدثاً نفسى وأنا أهبط درجات المدخل : « هــذا أفضل • سوف يحسن اليه الهواء الطرى • سوف يهدأ ، فاذا عاد الى البيت نام »•

ولكننى لم أحسن الحساب•ففى الطريق ، وقع لستيفان تروفيموفتش حادث زاده اضطرابا ، ودفعه دفعاً نهائياً فى طريق ••• اننى أعترف بأننى ما كنت لأتوقع في يوم من الأيام مثل تلك الحرارة وتلك الهمة اللتين أظهرهما صاحبنا في ذلك الصباح • مسكين صديقى الطيب •

الفصل العاشر

الصابون يصبح مشؤومة

إنّ الحادث الذى وقع لنا فى الطريق حادث خارق تماماً . ولكن فلنذكر الأمور مرتَّبةً متسلسلة . قبل خروجنا أنا وستيفان تروفيموفتش بساعة ، تظاهرت فى الشوارع جمهرةٌ من عمال مصنع شبيجولين يُقدَّر عددها بسبعين تقريباً ، وربما أكثر من ذلك ، فأثار تظاهرها اهتمامَ الناس وفضولهم . كان العمال يسيرون صفاً مرتَّباً ، ملتزمين الصمت . وقد رُوى فيما بعد أنهم انما ندبهم عمال مصنع شبيجولين البالغ عددهم تسعمائة عامل ليطلبوا من الحاكم ، أثناء غياب أصحاب المصنع ، أن يتوسط لهم لدى مدير المصنع : ذلك أن هذا المدير قد غشَّ عمال المصنع بعد اغلاقه ، وخدعهم فى حساب حقوقهم ، وهذا أمر أصبح لا ينكره اليومَ أحد . حتى أن بعض الناس يؤكدون أن هؤلاء السبعين لم يكونوا منتدبين من رفاقهم لينطقوا باسمهم (والحق أن عددهم أكبر من أن يكونوا وفداً منتدباً) ، وانما كانوا هم العمال الذين أصابهم ضرر أكبر فجاءوا يطالبون بحقوقهم باسم أنفسهم لا باسم جميع العمال ؛ فلا يمكن اذن أن يكون الأمر أمر «ثورة» كما أُشيع فيما بعد . غير أن هناك أناساً آخرين يؤكدون أن المتظاهرين كانوا «ثواراً» حقيقيين ، وعصاةً عنيدين تأثروا بالمنشورات التحريضية التى وُزِّعت فى المصنع . الخلاصة

أننا لا نعرف حتى الآن ، على وجه اليقين ، هل كان العمال فى تظاهرهم ينفذون أوامر صدرت اليهم ، أم هم خرجوا من تلقاء أنفسهم . أما أنا فأعتقد أنهم لم يقرأوا منشورات . وهبهم قرأوها فما كان لهم حتماً أن يفهموا منها شيئاً ، لأن الذين يحررون هذه الأوراق يكتبون كتابة غامضة، وان تكن قاسية عنيفة . ولكن لما كان العمال يمرون بظرف صعب فعلاً ، ولما كانت الشرطة التى لجأوا اليها قد رفضت التدخل والتوسط ، فقد كان طبيعيا أن يخطر ببالهم أن يذهبوا الى « الجنرال نفسه » مجتمعين ، حاملين مطلبهم بارزاً للعيان ، وأن يصطفوا حول بابه ، وأن يركعوا أمامه متى ظهر لهم ، مبتهلين اليه بأصوات عالية . هذه طريقة تقليدية تاريخية ، فلا حاجة بنا ، فى رأيى ، لأن نلجأ الى أى تعليل آخر . فالشعب الروسى ، منذ قديم الزمان ، يحب أن يتجه الى « الجنرال نفسه » ، الى الشخص القادر على كل شيء فى نظره ، لا لغرض الا لذة التحدث اليه والشكوى له ، أية كانت نتيجة هذا الحديث وهذه الشكوى .

وهبنا سلمنا بأن بطرس ستيفانوفتش وليبوتين وغيرهما ـ ربما فدكا ـ قد استطاعوا أن يتصلوا بالعمال (كما تبيح بعض الدلائل افتراض ذلك)، وبأنهم تحدثوا الى اثنين أو ثلاثة منهم أو حتى خمسة ، لا لشيء الا جس نبضهم ومعرفة مدى استعدادهم ، فاننى مقتنع بأن الأحاديث التى أجروها معهم لم تؤد الى أى شيء ، لأن العمال اذا فهموا شيئاً من هذه الدعاية فانهم قد أشاحوا عنها على الفور حتماً ، اذ لا بد أن تكون قد بدت لهم غبية ليس لها أية فائدة عملية . أما فدكا فلعله قد أصاب عندهم حظاً أكبر من حظ بطرس ستيفانوفتش . فمما لا شك فيه اليوم أن الحريق الذى شب فى المدينة بعد ثلاثة أيام انما أشعله فدكا وعاملان من مصنع شبيجولين . كما أن ثلاثة من عمال هذا المصنع قد اعتقلوا بعد ذلك بشهر بسبب ارتكابهم جريمة سرقة وجريمة اشعال حريق . ومهما يكن دور فدكا ، فيجب أن

نعتقد أنه لم يستطع أن يجتذب الا أولائك الخمسة ، اذ لم يُسمع عن الآخرين شيء من هذا القبيل •

حين وصل العمال الى منزل الحاكم وهم ما يزالون صامتين ملتزمين نظاما تاما ، اصطفوا حول درجات الباب ، ورفعوا قبعاتهم ، وأخذوا ينتظرون فاغرى الأفواه • انتظروا نصف ساعة ، لأن المصادفة شاءت أن يكون الحاكم غائباً عن منزله في ذلك الوقت • فلم تلبث الشرطة أن ظهرت ، أفراداً قلائل في أول الأمر ، وعدداً كبيراً بعد ذلك • وطبيعي أن الشرطة طفقت تتعجرف ، وأنذرت المتظاهرين بأن يتفرقوا • ولكن المتظاهرين عندوا فلم يتحركوا ، كقطيع من الخراف أمام حاجز ، وأجابوا موجزين مقتضبين بأنهم انما جاءوا ليكلموا « الجنرال نفسه » ، وكان واضحاً أنهم مصرون على موقفهم لا يريدون أن يتزحزحوا عنه • عندئذ حلّت التهديدات والصرخات محل التفكير • وتشاور ممثلو السلطة مهمومين حائرين ، تشاوروا بصوت خافت ، فاستقر رأيهم على الاجراءات التي يجب اتخاذها • وآثر رئيس الشرطة انتظار فون لمبكه • ليس صحيحا أن ايليا ايلتش (رئيس شرطتنا) قد وصل على عربة تجرى بسرعة كبيرة فما ان نزل من العربة حتى أسرع يشهر قبضتيه على المتظاهرين • فلاشك أن ايليا ايلتش كان يحب في الأحوال العادية أن يعدو بمركبته الصفراء سريعاً ، وأنه بينما كانت تشتد حماسة أفراسه فتثير حميًّا جميع تجار السوق ، كان هو يقف في المركبة منتصب القامة ، متمسكاً بزنار وُضع لهذا الغرض ، مادّاً ذراعه اليمنى كتمثال ، فيجتاز المدينة كلها بأقصى سرعة • ولكنه لم يستعمل اليوم قبضتيه والحق يقال • صحيح أنه لم يستطع عند نزوله من العربه أن يمتنع عن قذف بضعة شتائم مدوّية ، ولكنه لم يفعل ذلك في الواقع الا من باب المحافظة على سمعته • وليس صحيحاً كذلك أن جنوداً قد استُقدموا حاملين بنادق عليها حراب ، وأن

فصيلاً من القوزاق قد استُدعى مع بطارية من المدفعية ، ببرقية • فما هذا كله الا أقاويل لم يصدقها حتى أولئك الذين أشاعوها • وغير صحيح أيضاً أن رجال المطافىء قد استدعوا لرش الجمهور بالماء • كل ما هنالك أن ايليا ايلتش قد غضب غضباً شديداً فصرخ يقول للعمال انه سيلقيهم فى الماء ، ولعل هذا الكلام هو الذى ولّد أسطورة الرش تلك التى استولت عليها صحف موسكو وبطرسبرج • والرواية الأصدق فى رأيى هى أن جميع قوات الشرطة الموجودة قد طوّقت الجمهور فى البداية ، ثم أسرعوا يوفدون الى فون لمبكه رسولاً وثب الى عربة رئيس الشرطة ومضى نحو سكفورشنيكى التى كان فون لمبكه قد ذهب اليها على مركبته منذ نصف ساعة •••

اننى لأعترف مع ذلك بأنى ما زلت أتساءل كيف أمكنهم أن يقلبوا هذا المسعى الذى قامت به جماعة بسيطه من أجل أن تقدم عريضة للحاكم، أقول كيف أمكنهم أن يقلبوا هذا المسعى على الفور ـ وان يكن عدد الجماعة سبعين شخصاً ـ الى ثورة زعموا أنها تهدد أسس الدولة نفسها ؟ ولماذا أسرع فون لمبكه نفسه الى قبول هذه الفكرة والتسليم بها حين وصل بعد عشرين دقيقة ؟ اننى أميل الى الاعتقاد (وليس ذلك الا رأياً شخصيا أيضا) بأن ايليا ايلتش ، وهو صديق حميم لمدير المصنع ، قد رأى أن من المفيد ابراز المظاهرة لفون لمبكه فى هذه الصورة ، حتى لا يخطر ببال فون لمبكه أن ينظر فى مطالب العمال وأن يدرسها • ولكن يجب أن نذكر أن فون لمبكه نفسه هو الذى كان قد أيقظ هذه الخطة فى ذهن رئيس الشرطة • ان الحاكم ورئيس الشرطة كانا فى تلك الأيام الأخيرة قد عقدا عدة اجتماعات سرية مشبوهة وان تكن غامضة مبهمة ، استنتج منها رئيس الشرطة أن الحاكم يأخذ مسألة المنشورات التحريضية مأخذ الجد كثيراً ، ويقلق لها أشد القلق ، وأنه مقتنع بأن العمال ينتظرون صدور الأمر اليهم

ليقوموا بثورة شاملة . كان الحاكم يبدو متشبثاً بهذه الفكرة تشبثاً يبلغ من القوة أنه لو كذّبتها الوقائع لشعر بأسف . ولقد حدّث صاحبنا الخبيث ايليا ايلتش نفسه فقال : « وان الحاكم يريد أن تعترف بطرسبرج بهمته ونشاطه . لمَ لا ؟ ان هذا يناسبنا كثيراً ! » .

أما أنا فأعتقد بأن المسكين آندره أنطونوفتش كان عاجـــزاً عن أن يتمنى قيام ثورة ليتاح له أن يبرز ويتميز . انه موظف سليم الخلق حي الضمير ، ظل محتفظاً ببراءته الى أن تزوج . وهل يكون الذنب ذنبه اذا شاءت الأقدار أن لا تكتفي له بالوظيفة البسيطة المفيدة التي كان يطمح اليها ، وبامرأة صغيرة كان يتوق الى زواجها ، بل وضعت في طريقه أميرةً عمرها أربعون عاماً أرادت أن ترفعه الى مستواها ؟ انى لأعرف معرفةً تكاد تكون مؤكدة أنه منذ ذلك الصباح المشئوم انما ظهرت أولى الأعراض القاطعة لذلك المرض الذي قاد آندره أنطونوفتش الى سويسرا فيما يقال ، وأودعه في تلك المؤسسة الخاصة المعروفة التي أخذ يسترد فيها عافيتـــه وقواه . ولكن مع تسليمنا بأن تلك العلائم الواضحة انما ظهرت في ذلك الصباح ، فمن الممكن أن نسلّم ، في رأيي ، بأن وقائع مماثلة وان تكن غير قاطعة الى هذا الحد ، يمكن أن تكون قد حدثت منذ الليلة البارحة . انني أعرف من مصدر موثوق به (افرضوا أن جوليا ميخائيلوفنا قد أفضت اليّ بأسرارها ، لا في عهد انتصاراتها ، بل بعد ذلك ، حين أصبحت نهباً لما يمكن أن يوصف بأنه نصف ندم ، لأن النساء لا يندمن ندماً كاملاً في يوم من الأيام) ، انني أعـــرف اذن من مصـــدر موثوق به أن آندره أنطونوفتش قد ذهب الى امرأته في الليلة السابقة ، في نحو الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، فأيقظها من نومها لتسمع « انذاره » . لقد طلب منهـا ذلك بلهجة تبلغ من الصرامة أنها اضطرت أن تنهض عن السرير مستاءة ، مغطاة الـرأس بالورق الذي يُلفُّ به الشعر لتجعيـــده ، فجلست على

مضجع ، وأخذت تصغى الى كلام زوجها رغم ما ينم عنه وجهها من احتقار ساخر . وعندئذ انما أدركت لأول مرة ما آلت اليه حال زوجها . فشعرت بجزع . ولكنها بدلاً من أن تعترف بأخطائها وتلطف سلوكها ، أخفت جزعها وعندت مزيدا من العناد . افترض أنها ، كسائر الزوجات ، كانت تلتزم ازاء زوجها موقفاً جُرِّب كثيراً . وهذا الموقف الذى سبق أن أحنق آندره أنطونوفتش في كثير من الأحيان انما هو الصمت المزدرى يدوم ساعةً أو ساعتين أو أربعاً وعشرين ساعة وربما دام ثلاثة أيام . انه صمت عنيد لا يمكن أن يقطعه شيء مما قد يقوله أو يفعله فون لمبكه . والحق أن هذه الطريقة هي فوق ما يطيقه انسان حسَّاس . هل أرادت جوليـــا ميخائيلوفنا أن تعاقب زوجها على الأخطاء التى ارتكبها فى الآونة الأخيرة وعلى الحسد الذى أثارته في نفسه المواهب الادارية لدى زوجته ؟ أكانت مستاءةً من الملاحظات التي أبداها لها بشأن سلوكها مع شباننا ومع مجتمعنا كله ، دالةً على أنه لا يفهم شيئاً من أهدافها السياسية الناعمة العميقة ؟ أكانت غاضبةً من أنه يغار عليها من بطرس ستيفانوفتش هذه الغيرة الغبية التى لا سبب لها ولا داعى اليها ؟ المهم على كل حال أنها قررت أن لا تذعن ولا تخضع رغم أن الوقت هو الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ورغم أن آندره أنطونوفتش كان يبدو مضطربا اضطرابا غريبا . كان خارجا عن طوره ، يذرع أرض الغرفة فى جميع الاتجاهات ، فقال لها ، ولو بطريقة مشوشة فى الواقع ، كل ما كان يعتمل فى قلبه ، لأنه « أصبح لا يطيــق صبراً » . أعلن لها أولاً أن جميع الناس يسخرون منه ، ويجرونه « من طرف الأنف » . « لا يهمنى التعبير » ، كذلك صرخ يقول بصوت حادٍ رداً على ابتسامتها الساخرة . « نعم ، من طرف الأنف ! ... هــــذه هى الحقيقة ... فاعلمى يا سـيدتى أننى أرفض هذا ... لقـــد آن الأوان يا سيدتى ! اعلمى أن ليس هذا وقت الضحك والغندرة ! ... لسنا الآن

فى مخدع امراة من نساء المجتمع • وانما نحن نمثل انسانين مجرّدين
ان صح التعبير ، التقيا فى بالون ليتكاشفا ويقولا الحقيقة • (واضح أنه كان
مرتبكاً مشوشاً فلا يحسن التعبير عن أفكاره ، الصائبة على كل حال) •
انك أنت يا سيدتى ، أنت التى أخرجتنى من ظرفى القديم • وأنا لم أقبل
هذا المنصب الا من أجلك ، فى سبيل ارضاء مطامحك ••• أتبتسمين
ساخرة ؟ لا تشعرى بالانتصار ••• انتظرى قليلا ! ••• اعلمى ياسيدتى ،
اننى كان فى وسعى أن أنهض بأعباء هذا المنصب على خير وجه ، لا بأعباء
هذا المنصب وحده ، بل بأعباء مناصب أخرى أخطر منه شأناً عشر مرات،
لأننى أملك الكفاءات اللازمة• ولكننى لا أستطيع ذلك معك أنت ياسيدتى•
فبوجودك أنت تنعدم كفاءاتى • ذلك أن من المستحيل أن يستقيم العمل مع
وجود مركزين • وأنت قد خلقت مركزين : واحداً عندى ، وواحداً
عندك ، فى مخدعك • مركزان للسلطة يا سيدتى • ولكننى لن أحتمل
هذا • لا • لن أحتمله • ففى الادارة ، كما فى البيت ، لا يمكن أن يكون
الا مركز واحد •يستحيل أن يكون هناك مركزان ••• ما هو موقفك ؟
ان علاقتنا تنحل الى ما يلى : تبرهنين لى فى كل ساعة على أننى تافه ، وعلى
أننى غبى ، بل على أننى جبان • وأنا ، فى كل ساعة أيضا ، أجدنى
مضطراً اضطراراً ذليلا الى أن أبرهن لك على أننى لست تافهاً ولا غبياً ،
وعلى أننى بنبلى أُذهل جميع الناس • أليس هذا مذلاً لنا كلينا ؟ » •

هنا أخذ الزوج يضرب الأرض بقدميه ضرباً شديداً ، حتى رأت
جوليا ميخائيلوفنا أنها مضطرة أن تنهض مهيبة الهيئة صارمة الملامح •
فسرعان ما هبط غضب الزوج • ولكنه سقط عندئذ فى فرط الحساسية
وأخذ يبكى منتحباً (نعم ، منتحباً) ، لاطماً صدره ، فاقداً صوابه فقداً
تاماً بتأثير الصمت العنيد الذى تصر عليه جوليا ميخائيلوفنا • دام ذلك خمس
دقائق • ثم اذا به يزل لسانه زللاً ما بعده زلل ، فيقول انه يغار على امرأته

من بطرس ستيفانوفتش • واذ أدرك على الفور أنه ارتكب حماقة ضخمة، فانه لم يلبث أن غضب غضبا مسعورا ، وأخذ يصرخ قائلاً انه لن « يسمح بانكار وجود الله » ، وان « صالونها هذا بؤرة كفر وجحود » ، وان على الحاكم أن يكون مؤمنا بالخالق ، وكذلك يجب أن تكون زوجة الحاكم أيضا ، وانه قد ضجر واشمأز من جميع هؤلاء الشبان • وأضاف يقول : « ان من واجبك أنت يا سيدتي ، نعم من واجبك أنت ، حرصا على كرامتك نفسها ، أن تدعمي زوجك وأن تعلني للملأ جهاراً أنه ذكي ، حتى ولو كان عاجزاً (فكيف ولست بعاجز !) ولكن الواقع هو أنك أنت السبب في أن الناس يحتقرونني هنا ، فأنت التي تحرضينهم عليّ ! ••• » • ثم صرخ قائلاً : انه سيعدم قضية المرأة اعداما ، وانه سيمنع من الغد تلك الحفلة السخيفة التي تزمع اقامتها لمعونة المربيات (شيطان يأخذهن !) ، وانه سيطرد من الاقليم ، بواسطة قوزاقي ، أولَ مربية يلقاها • «سأفعل هذا عمداً ، عمداً » • كذلك كان يصيح • « هل تعلمين أن التافهين الذين يحيطون بك يحاولون اثارة العمال ، وانني على علم بأفعالهم هذه ؟ هل تعلمين أنهم يوزعون في المدينة منشورات تحريضية ، عن عمد ، عن عمد ؟ هل تعلمين أنني أعرف أسماء أربعةٍ من هؤلاء الأشقياء ، وأنني أفقد عقلي وأصير مجنونا ، مجنونا ، مجنونا ؟!! » • ولكن جوليا ميخائيلوفنا قطعت الصمت حينذاك ، وأعلنت بلهجة قاسية أنها هي نفسها مطلعة منذ زمن طويل على هذه النيات الاجرامية ، ولكن هذا كله لا قيمة له ، وأن زوجها يسرف في أخذ الأمر مأخذ الجد ، وأنها تعرف لا الأنذال الأربعة الذين يعرفهم فحسب ، بل تعرف كذلك جميع الآخرين (هنا كانت تكذب) ، لكنها لا يخطر ببالها أن تصبح مجنونة ، حتى انها تثق بعقلها وذكائها أكثر من أي وقت مضى ، وتأمل أن تتم مهمتها على أحسن وجه : تشجع الشبان، وتُسمعهم صوت العقل ، وتُبرز لهم فجأة أن أغراضهم مكشوفة ، ثم

تقترح على نشاطهم أهدافا أقرب الى الرشاد وأس
أنطون أنطونوفتش هذا الكلام حتى جُنَّ جنونه
وعبث به بطرس ستيفانوفتش مرة أخرى بطريقة
السوء ، فهو قبل أن يجيء اليه كان قد كشف لج
شىء ، وهو قد يكون المحرِّض الأساسى على المؤام
أنطونوفتش يصيح متفجر الغضب : « اعلمى أيتها
اننى سأعتقل على الفور عشيقك الحقير ، وأننى س
بالأغلال ، أو أننى ... أو أننى سوف ألقى بنفس
منك ! » . فكان جواب جوليا ميخائيلوفنا على هذا ا
طويلة منهمرة ، وقد اخضرَّ لونها من شـــدة ال
بالضحكة التى يسمعها المرء فى المسرح الفرنسى حي
التى تتقاضى مائة ألف روبل وتمثل أدوار الغانيات
عند أنف زوجها الذى يبيح لنفسه أن يغـــار .
النافذة ، ولكنه توقف فجأة ، وعقد ذراعيه على صد
بنظرة مروِّعة وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة ا
متقطع متوسل : « هل تعلمين ، هل تعلمين

وتستيقظ في نفسه ذكريات ليس لها أية علاقة بوضعه الراهن : فهو تارةً يتذكر ساعةَ حائطٍ قديمة رآها ببطرسبرج منذ خمسة عشر عاما، وتنقصها ابرتها التي تشير الى الدقائق ؛ وتارة يتذكر الموظف المرح ميليبوا ، أحد أصدقائه ، ويتذكر العصفور الذي طارداه ذات يوم في حديقة ألكسندروفسكي حتى اصطاداه ، فلما اصطاداه فطنا فجأة الى أن أحدهما كان قد أصبح معاون قاض ، فضحكا ضحكاً شديداً . ونام أخيراً في نحو الساعة السابعة من الصباح . نام نوماً لذيذاً ، ورأى أحلاماً ممتعة . حتى اذا استيقظ في نحو الساعة العاشرة وثب عن سريره ، وتذكر فجأة ما قد جرى بالأمس ، فلطم جبينه براحة يده . ولم يتناول فطوره ، ولم يشأ أن يرى أحداً : لا بلومر ، ولا رئيس الشرطة ، ولا الموظف الذي جاء ليذكّره بأن عليه في هذا الصباح أن يرأس اجتماعا يعقده مجلس الاقليم. لم يصغ الى شيء ، ولم يرد أن يعرف شيئاً ، وأخذ يركض كالمجنون في جميع الغرف التي كانت تشغلها جوليا ميخائيلوفنا ، فأعلمته صوفيا أنتروبوفنا ، وهي سيدة نبيلة عجوز تقيم عند زوجة الحاكم منذ مدة طويلة، أن جوليا ميخائيلوفنا ذهبت الى عند فرفارا بتروفنا في سكفورشنيكي منذ الساعة العاشرة ، بصحبة عدد كبير من الأشخاص ، بغية أن ترى المكان الذي انعقدت النية على اقامة حفلة ثانية فيه بعد خمسة عشر يوماً ، كما تم الاتفاق على ذلك مع فرفارا بتروفنا أمس الأول . فاضطرب آندره انطونوفتش لهذا النبأ اضطرابا شديدا ، فعاد الى حجرته ، وسرعان ما أمر بكدن الخيل . لقد أصبح لا يستطيع الاستقرار في مكان . ان نفسه ظامئة الى جوليا ميخائيلوفنا : يريد أن يتأملها مرةً أخيرة على الأقل ، وأن يبقى بقربها ولو خمس دقائق ! فلعلها تجود عليه بنظرة ، لعلها تلتفت اليه ، لعلها تبتسم له كما كانت تفعل في الماضي ، لعلها تصفح عنه ! آه ... آه ... « ماذا فعلتم بالخيل ؟ » . وبحركة غير ارادية فتح كتابا ضخما

موضوعا على المائدة ، فاذا هو يقرأ هذه الجملة التى يقولها فولتير فى كتابه «كانديد» : « كل شىء هو أحسن «ا يكون فى هذا العالم الذى هو أحسن العوالم الممكنة » • فأجرى يده بحركة تدل على الحسرة ، وخرج راكضاً، وصاح يأمر الحوذى بقوله : « الى سكفورشنيكى ! » • وقد روى الحوذى فيما بعد أن مولاه لم ينقطع طوال الطريق عن حثّه على الاسراع ، ولكن ما ان شارفا على سكفورشنيكى حتى أمره فجأة بأن يرجع أدراجه وأن يعود الى المدينة قائلاً له : « بأقصى سرعة ، أرجوك ! » • فلما صارا على مقربة من الأسوار «استوقفه من جديد» ونزل من العربة ، وعبر الطريق، ودخل فى حقل • ولكنه توقف ، وأخذ يتأمل الأزهار • ولبث على تلك الحال زمناً • حتى لقد بدا لى ذلك غريباً جداً ، بل اننى اضطربت منه اضطرابا شديدا • » • هذا ما شهد به الحوذى فيما بعد • اننى أتذكر كيف كان الجو فى ذلك الصباح : كان يوماً من أيام شهر ايلول (سبتمبر) بارداً صاحياً لكن رياحه شديدة • وأمام آندره أنطونوفتش كان يمتد منظر حزين كئيب ، هو منظر الحقول التى حُصد زرعها منذ مدة طويلة، فليس فيها الا بضع زهيرات صفر شبه يابسة تُرعشها الريح • هل خطر بباله أن يشبّه مصيره بمصير هذه الأزهار التى أذبلتها أولى موجات البرد؟ لا أظن ذلك • بل اننى لعلى يقين من أن خواطره كانت تطوف فى بعيد ، ولا تلتفت الى الأزهار ، رغم ما قاله الحوذى ، ورغم ما رواه مفوّض الشرطة التى وصل فى أثناء ذلك وحكى فيما بعد أنه رأى فى يد الحاكم باقةً من زهيرات صفراء • ان مفوّض الشرطة هذا ، فاسيلى ايفانوفتش فليبوستيروف ، الذى وصل الى مدينتنا منذ مدة قصيرة ، كان قد لفت الى نفسه الأنظار بهمته ونشاطه وحرارته وطاقته الجبارة وقوته الطافحة التى كان يبذلها فى تنفيذ أوامر رؤسائه ، وكذلك بما يلتزمه من اعتدال فى الطعام والشراب ، وهو اعتدال كأنه وُهب له فطرةً • لقد وثب

مفوّض الشرطة من العربة ، ودون أن تُربكه المشاغل الغريبة التي كان صاحب السعادة غارقاً فيها ، أسرع يقول له بلهجة زائغة ان « المدينة فى حالة غليان » •

قال آندره أنطونوفتش وهو يلفت اليه وجهاً قاسيا ، ولا يبدو عليه أنه دُهش بتاتاً ، ولا يلوح أنه يتذكر الحوذى والعربة اللذين قاداه الى هذا المكان ، حتى لكأنه فى بيته ، فى حجرته :

ـ هيه ؟ كيف ؟

ـ أنا مفوض شرطة الحى الأول ، فليبوستريوف • لقد قامت ثورة يا صاحب السعادة !

قال آندره أنطونوفتش يسأله :

ـ أهم النصابون ؟

ـ نعم يا صاحب السعادة • ان عمال مصنع شبيجولين يحدثون فوضى •

ـ عمال مصنع شبيجولين •••

لا بد أن هذا الاسم قد ذكّره بشىء ما ، حتى لقد ارتعش ، ووضع اصبعه على جبينه • وها هو ذا يتجه نحو عربته بخطى بطيئة وهو ما يزال صامتاً حالماً ، ثم يصعد الى العربة ويأمر الحوذى بأن يرجعه الى المدينة • وتبعه فليبوستريوف راكباً عربته •

اننى أتخيل أن آندره أنطونوفتش قد فكّر أثناء رحلة العودة هذه تفكيراً غامضا مبهما فى أمور كثيرة هامة ومع ذلك أستبعد أن يكون عند وصوله الى المكان قد اتخذ قرارا ما • لكنه ما ان أبصر جمهور « الثائرين » محتشداً حول درجات المدخل ، وما ان رأى حبل رجال الشرطة محيطاً بهم ، وما ان لمح رئيس الشرطة وألفاه عاجزاً عن القيام بأى عمل (ربما

عن قصد) ، وما ان وجد نفسه محط أنظار جميع تلك العيون القلقة حتى ازدحم الدم فى قلبه ، فنزل من العربة أصفر الوجه ، وقال بصوت مخنوق لاهث :

ـ أنزلوا قبعاتكم ، احسروا رءوسكم !

ثم صرخ يقول على غير توقع من أحد ، بل على غير توقع منه هو نفسه :

ـ اركعوا على ركبكم !

ولعل كل ما حدث بعد ذلك انما مردّه الى أن الأمر قد صدر عنه فجأة دون توقع . هذا ما يحدث على الجبال الروسية : هل تستطيع الزلاجة التى تنزلق على منحدر من جليد أن تتوقف فى منتصف الطريق ؟ ان من سوء حظ آندره أنطونوفتش أنه قد ظل الى ذلك الحين يظهر متســاوى المزاج . فهو لم يصرخ فى حياته يوما ، ولا ضرب الأرض بقدمه . وأمثال هذا الرجل يصبحون خطرين جدا اذا اتفق لهم يوما ، لسبب من الأسباب، أن أخذت زلاجتهم تنزلق على المنحدر .

أخذ كل شىء من حوله يدور .

وقال بصوت فيه مزيد من الصراخ والحدة والسخف المضحك .

ـ نصابون !

وتقبض حلقه . أصبح لا يعرف ماذا عساه يفعل . ولكنه كان يعلم ويحس بكل كيانه أنه سيفعل شيئاً ما .

صاحت أصوات فى الجمهور تقول : « رباه ! » . ورسم عاملٌ شاب اشارة الصليب . وأخذ ثلاثة رجال أو أربعة يركعــون . ولكن الآخرين تقدموا كتلةً واحدة وأخذوا يصرخون جميعا فى آن واحد قائلين : « يا صاحب السعادة ... لقد اتفقوا معنا على أن يكون أجرنا أربعين

كوبكا ... ولكن المدير ... انه لا يجوز له أن ... » الخ ، الخ ...
لقد كان يستحيل على المرء أن يفهم شيئاً .

وكان آندره أنطونوفتش لا يستطيع أن يدرك ما يحدث ، واأسفاه !
كان ما يزال ممسكا الأزهار بيده . وكان مؤمنا بأن الثورة قامت كايمان
ستيفان تروفيموفتش بأن زلاجةً ستقوده الى سيبريا حتماً . وكان آندره
أنطونوفتش يرى بين جمهور « الثائرين » الذين كانوا يحدّقون اليه بأعين
محملقة ، يرى كالحالم فى منامه أنه يبصر « محرّضهم » بطرس
ستيفانوفتش ، بطرس ستيفانوفتش الذى لم تنقطع صورته عن ملاحقة
صاحبنا منذ أمس ، بطرس ستيفانوفتش الذى يكرهه صاحبنا أشد الكره
ويمقته أكبر المقت .

وزأر آندره أنطونوفتش منادياً :

ـ هاتوا السياط !

فهبط على الجمهور صمت كأنه صمت الموت .

تلكم هى الوقائع التى جرت فى أول الأمر ، فيما ترويه الأخبار
وتقدره تخميناتى . أما ما حدث فالأخبار والتخمينات بشأنه أقل دقة
ووضوحاً . ومع ذلك نملك بعض المعلومات .

ظهرت السياط بسرعة غريبة ، وهذا يحمل المرء على أن يفترض أن
رئيس الشرطة كان قد تنبأ بما سيحدث فأعدّ السياط احتياطاً لكل طارىء.
ولكن لم يُجلد الا عاملان اثنان ، أو ثلاثة عمال فى أكثر تقدير . واننى
ألح على تقرير هذه الحقيقة ، لأنه زُعم زوراً وبهتاناً فيما بعد أن نصف
المتظاهرين على الأقل قد نالتهم عقوبة الجلد ، ان لم تكن قد نالتهم جميعا.
وقد اختُلقت أمور أخرى أيضا ، منها أن سيدة فقيرة لكنها نبيلة المحتد قد
مرّت بالمكان عرضاً فى ذلك الحين ، فاعتُقلت وجلدت بدون أى ذنب ؟

ومع ذلك قرأت بنفسي قصة هـــذا الجلد الملفقة ، في احـــدى جرائد بطرسبرج • ومن ذلك أيضا أن فتاةً اسمها آفدوتيا بتروفنا تارابيجين قد مرت بالمكان في طريقها الى الملجأ الذي تعيش فيه ، فاختلطت بالمشاهدين مدفوعةً الى ذلك بحب الاطلاع طبعا ، ولكنها حين رأت ما يحـــدث لم تملك الا أن تهتف قائلة « هذا عار » ، وأن تبصق اشمئزازا • فما كان من الشرطة ، فيما قيل ، الا أن قبضت عليها وجلدتها • وقـــد استولت الجرائد على هذه القصة حتى لقد نُظِّمت في المدينة حملةٌ تبرع للمرأة المسكينة ، ساهمت أنا فيها بعشرين كوبكاً • الا أنه قـــد ثبت اليوم أن تارابيجين هذه لم تكن الا أسطورة • حتى لقد ذهبت الى الملجأ بنفسي سائلاً فعلمت أن هذا الاسم مجهول هناك ، وقد استاء موظفو الملجأ أكبر الاستياء حين نقلت اليهم الشائعات التي كانت تجري في المدينـــة • ولئن ذكرت آفدوتيا بتروفنا المزعومة فلأن ما وقع لها (اذا صح أنه وقع) كاد يقع لستيفان تروفيموفتش بل لعل ذلك الحادث الذي وقع لصاحبي هـــو الذي ولَّد تلك القصة ، مع ابدال اسمه باسم تارابيجين تلك التي لم يعرف أحد من هي •

لقد أفلت مني ستيفان تروفيمـــوفتش ، لا أدري كيف ، منذ أن وصلنا الى المكان • انني وقد أوجست شراً ، أردت أن أدور به دورةً لأوصله الى منزل الحاكم ، ولكن حب الاستطلاع استولى على نفسي فوقفت أسأل أحد المارة • فلما التفت بعد ذلك كان ستيفان تروفيموفتش قد اختفى • فأسرعت أركض بغريزتي الى أخطر مكان فورا ، اذ أحسست أن زلاَّجته هي أيضاً قد أخذت تنزلق على المنحدر • فوجدته شارعاً في العمل فعلاً ، فأمسكته من ذراعه فيما أذكر ، لكنه ألقى عليَّ نظرة هادئة متكبرة ، وكان وجهه ينم عن فخامة لا حدود لها ، وقال لي بصوت فيه شيء من تكسر :

ــ « يا عزيزي » ، اذا كانوا هنا ، في هذا المكان ، على مرأى ومسمع

من جميع الناس ، يتصرفون هذا التصرف بغير أى تحـرج ، فما عسى يُنتظر من « ذاك » مثلاً ••• اذا أتيح له أن يفعل مايشاء له هواه ؟ •••

قال ذلك وهو يرتعش استياء ، ومدّ ابهامه بحركة تحدٍ وتهديد نحو فليبوستريوف الذى كان على بعد خطوتين منا ، وكان ينظر الينا بعينين محملقتين •

فجُنّ جنون رجل الشرطة غضباً ، وصرخ يقول :

ـ « ذاك » ؟ من ذا تعنى ؟ وأنت ، من أنت ؟

وجاء نحونا قابضاً يديه • وردد يلقى سؤاله بغضب يدل على شيء من الحيرة والارتباك (يجب أن أذكر أنه يعرف ستيفان تروفيموفتش أحسن معرفة) :

ـ من أنت ؟ من أنت ؟

فلو انقضت لحظة أخرى لأمسك بتلابيب صاحبى • ولكن شاء حسن الحظ أن يلتفت فون لمبكه عنـد سماع هذه الصرخات ، فتأمل ستيفان تروفيموفتش بانتباه ، وبدا عليه التردد كأنه يحاول أن يستجمع أفكاره ، ثم حرك يده باشارة تململ ، فتوقف فليبوستريوف ، فجررت ستيفان تروفيموفتش ، وأخرجته من الجمهور • ولا شك أنه كان يتمنى هـو نفسه أن ينسحب •

قلت ملحاً :

ـ بسرعة ، بسرعة ، الى البيت ! لقد نجونا ، ولم يكن ذلك الا بفضل لمبكه •

ـ ارجع الى بيتك يا صاحبى • ليس من حقى أن أعرّضك لمثل هذه

المخاطر . ان المستقبل مفتوح أمامك . أنت في مستهل حياتك ، أما أنا فقد « دقت ساعتي » ...

وصعد درجات باب منزل الحـــاكم بخطى ثابتة . وكان البـــواب السويسري يعرفني ، فقلت له اننا ذاهبان الى جوليا ميخائيلوفنا . وأ دخلنا الى صالون الاستقبال .

لم أشأ أن أترك صديقي . ولكنني قدّرت أن المزيد من الكلام لا طائل تحته ولا فائدة منه . كان وضعه وضع رجل ضحى بحياته في سبيل سلامة وطنه .

جلسنا متقابلين . فكنت أنا أقرب الى باب الدخول ، وكان هو في الطرف الآخر من الصالون ؛ وقد جلس خافضَ الرأس مفكراً ، واضعاً يديه على عصاه ، ممسكاً باليسرى قبعته ذات الحافة العريضة . ولبثنا على هذه الحال زهاء عشر دقائق .

٢

دخل لمبكه فجأة بخطى سريعة ، يتبعه رئيس الشرطة . فألقى علينا نظرة ذاهلة ثم اتجه نحو حجرة عمله دون أن يلقي الينا بالاً . ولكن ستيفان تروفيموفتش نهض وسدّ عليه طريقه ، وكان لقامته المديدة وهيئته الخاصة أثرهما فتوقف لمبكه .

دمدم لمبكه يقول مدهوشاً ، وكأنه يسأل رئيس الشرطة ، ولكن دون أن يكف عن تأمل ستيفان تروفيموفتش بانتباه :

ـ من هذا ؟

فأجاب ستيفان تروفيموفتش وهو ينحني بوقار كبير :

ـ أنا ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي ، المـوظف المحـال على التقاعد .

وظل صاحب السعادة يحدق اليه ، ولكن بنظرة كابية .

سأله الحاكم بتلك اللهجة التى تدل على نفاد الصبر وعلى الاحتقار ، تلك اللهجة التى يستعملها كبار الموظفين فى العادة ، ومدّ أذنه نحو ستيفان تروفيموفتش الذى لا شك أنه واحد يطلب التماساً أو يرجو شفاعة .

قال ستيفان تروفيموفتش :

ـ لقد فتّش منزلى فى هذا اليوم موظفٌ قال انه يفعل ما يفعل بأمرٍ من صاحب السعادة . فأنا أريد أن ...

ـ ما اسمك ؟ ما اسمك ؟

كذلك سأله فون لمبكه نافد الصبر وكأنه بدأ يفهم ، فكرر صاحبى اسمه بوقار أعظم أيضا .

ـ آ ... آ ... هو اذن أمر تلك الدعاية التى تقوم بها ... أيها السيد ، لقد ظهرت بمظهر يدل على أنك ... هل أنت أستاذ جامعة ؟ هل أنت أستاذ جامعة ؟

ـ فى الماضى تشرفت بالقاء بضع محاضرات على الشباب فى الجامعة، و ...

ـ على الشباب ؟ على الشباب ؟

بدا على لمبكه الارتجاف والارتعاش ، مع أننى أراهن على أنه لمّا يدرك الأمر بعد ، ولا كان يعرف من ذا يكلم .

وصاح يقول وقد استبد به غضب مفاجىء :

ـ لن أقبل هذا ! لن أسمح بهذا ! أنا لا أقبل الشباب • انهم يوزعون منشورات تحريضية فى كل مكان ! هذا هجوم على المجتمع، هذه قرصنة، أنتم جميعاً نصّابون ! ••• ماذا تطلب منى ؟

ـ ان زوجتك هى التى طلبت منى أن أقرأ بضع صفحات فى الحفلة التى تقيمها غداً • أنا لا أطلب شيئاً • أنا أدافع عن حقوقى •••

ـ فى الحفلة ؟ الحفلة لن تكون أيها السيد ! لن أسمح باقامة حفلتكم هذه ؟ محاضرات ؟ محاضرات ؟

كذلك زأر غاضباً •

فقال ستيفان تروفيموفتش :

ـ أود يا صاحب السعادة أن تعاملنى بمزيد من الكياسة ، دون أن تضرب الأرض بقدمك ، ودون أن تصرخ فى وجهى كما يصرخ المرء فى وجه صبى •

ـ هل تعرف من ذا تكلم ؟

ألقى عليه فون لمبكه هذا السؤال واحمر احمرارا شديدا • فأجاب ستيفان تروفيموفتش :

ـ أعرف من ذا أكلم يا صاحب السعادة •

ـ أنا أحمى المجتمع ، وأنت تريد تهديمه، نعم، أنت ت•••هد•••م المجتمع ! ثم انك ••• تذكرتُ الآن ••• ألم تكن معلماً عند الجنرالة ستافروجين ؟

ـ نعم ••• كنت ••• معلماً ••• عند الجنرالة ستافروجين •

ـ وخلال عشرين عاما ما برحت تنشر من حولك الأفكار التى •••

أ'نظر الى ثمارها ! ••• أظن أنني لمحتك منذ قليل في الساحة • حذار مع ذلك أيها السيد ! ان ميولك معروفة • ثق أنني أراقبك • لا يمكن أن أسمح بمحاضرات ، لا ، مستحيل • لا تطلب مني أنا مثـــل هـذا الطلب •

وهمّ أن يتابع طريقه • فقال ستيفان تروفيموفتش :

ـ أكرر أنك مخطىء يا صاحب الســـعادة • ان زوجتك هي التي طلبت مني لا أن ألقي محاضرة بل أن أقرأ شيئاً في حفلة الغد • ولكنني الآن أرفض هذا الطلب • وانما أنا جئت لأرجوك أن تتفضل فتشرح لي سبب تفتيش بيتي اليوم اذا كان ثمة سبب • لقد أ'خذت مني كتب وأوراق شتى ورسائل أحرص عليها ، وحُمل ذلك كله على نقالة •••

هنا انتفض لمبكه واحمر احمرارا شديدا وسأله :

ـ من الذي فتش بيتك ؟

لقد أدرك أخيرا ما يجري • واستدار بحركة مفاجئة نحو رئيس الشرطة • وفي تلك اللحظة نفسها ظهرت عنـــد عتبة الباب قامة بلومر الطويلة المحدودبة الخرقاء •

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يومىء الى بلومر :

ـ هذا هو الذي فتش بيتي •

فتقدم بلومر معترفا بفعلته ولكنه غير نادم عليها • فقال له فون لمبكه غاضباً حانقاً :

ـ « انك لا تفعل الا حماقات » (بالفرنسية) •

ثم لم يلبث أن عاد الى صوابه وتغير وضعه • فقال متمتماً محمر الوجه متحير الهيئة :

ـ معذرةً ... ربما كان ذلك كله خراقةً لا أكثر ... ربما كان غلطة ... نعم ، غلطة ...

قال ستيفان تروفيموفتش :

ـ ياصاحب السعادة لقد أتيح لى فى عهد شبابى أن أشهد واقعة ذات دلالة خاصة . فى ذات مساء ، فى دهليز مسرح من المســارح ، اقترب سيدٌ من أحد المشاهدين بغتةً ، فصفعه على وجهه صفعة مدوية على مرأى من جميع الناس . ولكنه سرعان ما أدرك أن الرجل الذى ناله بهذا الأذى ليس هو من كان يريد أن يصفعه وانما هو رجل يشبهه بعض الشبه ، فما كان منه الا أن نطق بهذه الكلمات نفســها التى تقـولها أنت يا صاحب السعادة ، ولكنه قالها بلهجة غاضبة مستعجلة كرجل لا يريد أن يضـيع وقته بغير طائل : « لقد أخطأت ... معذرة ... هذه غلطة ... غلطـة لا أكثر ... » . فلما أخذ الرجل المظلوم يحتج ، لأنه ظل مستاءً رغم كل شيء ، ألحَّ الظــالم قائلاً بانزعاج : « ألا يكفى أننى اعترفت بأنها غلطة . فما بالك تصيح هذا الصياح ! » .

قال فون لمبكه وهو يبتسم ابتسامة بغير معنى :

ـ هذا ... مضحك جدا ... مضحك حتما ... ولكن ألا ترى مدى ما أنا فيه من شقاء ؟

لقد رفع صوته حتى كاد يكون صراخاً أثناء النطق بهذه الكلمات ، ويخيَّل الىَّ أنه همَّ أن يخفى وجهه بيديه .

فهذه الصيحة الأليمة ، بل أكاد أقول هذه الانتحابة المفاجئة ، كانت فوق ما يحتمل قلب الانسان . لعل آندره أنطونوفتش لم يدرك ادراكا واضحا ما جرى منذ الأمس ، الا فى هذه اللحظة . وسرعان ما أعقبت هذا الاشراقَ المباغت نوبةُ يأس ذليل لا حدود له . من يدرى ؟ لعـله

كان سينفجر باكيا ناشجا بعد لحظة أخرى • تأمله ستيفان تروفيموفتش مبهوتاً مصعوقاً ، ثم حنى رأسه وقال بصوت مؤثر :

ـ يا صاحب السعادة ، لا تلق بالاً الى شكوى رجل عجوز نقاق • ولكن قل لهم أن يردّوا الىّ كتبى وأوراقى •••

واضطر ستيفان تروفيموفتش أن يقطع كلامه لأن جوليا ميخائيلوفنا داهمت الغرفة مع حاشيتها صاخبةً لاغطة • ولكن يجب علىّ أن أصف المشهد الذى أعقب هذا ، أن أصفه بجميع تفاصيله ما وسعنى ذلك •

٣

أقول أول ما أقول ان الحاشية كلها ، وقد وصلت على ثلاث عربات، قد ظهرت فى الصالة الواسعة دفعةً واحدة • ان لميخائيلوفنا مدخلاً خاصا يقع على يسار الباب ويؤدى الى حجراتها رأساً ، ولكن الجميع قد مروا بالصالة ، ربما لمعرفتهم بأن ستيفان تروفيموفتش لا بد أن يكون فيها ، لأنهم قد أطلعهم ليامشين على ما وقع له ، كما أطلعهم على قضية عمال مصنع شبيجولين • كانت جوليا ميخائيلوفنا غاضبة من ليامشين لأسباب لا أعرفها، فلم تدعه الى مشاركتهم فى رحلتهم الى سكفورشنيكى • لذلك عرف قبل غيره ما حدث بالمدينة • وقد سرّه كثيراً أن ينقل أنباء سيئة كهذه الأنباء ، فاستأجر حصانا عجوزا وأسرع يجرى فى طريق سكفورشنيكى للقاء جوليا ميخائيلوفنا • وأغلب ظنى أن جوليا ميخائيلوفنا رغم ثقتها قد شعرت ببعض الاضطراب والقلق ، ولو الى حين ، حين علمت بهذه الأحداث الخارقة • ليس الجانب السياسى من هذه الأحداث هو الذى يقلقها على كل حال : فقد سبق أن أوحى اليها بطرس ستيفانوفتش مرارا أن المشاغبين من عمال مصنع شبيجولين لا بد أن يُجلدوا ، وكان بطرس ستيفانوفتش يتمتع لديها

بثقة مطلقة منذ بعض الوقت • ولا شك أنها قالت تحدث نفسها : « لكنه•••
سيدفع لى ثمن هذا غالياً على كل حال » وكانت تعنى زوجهـــا طبعا •
يجب أن أذكر عابراً أن المصادفة شاءت بما يشبه العمد أن لا يشارك
بطرس ستيفانوفتش هذه المرة فى الرحلة الى سكفورشنيكى ، وأنه لم
يُر طوال ذلك الصباح • ويجب أن أذكر أيضا فى هذه المناسبة أن فرفارا
بتروفنا قد رجعت الى المدينة مع ضيوفها (فى مركبة جوليا ميخائيلوفنا) ،
مصرةً اصرارا مطلقا على المشاركة فى آخر اجتماع للجنة تنظيم الحفلة ،
وهو الاجتماع الذى يجب أن يُعقد فى الغد • فلا بد اذن أن تكون الأنباء
التى نقلها ليامشين عن ستيفان تروفيموفتش قد همتها كثيراً ، بل لعلهـــا
أقلقتها أيضا •

وقد صُفّى الحساب مع آندره أنطونوفتش بغير ابطاء • ان الحاكم
قد حزر ما ينتظره منذ رأى زوجته الفاتنة • كانت مشرقة الوجه آخذة
المحيا ، ترتسم على شفتيها ابتسامة لذيذة ، وها هى ذى تقترب من ستيفان
تروفيموفتش بحركة رشيقة ، فتمدُّ اليه يدها الصغيرة المغمدة فى قفاز ،
وتخاطبه بأرق عبارات المديح : لكأنها لم تفكر طوال هذا الصباح الا فى
الطريقة التى ستستقبل بها ستيفان تروفيمـــوفتش معبّرة له عن فرحها
برؤيته عندها أخيرا • لم تشر أى اشارة الى تفتيش منزله فى هذا الصباح،
كأنها تجهل كل شىء • ولم تقل لزوجها كلمة واحدة ، ولا ألقت عليـه
نظرة ، فكأنه غير موجود • وفى مقـــابل ذلك أسرعت تصـــادر ستيفان
تروفيموفتش وتقتاده الى الصالون ، متظاهرةً بأنها تجهل أنه كان بسبيل
مكاشفة مع آندره أنطونوفتش ، لتدل بذلك على أن هذه المكاشفة لا قيمة
لها البتة • يخيَّل الىَّ أن جوليـــا ميخائيلوفنا ، رغم ما أظهرته من أبهة
وعظمة ، قد ارتكبت فى هذه المرة غلطة ضخمة • ولا شك أن كارمازينوف
قد شارك فى ذلك مشاركة خاصة على كل حال • انه تلبيةً لالحاح جوليا

ميخائيلوفنا كان قد اشترك في رحلة ذلك الصباح ، فبذلك زار فرفارا بتروفنا ولو زيارة غير مباشرة ، فافتتنت فرفارا بتروفنا بزيارته • وحين دخل الآن آخر الداخلين فرأى ستيفان تروفيموفتش منذ صار في عتبة الباب ، أطلق صيحة تعبر عن الحبور ، وركض اليه يعانقه ، فبذلك قطع الكلام على جوليا ميخائيلوفنا •

ـ ما أكثرها من سنين !••• أخيراً ••• «أيها الصديق الممتاز» !•••

وقبّله ماداً اليه خدّه ، فرأى ستيفان تروفيموفتش نفسه مضطراً الى تقبيل الخد الممدودة اليه ، فاقداً صوابه بعض الشيء •

وقد قال لي ستيفان تروفيموفتش في ذلك المساء ، حين تذكر أحداث النهار : « يا عزيزي ، لقد تساءلت في تلك اللحظة من منا نحن الاثنين أشد جبناً وحقارة من الآخر : أهو ، الذي قبلني ليذلني بعد هنيهة ، أم أنا ، الذي أحتقره وأحتقر خدّه ، ومع ذلك قبّلت تلك الخد في حين كان يمكنني أن أشيح عنها ••• آه ! ••• » •

قال له كارمازينوف :

ـ هيه ! تكلم ! تكلم ! قص عليّ كل شيء •

كأن المرء يستطيع أن يروي ببضعة كلمات قصة حياة خمسة وعشرين عاماً • ولكن هذا الطيش كان في نظره علامة لهجة تظهر « التفوق » •

قال ستيفان تروفيموفتش بتعقل كبير ، وبلهجة ليس فيها اذن أي اظهار للتفوق :

ـ لاحظ أننا التقينا آخر مرة بموسكو ، في الوليمة التي أقيمت تكريما لجرانوفسكي منذ أكثر من أربعة وعشرين عاما •••

فقاطعه كارمازينوف يقول بلهجة الألفة وبصوت حاد ، وهو يشد على كتفه متحمساً تحمساً فيه شيء من الافراط :

ـ « ذلك الانسان العزيز ! » ••• انقلينا الى مسكنك بأقصى سرعة يا جوليا ميخائيلوفنا ، فسنمكث هناك ، فيروى لنا كل شيء •

وقد قال لى ستيفان تروفيموفتش فى مساء ذلك النهار وهو يرتجف اشمئزازا وتقززا : « مع ذلك لم يكن بينى وبين هذا النمام العجوز أية صداقة حميمة في يوم من الأيام • وكنت فى شبابى أكرهه وكان يبادلنى كرهاً بكره طبعاً ! » •••

سرعان ما امتلأ صالون جوليا ميخائيلوفنا • وكانت فرفارا بتروفنا مهتاجة اهتياجا شديدا ، رغم أنها كانت تحاول أن تظهر بمظهر من لايبالى• لكننى رأيت نظـــراتها عدة مرات منقـــلة بكره وبغض تلقيهـــما على كارمازينوف ، ورأيت هذه النظـــرات مثقلة بغضب تصـــبه على ستيفان تروفيموفتش ، غضب مستبَق ، غضب تغذيه غيرة ويغذيه حب : فلو أن ستفان تروفيموفتش غلط هذه المرة فرضى أن يغلبه كارمازينوف على مرأى من الجميع ، اذن لكان يمكن فيما أعتقد أن تهجم عليه فتخنقه • نسيت أن أقول ان ليزا كانت هناك أيضاً • ما رأيتها فى حياتى أشد مرحاً مما كانت حينذاك ، ولا أقل اكتراثاً ، ولا أزخر فرحاً • وكان مافريكى نيقولايفتش الى جانبها طبعا • وبين جمهرة السيدات الشابات ، والشـــبان الأوغاد الذين كان المجون يُعدُّ فى نظرهم مرحاً وكان الاستهتار البشـــع يُعد فى نظرهم ذكاء ، رأيت وجوهاً أخرى أيضاً : رأيت بولنديا ماراً بالمدينة كان يتحرك ويسعى حول الجميع ، ورأيت طبيبا ألمانيا هو عجوز قوى البنية كان يضحك ضحكا مجلجلا لكل كلمة من الكلمات الظريفة التى يطلقها هو ، ورأيت أميراً شابا واصلاً من بطرسبرج هو نوع من

آلة متحركة ، بارد الهيئة مرسوم القسمات ، تحيط بعنقه يافة عالية علواً خارقاً . ولكن كان واضحا أن جوليا ميخائيلوفنا فخورة جدا بوجود هذا الضيف ، وأنها شديدة الاهتمام بما قد نراه من رأى فى صالونها .

بدأ ستيفان تروفيموفتش يتكلم فقال وهو يجلس على الديوان جلسه رشيقة ، وينطق بالكلمات نطقاً شبيهاً بنطق الكاتب الكبير :

ـ يا سيد كارمازينوف ، ان حياة انسان ينتسب الى عصرنا ويملك اعتقادات معينة ، لا بد أن تكون متشابهة بالضرورة ، ولو امتدت على فترة خمس وعشرين سنة ...

تخيل الطبيب أن ستيفان تروفيموفتش قد قال شيئاً مضحكاً جدا ، فانفجر يقهقه قهقهة متقطعة تشبه أن تكون صهيل خيل . فرشقه ستيفان تروفيموفتش بنظرة تصطنع معنى الدهشة . ولكن ذلك لم يحدث فى الشيخ أى أثر . والتفت الأمير نحوه كتلةً واحدة أيضا ، وتفرس فيه يفحصه بنظارتى أنفه ، ولكن دون أى تعبير عن حب الاطلاع .

تابع ستيفان تروفيموفتش كلامه فقال مكرراً عن عمد ، متفاخراً دون تحرج من اختيار الألفاظ :

ـ ... لا بد أن تكون متشابهة بالضرورة . تلك كانت حياتى خلال ربع القرن هذا ، و « لما كان عدد الرهبان أكبر من عدد العقول » (بالفرنسية) ، ولما كنت ممن يشاركون فى هذا الرأى كل المشاركة ، فقد ترتب على ذلك أنه فى خلال ربع القرن هذا من الزمان ...

دمدمت جوليا ميخائيلوفنا تقول وهى تلتفت نحو فرفارا بتروفنا التى كانت جالسةً الى جانبها :

ـ رائع ... الرهبان ...

فأجابت فرفارا بتروفنا على ذلك بنظرة تفيض زهواً وفخراً • ولكن كارمازينوف لم يستطع أن يحتمل هذا النجاح الذى ظفرت به الجمله الفرنسية ، فأسرع يقاطع ستيفان تروفيموفتش قائلاً بصوته الحاد الصارخ:

ـ أما أنا فهادىء من هذه الناحية • اننى أقيم فى كارلسروهه منذ سبعة أعوام ، وحين قرر المجلس البلدى فى العام الماضى انشاء قناة جديدة للماء شعرت فى أعماق نفسى أن انشاء القنوات فى كارلسروهه أعزّ فى نفسى وأحب الى قلبى وأهم فى نظرى من جميع أحداث وطنى الجميل الغالى ••• ومن جميع ما يسمى هنا بالاصلاحات وما شاكل ذلك •••

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يزفر زفــــرة ذات دلالة ، ويحنى رأسه :

ـ اننى أفهمك ، وان كان قلبى يحتج •

تهللت جوليا ميخائيلوفنا جذلاً : ان الحديث يجرى الآن مجرى جدياً لبرالياً •

وسأل الطبيب العجوز مستفهماً :

ـ أهى أقنية مجارٍ ؟

ـ بل أقنية لمياه الشرب يا دكتور ، أقنية لمياه الشرب ، حتى لقــد ساعدتهم فى كتابة المشروع •

فانطلق الطبيب يضحك ضحكاً قوياً ، وقلّده آخرون ، مستهزئين به • ولكنه لم يفطن الى ذلك ، حتى لقد بدا عليه الحبور من اشاعته هذا الجو من المرح •

قالت جوليا ميخائيلوفنا مستعجلةً التدخل فى الحديث :

ـ معذرة يا كارمازينوف ، اننى لا أستطيع أن أوافق على رأيك •

ولست أستغرب أن تشعر براحة فى مدينة كارلسروهه ، ولكنك تحب أن تموّه على الآخرين ، ونحن فى هذه المرة لا نصدّقك • من ذا بين جميع الكتاب الروس ، الكاتبُ الذى أبدع نماذج تمثل الفكر الحديث أصدق تمثيل ، وتنبأ بمشكلات عصرنا أكثر من سائر الكتاب ، ودلّ على الملامح المميِّزة لرجل العمل المعاصر أوضح دلالة ؟ هو أنت ، أنت وحدك ، ولا أحد سواك • فكيف تريد أن تقنعنا الآن بأنك لا تكترث بروسيا ، وبأن اهتمامك الأكبر انما ينصب على انشاء أقنية مياه الشرب بمدينة كارلسروهه؟ هأ هأ هأ !

قال كارمازينوف بصوته المألوف :

ـ نعم ، هذا حق • لقد صورت فى شخصيته بوجودين جميع عيوب أنصار السلافية ، وصورت فى شخصية نيكوديموف جميع عيوب أنصار الغرب •••

دمدم ليامشين يقول :

ـ « جميعهم » ! قالها بنفسه !

ـ ولكننى لا أفعل هذا الا عابراً ، تزجيةً للوقت فحسب ، وارضاءً للمطالب المستمرة لدى أهل وطنى •••

عادت جوليا ميخائيلوفنا الى الكلام فقالت متحمسة :

ـ لعلك تعلم يا ستيفان تروفيموفتش أننا سيفرحنا غدا أن نسمع صفحات جميلة ممتعة ••• هى أثر من أحدث وأروع الآثار التى كتبها سيميون ايجوروفتش • العنوان : « شكرا » • انه يعلن لنا فى هذا العمل الذى ألفه أنه لن يكتب بعد اليوم أبداً ، بأية حال من الأحوال ، ولو جاءت جميع ملائكة السماء أو جميع شخصيات المجتمع العالى تضرع اليه أن ينثنى

عن عزمه وأن يتراجع عن قراره . الخلاصة أنه يدع القلم الى الأبد . وهذا الأثر الرشيق الجميل الذى جعل عنوانه « شكرا » ، انما يتجه به الى الجمهور شاكرا له ما أبدى من حماسة دائمة متصلة لأعماله طوال مدة حياته الأدبية التى نذرها لخدمة الفكر الليبرالى الروسى .

كانت جوليا ميخائيلوفنا فى ذروة الافتتان والحبور .

فقال كارمازينوف وقد استسلم لحنان القلب ورقة العاطفة :

ــ نعم ، سأودع الجمهور . سأقرأ « شكرا » ، ثم أرحل... وهناك، فى كارلسروهه ... سأغمض العينين ...

انه ، كعدد كبير من كبار كتابنا (وما أكثرهم ، كبــار كتابنا) لم يستطع أن يصمد للمديح وأن يقاوم تأثيره ، بل ضعف له بسرعة ، رغم ذكائه ، وذلك أمر يُغفر له على كل حال فيما أعتقد . يقال ان واحدا من أدبائنا الذين يقارَنون بشكسبير قد أعلن يقول ذات يوم على حين فجأة : «هكذا نحن معشر الرجال العظام ، لا نملك أن نتصرف غير هذا التصرف» الخ . قال ذلك حتى دون أن يحس به .

تابع كارمازينوف كلامه يقول :

ــ هناك ، فى كارلسروهه ، سوف أغمض عينىَّ . اننا معشر الرجال العظام لا نملك متى أنهينا رسالتنا الا أن نغمض أعيننا بأقصى سرعة ، دون أن ننتظر مكافأة . ذلك ما سأفعله .

قال الألمانى وقد انطلق يضحك ضحكاً شديدا :

ــ قل لى عنوانك ، وسأجىء أزور قبرك فى كارلسروهه .

وقال أحد الشبان الصغار الذين كانوا موجودين :

ــ فى هذا الزمان ، يُشحن الموتى فى القطار .

فانفجر لیامشین یضحك مفتوناً • وقطبت جولیا میخائیلوفنا حاجبیها • وانهم لكذلك اذا بستافروجین یدخل فیصرفهم عما هم فیه •

قال ستافروجین متجهاً فی أول الأمر الی ستیفان تروفیموفتش :

ـ هه ! لقد رُوی لی أنهم اقتادوك الی قسم الشرطة •

فقال ستیفان تروفیموفتش مازحاً :

ـ لا بل هی قضیة « خصوصیة » •

فقالت جولیا میخائیلوفنا :

ـ ولكننی أرجو أن لا یكون لها أی أثر علی ما طلبته منك • اننی آمل رغم الانزعاج المؤسف الذی تعرضت له وأشرت الیــه ، والذی لا أعرف عنه شیئاً البتة حتی الآن ، أن لا تخیّب ظننا وأن لا تحرمنا من متعة الاستماع الیك فی الصبیحة الأدبیة •

ـ لا أدری ••• أنا ••• الآن •••

ـ حقا اننی تعیسة جدا یا فرفارا بتروفنا ••• ففی اللحظة التی أتوق فیها الی أن أعرف معرفة شخصیة واحدا من ألمع المفكرین الروس ومن أكثرهم استقلالاً فی الرأی ، أری ستیفان تروفیموفتش یرید الابتعاد عنا ! •••

قال ستیفان تروفیموفتش :

ـ كان علیّ حتماً أن أتظاهر بأننی لم أسمع هذا المدیح الذی یُقال بصوت عالٍ ، ولكننی لا أستطیع أن أصدّق أن شخصی الضعیف یمكن أن یكون ضرورة لا غنی عنها للحفلة التی تزمعین اقامتها • اننی علی كل حال •••

هنا دخل بطرس ستیفانوفتش بخطاه السریعة وصاح یقول :

ـ ولكنكم ستفسدونه بالدلال • فما كدت أفلح في تعليمه أن يسير مستقيما حتى تدفقت عليه في صباح يوم واحد ضربة تلو ضربة : فمن تفتيش الى اعتقال الى شرطي يمسك بتلابيبه ، ثم ماذا أرى الآن ؟ أرى السيدات ينشرن حوله البخور في صالون الحاكم ! انه الآن مفتون بنفسه• أنا من ذلك على يقين • انه لم يحلم بمثل هذا الانتصار في يوم من الأيام• انني أتخيل ما سيقوله الآن عن الاشتراكيين من سوء !

قالت جوليا ميخائيلوفنا بقوة وعزم :

ـ مستحيل يا بطرس ستيفانوفتش ! ان الاشتراكية فكرة أعظم من أن ينكرها ستيفان تروفيموفتش •

فقال ستيفان تروفيموفتش وهو ينهض بأبهة نبيلة :

ـ الفكرة عظيمة ، ولكن الذين يعتنقونها ليسوا بالعمالقة دائما « وحسبنا هذا يا عزيزي ! » (بالفرنسية) •

ولكن وقع في تلك اللحظة حادث لا يمكن أن يكون في حسبان أحد أن يقع • ان فون لمبكه موجود في الصالون منذ بعض الوقت ، ولكن الحضور تظاهروا بأنهم لم يلاحظوا وجوده رغم أنهم رأوا دخوله جميعا ؛ كما أن جوليا ميخائيلوفنا ظلت وفية لأسلوبها فاستمرت تتجاهل زوجها • كان فون لمبكه جالسا قرب الباب ، قاسي الهيئة مكفهر الوجه ، يصغي الى ما يدور من أحاديث • فلما أشير الى الأحداث التي وقعت في الصباح اضطرب على كرسيه قلقاً ، ثم أدار نظرته نحو الأمير • كان واضحا أن الياقة الضخمة الطويلة التي تلف عنق الأمير قد أثرت فيه تأثيراً شديدا • وان دخول بطرس ستيفانوفتش المداهم ، ودوي صوته ، قد جعلاه يرتعش • فما ان أنهى ستيفان تروفيموفتش جملته عن الاشتراكيين حتى اقترب منه آندره أنطونوفتش فون لمبكه ، دافعا ليامشين الذي كان في

طريقه والذى تقهقر على حين فجأة مصطنعا الدهشة ماسحاً كتفه كأن فون لمبكه قد صدمها صدماً عنيفا • قال فون لمبكه :

ـ كفى !

وأمسك يد ستيفان تروفيموفتش بحركة قوية روّعته ، وضغطها ضغطاً شديدا • وتابع كلامه يقول :

ـ لقد انحسر القناع عن وجوه النصابين فى هذا الزمان • لا تقل كلمة واحدة أخرى • لقد اتُخذت الاجراءات •••

هذه الكلمات التى قيلت بصوت عالٍ ولهجة قاطعة ، قد دوّت فى الصالون كله وأحدثت شعورا شاقا أليماً • أحس الجميع أن شيئاً مزعجاً سيحدث • ورأيت جوليا ميخائيلوفنا يمتقع وجهها ويصفر لونها • غير أن هذا المشهد قد انتهى بحادث مضحك • فان لمبكه ، بعد أن أعلن أن الاجراءات قد اتُخذت ، استدار على حين فجأة ، واتجه بسرعة نحو الباب ، لكنه ترنح عند الخطوة الثانية ؛ اذ تعثرت قدمه بالسجادة ، فكاد يسقط على الأرض طريحاً •

توقف فون لمبكه لحظة ، وتأمل السجادة ، وقال بصوت عالٍ : «يجب تبديل هذا » ، وخرج • فركضت جوليا ميخائيلوفنا وراءه • وسرعان ما أخذ الجميع يتكلمون فى آن واحد • وسمعت بين لغطهم هذه الكلمات « مجنون » ، « مختل » ، « نوبة » ••• وكان بعضهم يلطم جبينه بالاصبع • وفى ركن من الأركان رفع ليامشين اصبعين الى رأسه • وخفض بعضهم أصواتهم فأشاروا الى نزاعات عائلية • ومع ذلك لم ينصرف أحد ، بل لبثوا ينتظرون • اننى أجهل الاجراءات التى اتخذتها جوليا ميخائيلوفنا ، ولكنها رجعت بعد خمس دقائق باذلةً جميع جهودها من أجل أن تبدو هادئة • وجواباً عن الأسئلة التى ألقيت عليها ، قالت ان آندره أنطونوفتش ثائر

الاعصاب قليلاً ، وان الأمر هيّن يسير ، وانه يعانى من أمثال هذه النوبات الصغيرة منذ طفولته ، وان حفلة الغد ستسرّى عنه كثيراً . وانقاذاً للمظاهر لا أكثر ، وجّهت الى ستيفان تروفيموفتش بضع كلمات من مديح أيضا ، ودعت أعضاء اللجنة الى اتخاذ أماكنهم لعقد الاجتماع . وعندئذ فقط انما قام أولئك الذين ليسوا أعضاء فى اللجنة ، من أجل ان ينصرفوا . غير أن الأحداث الأليمة التى وقعت فى ذلك النهار المشئوم لم تكن قد انتهت بعد.

حين دخل نيقولاى فسيفولودوفتش ، لاحظت النظرة الفاحصة التى حدقت بها اليه ليزا . حتى لقد بلغت من طول النظر اليه والتأمل فيه أن ذلك لفت الانتباه أخيرا . ورأيت مافريكى نيقولايفتش يميل عليها ليكلمها بصوت خافت فى أغلب الظن . ولكنه عـدل عن رأيه ، وعاد ينتصب فجأة ، وشمل الجمع بنظرة كأنه يريد أن يعتذر عما بدر منه . وقد أثار نيقولاى فسيفولودوفتش شيئاً من حب الاطلاع هو أيضا . كان وجهه أشد شحوباً من عهدنا به ، وكانت نظرته تبدو ذاهلة ذهولاً خاصاً . ولاح عليه أنه لم يسمع جواب ستيفان تروفيموفتش عن السؤال الذى وجهه اليـه حين دخل ، بل أنى لأظن أنه نسى أن يحيى ربة الدار . أما ليزا فقـد أغفل حتى النظر اليها . وانى لواثق على كل حال بانه لم يقصد ذلك ولم يتعمده : كل ما هنالك أنه لم يلاحظها . وفجأة ، بعد صمت قصير أعقب اقتراحَ جوليا ميخائيلوفنا بافتتاح اجتماع اللجنة فوراً ، دوّى صوت ليزا الرنان مناديا ستافروجين ، متعمدا أن يسمعه الجميع طبعاً .

ـ نيقولاى فسيفولودوفتش ، ان رجلاً يسمى الكابتن ليبـادكين ، ويدعى أنه قريبك ، أنه أخو زوجتك ، يبعث الىّ رسائل غير لائقة يتشكى فيها منك ويعرض علىّ أن يفضى الىّ بأسرار تخصك . فاذا صح أن هذا الرجل قريبك ، فاحظر عليه أن يهيننى وضع حداً لأفعاله .

كانت هذه الكلمات تشتمل على تحدٍ رهيب . وقد أدرك ذلك جميع

الحضور • ان التهمة واضحة • ولكن من الجائز أن تكون ليزا قد قذفتها دون أن تدرك ما تفعل ، كانسان يلقى بنفسه من أعلى سطح مغمضاً عينيه

ولكن جواب نيقولاى فسيفولودوفتش كان أدعى الى الدهشة وأبعث على الذهول أيضا •

لم يبدُ عليه شيء من الاستغراب بتاتا ، وأصغى الى كلام ليزا بانتباه شديد وهدوء كامل • ولم يعبر وجهه عن اضطراب ولا عن غضب • وببساطة هائلة ولهجة ثابتة بل متعجلة انما أجاب عن السؤال المحتوم قائلا :

ــ نعم ، من سوء حظى أن بينى وبين هذا الرجل قرابة • لقد تزوجت أخته منذ زهاء خمس سنين • وثقى أننى سأبلغه مطالبك فى أقرب فرصة ، وانى لأضمن لك أن يكف عن ازعاجك بعد اليوم •

لن أنسى ، ماحييت ، الهول الذى ارتسم على وجه فرفارا بتروفنا • لقد انتصبت زائغةَ الهيئة ، رافعةً ذراعها اليسرى فوق رأسها كأنما لتحميه • ونظر اليها نيقولاى فسيفولودوفتش ، ثم تأمل ليزا ، ثم طاف ببصره على سائر المشاهدين • وألمّت بشفتيه ابتسامة ، وغادر الصالون بغير تعجل • وفى اللحظة التى اتجه فيها نحو الباب نهضت ليزا عن ديوانها فجأة بحركة قوية ، وهمّت أن تركض وراءه • ولكنها سيطرت على نفسها فأمسكت عن الجرى ، وخرجت بهدوء ، دون نظرة تلقيها على أحد ، ودون كلمة تقولها لأحد ، يتبعها مافريكى نيقولايفتش طبعاً •••

لن أقول شيئاً عن الشائعات التى جرت فى المدينة فى ذلك المساء نفسه • ولقد سجنت فرفارا بتروفنا نفسها فى منزلها لا تبارحه • أما نيقولاى فسيفولودوفتش فيقال انه ذهب رأساً الى سكفورشنيكى ، حتى دون أن يرى أمه • وفى المساء أرسلنى ستيفان تروفيموفتش الى عند « تلك الصديقة الغالية » (بالفرنسية) راجياً أن تأذن له بأن يجيئها زائراً • ولكننى لم

أستقبل في منزلها • كان ستيفان تروفيموفتش متأثراً تأثراً رهيباً ، حتى لقد كانت الدموع تترقرق في عينيه • كان يكرر على مسمعي بغير انقطاع : « زواج كهذا الزواج ! يا لها من كارثة للأسرة ! » • ولكن ذلك كان لا يمنعه من التفكير في كارمازينوف ، وشتمه شتماً عنيفاً ، وأن يجدّ في اعداد قراءة الغد ، مكرراً حركاته أمام مرآة (هذه طبيعة فنية) ، مستحضراً في ذاكرته على سبيل تمليح كلامه جميع الكلمات الظريفة وجميع النكات القائمة على الجناس اللفظي التي سبق له أن هيأها ودوّنها في دفتر خاص •

ـ يا صديقي ، أنا أفعل ذلك كله في سبيل فكرتنا العظيمة • «ياصديقي العزيز » ، انني أدع الانزواء الذي ألزمت به نفسي مدة خمسة وعشرين عاما ، وأرحل ••• الى أين ؟ لا أدري بعد ••• لكنني أرحل ! •••

الجزء الثالث

الفصل الأول

الحفلة



الحفلة رغم جميع الأحداث التى جرت أمس • وفى اعتقادى أنها كانت ستُقام حتى ولو كان لمبكه قد قضى نحبه البارحة • فالى هذا الحد كانت اقامة الحفلة هامةً فى نظر جوليا ميخائيلوفنا • لقد ظلت الى آخر لحظة ـ وا أسفاه ! ـ مصرةً على عماوتها، لا تدرك الحالة النفسية التى كان عليها الناس • ومع ذلك ما من أحد كان يتصور أن ذلك النهار الفخم يمكن أن ينتهى بغير فضيحة خطيرة ما ، أو بدون «خاتمة» على حد تعبير أولئك الذين كانوا يفركون أيديهم من الجذل سلفاً • صحيح أن كثيراً من الناس كانوا يحاولون أن يصطنعوا هيئة مكفهرة متشائمة ، لكننا نستطيع أن نقول بوجه عام ان الروس يجدون فى الفضائح والمشاكل لذةً قصوى• على أن الواقع هو أن هناك شيئاً آخر أخطر شأناً من هذا الظمأ الى الفضائح:

انه حنق عام ، انه نوع من كره وحشى كاسر • يبدو أن جميع الناس كانوا مغتاظين ، وكانوا يتوقون الى تغير ما ، أياً كان هذا التغير • كان يرين علينا استخفاف غريب ، واستهتار مقصود • السيدات وحدهن كنَّ ثابتات الرأى ، ولكن فى أمر واحد : هو هذا الكره الساحق الماحق الذى يحملنه لجوليا ميخائيلوفنا ، والذى كانت المسكينة لا يخطر لها على بال • لقد ظلت

الى آخر لحظة مقتنعه بأنها محاطة بمحبة الناس جميعا ، وأن الناس مخلصون لها « اخلاصاً متعصباً » .

سبق أن ذكرت أن أنواعا شتى من صغار الأشرار قد ظهرت في مدينتنا . ان أمثال هــؤلاء ينبجسون في عهود الاضــطراب ، في عهود الانتقال ، في كل زمان ومكان . لست أعنى الأشخاص الذين يسمون « متقــدمين » ، والذين ليس لهــم من هم الا أن لا يكونوا متأخرين متخلفين ، والذين تكون لهم في أكثر الأحيان غاية محددة بعض التحديد مهما تكن هذه الغاية ســخيفة . لا ، فانما أنا أعنى الأوغاد . ان الوغد موجود في كل مجتمع ، ولكنه لا يظهر على السطح الا في فترات الانتقال. وهو لا يرمى الى أية غاية ، ولا يســعى الى أى هدف ، ولا يملك أية فكرة . كل ما هنالك أنه يعبر عن نفاد الصبر ، ويدل على اختلاط الأمور في المجتمع . ومع ذلك نرى الوغد ، دون أن يدرك هو ذلك ، يخضع في جميع الأحيان تقريباً لجماعة صغيرة من « المتقدمين » الذين لهم هـدف محدد ، فهم يدفعون هؤلاء الأوغاد في الاتجاه الذى يناسبهم ، على شرط أن لا يكونوا الا بلهاء تماماً وذلك ما يحدث في بعض الأحيان على كل حال .

الآن وقد انقضى كل شيء ، يؤكد الناس لدينا أن بطرس ستيفانوفتش كان يأتمر بأوامر « الأممية » ، ويوجه جوليا ميخــائيلوفنا التى كانت تستخدم الأوغاد تنفيذاً لتعليماته . ويتساءل العقلاء منا مذهولين كيف أمكن تضليلهم هذا التضليل .

لا أحد يعرف (ربما باستثناء بعض الأجانب) ، ولا أنا أعلم ماذا كان ذلك التململ العام والانزعاج الشامل ولا ما هو « الانتقال » المقصود : انتقال الى أى حال ؟ ومع ذلك وقعنا جميعاً تحت سيطرة أولئك الأشقياء من الأشخاص الصغار الذين طفقوا ينتقدون بصراحة كل ما هنالك من أمور

هي أقدس الأمور ، هم الذين كانوا قبل ذلك لا يجسرون حتى أن يفتحوا أفواههم ، وراح الآخرون الذين كانوا الى ذلك الحين يحتلون أرفع مقام يصغون اليهم صامتين ، حتى ليشجعونهم بضحكاتهم في بعض الأحيان . ان أناساً مثل ليامشين ، وتلياتنيكوف ، وتنتنيكوف ، وان أغراراً مدّعين مثل رادشتشيف ، وان يهوداً صغاراً من أصحاب الابتسامة الأليمة المتغطرسة في آن واحد ، وان ضاحكين ومسافرين عابرين ، وشعراء لبراليين وافدين من العاصمة ، شعراءَ يقوم عندهم قميصٌ من قمصان الفلاحين وحذاءان مدهونان بالقطران مقام اللبرالية والموهبة، وان ضباطاً برتبة ميجر وكولونيل ممن لا يشعرون نحو رتبهم العسكرية الا بالاحتقار والازدراء ، والذين لا مانع لديهم في سبيل زيادة قدرها روبل واحد أن يرموا سيوفهم ليلتمسوا وظيفة في مصلحة السكك الحديدية ، وان جنرالات ممن أصبحوا محامين أو موظفين بلا عمل ولكنهم يحسنون تدبير أمورهم وتصريف شئونهم ويعرفون من أين تؤكل الكتف ، وان شباباً من أبناء التجار اعتنقوا الأفكار الجديدة ، وطلاباً لا نهاية لعددهم ، ونساءً يعددن أنفسهن بطلات مكافحات في سبيل قضية المرأة ، هؤلاء جميعاً هم الذين أصبحت لهم الغلبة والسيطرة . وعلى من ؟ على أعضاء نادينا ، على موظفين محترمين ، على جنرالات فقدوا في الحرب بعض أعضاء أجسامهم ، على سيداتنا المتعاليات المتكبرات . ومهما يكن من أمر فاننا لا نملك الا أن نعذر سيداتنا على أنهن فقدن صوابهن حين نرى أن فرفارا بتروفنا نفسها قد خضعت لسطوة هؤلاء الأشرار ، الى أن حلت الكارثة التي أصابت ابنها .

سبق أن قلت ان الناس الآن يحمّلون « الأمية » تبعة كل ما وقع . وقد بلغت هذه الفكرة من قوة الرسوخ في الأذهان أنهم يعللون بها الأمور حتى للوافدين الينا من الخارج (وما أكثرهم !) حتى ان المستشار كوبريكوف الذي يبلغ الثانية والستين من عمره ، ويحمل وسام سان

ستانسلاس ، قد جاء فى الآونة الأخيرة من تلقاء نفسه يصرح للمسطات بلهجة نافذة جازمة أنه ظل مدة ثلاثة أشهر خاضعاً لتأثير « الأممية » ، فلما سئل بما ينبغى لسنه ورتبته من مداراة ومراعاة أن يذكر بعض الايضاحات الدقيقة ، اكتفى بأن قال انه « شعر بذلك شعوراً داخلياً » ، ولكن هذا لم يمنعه من الاصرار على تصريحه . لذلك تُرك له أن ينصرف دون أن يلقى عليه مزيد من الأسئلة .

أكرر مرة أخرى : لقد وجدت فئة صغيرة من العقلاء تنحّت جانباً منذ البداية ، حتى لقد سجنت نفسها فى بيوتها وأغلقت عليها الأبواب بالأقفال . ولكن ما من قفل يقاوم قوانين الطبيعة . ففى الأسر العاقلة المحاذرة توجد دائماً فتيات لا يستطعن الاستغناء عن الرقص ، فهو لهن ضرورة . لذلك رأينا أكثر الأشخاص تحفظاً يشترون فى النهاية بطاقات لحضور حفلة الرقص التى نُظّمت لمساعدة المعلمات ، لا سيما وأن الحفلة ستكون باهرة الى أقصى حد . كان يُقال انها ستكون معجزة من المعجزات: تحدث الناس عن أمراء سيحضرونها ، وعن عشرات من خيرة أبناء الأسر سيتولون الاشراف على تنظيمها عاقدين على أكتافهم اليسرى شريطاً يميزهم عن غيرهم ؛ وتحدثوا عن شخصية سياسية من بطرسبرج لا أدرى من هى، وعن كارمازينوف الذى ارتضى فى سبيل تضخيم البرنامج أن يقرأ قصيدته «شكراً» وهو فى لباس معلمة ، وتحدثوا عن « رباعى أدبى » سيرتدى راقصوه أبهى الأزياء ، فكل زى من هذه الأزياء يرمز الى اتجاه أدبى ، وتحدثوا عن سيد سيلبس رداء خاصاً ويمثل « الفكر الروسى الصادق الأصيل » ، وسيرقص هو أيضاً ، وذلك كله شىء جديد لا عهد بمثله من قبل . فكيف يمكن أن يمتنع المرء عن الاشتراك فى حفلة رقص كهذه الحفلة ؟ هكذا انقاد الجميع للاغراء .

٢

تتضمن الحفلة ، وفقاً للبرنامج ، جزأين : صبيحةً أدبية من الظهر حتى الساعة الرابعة ، وحفله رقص تبدأ في الساعة التاسعة وتمتد على طول الليل . ولكن هذا البرنامج يشتمل بذاته على عناصر فوضى . من ذلك أولا أن الجمهور تخيَّل أنْ سيكون ثمه غداءٌ بعد الصبيحة الأدبية فورا أو أثناءها ، خلال فترة استراحة تُخصَّص لهـــذا الغرض ، غـداءٌ مع شمبانيا ، بالمجان طبعا ، لأنه جزء من البرنامج . ان المبلغ الباهظ الذي يدفعه المشترك ثمناً للبطاقة (وهو ثلاثة روبلات) قد ساهم في ترويج هـــذه الشائعة وتعزيزها : « هل كان يمكن أن أشترك لولا هذا ؟ ان الحفله تدوم أربعاً وعشرين ساعة ، فلا بد من اطعام الحضور الذين سيأخذ منهم الجوع كل مأخذ » . كذلك كان يفكر النـــاس في الأمر . يجب أن أقول ان جوليا ميخائيلوفنا نفسها هي التي خلقت بطيشها وتسرعها هـــذه الأوهام المشئومة . انها قبل موعد الحفلة بشهر ، كانت وقد هزتها الحماسة الشديدة لمشروعها ، تزعم لكل قادم أنها ستقيم حفلةً ستُشرب فيها الأنخاب . حتى لقد أعلنت عن هذه الأنخاب التي كانت تحرص عليها حرصاً خاصاً ، في جريدة من جرائد العاصمة . كانت تريد أن ترفع الأنخاب بنفسها ، وكانت تهيئها منذ ذلك الحين . كان ينبغي لهذه الأنخاب في نظرها أن تجمع العقول حول « رايتنا الجديدة » (ما هي تلك الراية الجديدة ؟ أراهن أن المسكينة كانت هي نفسها لا تعرفها !) . فاذا نُشرت في جرائد العاصمة في صورة أنباء يبعث بها المراسلون الصحفيون ، فلسوف تثير عاطفة السلطات العليا ولسوف تفتن ألباب هذه السلطات حتماً ، ثم اذا هي تنتشر بعد ذلك في البلاد باعثةً على الدهشة والتنافس في كل مكان. ولكن رفع الأنخاب يقتضي شمبانيا . والشمبانيا لا تُشرب على جـــوعٍ طبعاً ، فلا بد اذن من وجبة غداء . ولكن حين تشكلت بعد ذلك لجنة لدراسة المشروع من جميـــع

جوانبه ، فان أعضاء اللجنة لم يلبثوا أن برهنوا لجوليا ميخائيلوفنا أن اقامة مأدبة ستكلف نفقات طائلة فلا يبقى للمعلمات شيء ذو بال مهما يكن ايراد الحفلة • وهكذا أصبح الوضع كما يلى : فاما مأدبة فاخـــرة وأنخاب ثم لا يبقى للمعلمات الا زهاء تسعين روبلاً ، واما ايراد كبير اذا اقتصرت الحفلة على ما هو ضرورى ولم تكن الا ذريعة لمساعدة المعلمات • وكانت اللجنة من جهة أخرى تنصح بالتعقل والحكمة ، وتقترح حلاً ثالثاً يصالح بين الأمرين ويتصف بالاعتدال والتبصر : اقترحت اللجنة أن تكون الحفلة لائقة من جميع النواحى ، ولكن بغير شمبانيا ، فاذا تمّ ذلك كان فى الامكان أن تنال المعلمات مبلغاً كبيراً ، مبلغاً يزيد كثيراً على تسعين روبلاً • ولكن جوليا ميخائيلوفنا لم تشأ أن تسمع شيئاً عن هذا الحل الوسط • انها تحتقر التسويات البورجوازية • وما دامت فكرتها الأولى مستحيلة التحقيق ، فها هى ذى تعدل عنها لتندفع الى الطرف الأقصى الآخر : سنحاول أن نظفر بأكبر ريع ، فنستثير غيرة سائر الأقاليم • قالت فى خطاب ملتهب ألقته على أعضاء اللجنة ان الأهداف الانسانية الكبرى التى نرمى اليها أهم كثيراً من ملذات الجسم العابرة ، وان حفلتنا انما هى فى الواقع تعبـــير عن فكرة عظيمة ، فيجب أن نكتفى اذن بحفلة رقص صغيرة على الطريقة الألمانية ، لا تكلف نفقات كبيرة ، حفلة رقص رمزية ان صح التعبير مادام يستحيل الاستغناء عن حفلة الرقص هذه الكريهة التى لا تطاق ! » • والحق أنها كانت قد كرهت هذه الحفلة • ولكنهم استطاعوا أن يهدئوا روعها • وعندئذ انما تخيلوا « الرباعى الأدبى » ، كما تخيلوا تسليات فنية أخرى من شأنها أن تحل محل مباهج الجسم وملذات الطعام والشراب • وعندئذ أيضاً انما رضى كارمازينوف الذى لم ينقطع عن التصنع والتدلل ، ولم يكف عن استدرار الرجاء والضراعة ، أقول عندئذ انما رضى كارمازينوف أن يقرأ قصيدته «شكراً»، وأن يستأصل بذلك حتى فكرة الطعام من نفس الجمهور الشره

المسرف في الشراهة . هكذا تسترد الحفلة بهاءها ، ولكنه بهاء من نوع خاص . ومن أجل أن لا يغرق القائمون عليها غرقاً كاملاً في السحاب ، قرروا أن يقدموا في بداية حفلة الرقص شاياً مع الليمون وحلويات جافة، ثم أن يطوفوا بعصير البرتقال والليمون بعد ذلك ، بل وأن يقدموا في النهاية مثلجات ، ولكن لا شيء غير ذلك . أما الذين هم جائعون وظامئون في كل وقت وفي جميع الظروف ، فسيُهيأ لهم «بوفيه» خاص يتعهده بروخورتش (رئيس طهاة النادي) ، ويمكن أن يُقدم فيه تحت رقابة قاسية تمارسها اللجنة كلُّ ما يشتهيه المشتهون ، ولكن أثمان الطعام والشراب لن تكون من أصل ثمن البطاقة ، وانما يدفعها المستهلكون على حدة ، اذ يُعلن لهم ذلك باعلان خاص يوضع على الباب . وحمايةً للقراءة من التشويش أثناء الصبيحة الأدبية ، يظل « البوفيه » مغلقاً ، رغم أن خمس غرف تفصله عن الصالة البيضاء التي سينشد فيها كارمازينوف قصيدته « شكراً » . والأمر الغريب هو أن اللجنة ، ومن بين أعضائها أناس عمليون جداً ، كانت تضفي على هذا الحادث ، أعني قراءة القصيدة ، قيمة كبيرة وشأناً عظيماً . أما النفوس الشعرية فكانت حماستها أشد . حسبي أن استشهد على ذلك بمثال زوجة مارشال النبالة التي قالت لكارمازينوف انها بعد انشاده القصيدة فوراً ستأمر بأن يُرصَّع جدار صالتها بلوحة من مرمر يُكتب عليها بأحرف من ذهب أن الكاتب الروسي والأوروبي الكبير قد أنشد قصيدته «شكراً» للجمهور المتمثل في شخصيات مدينتنا ، وذلك في يوم كذا ، وهو اليوم الذي ترك فيه قلمه وودَّع الكتابة . وستكون هذه اللوحة بما عليها من كتابة ، مهيأة عند افتتاح حفلة الرقص ، أي بعد الحادث التاريخي بخمس ساعات . واني لأعلم من مصدر موثوق به أن كارمازينوف خاصةً هو الذي طالب مصراً بأن يظل «البوفيه» مغلقاً أثناء الصبيحة الأدبية ، رغم ما ارتآه بعض أعضاء اللجنة من أن هذا ليس من مألوف عاداتنا .

هذا ما كان قد تقرر بينما كان الناس في المدينة يأملون أن يحضروا مأدبة ، أي أن يأكلوا ويشربوا بالمجان . لقد ظلوا يعوّلون على هذا الى آخر لحظة . وكانت الآنسات تحلم بسكاكر وحلويات توزّع وافرة بغير عد ، وتحلم كذلك بأمور خارقة لا أدري ما هي ! كان معلوماً أن الربح ضخم ، وأن المدينة كلها ستتهافت على حفلة الرقص ، وأن كثيرا من الناس يفدون من المقاطعات المجاورة خصيصا لشهود الحفلة ، وأن الجمهور يتخاطف التذاكر تخاطفاً . وكان معلوماً كذلك أن عطايا ضخمة قد قُدّمت : فالسيدة فرفارا بتروفنا مثلاً قد اشترت تذكرتها بثلاثمائة روبل ووهبت من مزارعها جميع الأزهار التي ستزين الصالة . وزوجة مارشال النبالة (وهي عضوة في اللجنة) قد قدّمت منزلها والاضاءة . كما أن النادي تبرع بالموسيقى والخدم ، وتنازل عدا ذلك عن طباخه طوال النهار. انني أصرف النظر عن عطايا أخرى أقل ضخامة . وقد خطر بالبال تخفيض ثمن التذكرة وجعله روبلين لا ثلاثة . ذلك أن اللجنة قد خشيت في أول الأمر أن يكون من شأن الثمن الباهظ ، وهو ثلاثة روبلات ، أن يحول دون مجيء الآنسات ، حتى لقد قام في الأذهان بيع بطاقات عائلية . فالآباء قد لا يدفعون ثمن بطاقة الدخول الا لواحدة من بناتهم ، فلا مانع أن تدخل الأخريات بالمجان ولو كان عددهن عشراً . غير أن هذه المخاوف لم تلبث أن تبددت : فالآنسات جئن زرافات ووحدانا ، وأصغر الموظفين اصطحبوا بناتهم جميعا . طبيعي أنهم ما كانوا ليفكروا في المجيء لولا أن لهم بنات. ان سكرتيراً صغيرا فقيراً قد جاء ببناته السبع ، مع امرأته طبعاً ، ومع ابنة أخته كذلك . فكانت كل واحدة منهن تحمل بيدها عند الدخول بطاقتها التي ثمنها ثلاثة روبلات . تستطيعون أن تتصوروا بسهولة ان المدينة كلها كانت في ثورة. واذ كانت الحفلة تشتمل على صبيحة أدبية وحفلة رقص ، فقد كان على السيدات أن يكون لكل منهن ثوبان : واحدٌ للاجتماع

الأدبي والثاني للرقص . لذلك فإن عدداً من رجال الطبقة المتوسطة ، كما عُلم ذلك فيما بعد ، قد رهنوا لهذه المناسبة كل ما يملكون من بياض ، حتى لقد رهنوا أغطية الأسرّة ، ان لم يكونوا قد رهنوا الفُرُش نفسها ، لدى يهودٍ كانوا منذ سنتين قد أخذوا يتوافدون الى مدينتنا ويستقرون فيها ويزداد عددهم شيئاً بعد شيء . وجميع الموظفين تقريبا قد اقترضوا سُلفاً على مرتباتهم . حتى أن بعض الملاّكين قد باعوا بعض مواشيهم . كل ذلك من أجل أن تلبس بناتهم لباساً حسناً ، وأن يظهرن دون غيرهن . أما التزين فلم يُرَ له مثيل قبل ذلك في مدينتنا . غير أن نوادر كثيرة عن الحياة الخاصة التي يعيشها عدد من أسر المدينة قد تناقلها الناس في كل مكان قبل الحفلة بخمسة عشر يوماً ، وتطوع بعض المازحين فأسرعوا ينقلونها الى جوليا ميخائيلوفنا . وقد تناقل الناس كذلك صوراً كاريكاتورية رأيت بعضها في ألبوم جوليا ميخائيلوفنا . وذلك كله قد وصل الى مسامع أولئك الذين كانوا موضوع هذه النوادر وتلك الرسوم . وأغلب ظني أن ذلك هو مصدر الكره الذي حمله كثير من الناس لامرأة الحاكم في الأيام الأخيرة . ان جميع الناس لا يتذكرون الآن تلك الذكريات حتى يثور غضبهم . ولكن كان واضحاً منذ ذلك الحين أن أيسر هفوة تقع فيها اللجنة وأن أيسر خلل يحدث يمكن أن يفجّر غضب الجمهور قوياً عنيفاً. لذلك كان كل واحد يتوقع بينه وبين نفسه حدوث فضيحة ما . واذا كان الجميع يتوقعون الفضيحة فلا بد أن تقع الفضيحة حتماً .

في الظهر تماماً بدأت الأركسترا تعزف . ولما كنتُ واحداً من الشبان المشرفين الذين يبلغ عددهم اثني عشر شخصاً ويزدان كتفهم بعقدة من شريط ، فقد رأيت بنفسي كيف بدأ ذلك النهار المخزية ذكراه . لقد بدأ الأمر بتزاحم وتدافع عند المدخل . لماذا جرى كل شيء مجرى سيئاً منذ اللحظة الأولى ، ولماذا لم تكن الشرطة نفسها في مستوى الظروف ؟

انني لا أتهم الجمهور الحقيقي . ان آباء الأسر ، مهما تكن رتبهم عالية ، لم يستعملوا أكواعهم ولم يحاولوا أن يدخلوا قبل غيرهم . بل انه ليقال، خلافا لذلك ، أنهم تنحوا جانبا ، وضاقوا صدراً بهذا المشهد الذي لا عهد لنـــا بمثله ، مشــــهد الحشد محاصراً درجات المدخـــــل متزاحماً على الباب . وكانت العربات تصل أثناء ذلك الى أن سدَّت الطريق آخر الأمر .

في الساعة التي أكتب فيها هـــذه السطور ، أستطيع أن أؤكـــد ، بالاستناد الى وقائع ثابتة ، أن ليامشين ولببوتين وربما غيرهم أيضاً ، وهم جميعا مشرفون مثلي ، قد سمحوا بالدخول من غير بطاقة لأفراد من أوباش الناس . لقد رئي انبجاس أشخاص مجهولين تماما ، جاءوا من الريف أو وفدوا لا أدري من أين ! فما ان دخل هؤلاء الجفاة المتوحشون الى الصالة (وكأنهم ينفذون كلمة سر) حتى أخذوا يسألون عن «البوفيه» . فلما علموا أن ليس ثمة «بوفيه» أخذوا يطلقون شتائم فظة ، بوقاحة لا مثيل لها ، وبذاءة غير معروفة عندنا حتى ذلك الحين . كان عدد منهم ســــكارى قد أخذ منهم الثمل كل مأخذ . وكان بعضهم يبدو مشدوهاً مبهوتاً من عظمة الصالة لأنه لم ير قبل اليوم شيئاً يبلغ هذا المبلغ من البهاء والأبهة ، فهؤلاء جمدوا في مكانهم لحظةً ، وجعلوا ينظرون من حولهم فاغرين أفواههم . ان هذه الصالة البيضاء الواسعة ، رغم أنها قديمة جداً منذ الآن ، لها في الواقع مظهر رائع باهر : صفَّان من النوافذ المنضودة ، بعضها فوق بعض، سقف مغطى بنقش وحفر وتذهيب ، وشرفات ، وجدران تزينها مرايا ، ومفارش حمراء ، وتماثيل من مرمر (انها تماثيـــل مهما تكن) ، أثاث مهيب (يرجع عهده الى عصر نابوليـــون) مدهون ببياض وذهب ومكسو بمخمل قرمزي اللون . وفي آخر القاعة نُصب منبر للذين سيشاركون في الصبيحة الأدبية . وفي سائر القاعة صُفَّت كراسيُّ كما تُصفُّ في مسرح ، وجُعلت بين صفوفها مسافات عريضة تسمح بمرور الجمهور .

ولكن ما ان انقضت دقائق الدهشــة الأولى حتى أخــذ الناس يتبادلون ملاحظات من أغرب ما تكون الملاحظات ، ومن أغبى ما تكون الملاحظات • « ربما كنا لا نريد انشاد الشعر ••• لقد دفعنا ثمن تذاكر الدخول مبلغاً طائلاً ••• خدعوا الجمهور ••• نحن هنا السادة لا آل لمبكه ! ••• » • الخلاصة : لكأنهم ما أُدخلوا الا ليحدثوا لغطاً وفوضى • أتذكر على وجه الخصوص حادثاً كان بطله ذلك الأمير الذى يلتف عنقه بياقة عالية مسرفة فى العلو ، والذى يشبه أن يكون وجهه آلة متحركة من تلقــاء ذاتها ؛ انه ذلك الأمير الذى لقيته أمس عند جوليا ميخائيلوفنا • لقد قبل بعــد الحاح من جوليا ميخائيلوفنا أن يعلّق على كتفه الأيسر عقدة شريط ، وأن يكون بذلك أحد المشرفين • فهذا الشخص الأبكم الذى تكاد حركاته أن تكون حركات آلة اتضح أنه يستطيع أن يفعل اذا كان لا يستطيع أن يتكلم • لقد ناداه كابتن محال على التقاعد ، ناداه بفظاظة وغلظة ، وهو رجل عملاق فى وجهه بقايا من بثور الجدرى ، شجعته عصبة من الأوغاد فطالب بأن يُقاد الى «البوفيه» • فما كان من الأمير الا أن أومأ لرجل من رجال الشرطة ، فأسرع الشرطى يتدخل فوراً فيخرج الكابتن من القاعة رغم احتجاجاته الصارخة وزعيقه المتصل • وفى أثناء ذلك أخذ الجمهور « الحقيقى » يصل ويجلس متسللاً بين الممرات الثلاث التى جُعلت بين صفوف الكراسى • وصمت الصياحــون شيئاً فشيئاً • ولكن الجمهــور « الرفيع المقام » كان يبدو عليه عدم الرضى وكانت تبدو عليه الدهشة • وكان عدد من السيدات يبدو مرتاعاً لا أكثر ولا أقل •

واستقر كل فرد فى مكانه أخيراً • وصمتت الموسيقى • كان الناس يتمخطون وينظرون من حولهم • وكان للانتظار أبهة وفخامة • وهذا فى العادة نذير سوء • لم يصل لمبكه وزوجته حتى الآن • لا ترى الأعين فيما حولها الا حريراً ومخمــلاً وماساً • العطور تملأ الجــو • السادة

يحملون جميع أوسمتهم ، حتى ان المتقدمين فى السن وأصحاب الرتب العالية يرتدون بزاتهم الرسمية • وأخيراً دخلت زوجة مارشال النبالة تصحبها ليزا • لم تكن ليزا فى يوم من الأيام باهرة الجمال ولا رائعة الزينة كما كانت فى ذلك اليوم • ان شعرها يتهدل على كتفيها ضفائر ، وان عينيها تسطعان سطوعاً براقاً ، وان بسمة مشرقة تشع فى وجهها • أحدث دخولها أثراً عظيماً • التفتت نحوها جميع الأبصار وأخذ الناس يتبادلون الملاحظات والآراء عنها بصوت خافت • وأكّد بعضهم أنها كانت

تبحث بنظراتها عن ستافروجين • ولكن لا ستافروجين ولا فرفارا بتروفنا كانا فى الصالة • لم أدرك عندئذ المعنى الذى عبَّر عنه وجه ليزا ، ولا فهمت لماذا كان محياها يفيض سعادة وفرحاً وقوة • وخطر ببالى ما حدث بالأمس ، فطفقت أحدس وأفترض وأخمِّن • ما يزال آل لمبكه غائبين لم يصلوا بعد • تلك خطيئة • علمت فيما بعد أن جوليا ميخائيلوفنا قد انتظرت بطرس ستيفانوفتش الى آخر لحظة • لقد أصبحت لا تستطيع الاستغناء عنه ، رغم أنها ترفض الاعتراف بذلك فى قرارة نفسها • بالأمس، فى آخر اجتماع عقدته اللجنة ، كان بطرس ستيفانوفتش قد ردّ عقدة الشريط التى توضع على كتف المشرف ، فاستاءت جوليا ميخائيلوفنا استياءً شديداً وخاب أملها حتى أوشكت الدموع أن تترقرق فى عينيها حزناً ولوعة • فلما لم تره فى الغد ، أدهشها ذلك كثيراً ثم أدخل الاضطراب والبلبلة الى نفسها (اننى استبق الأحداث) : انه لم يجىء لشهود الصبيحة الأدبية • وجاء المساء دون أن يسمع أحد عنه شيئاً •

أخذ الجمهور يُظهر بعض التململ • ماتزال المنصة خاليةً • ودوّى تصفيق فى الصفوف الأخيرة ، كما يحدث فى المسرح • السيدات والرجال المسنون يبدو عليهم الامتعاض : « ان آل لمبكه لا يزعجون أنفسهم ! » • ووصلت شائعات سخيفة حتى الى الصفوف الأولى : لن تُقام الحفلة ؛

فالحاكم قد بلغ به المرض أنه لن ••• الخ الخ ! ولكن وصلت أسرة لمبكه أخيراً ولله الحمد • كانت الزوجة متأبطة ذراع زوجها • أعترف انني كنت قد فقدت الأمل في وصولها • ان الحقيقة تنتصر على الشائعات الكاذبة • بدا الهدوء وظهرت الطمأنينة على الجمهور • كانت هيئة آندره أنطونوفتش تدل على أن صحته جيدة• ذلك كان شعور الجميع : في وسعكم أن تتصوروا كيف كان الناس ينظرون اليه بانتباه شديد • يجب أن أقــول من جهة أخرى ـ وذلك يميِّز الحالة النفسية التي كان عليها الجمهور ـ ان قلة من الأفراد في المجتمع الراقي كانت تصدِّق أن لمبكه مريض : ففي تلك البيئة كان لمبكه يتصرف تصرفاً سليماً جدا ، حتى لقد أيدوا الموقف الذي وقفه بالأمس في الميدان • كانت الشخصيات الرفيعة المقام تقول : « بهذا انما كان ينبغي له أن يبدأ•ان هؤلاء الموظفين البطرسبرجيين الذين يصطنعون في البداية دور محبي البشر ينتهون الى الاعتقاد ، كسائر الناس ، دون أن يشعروا بذلك ، أن هــذه الطريقة هي أحسن الطـرق التي يجب أن يستعملها محبو البشر • » • هكذا كانوا يفكرون في نادينـــا • وكانوا يلومونه على أنه انقاد للغضب : « كان ينبغي له أن يحافظ على هدوئه • ولكن سبب اندفاعة الغضب واضح : انه تعــوزه الخبرة والتجربة » • كذلك كان يقول الاخصائيون في الموضوع • وقد رأت جوليا ميخائيلوفنا أنها محط جميع الأنظار أيضاً • لا يمكنكم أن تطالبوني طبعاً بتفاصيل دقيقة جداً عن بعض الوقائع : نحن بصدد امرأة ، وبصدد سر من أسرار حياتها الصميمة • انني لا أعرف الا شيئاً واحدا : هو أن جوليا ميخائيلوفنا قد لحقت بآندره أنطونوفتش مساء أمس الى حجرة عمله ، ولبثت معه هنالك الى ما بعد منتصف الليل • فما زالت به حتى غفرت له وعفت عنه ، وواسته وعزته • واتفق الزوجان على جميع النقاط ، ونُسي كل شيء • وحين تذكر فون لمبكه ، في نهاية المصارحة ، حين تذكر مذعوراً انفجار غضبه

فى الليلة السابقة ، لم يستطع أن يكبح جماح نفســـه ، فجثا راكعاً على ركبتيه . فما كان من جوليا ميخائيلوفنا الا أن مدت يدها الفاتنة ترفه عنه وأخذت تلثمه بشفتيها مخففةً اندفاعات الندامة لدى هذا الرجل الفارس المرهف الشعور المسرف فى الانقياد لعواطف الرقة والحنان ، أعنى آندريه أنطونوفتش .

لاحظ جميع من فى الصالة ما يشع فى وجه جوليا ميخائيلوفتش من معانى السعادة . كانت تتقدم فى زهو وخيلاء ، وهى نرتدى ثوباً رائعاً . لكأن أقصى أمانيها قد تحققت : ان هذه الحفلة التى كانت هدفاً وتتويجاً لسياستها قد أصبحت واقعاً فى آخر الأمر . اتجه لمبكه وزوجته الى مكانيهما فى الصف الأول ، مرسلين تحيات كثيرة عن يمين وشمال . ولم يلبثا أن أحاطت بهما جمهرة كبيرة . ومضت نحوهما زوجة مارشال النبالة ... فاذا بغلطة مؤسفة تقع فى تلك اللحظة : لقد أخذت الأركسترا ، على حين فجأة ، بدون أى سبب ، تنفخ فى البوق لحناً من تلك الألحان المألوفة فى المآدب الرسمية حين يشرب الناس نخب شخص من الأشخاص . انني أعلم الآن أن ليامشين ، بصفته مرشداً من مرشدى الحفلة ، قد أراد أن يستقبل أسرة لمبكه هذا الاستقبال . ولقد كان فى وسعه عند اللزوم أن ينتحل لهذه الفعلة أى عذر من الأعذار ، فيقول انه تصرف هذا التصرف عن حماقة ، أو انه قد دفعته اليه الحماسة . وا أسفاه ! لقد كنت أجهل حينذاك أن ليامشين والآخـرين أصـبحوا لا يفكرون فى الاعتـذار ولا يريدون انتحال الحجج والتعلات ، وانهم سيزيحون النقاب عن وجوههم فى ذلك المساء تماماً . ولكن المظاهرة لم تقتصر على لحن عُزف بأبواق : فبينما كان الناس يتبادلون نظرات مدهوشة وابتسامات ، نرجّعت فى آخر الصالة وعلى المنصات صيحات استحسان موجهة الى لمبكه وزوجته . ان الصيحات ضعيفة ، لكنها استمرت زمناً ! ... احمرت جوليا ميخائيلوفنا

احمرارا شديدا ، والتمعت عيناها • ووقف فون لمبكه الى جانب كرسيه ، والتفت الى الجهة التى كانت تصدر عنها الأصوات ، وأجال على الحضور نظرة فيها فخامة وقسوة ••• فسرعان ما أجلسوه • ولاحظتُ على وجهه، من جديد ، تلك الابتسامة المقلقة نفسها التى ظهرت على شفتيه بالأمس ، فى صالون زوجته ، حين همّ أن يتقدم من ستيفان تروفيموفتش • لقد بدا لى أن هيئته لا تبشر بخير ؛ بل أسوأ من ذلك أنها مضحكة قليلاً ، فهى تعبِّر عن عزيمة رجل قرر أن يضحى بنفسه ارضاءً للأهداف العليا التى ترمى اليها زوجته ! ••• أسرعت جوليا ميخائيلوفنا تستدعينى باشارة من رأسها ، وقالت لى بدمدمة خافتة أن أجرى الى كارمازينوف فأضرع اليه أن يبدأ • ولكن ما ان أوليتها ظهرى حتى حدثت دناءة جديدة أبشع من الأولى أيضا • فعلى المنبر ، على المنبر الخالى الذى اتجهت اليه حتى الآن جميع الأبصار وانصب عليه كل الانتظار ، والذى كان لا يرى فيه المرء الا مائدة صغيرة أمامها كرسى وفوقها كأس ماء على صينية من فضة — أقول : على هذا المنبر الخالى ظهرت على حين فجأة قامة مديدة ضخمة هى قامة الكابتن لبيادكين مرتدياً رداء فراك مع ربطة عنق بيضاء • بلغتُ من شدة الذهول أننى لم أصدّق عينيّ فى اللحظة الأولى • وكان الكابتن يبدو خجلاً وجلاً وقد وقف فى آخر المنبر • غير أن أحداً صرخ يقول فى الجمهور : « كيف ؟ أهذا أنت يا لبيادكين ؟ » • فاذا بوجه لبيادكين ، اذا بوجهه الغبى المحتقن المحمر من فرط الطعام والشراب (ولقد كان سكران تماما) ، اذا به يتألق لدى سماع هذه الكلمات فتنتشر فيه ابتسامة بلهاء ، واذا هو يرفع يده ، ويحك جبينه ، ويهز رأسه الكث الأشعث ، ثم يجمع قواه ويعزم أمره فيتقدم خطوتين الى أمام ، ويطلقها ضحكة مقهقهة طويلة سعيدة هزّت جسمه الضخم كله ، وغضّنت عينيه • فأخذ عدد كبير من الجمهور يضحك لهذا المشهد ، بينما راح الجادون من

المشاهدين يتبادلون نظرات حانقة • وذلك كله لم يدم الا زهاء ثلاثين ثانية على كل حال ، هرع بعدها ليبوتين الى المنصة يتبعه خادمان أمسكا الكابتن بلطف من ابطيه ، بينما همس ليبوتين فى أذنيه ببضع كلمات• فقطب الكابتن حاجبيه ، ودمدم يقول وهو يحرك يده : « اذا كان الأمر كذلك ••• » ، ثم أدار للجمهور ظهره الضخم وانقاد للممسكين به • ولكن ما هى الا لحظة حتى عاد ليبوتين الى المنصة وفى يده ورقة من الورقات التى تكتب عليها الرسائل ، فاصطنع ابتسامة عذبة من ابتساماته تلك التى يختلط فيها السكر بالخل ، وتقدم بخطى قصيرة الى حافة المنبر ، وقال :

ـ أيها السادة ، لقد أوقعنا السهو والاهمال فى غلطة مضحكة سرعان ما وضعنا لها حداً من حسن الحظ على كل حال • لكننى أخذت على عاتقى أن أنقل اليكم ـ آملاً أن تقبلوا ذلك ـ رجاءً زاخراً بالاحترام يوجهه اليكم أحد شعراء مدينتنا • ان هذا الشاعر الذى هزته وحركت أوتار قلبه فكرةٌ انسانية رفيعة (رغم مظهره الخارجى) هى تلك الفكرة نفسها التى جمعتنا فى هذا المكان••• ان هذا السيد ••• أريد أن أقول ان هذا الشاعر ••• على رغبته فى كتمان اسمه يود كثيراً لو تُتلى قصيدته قبل حفلة الرقص ، أقصد قبل الجلسة الأدبية • وهذه الأبيات الشعرية ، رغم أن برنامج الحفلة لا يتضمن القاءها ، قد بدت لنا نحن (من «نحن» ؟ اننى أنقل هنا نص خطابه المضطرب المفكك كلمة كلمة بل حرفاً حرفاً) أنها بما تتميز به من براءة العاطفة ، بالاضافة الى ما تتصف به كذلك من الظرف وروح المرح ، تستحق أن تُقرأ ، لا من حيث أنها قصيدة جادةٌ طبعاً ، ولكن لأنها تتعلق نوعاً من التعلق بالفكرة ••• أو قولوا بالغاية التى ترمى اليها حفلتنا هذه ••• لا سيما وأنها لا تعدو أن تكون أبياتاً قليلة • خلاصة الأمر أننى أستأذن الحضور الكرام فى أن •••

أعول صوت من آخر الصالة يقول :

ـ اقرأ •

ـ أأقرأ ؟

فصرخ عدة أشخاص يقولون :

ـ اقرأ ! اقرأ !

قال ليبوتين وهو ما يزال يرسم على شفتيه تلك الابتسامة المتعاذبة :

ـ سوف أقرأ اذن •

ومع ذلك كان يبدو عليه التردد • حتى لقد قدّرت أنه منفعل بعض الانفعال • ان أمثال هذا الانسان ، مهما يكونوا وقحين ، يتفق لهم أحيانا أن يتخاذلوا • لو كان طالبا لما تردد حتما ، ولكن ليبوتين ينتمي رغم كل شيء الى الجيل القديم •

ـ أنبئكم سلفاً ، أقصد يشرفني أن أنبئكم سلفاً أن القصيدة ليست من تلك القصائد التي كان ينظمها الشعراء في الماضي لمناسبات ذات أبهة وجلال • فما هي في حقيقة الأمر الا مزاحة ، ولكنها زاخرة بعاطفة خالصة ، بالاضافة الى ظرف لاذع وواقعية صادقة ان صح التعبير •

ـ اقرأ ! هلا قرأت !

فضّ ليبوتين الورقة • لم يتسع وقت أحد للتدخل طبعا • ثم ان ليبوتين كان يحمل شارة مشرف من المشرفين على الحفلة • وها هو ذا ينشد بصوت رنان :

قصيدة مهداة من الشاعر الى معلمتنا الوطنية في هذه المناطق بمناسبة هذا الاحتفال :

تحية تحية ايتها المعلمة

انتصري وابتهجي

رجعية كنت أم كنت مثل جورج صاند
ابتهجي كائنة ما كنت !

صاحت بعض الأصوات تقول :

ـ ولكن هذا شعر ليبادكين • نعم ، هذا شعر ليبادكين •

وانطلقت ضحكات ، بل سمعت أيضا تصفيقات ، وان تكن قليلة •

تعلمين اللغة الفرنسية
لأطفال صغار بلداء
وتصطنعين السرور
لكل من يرغب في ان يدفع الأجور

ـ صحيح ، صحيح • هذا من الواقعية • لا حيلة للمرء بغير مال •

لكننا بفضل هذا الاحتفال
اصبحنا نملك راس مال
هذا مهرك نهديه اليك
وهذه هدية من أصدقاء
رجعية كنت أم كنت جورج صاند
تستطعين أن تختاري زوجك
وان تبصقي ، أيتها المعلمة
بعد أن تملكي المهر
على كل شيء !

لم أصدّق أذنيّ • ان فى هذا من الوقاحة ما لا يمــكن معه أن يُعذر ليبوتين ولو تعلل بالحماقة والغباء • لا سيما وأن ليبوتين لم يكن غبياً البتة • لقد كانت النية واضحة ، فى نظرى على الأقل : انهم يتعجلون احداث فوضى وبلبلة وفضيحة • ان بعض أبيات هذه القصيدة الغبية ، ولا سيما الأخير منها ، شيء لا يمكن قبوله ، مهما يكن قائله أبله • وأظن أن ليبوتين قد أحس بأنه أسرف : فبعد أن فعل فعلته جمّدته هذه الجرأة نفسها فى مكانه ، فلبث على المنصة كأنما هو يريد أن يضيف شيئاً آخر • لعله كان يتوقع أن يُستقبل غير هذا الاستقبال ، وأن يُحدث غير هــذا الأثر • ولكن الذى حدث هو أن فئة الأوباش الصغيرة نفسها التى قاطعته بالتصفيق قد صمتت مذعورة على حين فجأة • وكان عدد كبير منهم قد أخذوا القصيدة مأخذ الجد ، وعدوها شعراً واقعياً لبرالىّ الاتجاه • غير أن ما اشتملت عليه الأبيات من عامية مثيرة مزعجة قد ضايقتهم هم أيضا آخر الأمر • أما السواد الأعظم من الجمهور فقد شعر بفضيحة كبيرة ، لا بل أحس أنه أُهين • لا أخشى أن أكون مخطئاً حين أزعم هذا • لقد اعترفت جوليا ميخائيلوفنا فيما بعد أنها أوشكت أن يُغمى عليها • وهنالك سيد عجوز محترم وامرأته قد نهضا وغادرا الصالة على مرأى من الناس الذين كانت نظراتهم تعبر عن القلق • ومن يدرى ؟ لعل أشخاصاً آخرين كانوا سيقتدون بهم ويفعلون مثلهم لولا أن كارمازينوف الذى يرتدى رداء فراك ويضع ربطة عنق بيضاء ويمسك بيده دفتراً قد ظهر على المنصة فى تلك اللحظة نفسها • لقد استقبلته جوليا ميخائيلوفنا بنظرة مفتونة مسحورة كما يُستقبل منقذ ••• لكننى أسرعت أمضى الى ما وراء الكواليس • كنت أريد أن ألقى ليبوتين •

قلت له مستاءً وأنا أمسك ذراعه :

ــ أنت فعلت هذا عامداً •

فاجابنى وهو ينكمش على نفسه ويصغّر جسمه ويتظاهر بأنه آسف لما وقع أشد الأسف :

ـ لم يخطر ببالى هذا ••• حقاً لم يخطر ببالى هذا••• أحلف لك • لقد جاءونى بهذه الأشعار ، فظننتها تبعث على التسلية والضحك •

ـ لا ، لم تظن ذلك • يستحيل عليك أن تعد مثل هذه القذارة مزاحة جميلة !

ـ بل هكذا تصورتها !

ـ أنت تكذب • وليس صحيحاً كذلك أنهم جاءوك بهذه الأشعار منذ هنيهة قصيرة • لقد كتبتها مع ليبادكين ، ربما فى مساء أمس ، لا لشىء الا اثارة فضيحة • لا شك أنك أنت قائل البيت الأخير منها • لماذا كان ليبادكين يرتدى رداء رسميا ؟ أكان هو الذى سيقرأ القصيدة لولا أنه كان سكران ؟

اصطنع ليبوتين هيئة باردة شريرة • وسألنى بهدوء غريب :

ـ فيم يعنيك هذا ؟

ـ فيم يعنينى ؟ ما هذا السؤال ؟ أنت أيضاً تحمل على كتفك شارة مشرف من المشرفين على الحفلة ••• أين بطرس ستيفانوفتش ؟

ـ لا أعلم • فى مكانٍ ما هنا • لماذا تسأل عنه ؟

ـ لأننى أفهمكم الآن • هذه مؤامرة على جوليا ميخائيلوفنا لافساد الحفلة •

رشقنى ليبوتين بنظرة ماكرة :

ـ ولكن ما شأنك أنت ؟

وابتسم ، ورفع كتفيه ، وتركنى •

ضعفت • تأكدت شبهاتي وشكوكي كلها • ما كان أغباني حين كنت آمل أن أكون مخطئاً في ظنوني ! ماذا يجب أن أفعل ؟ بدا لي في اللحظه الأولى أن أستشير ستيفان تروفيموفتش • ولكن ستيفان تروفيموفتش الذي كان متسمراً أمام مرآة ، كان يجرّب ابتسامات ويراجع في كل لحظة من اللحظات ورقه كان قد دوّن عليها بعض الملاحظات • لقد كان عليه أن يتكلم بعد كارمازينوف رأساً ، ولم يكن في وسعه حتماً أن يسدي الى أية نصيحة • هل يجب أن أسعى الى جوليا ميخائيلوفنا ؟ ولكن الأوان لم يحن بعد : انها ما تزال في حاجة الى درس أقسى من هذا الدرس لتشفى من أوهامها ولتبرأ من اعتقادها بأن الذين يحيطون بها متعصبون في اخلاصهم لها متفانون في سبيل خدمتها • ما كان لها أن تصدقني ، وما كان لها الا أن تعدني انساناً تراوده الهواجس وتستبد به الوساوس • ثم ماذا في وسعها أن تفعل ؟ ثم قلت لنفسي : « وفيم يهمني هذا فعلاً ؟ سوف أنزع الشارة عن كتفي ، وأمضي الى بيتي « حين سيبدأ الأمر » • لقد نطقت فعلاً بهذه الكلمات : « حين سيبدأ الأمر » • انني أتذكر هذا جيداً •

ولكن يجب أن أمضي أستمع الى كارمازينوف • فلما طفت ببصري على الكواليس مرةً أخيرة رأيت ناساً مجهولين يتجولون فيها ، حتى ان بينهم نساء • فبعضهم يدخل ، وبعضهم يخرج • ان هذه الكواليس مساحة ضيقة تفصلها عن الصالة ستارة ، ويصلها بالحجرات الأخرى دهليز • فهناك انما كان الذين سيظهرون على المسرح ينتظرون أن يجيء دورهم • فلما هممت أن أخرج خطف بصري على حين فجأة منظر الشخص الذي سيعقب ستيفان تروفيموفتش • انه استاذ فيما أظن (حتى اليوم لا أعرف ماذا كان على وجه الدقة) : يقال انه ترك بمحض ارادته المؤسسة التي كان يعلّم فيها ، وذلك في أعقاب اضطرابات حدثت بين الطلاب ؛ وهو

اليوم فى مدينتنا لا أدرى لأية أسباب. هو أيضا قد زكّى لجوليا ميخائيلوفنا فاستقبلته باحترام • اننى أعرف الآن أنه لم يجيء اليها الا مرةً واحدة ، وأنه لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال السهرة ، مكتفيا بأن يبتسم ابتسامة ساخرة من الأمازيح التى كان يتبادلها الحاضرون عند جوليا ميخائيلوفنا ومن اللهجة التى كانوا يتكلمون بها • ولقد أحدثت هيئته المتغطرسة وحساسيته المتأذية أثراً مزعجاً جداً • يجب أن أذكر أن جوليا ميخائيلوفنا نفسها هى التى طلبت منه أن يشترك فى الصبيحة الأدبية • كان حين رأيته يمشى طولاً وعرضاً ، ويكلم نفسه ، مثل ستيفان تروفيموفتش ، ولكنه كان خافض العينين • لم يكن يدرس ابتساماته أمام المرآة ، رغم انه كان يبتسم كثيراً فتعبر ابتساماته عن خبث وشر وقسوة • هو أيضا كان لا يمكن أن يخاطَب طبعاً • انه قصير القامة ، أصلع الرأس ، شائب اللحية ، محتشم الملبس ، يبدو فى نحو الأربعين من عمره • لكن أغرب ما فى الأمر هو أنه كان كلما استدار يرفع قبضة يده اليمنى ويلوّح بها فوق رأسه ثم يسقطها فجأة كأنه يسحق خصماً من الخصوم • كانت هذه الحركة تتكرر بانتظام • شعرت بضيق وغم وأسرعت أمضى الى سماع كارمازينوف.

٣

مرةً أخرى كان الجو فى الصالة مشحونا بالكهرباء • اننى أعلن لكم سلفاً أننى أجلّ عظمة العبقرية ، ولكننى أتساءل لماذا نرى هؤلاء السادة ، رجالنا العباقرة ، يتصرفون تصرف صبيةٍ صغار حين يصلون الى نهاية سنيهم المجيدة ؟ مهما يكن كارمازينوف عظيما مشهورا ، ومهما يكن دخوله الى القاعة محفوفاً بهالة من الفخامة والأبهة كأنه ياوران ملك من الملوك ، فهل كان فى وسعه أن يحمل على الصبر جمهورا كجمهورنا مدة ساعة كاملة ؟ لقد لاحظت على وجه العموم أن الخطيب لا يمكنه فى

اجتماعات أدبية من هذا النوع أن يحتل المنصة أكثر من عشرين دقيقة دون أن يعاقبه الجمهور ، مهما يكن عبقريا • يجب أن أذكر على كل حال أن هذا الرجل العظيم قد استُقبل استقبالاً فيه أقصى الاحترام ؛ وأن الشيوخ الوقورين قد أظهروا ترحيبهم وتأييدهم ولاح عليهم كثير من حب الاطلاع • أما السيدات فقد بانت عليهن الحماسة • ولقد كان التصفيق قصيراً مع ذلك ، ولم يكن شاملاً • غير أن الصفوف الأخيرة ظلت هادئة ساكنة الى اللحظة التى بدأ فيها السيد كارمازينوف بالكلام • وحتى فى تلك اللحظة لم يحدث شيء ذو بال • فكل ما حدث عندئذ لا يعدو أن يكون سوء تفاهم • لقد سبق أن قلت ان صوت السيد كارمازينوف صارخ قليلاً ، نسوى بعض الشيء ، وأنه عدا ذلك متعاذب تعاذباً ارستقراطيا • لذلك فما كاد يتكلم حتى رأينا أحدهم يبيح لنفسه أن يضحك : ربما كان الضاحك رجلاً أحمق لا أكثر ، رجلاً لم ير فى حياته شيئاً ، فكل شيء يُفرحه ويضحكه • ولا شك فى أنه لم يخطر بباله احداث فضيحة • وسرعان ما قامت فى الصالة أصوات قوية تأمره بأن يخرس ، فسكت وجمد فى مكانه • ولكن ها هو ذا السيد كارمازينوف يصرّح متصنّعاً بأنه « كان فى أول الأمر لا يريد أن يقرأ شيئاً أمام جمهور ، مهما تكن الأسباب • » (لقد كان فى حاجة الى أن يقول هذا ، حقاً !) • « ان هناك أسطراً تنبع من القلب رأساً كأنها غناء • فاذا قرأتها على جمهور كنتَ تسيء اليها وتحط من قدرها وتجرّدها من قدسيتها • » (لماذا يقرؤها والحالة هذه ؟) « ولكنهم بلغوا من الالحاح عليّ اننى وافقت أخيراً • ولما كنت من جهة أخرى أهجر القلم الى الأبد ، ولما كنت قد آليت على نفسى أن لا أكتب بعد اليوم شيئاً ، فقد كتبت هذه المقالة الأخيرة ؛ ولما كنت قد حلفت أن لا أقرأ على الجمهور بعد اليوم شيئاً ، فقد قررت أن أقرأ الآن ما كتبت توديعاً للجمهور » الى آخر ما هنالك من كلام مشابه •

ولكن ذلك كله ما كان ليعدّ شيئاً . من ذا الذى يجهل مقــدمات الكتاب ؟ يجب أن أذكر مع هذا أن أمثال هذا الكلام يمكن أن تحدث آثاراً سيئة كل السوء في مثل هذا الجمهور الذى تعوزه الثقافة ، ولا سيما اذا كانت الحالة النفسية لدى المستمعين فى آخر القاعة هى ما كانت عليه فعلاً . لقد كان من الأفضل للسيد كارمازينوف أن يقرأ قصةً قصيرة ، أو أن يقرأ حكاية صغيرة من نوع الحكايات التى كان يكتب مثلهــا فى الماضى ، وهى حكايات ان كان فيها تصنع وافتعال ، فان فيها فكاهةً فى بعض الأحيان على كل حال . فلو فعل ذلك لأُنقذ كل شىء . ولكن لا . لقد كان يريد شيئاً آخر . لقد ألقى خطابا لا نهاية له . رباه ! ما أكثر ما احتوى مقاله من كلام ! اننى لعلى يقين بأن جمهور العاصمة نفسه ما كان يمكن أن يتحمل هذا الخطاب كله ، فما بالك بجمهور مدينتنا ! تصوروا ملزمتين من ملازم المطبعة مملوءتين ثرثرة متأنقة فارغة ! زد على ذلك أن كارمازينوف كان يقرأ بلهجة المتفضّل المتواضع ، فكأنه يُنعم علينــا ويغمرنا باحسانه . فمن شأن هذا أن يسىء الى كبرياء الناس طبعاً . أما الموضوع فمن ذا الذى كان يمكنه أن يفهمه ؟ لقد كان مدار المقال على بعض الانطباعات وبعض الذكريات . ولكن بأية مناسبة ؟ ما أكثر ما قطب المستمعون حواجبهم وحكوا جباههم أثناء سماع الجزء الأول من القصــة عسى أن يفهموا شيئاً ولكنهم لم يظفروا بطائل . لذلك لم يصغوا الى الجزء الثانى الا من قبيل الكياسة والتهذيب . لقد كان فى المقال كلام كثير عن الحب ، عن الحب الذى ملأ قلب الكاتب العبقرى يوم توله بغرام فتـــاة شابة . اعترف لكم أن هذا قد بدا محرجاً بعض الاحراج ، بل مزعجاً بعض الازعاج . فما أكبر التعارض فى رأيى بين وجهه المتكرش المترهل وبين القصة التى يرويها لنا عن قبلته الأولى ! ... والشىء الذى كان مثيراً أكثر من كل ما عداه هو أن قصة القبلة هذه لم تحدث كما تحدث لجميع

الناس . كان لا بد أن تحيط بها أزهار الوزّال (أزهار الوزّال أو أية نباتات مزهرة أخرى لا تستطيع أن تعرفها الا اذا رجعتَ الى كتب النبات)، وكان لابد أن يكون لون السماء فوقها ضارباً الى لون البنفسج، وهو لون لم يستطع أن يميِّزه في السماء أحدٌ من البشر يوماً ، بل قل ان البشر رأوه ولكنهم لم ينتبهوا اليه ولم يحفلوا به « أما أنا فقد ميَّزته ، ميَّزت هـذا اللون ، واني لأصفه لكم أيها الأغبياء ، كما يوصف شيء بسيط كل البساطة » . وان الشجرة التي كان الكاتب العبقري وحبيبته جالسين تحتها لا بد أن تكون بلون البرتقال . والحبيبان موجودان في مكانٍ ما بألمانيا . وهاهما يبصران بومبثوس أو كاسيوس على حين فجأة ، عشـية معركة خاضاها ، فاذا بالحبيبين يتجمدان افتتاناً . وهذه حورية من حوريات البحر تطلق صرخة وراء أحد الأدغال . وهذا جلوك يأخذ يعزف على الكمان ، بين شجيرات القصب ، لحناً عنوانه : « في جميع الآداب » ، ولكن لما لم يكن أحد قد سمع عن هـذا اللحن فلا بد من مراجعة معجم موسيقى لمعرفته . وفي أثناء ذلك ينتشر ضباب ، ثم يتكاثف الضباب ... بل يبلغ من التكاثف أنه يصبح أقرب الى زغب منفوش منه الى ضباب مألوف. وفجاة يغيب كل شيء ، ويأخذ الرجل العظيم باجتياز نهر الفولجا أثناء تكسر الجليد . انه يصف لنا عبور النهر في صفحتين ونصف صفحة . لقـد سقط في الماء . انه يغرق . هل يهلك ؟ لا ، لا ، لن يهلك أبداً . لقـد حكى لنا العبقري ذلك كله من أجل أن يقول انه حين أوشك أن يغور في قاع المياه ، لمح قطعة من الجليد فجأة ، قطعة صغيرة جدا ، لكنها صافية شفافة « كدمعة متجلدة » ، وعليها كانت تتألق ألمانيا أو قل تتألق سـماء ألمانيا . وهذا التألق المتلون بألوان قوس قزح يذكّر الرجل العظيم بتلك الدمعة نفسها التي « كما تتذكرين ، انحدرت من عينيك ، حين كنا جالسين تحت شجرة الزمرد ، فصرخت تقولين وقـد زخرت نفسك فرحاً :

« لا وجود للجريمة ! » فأجبتك من خلال عبراتي قائلا : « نعم ، ولكن لا وجود للصالحين العادلين أيضا ! » ثم أجهشنا باكيين منتحبين ، وافترقنا الى الأبد . » . وذهبت الفتاة لا أدري الى أي شاطيء من شواطيء البحر، وذهب هو يعتصم بمغارة في موسكو تحت برج سوخاريف . وما يزال يهبط من مغارات الى مغارات أعمق خلال ثلاث سنين حتى رأى في باطن الأرض مصباحا قد وقف أمامه ناسك يصلّي . ويقترب الكاتب من كوة ذات قضبان حديدية ، فاذا هو يسمع زفرة . هل تظنون أن الناسك هو الذي تنهد ؟ نعم انه الناسك . ولكن الزفرة لا تزيد على أن تذكر الكاتب بالتنهيدة الأولى التي خرجت من صدر حبيبته قبل سبعة وثلاثين عاما ، « متى ؟ هل تتذكرين ؟ في ألمانيا ، حين كنا جالسين تحت شجرة عقيق ، فقلت لي : علام الحب ؟ انظر الى نباتات زهر الوزّال هذه التي تحيط بناه لسوف أكف عن الحب متى صوّحت ! » . وهنا يتكاثف الضباب من جديد ، واذا هوفمان يظهر ، واذا حورية البحر تصفر لحناً من ألحـــان شوبان . وفجأة ، فوق سطوح المنـــازل بروما ، ينبجس من الضـــباب آنكوس ماركيوس متزنراً بأغصان أشجار الغار . فاذا رعدة نشوة تهزنا ، ثم افترقنا الى الأبد » الخ الخ . لعلني لم أنقل ثرثرة صاحبنا نقلاً دقيقا كل الدقة ، ولكنني نقلت معنى الكلام وطابعه العام . ترُى ما مصدر هذا الشغف الشديد المخجل ، لدى عظماء رجالنا ، بأمثال هـــذه الشعوذات الدعية ؟ ان الفلاسفة الأوربيين ، والعـــلماء ، والمخترعين ، والعاملين ، والأبطال ، ان جميع أولئك الذين يجهدون ويتألمون هم في نظر العبقري الروسي أشبه بخدم . انه هو السيد ؟ أما هم فلا يمثُلون أمامه الا رافعين قبعاتهم بأيديهم ينتظرون أوامره . صحيح أنه ينظر الى روسيا من علٍ أيضا ، وأنه لا شيء أحب الى نفسه من أن يعلن أن روســـيا قد أفلست افلاساً تاماً ازاء العقول الأوروبية العظيمة . ولكن هذا لا يصدق عليه هو،

لا يصدق على شخصه : فهو من جهته يحلق عالياً فوق جميع العقـــول الأوروبية العظيمة التى لا تزيد على أن تمده بمادة عبث • انه يستولى على فكرة غيره ، فيضم اليها النقيض الذى يتصـــوره ، فيتم العبث ، وتنتهى اللعبة • الجريمة موجودة ، الجريمة غير موجودة • الحقيقة لا وجود لها • ليس هناك صالحون عادلون • الالحاد • الداروينية • أجـــراس موسكو ••• لكنه لا يؤمن بأجراس موسكو مع الأسف ! روما ، أكاليل الغار ! ولكنه أصبح لا يؤمن حتى بأكاليل الغار ! ••• أضف الى ذلك وصولاً اضطراريا الى سأم على طريقة بايرون ، وتصـــعيرة وجه على طريقة هاينى ، وجملة من كلام بتشورين ! وتسير الآلة ••• وتسير ! ••• « ولكن عليكم خاصة أن تمدحونى ! امدحونى ! ذلك ما أريده ! وحين أعلن أننى أهجر القلم ، فما ذلك منى الا تظاهرا ! انتظروا قليلا ! لسوف أضجركم ثلاثمائة مرة أخرى ••• حتى تضيقوا ذرعاً بقــراءة ما أكتب ! » •

كان طبيعيا أن لا تكون خاتمة ذلك حسنة • ومع ذلك فاذا كانت الأمور قد جرت مجرى سيئاً ، فانما الذنب فى هذا ذنب كارمازينوف • لقد أخذ الناس منذ مدة يتمخطون ويسعلون ويتحركون متململين ، كمـا يحدث دائماً حين يحتل الخطيب المنصة أكثر من عشرين دقيقة ، كائناً من كان الخطيب • ولكن الكاتب العبقرى لم يلاحظ شيئاً • لقد ظل يتكلم بصوته المتعاذب المترقق وظل يتظارف ويتغنج دون أن ينتبه الى الجمهـور الذى أخذ يُدهش من هذه الحال • وفجأة تعالى صوت قوى من آخـــر الصالة يصيح قائلاً :

ـ ما هذه السخافات !

كانت صيحة غير مقصودة • أنا واثق بذلك • هى صيحة انسان استبد به التعب والضجر ، ولم يكن يخطر بباله قط أن يحدث لغطاً وبلبلة•

ولكن السيد كارمازينوف توقف عن الكلام ، وألقى على الحضور نظرة سخرية ، واصطنع على حين فجأة لهجة ياوران منزعج قائلاً :

ـ يبدو أيها السادة أنني أضجركم بعض الاضجار ، أليس كذلك ؟

لقد كان خطؤه أنه تكلم أول من تكلم . انه بالقائه هذا السؤال قد منح أي وغد حق الاجابة بطريقة من الطرق . فلو أنه سيطر على نفسه وأمسك عن الكلام ، لأمكن أن يستمر الناس في التمخط والسعال ، ولربما وقفت الأمور عند ذلك الحد لا تتعداه ! ... لعل كارمازينوف كان يتوقع أن يجيء الجواب عن سؤاله تصفيقاً . ولكن أحداً لم يصفق . بالعكس : ظهر على الناس القلق ، ولبثوا ساكنين لا يتحركون .

قال صوت مغتاظ يكاد يكون حانقاً :

ـ أنت لم تَرَ آنكوس مارسيوس في حياتك . ما هـذه الا جمل منمقة .

وقال آخر مؤيداً :

ـ تماماً . لا أحد اليوم يميل الى الرؤى الخيالية . وانمـا تحب الناس في هذا الزمان العلوم الطبيعية . هلا اطلعت على العلوم الطبيعية ؟

قال كارمازينوف مذهولاً :

ـ أيها السادة ، حقاً لم أكن أتوقع اعتراضات من هذا النوع .

ان هذا الرجل العظيم كان قد نسي في كارلسروهه وطنه .

صرخ شاب يقول بصوت كأنه صوت طائر من الجوارح :

ـ انه لمن المخزي في هـذا العصر أن يزعم لنـا زاعم أن الأرض تحملها ثلاث سمكات . أنت لم تهبط الى مغارة في يوم من الأيام ، ولا رأيت ناسكاً . ومن ذا الذي يتكلم عن ناسك في هذا الزمان ؟

قال كارمازينوف :

ـ ان الشيء الذى يدهشنى أكثر من كل ما عداه هو أنكم تأخذون الأمر مأخذ الجد الى هذا الحد . على كل حال ، على كل حال ، أنتم على حق . ما من أحد يحترم الحقيقة أكثر منى ...

لقد كان مذهولاً مشدوهاً ، رغم أنه ظل يبتسم ساخراً . وكان وجهه يقول : « أنا لست أبداً ما تظنون . أنا معكم . ولكن امدحونى ، اغمرونى بالمديح . اننى أعبد المديح ... » .

وقال أخيراً وقد اغتاظ اغتياظا عميقا :

ـ أرى أيها السادة أن قصيدتى الصغيرة المسكينة لم تجىء فى محلها، واننى أخطأت هدفى .

ـ رمى غراباً فأصاب بقرة .

كذلك صرخ يقول بأعلى صوته غبى ربما كان سكران . ولا شك فى أنه كان لا ينبغى الرد على هذه القولة التى أثارت بضع ضحكات يعوزها الاحترام والحق يقال . ولكن كارمازينوف استجاب استجابة عنيفة . فصاح يقول بصوت كان ما ينفك يزداد صياحا :

ـ بقرة ؟ فيما يتعلق بالغربان والأبقار ، أعتقد أن الأفضل أيها السادة أن أمتنع عن التعليق . اننى أحترم جمهورى أشد الاحترام ، أياً كان هذا الجمهور ، فلا يمكن أن أسمح لنفسى بتشبيهات ولو كانت بريئة ، ولكننى أظن ...

قال واحد من آخر القاعة :

ـ أراك تسرف مع ذلك !

ـ ولكننى ظننت أننى اذ أهجـــر القلم وأودع القـــارىء كنت سأسمع •••

فارتفعت فى الصفوف الأمامية أخيراً بضعة أصوات جريئة تقول :

ـ نعم ، نعم ، نريد أن نسمعك ، نريد أن نصغى اليك !

وصرخت سيدات متحمسات تقول :

ـ اقرأ ! اقرأ !

ودوّت أخيرا تصفيقات وان تكن ضعيفة هزيلة • فابتسم كارمازينوف ابتسامة متقلصة ونهض •

وقالت زوجة مارشال النبالة نفسها :

ـ ثق ياكارمازينوف أن الجميع يعدون الاصغاء اليك شرفا عظيما•••

ومن آخر الصالة قام معلم مدرسة هو شاب رقيق الحاشية مهـــذب وفد الينا واستقر بمدينتنا منذ مدة قصيرة ، قام وهو يصيح قائلا :

ـ يا سيد كارمازينوف ، لو قد أسعدنى الحظ فأحببت الحب الذى تصف ، لما تكلمت عن حبى فى مقالة تُقرأ على جمهور •

وعاد الشاب يجلس وقد صار كالجمر احمرارا •

فصرخ كارمازينوف يقول :

ـ أيها السادة ، لقد انتهيت • اننى أترك الخاتمة وأنسحب • ولكن اسمحوا لى أن أقرأ لكم الأسطر الأخيرة •

قال كارمازينوف ذلك وبدأ يقرأ ناظراً فى مخطوطته دون أن يعود الى الجلوس فقال :

« صديقى القارىء ، وداعاً • وداعاً أيها القارىء • لا أريد حتى أن

ألح كثيراً على ضرورة أن نفترق كما يفترق أصدقاء • علام أزعجك ؟ ان في وسعك حتى أن تشتمني • فاشتمني ما شئت ، اذا كان ذلك يحدث لك أية مسرة • ولكن الأفضل هو أن لا يفكر أحدنا في الآخر بعد اليوم• وهبكم جميعا أيها القراء مضيتم بشهامتكم فجأة الى حد استعطافي راكعين دامعين قائلين : أكتب أيضا يا كارمازينوف ، اكتب لنا ، لوطنك ، للأجيال القادمة ، للمجد ! » ؟ فسوف أجيبكم شاكراً بأدب كبير طبعا : «لا يامواطنيَّ الأعزاء ! لقد قضينا معاً حتى الآن وقتاً طويلاً كافيا • شكرا لكم • لقد آن أن نفترق • شكراً • شكراً • شكراً ! »

وهنا حيَّا كارمازينوف الجمهور بكثير من الاحتفال وانسحب محمرَّ الوجه احمرارا شديدا •

ـ ما من أحد يخطر بباله أن يركع أمامه • يا لها من فكرة !

ـ يا له من غرور !

ـ هذه فكاهة •

كذلك علَّق واحد أعلم من الآخرين • فأجابه ثان :

ـ أعفنى من هذه الفكاهة •

ـ ويالها من وقاحة أيها السادة !

ـ لقد انتهى على الأقل !

ـ حقاً لقد أضجرنا كثيراً !

لكن هذه الصيحات الفظة التى كانت لا تصدر عن آخر الصالة فحسب ، قد غلبتها تصفيقات الجزء الآخر من الجمهور الذى أخذ ينادى كارمازينوف • وتجمع عدد من السيدات ، فى طليعتهن جوليا ميخائيلوفنا وزوجة مارشال النبالة ، حول المنصة • كانت جوليا ميخائيلوفنا تحمل

اكليلاً رائعاً من الغار موضوعاً على وسادة من مخمل أبيض ومحاطاً باكليل آخر من ورود طبيعية •

قال كارمازينوف وهو يبتسم ابتسامة فيها قليل من السخرية :

ـ اكليل من الغار ! ان هذا اللطف يؤثر فى نفسى طبعاً ، وأنا أقبل شاكراً هذا الاكليل الذى سبق تحضيره ولكن لم يذبل بعد • غير أننى أؤكد لكن يا سيداتى أننى قد بلغت من الواقعية على حين فجأة اننى صرت أرى أن أكاليل الغار تكون فى هذا الزمان فى مكانها الطبيعى حين توضع بين يدى طباخ ماهر أكثر مما تكون فى مكانها الطبيعى حين تُقدَّم الىّ •

ـ فعلاً ، الطباخ أنفع •

كذلك قال الطالب الذى شارك فى « جلسة » فرجنسكى • ان كثيرا من الأفراد كانوا قد غادروا أماكنهم واحتشدوا حول المنصة ليروا المشهد رؤية أكمل •

وأضاف آخر وهو يرفع صوته عالياً ، بل عالياً جدا :

ـ أنا مستعد أن أدفع ثلاثة روبلات لطباخ الآن •

ـ أنا أيضا !

ـ وأنا أيضا !

ـ أليس ههنا اذن بوفيه ؟

ـ كانت تلك خدعة لا أكثر ، أيها السادة •

ومع ذلك فان هؤلاء الرعاع جميعا كانوا ما يزالون يشعرون بالوجل من شخصياتنا الكبرى ، ومن مفوَّض الشرطة الذى كان واقفاً فى الصالة• وعاد الناس الى الجلوس بعد زهاء عشر دقائق • غير أن شيئاً من الفوضى كان ما يزال قائما • وفى وسط هذا السديم الناشىء انما وقع المسكين ستيفان تروفيموفتش •

٤

مضيت ألقاه فى الكواليس مرةً أخرى (وكنت خارجاً عن طورى)، فنبهته الى أن كل شىء قد ضاع فى نظرى ، وأن الأفضل أن يعدل عن الكلام ، وأن يرجع رأساً الى البيت بحجة مغص انتابه فجأة • وقلت له اننى مستعد لأن أرجع معه ، تاركاً شارة المشرف على الحفلة • وكان هو قد أخذ يتجه نحو المنصة ، ولكنه توقف بغتةً ، وألقى علىّ نظرة احتقار وقال بلهجة فخمة :

ـ كيف يمكنك أن تتصور أن فى وسعى أن ارتكب صَغاراً كهذا الصغار أيها السيد ؟

فتركته يمر • كنت واثقاً ، كوثوقى بأن اثنين واثنين أربعة ، أن خطابه سيؤدى الى كارثة • وفيما كنت باقياً فى مكانى وقد صُعقت تماماً ، أبصرت مرةً الأخرى الأستاذ الذى سيتكلم بعد ستيفان تروفيموفتش ، والذى كان لا ينى يرفع قبضته فى الهواء ويخفضها مهدداً • انه لا يزال يمشى طولاً وعرضاً ، غارقاً فى أفكاره ، مجمجماً بكلمات غير مفهومة ، مبتسما ابتسامة حانقة • فناديته رغم ارادتى تقريباً (حقاً اننى لا أعرف ما الذى دفعنى الى مناداته) •

قلت له :

ـ انك تعرف أن الخطيب اذا احتل المنصة أكثر من عشرين دقيقة ، كفّ الجمهور عن الاستماع اليه • هذا ما تشهد به أمثلة كثيرة • فما من رجل شهير ، أياً كان شأنه ، يمكن أن يُحتمل أكثر من نصف ساعة•••

فوقف الرجل مرتعشاً ، جريح الكبرياء ؛ وعبَّر وجهه عن غطرسة لا نهاية لها ، ودمدم يقول لى باحتقار :

ـ لا تخش شيئاً •

واستأنف سيره • وفى تلك اللحظة بلغ الى سمعى صوت ستيفان تروفيموفتش من الصالة •

قلت بينى وبين نفسى : « اذهبْ الى الشيطان ! » • وهرعت الى الصالة •

كان ستيفان تروفيموفتش قد جلس قبل أن يستتب الهدوء تماما • استقبلته الصفوف الأولى بنظرات كارهة (لقد أصبح الناس فى النادى فى الآونة الأخيرة ، لا يحملون له من المودة والاحترام ما كانوا يحملون له منهما قبل ذلك) • وأسعدنى على كل حال أن رأيتهم لا يصفرون له استنكارا• لا أدرى لماذا كنت منذ أمس أتخيل أنهم سيصفرون له متى ظهر• ولكن ، فى وسط الاضطراب الذى كان يسود الجو ، لم يلاحَظ وجودُه فوراً • ماذا كان يمكن أن يتوقع هذا المسكين من الناس اذا كانوا لم يتحرجوا حتى مع كارمازينوف ، ولم يتورعوا عن معاملته تلك المعاملة ؟ كان ستيفان شاحب اللون • هذه أول مرة يظهر فيها أمام الجمهور منذ عشر سنين • أدركت ادراكاً واضحاً حين لاحظت انفعاله ورأيت بعض العلائم التى أعرفها فيه جيدا ، أن ستيفان تروفيموفتش كان يعد ظهوره على المنبر لحظة حاسمة فى حياته أو شيئاً من هذا القبيل • وذلك بعينه ما كنت أخشاه • لقد كان الرجل عزيزاً فى نفسى • لهذا تستطيعون بسهولة أن تتصوروا ما أحسست به حين فتح فاه ونطق جملته الأولى •••

بدأ يتكلم بصوت مخنوق وكأنه عقد العزم على أن يجازف بكل شىء فقال :

ـ أيها السادة ! فى هذا الصباح أيضا كانت أمامى ورقة من تلك الورقات التى تُوزَّع سراً فى البلاد ، فتساءلت للمرة المائة « ما سرُّ هؤلاء ؟ » •

صمتت القاعة فورا • واتجهت الأنظار كلها الى ستيفان تروفيموفتش

فى شىء من القلق • لا شك أنه استطاع منذ الكلمات الأولى أن يجتذب اهتمام سامعيه • حتى لقد ظهرت رءوس من خلف الكواليس • وكان ليبوتين وليامشين يصغيان طبعا •

نادتنى جوليا ميخائيلوفنا اليها من جديد ، وهمست تقول لى مرتاعة :

ـ أسكته ، أسكته مهما كلف الأمر !

فلم أزد على أن رفعت كتفى • أين لى أن أُسكت انساناً « عـزم أمره » أخيراً ؟ وا أسفاه ! لقد فهمت الآن ستيفان تروفيموفتش !

دمدم بعض فراد الجمهور يقولون :

ـ هذه منشورات تحريضية •

وظهر فى الصالة اضطراب •

ـ أيها السادة ، لقد حللت هذا اللغز : ان سر عملهم هو غباؤهم •

قال ذلك وسطعت عيناه • وتابع كلامه فقال :

ـ نعم أيها السادة ! لو كانت هذه الغباوة مقصودة ، متظاهراً بها ، محسوبة ، لكاد الأمر أن يكون عبقرياً • ولكن يجب أن ننصف كتاب هذه الورقات : ليس غباؤهم مزيفاً ، بل هو الغباء الخالص العارى البرىء المسكين ، « هو الغباء فى جوهره الصافى صفاءَ عنصر كيماوى بسيط » (بالفرنسية) • لو كانوا يعبِّرون ولو بقليل جداً من الذكاء ، لأدرك جميع الناس غباءهم التافه • ولكن جميع الناس يتوقفون الآن أمام هـذه الأوراق مشدوهين ، ولا يستطيعون أن يصدِّقوا أنها يمكن أن تكون غبية الى هذا الحد من الغباء • ان كل واحد منا يقـول لنفسه : « يستحيل التسليم بأن ليس فيها شىء أكثر من هذا » • ونمضى نبحث عن سرهم ، ويتراءى لنا أننا نكتشف لغزهم ، ونحاول أن نقرأ بين السطور • وبذلك

يتحقق الغرض ويحدث الأثر المنشود • آه ••• ان الغباء لم يحقق في يوم من الأيام انتصارا كهذا الانتصار ، انتصارا مسوّغاً هذا التسويغ ، رغم أنه يستحق هذا الانتصار في كثير من الأحيان ••• ذلك أن الغباء ـ أقول هذا بين قوسين ـ مفيد للانسانية كالعبقرية سواء بسواء •

قال صوت خجول في الواقع ، لكنه وضع في البارود ناراً :

ـ هذه من مزاحات سنوات الأربعينات !

وهتف ستيفان تروفيموفتش يقول متحدياً الجمهور :

ـ أيها السادة ! مرحى مرحى ! انني أشرب نخب الغباء !

أسرعت الى المنصة كما لو كنت أريد أن أصب له ماء • وقلت له :

ـ ستيفان تروفيموفتش ، انصرف ! ان جوليا ميخائيلوفنا تتوسل اليك أن تنصرف •••

فقال لي غاضباً :

ـ بل دعني وشأني أيها الشاب العاطل !

فوليت هارباً • وتابع هو كلامه فقال :

ـ أيها السادة ! لماذا هذا الاضطراب ؟ لماذا هذه الأصوات المستاءة التي أسمعها ؟ انني أجيء اليكم حاملاً غصن زيتون • انني آتيكم بقول فصل ، ذلك انني أنا الذي أعرف هذا القول الفصل ، وسوف نتصالح •

أعول بعضهم يقول :

ـ فليسقط ! فليسقط !

وصاح آخرون :

ـ صمتاً ! دعوه يتكلم ! ليقل ما يريد أن يقوله •

وكان أشدهم حماسة ، فيما يبدو ، انما هو معلم المدرسة الشاب

الذى تجاسر فتكلم مرةً ، فاذا هو قد أصبح لا يستطيع التوقف عن الكلام .

ـ أيها السادة ! ان القول الفصل لهو قول صفح وعفو ومغفرة . اننى لأعلن لكم جهاراً ، أنا الشيخ الذى انتهت حياته ، أن روح الحياة تهب اليوم مثلما كانت تهب فى الماضى ، وأن الجيل الجديد ما يزال زاخراً بالقوة . ان حماسة شباب اليوم لا تقل نقاءً وضياءً وسناءً عن حماسة شباب زماننا المنصرم . هناك شىء واحد تغير : ذلك الشىء انما هو الغاية ، انما هو الهدف . ان مثلاً أعلى جديدا قد حل محل المثل الأعلى القديم . والقضية كلها ترجع الى هذا السؤال : هل شكسبير أعلى قيمةً من حذاءين، وهل رافائيل أرفع شأناً من صفيحة نفط ؟

ـ هذه وشاية !

ـ هذه مسائل تعرّض للخطر !

ـ يا للعميل المحرّض !

صرخ ستيفان تروفيموفتش يقول بصوت حاد :

ـ أما أنا فأقول لكم ان شكسبير ورافائيل أجل شأناً من تحرير الفلاحين ، وأرفع قدراً من القومية ، وأعظم قيمة من الاشتراكية ، وأسمى منزلةً من الجيل الجديد ، وأهم خطراً من الكيمياء ؟ وانهما فوق الانسانية بكاملها تقريبا ، لأنهما ثمرة الانسانية ، ثمرتها الحقيقية ، لأنهما ربما كانا أجمل الثمار الانسانية التى يمكن أن تهبها الانسانية يوما ، لأنهما يحققان منذ الآن صورة من الجمال كاملة قد لا أحب بدونها أن أحيا ... آه ... رباه ! ... (قال ذلك وضمّ يديه احداهما الى الأخرى) ... منذ عشر سنين ، فى بطرسبرج ، ناديت من أعلى المنبر بهذه الأفكار نفسها ، معبراً عنها بهذه الألفاظ نفسها تماما . وكما لا تفهموننى الآن ، كذلك سخروا

منى يومذاك ، وصفروا لى . يا للبشر المساكين ! ماذا يعوزكم حتى تفهمونى ؟ هل تعلمون ... هل تعلمون أن الانسانية تستطيع أن تستغنى عن الانجليز اذا لزم الأمر ، وأن تستغنى عن ألمانيا ، وأنها تستطيع جداً جداً أن تستغنى عن الروس ، وعن الخبز ، وعن العلم ؟ ولكنها لا تستطيع أن تستغنى عن الجمال ؟ ان الجمال وحده لا غنى لها عنه ، اذ بدون الجمال لا يبقى لنا على الأرض ما نعمله ! هذا هو السر كله ! ذلكم هو كل التاريخ ! العلم نفسه لا يمكن أن يعيش لحظةً بعد زوال الجمال ! هل تعلمون ذلك أنتم يا من تضحكون ؟ نعم ، ان العلم بدون الجمال يتدهور الى تفاهة ، فتصبحوا عاجزين عندئذ حتى عن اختراع مسمار ! ...

قال ذلك ثم أعول فجأة وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية :

ـ لن أتراجع عن رأيى !

ولكن بينما كان ستيفان تروفيموفتش يهذر هذا الهذر كانت الفوضى فى الصالة تزداد . ان جزءاً من الجمهور قد هبَّ واقفاً ، وان عدداً من الناس قد أخذوا يقتربون من المنصة متدافعين . وهذا كله حدث بسرعة تبلغ من الشدة أن الوقت لم يتسع لاتخاذ الاجراءات الضرورية . وربما لم يشأ أحد أن تتخذ هذه الاجراءات .

زأر الطالب قائلاً وقد وصل الى قرب المنصة ، وكان يضحك ضحكة خبيثة كاشفا لستيفان تروفيموفتش عن جميع أسنانه :

ـ هذا يصلح لكم أيها الكسالى الذين تعيشون عالةً على غيركم كما تعيشون ....

فلما رآه ستيفان تروفيموفتش وثب الى حافة المنصة .

ـ ألست أنا الذي قلت ان حماسة الجيل الجديد لا تقل صفاء وضياءً

وسناءً عما كانت عليه حماستنا نحن ، وانها لا تضيع الا لخطأ فى فهم صور الجمال ؟ ألا يكفيكم هذا ؟ هل يستطيع انسان ، يا أيها المحدودون ؟ أن يكون أكثر حيادا وانصافا ، وأن يكون أعظم هدوءاً ورصانة ؟ ... يالكم من عاقين ناكرين للجميل ! ... لماذا ، لماذا لا تريدون أن تتصالحوا ؟...

ألقى ستيفان تروفيموفتش هذا السؤال وأجهش باكيا منتحبا ، وأخذ يمسح بأصابعه دموعه التى طفقت تسيل على وجهه كله . كان جسمه يرتعش متشنجا . وكان قد فقد صوابه تماما .

وهبت على الصالة ريح ذعر . ان جميع الحضور تقريبا قد وقفوا . وانتصبت جوليا ميخائيلوفنا فجأة ، شادةً زوجها من ذراعه لينهض هو أيضا ... وبلغت الفوضى ذروتها .

هتف الطالب يقول فرحا :

ـ ستيفان تروفيموفتش ! ان فدكا ، المحكوم عليه بالأشغال الشاقة ، قد هرب من السجن وهو الآن يطوف فى المدينة وفى الضواحى . انه يسرق ويقتل . ولقد ارتكب فى الآونة الأخيرة جريمة قتل جديدة . فهلاً أذنت لى أن ألقى عليك هذا السؤال : لو أنك منذ خمسة عشر عاما لم تبق جنديا لتسدد ديناً ترتب عليك فى القمار ، أو قل بتعبير آخر : لو أنك لم تخسر فدكا فى اللعب بالورق ، أفكان ذهب الى السجن ؟ أفكان يقتل كما يفعل الآن فى كفاحه من أجل البقاء ؟ ما رأيك فى هذا يا عاشق الجمال ؟

اننى أعزف عن وصف ما جرى حينذاك . لقد هبَّت فى أول الأمر عاصفة من التصفيق . صحيح أن الذين صفقوا لا يتجاوز عددهم خمس عدد الحضور فى القاعة ، ولكنهم صفقوا بحماسة تشبه الهذيان . واتجه الآخرون نحو باب الخروج . ولكن لما كان المصفقون يتدافعون نحو المنصة ،

فقد عمّ اضطراب شامل ، فالسيدات يطلقن صرخات صغيرة ، والفتيات يبكين ويطلبن اعادتهن الى البيوت • ولبكه واقف أمام كرسيه يجيل على ما حوله نظرات زائغة • وجوليا ميخائيلوفنا تبدو كأنها فقدت صوابها • أما ستيفان تروفيموفتش فقد بان عليه فى البداية أن كلام الطالب قد سحقه سحقاً بالفعل • ولكنه لم يلبث أن مدّ ذراعيه فوق الجمهور على حين بغتة وأعول يقول :

ـ اننى أنفض غبار حذاءى وألعن ! •••• هـذه هى النهاية ! النهاية ! •••

واستدار الى وراء ، وفرّ الى الكواليس ملوحاً بذراعيه على هيئة التهديد •

أعول المسعورون يقولون :

ـ لقد أهان الجمهور ! هاتوه ! أرجعوه !

وأراد بعضهم أن يركض فى اثره • لقد كان يستحيل استحالة مطلقة ، فى تلك اللحظة على الأقل ، أن تعود الأفكار الى هدوئها ، وأن يرجع الى النفوس صفاؤها وسكونها •

ولم يطل انتظار وقوع الكارثة الحاسمة • فها هى ذى تنفجر انفجار قنبلة : ان المحاضر الثالث ، ذلك الرجل المهووس الذى كان لا ينى يشهر قبضة يده فى الكواليس قد انبجس الآن على المنصة فجأة •

كانت هيئته هيئة مجنون تماما • وجهه يشرق بابتسامة نصر ، ويزخر بزهو كبير ؛ وهو يتأمل الصالة مفتونا بالفوضى التى تسودها ، لا يقلقه ولا يشوشه أن عليه أن يتكلم فى وسط هذا اللغط وهذه الضوضاء ، حتى لكأنه مسرور بذلك أعظم السرور • وكان ابتهاجه يبلغ من الوضوح أنه سرعان ما لفت اليه انتباه الناس كافةّ على الفور •

هتفت بضعة أصوات تسأل :

ـ ما هذا أيضا ؟ من هذا ؟ سكوت ! ماذا يريد أن يقول ؟

صاح المهووس يقول بأعلى صوته ، واقفاً على حافة المنصة :

ـ أيها السادة •••

ان صوته صارخ كصوت كارمازينوف ، ولكن ليس فيه ما فى صوت كارمازينوف من تعاذب ارستقراطى •

ـ أيها السادة ! منذ عشرين سنة ، قبل أن تدخل روسيا حرباً ضد نصف أوروبا ، كانت روسيا تجسد المثل الأعلى لجميع مستشارى الدولة وغيرهم من المستشارين • وكان الأدب عبد الرقابة • وكانت الجامعات تعلم الخطوة العسكريه ، وكان الجيش قد أصبح فرقة باليه • أما الشعب فكان يدفع الضرائب ويصمت مجلوداً بسياط القنانة • وكانت الوطنية تعنى قبض الرشوات ، فأما الذين لا يقبضون رشوات فيعدون عصاة ثائرين لأنهم يشوشون انسجام النظام • وكانت غابات أشجار السندر تُقطع دائماً فى سبيل الحفاظ على النظام • وكانت أوروبا ترتعش ••• ولكن روسيا خلال السنين الألف من حياتها البليدة لم تكن قد بلغت ذلك المبلغ من السقوط الى الدرك الأسفل •••

قال الخطيب هذا ورفع قبضة يده وشهرها غاضباً فوق رأسه ثم هوى بها كأنه يحطم خصماً من الخصوم • فضجت القاعة بأصوات معولة مجنونة فى كل جهة من الجهات • وطفق نصف من فى القاعة يصفقون تصفيقا محموما • وحتى الخجلون الوجلون انقادوا للحماسة العامة • ان روسيا تُشتم وتلطخ بالوحل على رءوس الأشهاد • فكيف لا تثور الحماسة تأييدا واستحسانا ؟

ـ هذا رجل ! هل اسمه كلام ! ما هذا بجمل منمقة فى علم الجمال ! •••

وتابع المهووس خطابه قائلاً وقد سكر بما أصاب من نجاح :

ـ انقضت على ذلك العهد عشرون سنة . افتُتحت جامعات جديدة. الخطوة العسكرية أصبحت أسطورة . وأصبح يعـوزنا ألوف الضباط لاكمال القيادات فى جيشنا . السكك الحديدية التهمت العواصم ، وغطت روسيا كخيوط العنكبوت ، فما ان تمض خمس عشرة سنة أخرى حتى يكون فى وسع المرء أن ينتقل الى أى مكان فى أغلب الظن . الجسـور لا تحترق الا من حين الى حين ، فى أوقات متباعدة . أما المدن فتحترق واحدةً بعد أخرى بانتظام ، حين يجىء موسم الحرائق . المحاكم تصدر أحكاماً كأحكام سليمان الحكيم ، والمحلّفون لا يتقاضون مالاً الا من أجل أن لا يموتوا جوعاً . ذلك هو الكفاح فى سبيل البقاء . الأقنان أحرار ، يضرب بعضهم بعضاً لأن السادة أصبحوا لا يضربونهم . بحار من الخمرة بل أوقيانوسات من الخمرة يشربها الشعب مساعدةً للميزانيـة . وفى نوفجورود ، أمام كاتدرائية القديسة صوفيا ، القديمة التى لا فائدة منها ، نُصبت كرة فخمة كبيرة من البرونز تخليداً لذكرى السنين الألف التى قضيناها من حياتنا فى فوضى وغباء . وأوروبا تقطب حاجبيها ، وتستأنف قلقها ... خمسة عشر عاما من الاصلاحات ! ومع ذلك لم تسقط روسيا يوما ، حتى فى أحلك عهود فوضاها ، الى مثل هذا الدرك الأسفل ...

لم يمكن سماع كلماته الأخيرة : لقد غطّتها هتافات الجمهور وأغرقتها اغراقاً . وظل المجنون يُرى رافعاً قبضة يده ، هاوياً بها على ظفر وانتصار. تجاوزت الحماسة العامة كل الحدود . كان النـاس يعولون ، ويضربون أكفهم ، حتى لقد أخذت سيدات تصيح قائلة : « كفى ! لن تقول خيراً مما قلت ! » . كان الناس كالسكارى . وكان الخطيب يطـوف ببصره على الجمهور ويتلذذ بانتصاره . رأيت لمبكه مضطربا اضـطرابا لا سبيل الى وصفه ، وكان يصدر الى أحدهم أوامره . ورأيت جوليا ميخائيلوفنا شاحبة

كل الشحوب تقول بضع كلمات سريعة للأمير الذى هرع اليها ... ولكن ستة رجال هم جميعاً أشخاص رسميون قليلاً أو كثيراً ، قد ظهروا على المنصة فى تلك اللحظة نفسها ، فأمسكوا بالخطيب واقتادوه الى الكواليس . لا أدرى كيف استطاع أن يفلت منهم . ولكنه قد أفلت فى الواقع ، وركض الى حافة المنصة ، وأمكنه أن يصرخ مرة أخرى شاهراً قبضة يده قائلاً بصوت عال :

ـ ولكن روسيا لم تسقط يوما هذا السقوط ...

واقتادوه من جديد . وأراد نحو خمسة عشر رجلاً أن يخلّصوه، فأحدقوا بالمنصة وحطموا الدرابزين الهـزيل الذى يحيط بها فسرعان ما سقط ...

وبعد ذلك رأيت ، دون أن أصدق عينيّ ، رأيت الطالبة (أخت فرجنسكى) تظهر على المنصه فجأة وقد انبجست لا أدرى من أين . انها ما تزال مدوّرة الجسم وردية اللون ، وما تزال ترتدى ذلك الثـوب نفسه ، وما تزال تتأبط تلك اللفيفة من الأوراق نفسها . وكان يصـحبها عدة أشخاص ، رجال ونساء ، عرفت منهم طالب المدرسة الثانوية ، عدوّها اللدود . لم أستطع أن أدرك الا عبارة واحدة قالتها :

« أيها السادة ، لقد جئت لأطلعـكم على آلام الطـلاب التعساء ، ولأدعوكم الى الاحتجاج ... » .

ولّيت هارباً . دسست فى جيبى عقدة الشريط الذى كانت موضوعة على كتفى ، وخرجت الى الشارع من باب خفى كنت أعرفه . وقبل كل شىء ذهبت طبعاً الى ستيفان تروفيموفتش .

الفصل الثاني

نهاية الحفلة

١



يقبل ستيفان تروفيموفتش أن يستقبلني • كان قد سجن نفسه ، وأخذ يكتب • قرعت مرةً أخرى وناديته من خلال الباب فأجابني بقوله :

ـ لقد أنهيت كل شيء يا صديقي ، فماذا يُراد مني أيضا ؟

ـ لم تنه أي شيء البتة ، وانما أنت أسهمت في الكارثة • كفاك مزاحاً ، أرجوك ! ستيفان تروفيموفتش ، افتح ! يجب اتخاذ اجراءات • قد يجيئون الى هنا ويهينونك •

رأيت من واجبي أن أكون قاسياً بل صارماً معه • كنت أخشى أن يندفع في حماقة أشد وأخطر • ولكن ستيفان تروفيموفتش قاوم مقاومة غير معهودة فيه ، مقاومةً أدهشتني كثيراً •

ـ لا تهنّي ، أنت خاصةً • انني شاكر لك كلّ ما صنعته لي حتى الآن ، لكنني أكرر لك انني قد أنهيت صلتي بالناس ، أخيارهم وأشرارهم على السواء • أنا أكتب الآن الى داريا بافلوفنا التي أهملها اهمالاً لا يغتفر ،

فى الآونة الأخيرة . فاحمل رسالتى اليها غداً اذا شئت . والآن ـ «شكراً».

ـ ستيفان تروفيموفتش ، أؤكد لك أن الأمر أخطر شأنا مما تظن . أتتصور أنك سحقت أحدا ؟ انك لم تسحق أحداً . وانما أنت تحطمت كما تتحطم زجاجة فارغة ...

كنت فظاً فى مخاطبته ، وما زلت أتألم حين أتذكر هذا . وتابعت كلامى أقول :

ـ ليس ثمة سبب يدعوك أن تكتب الى داريا بافلوفنا ... وماذا عسى أن تصير بدونى ؟ ماذا تفهم أنت من شئون الحياة العملية ؟ أغلب الظن أنك تهىء ضربة أخرى ، أليس كذلك ؟ اذا صح هذا فان شقاء جديدا سينزل عليك ...

نهض ستيفان تروفيموفتش واقترب من الباب . وقال :

ـ انك قد بقيت بقربهم زمناً قصيراً ، ولكنك أخذت عنهم لغتهم ولهجتهم . « عفا الله عنك يا صديقى ، وحماك ! » (بالفرنسية) . لقد لاحظت فيك نوعاً من الشرف على الدوام ، وربما كانت لك عودة أخرى الى أفكار أفضل ـ « بعد فوات الأوان » ـ شأننا جميعا معشر الروس . أما عن ملاحظتك التى تعرّض فيها بنقص خبرتى فى الشئون العملية ، فاننى أذكّرك بكلمة من كلماتى : ان لدينا ، فى روسيا ، أناسا كثيرين ، يتهافتون تهافت الذباب وراء واحد منهم ويعيبون على الآخرين أنهم يفتقرون الى الحس العملى ، دون أن يرجعوا الى أنفسهم فى يوم من الأيام .. « يا عزيزى » ، تذكّر أننى منفعل جدا ، فلا تعذبنى . « شكراً » مرةً أخرى لكل ما صنعته من أجلى ، ولنفترق كما افترق كارمازينوف عن جمهوره ، أو قل بتعبير آخر : لنكن كريمين سمحين ، فتنسانى كما سأنساك . ان كارمازينوف كان يمكر حين طلب من قرائه أن ينسوه .

أما أنا فانني أقل غرورا وأقل حباً للظهور • ثم انني أعتمد خاصة على كونك في عنفوان الشباب : كيف يمكنك أن تحتفظ مدةً طويلة بذكرى شيخ لا خير فيه ؟ « عش مدة أطول » يا صديقي ، على حد التعبير الذي قالته لي ناستاسيا مؤخرا بمناسبة عيد ميلادي (« ان للفقراء كلمات رائعة زاخرة بالفلسفة أحيانا ») (بالفرنسية) • انني لا أتمنى لك سعادة كثيرة ـ فالسعادة تتعب ـ ولكنني لا أتمنى لك الشقاء أيضا • وانما أنا أكرر حكمة الفلسفة الشعبية : « عش مدة أطول » ، وحاول أن لا تضجر كثيرا • وهذا التمني الذي لا سبيل الى تحقيقه ، أنا الذي أضيفه • والآن ، وداعاً ، وداعاً ! ولا تبق أمام بابي • فلن أفتح الباب •

وعاد يكتب • ولم أستطع أن أجني منه أكثر من ذلك • ولقد تكلم بلهجة متساوية رغم « انفعاله » ، تكلم بغير تعجل ، بل تكلم بفخامة ، بغية أن يفرض عليَّ مهابته • لا شك أنه حاقد عليَّ بسبب المسارّات التي استرسل في الافضاء بها اليَّ أمس عن « الزلاجة » ، وعن « الأرض التي تميد تحت خطواته » • ثم ان الدموع التي ذرفها أمام الجمهور منذ قليل قد وضعته في ظرف مضحك رغم هيئة الانتصار التي كان قد اصطنعها ، وهو يدرك هذه الحقيقة • فاذا تذكرنا أنه ما من أحد يحرص حرص ستيفان تروفيموفتش على أن يحافظ في علاقاته بأصدقائه على قواعد الأصول وآداب اللياقة ، كان في وسعنا أن ندرك ما هو عليه الآن من حالة نفسية خاصة • معاذ الله أن أتهمه ! ومهما يكن من أمر فان هذا التأذي السريع وهذه اللهجة الساخرة اللذين احتفظ بهما رغم كل شيء قد طمأناني : لقد بدا لي قليل الاختلاف جداً عما عهدته فيه عادة ، فلا يمكنه الآن اذن أن يتخذ قرارا فاجعا غير عادي • ولكنني أخطأت الظن ••• لقد غابت عني أشياء كثيرة •

وهأنذا أستبق الحوادث فأورد لكم مستهل الرسالة التى بعثها الى داريا بافلوفنا ، فاستلمتها هذه فى الغد فعلاً .

« بنيّتى ، ان يدى ترتعش ، ولكننى أنهيت كل شىء . لم تشهدى ساعة معركتى الأخيرة مع الناس . انك لم تجيئى لسماع المحاضرة . وحسناً فعلت . ولكنهم سيقولون لك ان رجلاً شجاعاً فى بلادنا روسيا التى تفتقر أشد الافتقار الى رجال شجعان قد نهض مقتحماً تهديدات الموت التى كانت تتقاطر عليه من كل جهة ، فأعلن لأولئك الحمقى الصغار حقيقتهم ، أى قال لهم انهم ليسوا الا حمقى صغاراً . » آه ... ما هم فى حقيقة الأمر الا صغار تافهون لا قيمة لهم ، ما هم الا صغار أغبياء ، نعم هذه الكلمة التى تصفهم بما فيهم » (بالفرنسية) . لقد قلت كلمتى وحددت مصيرى . سأبارح هذه المدينة الى الأبد ، وأذهب لا أدرى الى أين . ان جميع الذين كنت أحبهم قد أشاحوا عنى . أما أنت ، أيتها النفس الطاهرة البريئة النقية ، أنت أيتها الانسانة العذبة الرقيقة ، الذى أوشك مصيرها أن يتحد بمصيرى تنفيذاً لارادة امرأة طاغية ذات نزوات ، أنت التى لعلك كنت تنظرين باحتقار الى العبرات تذرفها عيناى بحقارة وجبانة عشية خطبتنا ، أنت التى لن تملكى الا أن تعدينى رجلاً مضحكاً ، فاقبلى هذه الصرخة الأخيرة يطلقها قلبى . اننى اذ أوجه اليك هذه الصرخة انما أحقق واجباً أخيراً . ذلك أننى لا أستطيع وأنا أتركك الى الأبد أن أدعك تظنين اننى لست الا انسانا عقوقا ، انسانا غليظ القلب ، انسانا أنانيا كما يؤكد لك ذلك كلّ يوم ، فى أغلب الظن ، شخص عقوق قاس لا أستطيع أن أنساه وا أسفاه ! ... » .

وهكذا دواليك على مدى أربع صفحات كبار .

حين قال لى ستيفان تروفيموفتش انه لن يفتح ، قرعت الباب بقبضة يدى ثلاث مرات وصرخت أقول له انه سيبعث ناستاسيا لاستدعائى فى ذلك

اليوم نفسه ، ولكننى أنا الذى سأرفض عندئذ أن أجىء • ثم تركته وأسرعت أذهب الى جوليا ميخائيلوفنا •

٢

هناك حضرت مشهداً يثير الأعصاب فعلاً : كانوا بصدد غش المرأة المسكينة بوقاحة لا حياء فيها ، ولم أستطع أن أفعل شيئاً • ماذا كان فى وسعى أن أقول لها فى الواقع ؟ كنت قد ثبت الى رشدى وعدت الى صوابى وأدركت أن ليس لدىّ على وجه الاجمال الا انطباعات ومشاعر وشبهات وشكوك وتوجسات لا أكثر • رأيتها غارقة فى دموعها توشك أن تصاب بنوبة عصبية • كانت تشرب ماء ، وتمسح وجهها بالكولونيا • وكان بطرس ستبفانوفتش واقفاً أمامها يتكلم بغير توقف أو انقطاع ، بينما كان الأمير هنالك أيضا لا ينطق بكلمة واحدة • انها تأخذ على بطرس ستيفانوفتش ، بصرخات ودموع ، ما كانت تصفه بأنه « خيانة » منه • ما كان أشدّ دهشتى حين رأيتها تنسب اخفاق الاجتماع وكل ما جرى الى مجرد غياب بطرس ستيفانوفتش عن الحفلة •

ولقد لاحظت فيه تغيراً كبيراً : كان يبدو مشغول البال كثيرا • ان وجهه رصين جاد • ان هيئته لا تعبر فى العادة عن جد : فهو يضحك دائما حتى حين يغضب ، وذلك ما يحدث له فى أحيان كثيرة • انه الآن أيضا حانق ، ولكنه يتكلم بلهجة فظة ، متذمرة ، متململة ، خالية من التحرج زاخرة بالاهانة • كان يؤكد أنه قد أصيب بصداع شديد وتقيؤ قوى عند جاجانوف الذى ذهب اليه فى الصباح • وا حسرتاه ! لقد كانت المرأة المسكينة لا تتوق الا الى أن تُخدع مرة أخرى • كانوا لحظة دخولى يتناقشون فى أمر حفلة الرقص : أتقام أم لا ؟ فكانت جوليا ميخائيلوفنا

تصر على أنها لن تظهر فى هذه الحفلة بحال من الأحوال بعد « الاهانات التى نالتها فى الصباح » • قل بتعبير آخـــر : انها كانت تريد أن تُجبر اجباراً على حضور الحفلة ، وأن يجبرها على ذلك بطرس ستيفانوفتش نفسه • كانت تنظر اليه نظرتها الى عرّاف لا يخطىء • وأظن أنها كانت ستمرض لو انصرف • ولكن بطرس ستيفانوفتش لا يخطـــر بباله أن ينصرف : انه يصر اصرارا قاطعا على أن تقام حفلة الرقص ، وعلى أن تحضرها جوليا ميخائيلوفنا حتماً •••

ـ ما بالك تبكين ؟ أأنت حريصة هـــذا الحـرص كله على خلق مشكلة ؟ ألا بد لك من صبّ غضبك على أحد ؟ طيب ! صبّى غضـــبك علىّ أنا ، ولكن أسرعى ، لأن الوقت يمضى سريعاً ، ولا بد من اتخاذ قرار • أخفقت صيحتك الأدبية ؟ طيب ••• ان حفلة الرقص ستصـلح من الامر ما فسد • انظرى الى الأمير • انه يوافقنى على رأيى • نعم ، لو لم يكن الأمير هنـــاك ، لمـا عرف أحـــد كيف كان يمكن أن تنتهى القضية !

لقد كان من رأى الأمير فى البداية أن لا تُقام الحفلة (أو قل كان من رأيه أن لا تحضرها جوليا ميخائيلوفنا ، اذ لا بد من اقامة حفلة الرقص على كل حال) ، ولكنه بعد أن ذُكر مرتين أو ثلاث مرات قال فى النهاية بضع كلمات مبهمة يُفهم منها أنه موافق •

وقد دُهشت كثيرا كذلك من لهجة بطرس ستيفانوفتش التى كانت خاليةً من الأدب والتهذيب • آه ••• معاذ الله أن أصدّق الاشاعات الدنيئة السافلة التى أذيعت ، فيما بعد ، عن العلاقات التى قالوا انها كانت قائمـةً بين جوليا ميخائيلوفتش وبطرس ستيفانوفتش • ان أمثال تلك العـــلاقات المزعومة لم توجد ولا كان يمكن أن توجد بينهما • ولئن استطاع بطرس

ستيفانوفتش أن يكون له على جوليا ميخائيـلوفتش شىء من السيطرة ، فالسبب الوحيد فى ذلك هو أنه كان يشجع أحلامها الطموحة ، مقنعاً اياها بأنها تستطيع أن تؤثر فى المجتمع وأن تؤثر فى الوزير • لقد دخـل فى خططها منذ البداية ، وكان يلقنها هذه الخطط هو نفسه ، ويغمرها بأنواع المديح المبذول ، فاستطاع أخيراً أن يلتف عليهـا ويكبلها من أخمص القدمين الى قمة الرأس بحيث أصبحت لا تستطيع الاستغناء عنه •

حين رأتنى جوليا ميخائيلوفنا أطلقت صرخة ، وسطعت عينـاها ، وقالت تخاطب بطرس ستيفانوفتش :

ـ ها هو ذا • اسأله • انه هو أيضا لم يتركنى ، كالأمير •

وأردفت تقول لى :

ـ قل لهم : أليس بديهياً أن المسألة كانت مؤامرة ، مؤامرة دنيئـة وقحة تهدف الى ايذائى أنا وآندره أنطونوفتش ؟ أوه ! لقد كانوا متواطئين متفاهمين ! كانت لهم خطة مرسومة • انهم حزب ، حزب حقيقى •

قال لها بطرس ستيفانوفتش :

ـ انك تبالغين ، على عادتك • لا بد من قصيدة فى رأسك دائماً •

ثم أردف يقول لى :

ـ على كل حال ، يسعدنى أن أراك يا سيد •••

وتظاهر بأنه نسى اسمى • وتابع كلامه :

ـ ••• سوف يقول لنا رأيه •

أجبت متعجلاً :

ـ رأيى مطابق لرأى جوليا ميخائيلوفتش فى كل ما قالت • بديهى كل البداهة أن ثمة مؤامرة محبوكة • اننى أرد اليك هذه الشرائط ياجوليا

ميخائيلوفنا • لا أدرى هل تقام حفلة الرقص • ذلك أمر لا شأن لى به • لكننى لن أكون واحدا من المشرفين على الحفلة • انتهى دورى هـــذا • اغفرى لى حدتى • ولكننى لا أستطيع أن أتصرف تصرفاً مخالفاً للعقـل والحس السليم ، منافيا لاقتناعاتى •

فصاحت تقول وهى تضم ذراعيها :

ـ هل سمعت ؟ هل سمعت ؟

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يلتفت نحوى :

ـ سمعت • وفى رأيى أنكم جميعكم قد بلعتم شيئاً شوش عقولكم وبلبل أفكاركم • فى رأيى أنه لم يقع أى شىء خارق • لم يقع شىء يزيد على ما سبق أن وقع هنا وما يمكن أن يقع فى كل زمان • أين المـــؤامرة التى تتخيلون ؟ كان الأمر سخيفاً بشعاً مخزياً ، ولكن أين ترون مؤامرة ؟ أمؤامرة على جوليا ميخائيلوفنا ، حاميتهم التى تدالهم كل الدلال ، وتغفر لهم كل العيوب ؟ جوليا ميخائيلوفنا ، ماذا كنت أقول لك بلا انقطاع فى الشهر الأخير ؟ ألم أنبِّهك وأحذِّرك سلفاً ؟ ما كانت حاجتك الى هؤلاء الناس جميعا ؟ ما كانت حاجتك الى الارتباط بهؤلاء الأوغاد ؟ فيم كان ذلك كله ؟ أكان لتحقيق وحدة المجتمع ؟ هلاّ فكرت فيما تقولين ! أهؤلاء قادرون على أن يتحدوا ؟

ـ أأنت نبهتنى وحذرتنى ؟ بالعكس ! كنت دائماً تشجعنى ، بل كنت دائماً تطالبنى بالمزيد ••• حقاً انك لتدهشنى الآن غاية الادهاش ! أنت نفسك جئتنى بأشخاص عجيبين جدا •

ـ لا ، أبدا • كنت أشاجرك فى هذا الأمر ، وكنت لا أؤيدك ولا أحبذ تصرفك • لقد جئتك بأناس عجيبين ••• هذا صحيح ••• ولكن بعد أن كان منزلك قد امتلأ بأمثالهم ••• ثم اننى لم أجئك بهم الا فى

الآونة الأخيرة من أجل « الحفلة الأدبية » : لقد كان يصعب الاستغناء عن هؤلاء الأوباش • أراهن أن دستة أو دستين منهم قد أُدخلوا بغير تذاكر •

قلت مؤيداً :

ـ أنا من هذا على يقين •

ـ أرأيت ؟ انك توافق • ثم تذكّر اللهجة التى كانت تسود المدينة كلها فى الآونة الأخيرة • لم يكن ثمة الا وقاحة ، واستهتار ، واستخفاف ••• وفضائح متصلة لا نهاية لها • من ذا الذى كان يشجع ذلك ؟ من ذا الذى كان يحميه بسلطته ؟ من ذا الذى شوش الأفكار كلها ؟ من ذا الذى أحنق هؤلاء الصغار من الناس جميعا ؟ ألم تكن جميع أسرارهم العائلية الصغيرة مودعة فى ألبومك ؟ ألم تكونى تمسحين بيدك على رءوس شعرائنا ورسامينا ؟ ألم تمدى يدك الى ليامشين ليقبّلها ؟ ألم يتجرأ أحد الطلاب أن يشتم بحضورك مستشارا من مستشارى الدولة ؟ ألم يوسخ بحذاءيه المدهونين بالقطران ثوب ابنة ذلك المستشار ؟ فكيف تعجبين بعد هذا أن يقوم عليك الجمهور ؟

ـ ولكنك أنت الذى كنت تدفعنى • هذه خطيئتك • آه ••• رباه !

ـ لم يحدث هذا أبدا ! لقد نبهتك وحذّرتك • وكنا نختصم ونشتجر فى هذا الأمر • نعم ، كنا نختصم ونشتجر •••

ـ أنت تكذب بغير حياء •

ـ سهل عليك طبعا أن تقولى هذا الآن • لا بد لك من ضحية تصبين عليها نار غضبك • وقلت لك : صبى نار غضبك علىّ أنا • لا بأس • ولكننى أوثر أن أتجه اليك أنت يا سيد ••• (هنا أيضا لم يفلح فى أن يتذكر اسمى) • لنعدّ على أصابعنا : أنا أؤكد أنه ، باستثناء ليبوتين ، لم يكن

هناك مؤامرة ، لم يكن هناك أية مؤا .. مرة ! سوف أبرهن على هذا .
ولكن فلنحلل أولاً حالة ليبوتين . لقد ظهر على المنصه حاملا أشعار ذلك الأحمق ، ليبادكين . وأنت ترى أن هذه مؤامرة ، أليس كذلك ؟ ولكن ألا يجوز أن يكون ليبوتين قد وجد الأشعار فكهة فعلاً ؟ انني ألقى هذا السؤال جاداً . لقد ظهر على المنصة آملاً أن يسلّي الجمهور ، وأن يضحك الناس كافة ، وعلى رأسهم حاميته جوليا ميخائيلوفنا . ألا تصدق هذا ؟ ولكن ألا ينسجم هذا مع كل ما كان يجرى هنا منذ شهر ؟ هل تريد أن أقول لك كل شيء ؟ يميناً ان هذه المزاحة كان يمكن فى ظروف أخرى ، أن تمر بسلام . صحيح أنها فظة غليظة ، صحيح أنها قوية قليلاً ، ولكنها مضحكة ، هل تستطيع أن تنكر هذا ؟

صاحت جوليا ميخائيلوفنا تسأله مستاءة :

ـ كيف يمكنك أن ترى مهزلة ليبوتين مضحكة ؟ هذه قلة كياسة ... بل هذه دناءة مقصودة محسوبة ! آه ... انك تقول هذا الكلام عامداً . واضح بعد هذا أنك أنت أيضا ضالع فى المؤامرة .

ـ كيف ؟ اذن كنت مختبئاً وراءهم أحركهم كما تُحرك الدمى ! ولكن لو اننى اشتركت فى المؤامرة ـ اعلمى هذا ـ لكان هنالك أشياء أخرى كثيرة غير ليبوتين ! وأنت تتصورين اذن اننى تواطأت مع أبى العزيز على أن يثير فضيحة . من ذا الذى طلب من أبى العزيز أن يقرأ ؟ ومن الذى حاول أن يثنيك عن هذا أمس ، نعم أمس ؟

ـ آه ... لقد كان بالأمس زاخراً بالفكر والظرف ! كنت معتمدة عليه أكبر الاعتماد ، لا سيما وأن له آدابا رفيعة وسلوكا أنيقا ! كنت أظن أنه هو وكارمازينوف سوف ... ولكن انظر ماذا حدث ! ...

ـ نعم ... انظرى ماذا حدث ! ان أبى قد أفسد كل شيء رغم كل

ما يتحلى به من « فكر وظرف » كما تقولين • ولو كنت أعلم سلفاً أنه سيتصرف هذا التصرف ، وأنا ضالع فى المؤامرة التى دُبِّرت لافساد حفلتك ، لما ألححت عليك راجياً منك أن لا يُترك التيس فى مزرعة الخضار ! أليس كذلك ؟ ولكننى حاولت أن أثنيك عن دعوة أبى ، لأننى كنت أوجس ما سوف يقع • ومن المستحيل على المرء أن يتوقع كل شيء طبعا • هو نفسه كان قبل أن يظهر على المنصة بدقيقة واحدة يجهل ما سوف يقوله • هل هؤلاء الشيوخ العصبيون رجال ؟ على أن فى امكاننا أن نصلح الأمور : فلكى تُرضى الجمهور ، أرسلى الى أبى منذ الغد طبيبين يفحصانه ، أرسليهما اليه على جناح السرعة رسميا • بل يمكن ارسالهما فى هذا اليوم نفسه ، فينقل الى المستشفى رأساً ، ويعالج هناك بكمادات وحمامات باردة • عندئذ سوف يضحك جميع الناس ، وسوف يرون أنه ما كان لهم أن يشعروا باهانة • حتى اننى أستطيع أن أخاطب جمهور الحفلة فى الأمر هذا المساء ، بصفتى ابن الرجل • أما كارمازينوف ، فشأنه شأن آخر • لقد تصرَّف كارمازينوف تصرُّف حمار ذى بردعة ، لا أكثر • لقد جعل خطابه يطول ساعةً كاملة • لا شك أنه تواطأ معى • لا شك أنه قال لنفسه : « هيَّا ، فلنفعل خطيئة من شأنها أن تزعج جوليا ميخائيلوفنا ! » هه ؟ •••

ـ أوه ! كارمازينوف ! « يا للعار ! » (بالفرنسيه) • لقد احمر وجهى خجلا من جمهورنا •

ـ أما أنا فلو كنت فى مكانك لما احمر وجهى خجلاً ، أؤكد لك ••• وانما كنت أضربه ، صاحبك كارمازينوف ! لقد كان الجمهور على حق • وأعود فأسألك مرةً أخرى : من المذنب فى هذا ؟ من المخطىء ؟ أأنا الذى فرضت عليك كارمازينوف ؟ أأنا شاركتك فى تعظيمه الى حد العبادة ؟ شيطان يأخذه ! وأما عن المهووس الثالث ، المهووس السياسى ،

فتلك حكاية أخرى : الجميع مسئولون عن أمره ، أنا مسئول وأنت مسئولة .

ـ آه ... لا تجيء على ذكره ! لا تكلمنى عنه ! شئ فظيع ، فظيع ! فى هذه الحالة أنا المذنبة ، أنا المخطئة ، أنا وحدى !

ـ طبعاً ، ولكنك معذورة . أنَّى للمرء أن يحذر أناساً يبلغون هذا المبلغ من الصراحة ؟ حتى فى بطرسبرج لا تمكن محاذرتهم دائماً . ألم يـزكّوه لك ؟ ألم يوصوك به خيراً ؟ بلى ! ولقد فعلوا ذلك بكثير من الحماسة . والآن يجب عليك أن تفكرى فى الأمر وأن تتخذى قرارك : انك مضطرة أن تحضرى حفلة الرقص . الأمر خطير :. انك أنت التى أظهرته على المنصة . فمن واجبك اذن أن تعلنى على رءوس الأشهاد أنك لست متعاونة معه ، وأنه الآن بين يدى الشرطة ، وأنك خُدعت فى أمره . يجب عليك أن تصرِّحى ، مستاءةً ، بأنك كنت ضحية رجل مجنون . لأنه ليس فى الواقع الا مجنوناً ! على هذا النحو انما يجب شرح الأمور . اننى أكره هؤلاء الناس الذين يعضون . انه ليتفق لى أن أقول أموراً أسوأ من تلك التى قالها ، ولكننى لا أقولها من على منبر . والناس انما تجرى أحاديثهم الآن حول عضو من أعضاء مجلس الشيوخ .

ـ أى عضو من أعضاء مجلس الشيوخ ؟ وماذا يقولون ؟

ـ أنا نفسى لا أفهم مما يقولون شيئاً . ولكن ألم تسمعى أنت ياجوليا ميخائيلوفنا شيئاً عن وصول عضو من أعضاء مجلس الشيوخ ؟

ـ عضو من أعضاء مجلس الشيوخ ؟

ـ اسمعى . ان الناس جميعا مقتنعون الآن بأن عضوا من أعضاء مجلس الشيوخ سيصل قريبا ، وانكم ستعفون من منصبكم . سمعت هذا الكلام فى كل جهة من الجهات .

قلت مؤيداً :

ـ وأنا سمعت هذا الكلام •

ـ ولكن من الذى يقول هذا ؟

واصطبغ وجه جوليا ميخائيلوفنا بحمرة شديدة •

ـ من الذى أطلق هذه الشائعة ؟ أنَّى لى أن أعرف ! على كل حال، الناس يتحدثون فى هذا الأمر يمنةً ويسرة • بالأمس خاصـــة ، كانوا يتكلمون فيه كثيراً ، وقد لاح في وجوههم الجد ، وان خالط هذا الجد تحفظ وتردد • طبيعى أن أذكاهم وأخبرهم ببـــواطن الأمور يلتزمون الصمت ، ولكن ذلك لا يمنع بعض هؤلاء من الاصغاء بانتباه •

ـ يا للصغار ! و ••• يا للحماقة ! •••

ـ هذا سبب آخر يدفعك الى أن تظهرى ، والى أن تبرهنى لهـؤلاء الحمقى على أن •••

ـ نعم ، اننى أدرك بنفسى أن هذا من واجبى ••• ولكن ماذا لو كنت أعرِّض نفسى لاهانة جديدة ؟ ماذا اذا لم يجيئوا الى حفلة الرقص ؟ ان أحداً لن يحضر حفلة الرقص ••• لا ••• لن يجىء احد ! •••

ـ انك مسرفة فى التعجل ! أتتصورين أن الناس لن يحضروا حفلة الرقص ؟ أتتخيلين هذا ؟ فما عساهم فاعلين بالأثواب التى أعدوها لهـــذه المناسبة ، وما عساهم فاعلين بما زُيِّنت به الفتيات ؟ ألست امرأة ؟ ألا انك لا تعرفين العالم حق معرفته !

ـ ان زوجة مارشال النبالة لن تجىء حتماً • أنا واثقة بهذا !

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول وقد أصبح لا يستطيع السيطرة على تململه وحنقه :

ـ ولكن أى شيء رهيب حدث ؟ لماذا تتصورين أنهم لن يجيئوا ؟

ـ حدث شيء مخجل ، شيء مخزٍ ، شيء دنيء ، ذلك ما حدث . شيء لا أفهمه ، ولكنني لا أستطيع أن أظهر للناس بعد أن حدث .

ـ لماذا ؟ ما هى أخطاؤك وذنوبك فى الحساب الأخير ؟ لماذا تحمّلين نفسك كل التبعة ، وتلقين على عاتقك بكل الخطأ ؟ أليس المخطىء هـو الجمهور ، وهؤلاء الشيوخ الكبار ، وأرباب الأسر أولئك ؟ لقد كان عليهم أن يحتجزوا الأوباش والأوغاد ، وما هم فى الواقع الا أوباش وأوغاد ؛ ثم ينتهى الأمر . ان الشرطة لا يمكن أن تكفى لكل شيء . وانما ينبغى للمجتمع أن يقوم بواجبه ويبذل جهده . ان كل انسان فى بلادنا يتطلب عند دخوله الى حفلة أن ينتدب له شرطى خاص يسهر على سلامة شخصه العظيم . الناس فى بلادنا لا تدرك أن عليها أن تحافظ على نفسها بنفسها فى مثل هذه الظروف . ماذا يفعل أرباب أسرنا وكبار موظفينا ، وسيداتنا وآنساتنا ؟ يصمتون ويحردون . ما من مبادرة يقومون بها ، ولو لقمع سفالة السفلة !

ـ آ ... نعم ... ما أصدق هذا الذى تقول ! ... انهم يصمتون ويحردون ولا يزيدون على أن ينظروا الى ما يجرى !

ـ اذا كان ما أقوله صادقاً فأعلنيه جهاراً ، أعلنيه بكبرياء ، أعلنيه بقسوة ، لكى تُظهرى أنك لم تُصعقى وتُغلبى ، لكى تظهـرى ذلك لأولئك الشيوخ وأمهات الأسر . آ ... لسوف تعرفين كيف تفعلين هذا ! انك تملكين الموهبة اللازمة حين تكونين صافية الذهن . اجمعيهم ، واعلنى لهم الحقيقة بصوت عالٍ ... ثم نبعث برسالة صحفية الى جريدة «الصوت» أو «البورصة» . انتظرى . سوف أشرع فى العمل . وسوف أدبر كل شيء بنفسى . لا بد طبعاً من الانتباه واليقظة . يجب أن يراقَب البوفيه .

ويجب الالحاح على مجيء الأمير ، ومجيء السيد ••• انك لا تستطيع يا سيدى أن تتركنا فى اللحظة التى يجب علينا فيها أن نبذل جهداً جديداً• وسوف تظهرين متأبطةً ذراع آندره أنطونوفتش • كيف حاله الآن ؟

فصاحت جوليا ميخائيلوفنا فجأة تقول باندفاعة غير متوقعة حتى لكأن دموعاً أخذت تترقرق فى عينيها :

ـ أوه ! ما كان أظلمك دائماً فى حق هذا الانسان الملائكى ! لقد كانت آراؤك فيه خاطئة كل الخطأ ، مهينةً كل الاهانة !

ورفعت منديلها الى عينيها • فجمد بطرس ستيفانوفتش فى الوهلة الأولى مذهولاً •

ـ رحماك ••• أنا ••• أنا ••• ما هذا الذى تقولين ؟ لقد كنت دائما •••

ـ لا ، أبدا ، أبدا ، لم تنصفه فى يوم من الأيام !

ـ يستحيل على المرء أن يفهم النساء •

كذلك جمجم يقول بطرس ستيفانوفتش وهو يبتسم ابتسامة مقهورة •

قالت جوليا ميخائيلوفنا :

ـ انه بين الناس أصدقهم قولاً ، وأرهفهم شعورا ، وأقربهم الى أن يكون ملاكا من الملائكة ! هو خير الناس طراً !

ـ أرجوك ••• فيما يتعلق بطيبة قلبه وشهامة نفسه ، أنا أنصفته دائما •••

ـ لا ، أبدا • ولكن دعنا من هذا • لقد كان كلامى الآن خراقة فى

غير محلها • منذ قليل ، رمتنى زوجة مارشال النبـــالة تلك ، رمتنى هى أيضا ، ببضعة سهام عن أحداث الأمس ، ماكرةً مكر يسوعى •

ـ هوه ! ان فى رأسها الآن هموماً أخرى غير أحداث الأمس • ان أحداث اليوم تكفيها • لماذا تقلقين هذا القلق كله من أنها قد لا تحضر حفلة الرقص ؟ انها لن تحضر حتماً بعد الفضيحة التى وجدت نفســـها مقحمة فيها • قد لا يكون لها بها شأن • ولكن سمعتها ستتأثر ، ويديهـــا ستظلان متسختين •

سألته جوليا ميخائيلوفنا مدهوشةً أشد الدهشة :

ـ ما هو الأمر ؟ اننى لا أفهم : لماذا « ستظل يداها متسختين » ؟ •••

قال بطرس ستيفانوفتش :

ـ لاحظى أننى لا أؤكد شيئاً ، الا أن شائعة تجرى فى المدينة قائله انها كانت هى الوسيطة •

ـ وسيطة ؟ بين من ومن ؟

ـ كيف ؟ ألا تعلمين بعد ؟

كذلك صاح يقول بطرس ستيفانوفتش مدهـــوشا دهشة كاذبة ، وأردف يقول :

ـ بين ستافروجين وليزافتا نيقولايفنا •

ـ ماذا ؟ كيف ؟

كذلك صحنا نسأل جميعا فى آن واحد •

قال بطرس ستيفانوفتش :

ـ هل يُعقل أن تكونوا جاهلين بالأمر ؟ عجيب ! انها «تراجيديا ـ كوميديا» : ان لبزافتا نيقولايفنا فد انتقلت رأساً من مركبة زوجة مارشال

النبالة الى مركبة ستافروجين ، وهربت معه الى سكفورشنيكي في وضح النهار ، منذ ساعة واحدة ، بل منذ أقل من ساعة .

جمدنا من الذهول . وأردنا أن نحصل على تفاصيل طبعا . فما كان أشد دهشتنا حين رأيناه عاجزاً عن أن يمدنا بأية تفاصيل ، رغم أنه قد شهد الحادث « مصادفةً » . يظهر أن الأمور جرت كما يلي : بعد الجلسة الأدبية ، حين كانت مارشالة النبالة تصطحب في مركبتها ليزا ومافريكي نيقولايفتش الى منزل أم ليزا (التي كانت ما تزال تعاني آلاما في ساقيها)، لمحوا مركبة كانت مرابطة على مسافة خمسة وعشرين مترا من باب المنزل. فما كان من ليزا الا أن وثبت الى الأرض ، وركضت رأساً الى تلك العربة، فركبتها ، ولكن دون أن تنسى أن تصرخ قائلة لمافريكي نيقولايفتش : « ارحمني ! » . وأسرعت العربة تطوى الأرض منجهةً الى سكفورشنيكي. فلما سألناه « هل كانا على اتفاق ؟ ومن ذا كان بالعربة ؟ » أجاب بطرس ستيفانوفتش بأنه لا يعلم . قال : لا بد أنه كان ثمة اتفاق بين الشاب والفتاة، ولكنه لم يستطع أن يتعرف الشخص الذي كان بالعربة ، فلعله الخادم العجوز الكسي ايجوروفتش . سألناه : « ولكن أنت ، كيف اتفق أن كنت هناك ؟ » ، و « كيف عرفت أنها ذهبت الى سكفورشنيكي ؟ » ، فأجاب بأنه كان ماراً بالمكان عرضاً ، فلما لمح ليزا أسرع نحو العربة (ورغم ذلك، ورغم فضوله ، لم يستطع أن يتعرف الشخص الذي كان بالعربة) ، وأضاف أن مافريكي نيقولايفتش لم يحاول حتى أن يلاحق ليزا ، بل انه على عكس ذلك أسكت زوجة مارشال النبالة التي أخذت تصيح بصوت عالٍ قائلة : « انها ذاهبة الى ستافروجين ، انها ذاهبة الى ستافروجين ! » .

فجأةً رأيتني أفقد صبري وأصرخ قائلاً لبطرس ستيفانوفتش وقد أخذ مني الغضب كل مأخذ :

ـ أنت الذي دبرت كل شيء أيها الشقي ! في تدبير هذه المؤامرة

انما قضيت الصباح ! أنت الذى ساعدت ستافروجين ! أنت الذى كنت فى العربة ! أنت الذى فتحت الباب لليزا ! ••• أنت ••• أنت ! ••• ياجوليا ميخائيلوفنا ، هذا عدو لك فاحذريه ! سيهلكك أنت أيضا !

قلت هذا ووليت هارباً كمجنون •

ما أزال الى هذا اليوم لا أفهم كيف أمكننى أن أصبّ على رأسه هذه الكلمات • ولكن رأيى كان على صواب : فكما علمنا فيما بعد كان كل شىء قد تمّ على ذلك النحو الذى ذكرته له ، على ذلك النحو نفسه تقريباً • والعذر الذى انتحله لينبئنا بالخبر كان زائفا زيفا واضحا كل الوضوح • انه بدلاً من أن ينبئنا بالخبر فور دخوله من حيث أنه خبر هام جدا مثير جدا ، تظاهر بأنه يظن أننا على علم به قبل وصوله هو ، وذلك فى الواقع مستحيل ، لأن الحادث وقع منذ هنيهة قصيرة • ولو كنا نعرف الخبر قبله لبادرناه نحن بالكلام عنه • ولم يكن فى امكانه كذلك أن يعرف ماذا تقول المدينة عن زوجة مارشال النبالة وماذا تشيع عنها لأن المدة التى انقضت على وقوع الحادث أقصر من أن تتيح رواج الشائعات • وكنت قد لاحظت عدا ذلك ابتسامة الاحتقار التى ارتسمت على سفتيه مرتين أثناء رواية القصة : فلعله كان يعدنا أناساً بلهاء يسهل الضحك عليهم والتغرير بهم • ولكن ما شأنى وبطرس ستيفانوفتش ! لقد أخذت أفكر فى الأمر الأساسى • فهربت من عند جوليا ميخائيلوفنا خارجاً عن طورى • ان هذه الكارثة قد طعنت قلبى فى الصميم ، فبلغت من الحزن والكرب انى لعلنى بكيت • كنت لا أعرف ماذا يجب أن أفعل • أسرعت راكضا الى عند ستيفان تروفيموفتش ، ولكن الشيخ اللعين رفض أن يفتح لى أيضا • وهمست ناستاسيا تقول لى خائفة : « انه يرتاح » • فلم أصدّق من ذلك شيئاً • وذهبت الى دار ليزا فاستطعت أن أسأل الخدم فأكدوا لى نبأ هروبها ولكنهم كانوا لا يعرفون شيئاً عدا ذلك • كان المنزل قد انقلب عاليه سافله•

براسكوفيا ايفانوفنا تُصاب باغماء • ومافريكي نيقولايفتش لا يتركها • بدا لى مستحيلاً أن استدعيه • وحين سألت عن بطرس ستيفانوفتش وعن دوره فى القضية قيل لى انه فى الآونة الأخيرة أصبح لا يجيء الى البيت أحدٌ غيره ، وانه ربما جاء فى اليوم الواحد مرتين • كان الخدم حزانى ، وكانوا يتكلمون عن ليزا بلهجة الاحترام • انهم يحبونها • لم يراودنى أى شك فى أنها ضاعت ، فى أنها ضاعت ضياعاً لا خروج لها منه • ولكن الجانب السيكولوجى من هذه القضية كان لا يزال مجهولاً عندى ، وكنت ما أزال عاجزاً عن فهمه كل العجز ، لا سيما حين كنت أتذكر مشـــهد الأمس بين ليزا وستافروجين • وكنت أكره أن أسعى فى المدينة سائلاً بعض الأصدقاء والمعارف الذين لا شك فى أنهم كانوا على علم بالحادث وكانوا يعلقون عليه أسوأ التعليق فى أغلب الظن • لا سيما وأن مثل هذه المساعى تشتمل فى رأيى على مذلة ألحقها بليزا • ولكن لا أدرى لمـــاذا ذهبت الى داريا بافلوفنا (على اننى لم أُستقبل هنـــاك • فان منزل آل ستافروجين قد أوصد فى وجه كل قادم منذ أمس) • لا أدرى أنا نفسى ما الذى كان يمكننى أن أقوله لها لو أتيح لى أن ألقاها • ومن هنا ذهبت الى عند أخيها • بدا لى شاتوف مربدّ الوجه اربدادا شديدا • أصغى الى كلامى ذاهلاً مفكراً كأنه يبذل جهداً خاصا من أجل أن يتابع ما أقوله له • ولم يكد يجيبنى بشيء ، بل جعل يذرع الغرفة جيئةً وذهابا بخطى أثقل من خطاه المعهودة • ولم ألبث أن تركته • ولكن بينما كنت أهبـط السلم ، صاح ينصحنى بأن أذهب الى ليبوتين ، قائلاً : « هناك ستعرف كل شيء » • ولكننى لم أذهب الى ليبوتين • فبعد أن قطعت شوطاً كبيراً من الطريق قررت فجأة أن أعود الى شاتوف • لم أدخـــل عليه • ولكننى شققت بابه وسألته هل يريد أن يذهب الى ماريا تيموفئفنا • فأجابنى شاتوف بشتيمة • فرجعت أهبط السلم • أحب أن أذكر هنا ، خشية النسيان ، أن

شاتوف في ذلك المساء نفسه قد مضى الى الطرف الآخر من المدينة ، الى عند ماريا تيموفئفنا التى لم يكن قد رآها منذ مدة طويلة • فوجدها في ذلك اليوم موفورة الصحة مشرقة المزاج • أما أخوها ليبادكين فكان قد اضطجع على الديوان فى الحجرة الأولى ونام وهو فى حالة سكر شديد • كانت الساعة هى التاسعة تماماً كما ذكر لى شاتوف ذلك فى الغداة حين لقينى عرضاً فى الشارع • وفى الساعة العاشرة قررت أن أحضر حفلة الرقص، لا « مشرفاً » (فان عقدة الشريط كانت قد بقيت عند جوليا ميخائيلوفنا) ، بل مشاهداً يدفعه حب الاطلاع وتدفعه الرغبة فى أن يســـمع ما تقوله المدينة عن جميع هذه الأحداث دون أن يلقى على أحد سؤالاً • ثم اننى كنت أريد أن أرى جوليا ميخائيلوفنا ولو من بعيد : لقد لمت نفسى كثيراً على أننى تركتها بمثل تلك السرعة •

٣

تلك الليلة ، مع جميع أحداثها المستحيلة و « خاتمتها » الرهيبة ، ما تزال تبدو لى اليوم كابوساً فظيعاً ، و ما تزال تؤلف فيما يتعلق بى أنا على الأقل ، أشق جزء من أجزاء هذه القصة • لقد وصلت الحفلة متأخراً، ولكننى استطعت أن أشهد نهايتها ، فانها لم تدم طويلاً • كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة قليلاً حين دخلت باب منزل زوجة مارشال النبالة • لقد أعدوا الصالة البيضاء الكبيرة التى قامت فيها الصبيحة الأدبية لتكون صالة رقص ، اذ كانوا يعتقدون أن المدينة ستشارك فى الحفلة • ولكن الواقع تجاوز أسوأ التنبؤات • وكنت أنا منذ الصباح متشائماً فيما يتصل بالاقبال على هذه الحفلة • غاب المجتمع الراقى كله ، وغاب كذلك جميع الموظفين الذين لهم قدر من الشأن ، وتلك وحدها علامة سوء ونذير شر • أما عن السيدات والآنسات فان حسابات بطـــرس ستيفانوفتش (وهى حسابات

خادعة مضللة طبعا) فقد اتضح بطـــلانها وكذبها : ان عدد الســـيدات والآنسات اللواتى حضرن الحفلة عدد ضئيل جدا • لا تكاد توجد سيدة واحدة فى مقابل أربعة رجال • ويا لهن من سيدات ! انهن نساء ضباط صغار ، وزوجات كتاب فى الدواوين ، وثلاث ممــــرضات مع بناتهن ، وأسرة السكرتير التى سبق لى أن جئت على ذكرها ، واثنتان أو ثلاث من المالكات الفقيرات بمقاطعتنا ، وبائعات ••• أفهذا ما كانت تتوقعه وترجوه جوليا ميخائيلوفنا ؟ أما السادة فانهم ، رغم غياب الطبقة الارستقراطيــة ، كانوا كتلة كثيفة • ولكنهم يحــدثون فى النفس تأثيراً سيئاً ، ويثــيرون الشبهة • كان بينهم طبعاً ضباط متواضعون محترمون مع زوجاتهم ، وكان بينهم أرباب أسر طيّعون ، مثل ذلك السكرتير الذى له سبع بنات ؛ ان هؤلاء الناس البسطاء انما جاءوا بنوع من « الاضطرار » ، على حد تعبير واحد منهم ، ولكن كان بينهم أشخاص من طينة أخرى : فتيان مستهترون، وأشخاص من نوع الذين قدّرنا أنا وبطرس ستيفانوفتش أنهم أُدخلوا الجلسة الأدبية بدون تذاكر • حتى لقد كان عددهم الآن أكبر كثيرا من عددهم فى الصباح • انهم الآن واقفون فى قاعة البوفيه • وقد لاحظت أنهم ما ان دخلوا حتى مضوا اليها رأساً ، كأنهم على موعد فيها • وكان البوفيه قد أُعدّ فى نهاية سلسلة من الغرف ، فى قاعة فسيحة أقام فيها بروخورتش وسط مجموعة من أشهى المأكولات والمقبـــلات التى يعدها مطبخ النادى مع أعداد كبيرة من قنانى الخمرة • ولاحظت هنالك أفرادا لا يدرى الا الله من أين خرجوا ، وقد أخذهم السكر منذ ذلك الحين ، وكانت هيئاتهم الزرية لا تليق بحفلة رقص حتماً • كنت أعرف أن جوليا ميخائيلوفنا قد ارتأت أن تقيم حفلةً ديموقراطية الى أبعد حد ، وأن تسمح بدخول الحفلة حتى « للبورجوازيين الصغار اذا كان بينهم من يملك ثمن تذاكر دخول » • وهى حين قالت هذا الكلام أمام لجنتها لم تكن تجازف

بشيء ، لأنها تعلم علم اليقين أن لا أحد من بورجوازينا الصغار ، وكلهم فقراء ، يخطر بباله أن يشتري بطاقة دخول . مهما يكن من أمر ، ورغم الميول الديموقراطية لدى اللجنة ، فان حضور هؤلاء الأشخاص المشئومين الذين يرتدون ملابس مرقعة منقبة لم يبد لى أمراً مقبولاً . ولكن من ذا الذى تركهم يدخلون وماذا كان غرضه من ذلك ؟ ان ليبوتين وليامشين كانا قد حُرما من شارتى المشرفين (ولكنهما حضرا الحفلة على كل حال ، لأنهما كانا سيشاركان فى الرقصة الرباعية) . ولكن ما كان أشد دهشتى حين رأيت أن ليامشين قد حلَّ محله فى مهمة الاشراف ذلك الطالب الذى أحدثت مشاحنته مع ستيفان تروفيموفتش فضيحة كبرى فى « الصبيحة الأدبية » . وأما ليامشين فقد ناب عنه فى وظائفه بطرس ستيفانوفتش نفسه. فماذا كان يمكن أن يُنتظر اذن ؟ لقد أصخت بسمعى الى المحادثات ، فأدهشنى فى بعضها غباؤها وخبثها . ففى جماعة من الجماعات مثلاً كانوا يؤكدون أن هرب ليزا انما دبَّرته جوليا ميخائيلوفنا نفسها ، وان جوليا ميخائيلوفنا قد قبضت من ستافروجين ثمنَ ذلك مبلغاً من المال . حتى لقد حددوا المبلغ ؛ وأن اقامة الحفلة لم يكن لها من غرض الا تنفيذ هذه الخطة، فلهذا السبب تخلف نصف المدينة عن المجيء بعد أن علم بالأمر . وقد بلغ لمبكه من الدهشة لهذه القصة كلها أنه فقد عقله ولكنه ينقاد لامرأته ولا يخرج على ارادتها . وكان الناس يضحكون ضحكاً فظاً سمجاً شريرا ولم يفتهم أن ينتقدوا حفلة الرقص انتقادا عنيفا ، وأن ينعتوا جوليا ميخائيلوفنا بأبشع الأوصاف دون أى تحرج . ولكن كان يصعب على المرء أن يستخرج أى شيء محدد معيَّن من هذه الثرثرة المشوشة الحانقة المحمومة . وكان الملجأ كذلك ملاذاً للأشخاص الذين يريدون أن يتسلوا ويتندروا ويضحكوا لا أكثر . فهناك يرى المرء نساءً من أولئك السيدات اللواتى يطفحن نشاطا ومرحاً ، واللواتى أصبح لا يدهشهن

شيء ولا يرهبهن شيء • انهن في صحبة أزواجهن ، الضباط في الغالب الأعم • وكان أزواجهن هؤلاء قد جلسوا الى موائد صغيرة يشربون الشاي ويتمازحون ضاحكين • وما هي الا فترة وجيزة حتى أصبح نصف الجمهور في تلك الحجرة • شعرت بخوف حين تصورت ما قد يحدث حين يتزاحم هذا الجمهور كله دفعةً واحدة في صالة الرقص حيث كانت قد تكونت بمساعدة الأمير ثلاث رقصات رباعية بسيطة •

كانت الفتيات ترقص أمام آبائهن وأمهاتهن ، وكان الآباء والأمهات يبتهجون بذلك ويسرُّون له • ولكن عددا كبيرا من هؤلاء الاباء والأمهات كانوا يقولون بعضهم لبعض ان بناتهن قد تسلَّين بما فيه الكفاية ، فيحسن الانصراف في الوقت المناسب قبل أن « يبدأ الأمر » • ذلك أن الجميع كانوا مقتنعين بأن « أمراً سيبدأ » لا محالة • يصعب عليَّ أن أصف الحالة النفسية التي كانت عليها جوليا ميخائيلوفنا • ورغم انني وجدتني بقربها عدة مرات ، فانني لم أكلمها • كما أنها لم ترد التحية التي حييتها بها عند دخولي ، لا لشيء الا كونها لم تلاحظني • كان وجهها منقلبا ، وكان في نظرتها غطرسة واحتقار ، ولكن كان في هذه النظرة قلق أيضا • واضح أنها كانت تحاول أن تتغلب على نفسها • لماذا ؟ ولمن ؟ لقد كان ينبغي لها أن تنصرف ، وأن تقتاد زوجها خاصة ، ومع ذلك بقيت • يكفي أن ينظر المرء الى وجهها حتى يدرك أن عينيها قد « زالت عنهما الغشاوة » ، وأنها لم يبق لديها أي وهم • أصبحت لا تنتبه حتى الى بطرس ستيفانوفتش (وكان بطرس ستيفانوفتش يتحاشاها على كل حال • لقد لمحتُه في البوفيه ، فرأيته شديد المرح) • لقد بقيت جوليا ميخائيلوفنا مع ذلك ، ولم تترك زوجها • في ذلك الصباح نفسه ، لو أن أحداً ألمع الماعاً الى صحة آندره انطونوفتش لرفضت هذا الالماع مستاءة أصدق الاستياء حتماً• ولكن عينيها قد زالت عنهما الغشاوة الآن في هذا الأمر أيضا ولا شك •

أما أنا فقد بدا لى منذ النظرة الأولى أن هيئة آندره أنطونوفتش أسوأ مما كانت فى الصباح . لكأنه الآن لا يعى ما يعمل ، بل لا يدرك أين هو من المكان . كان من حين الى حين يلقى على ما حوله نظرات قاسية . وقـد تلبثت احدى هذه النظرات علىّ مرتين . وفجأةً أخذ يتكلم بصوت قوى، ولكنه لم يستطع أن يكمل جملته ، فامتلأ من ذلك بالرعب قلبُ موظفٍ عجوز خجول كان حينذاك بقربه مصادفة . ثم ان هذا الجزء نفسه من الجمهور الذى كان واقفاً فى الصالة البيضاء بتواضع ، كان يبتعد عن جوليا ميخائيلوفنا مكفهر الهيئة حانقا ، ملقيا على زوجها نظرات غريبة ، نظرات يتناقض اصرارها وتتناقض دلالتها تناقضا قويا مع ما كانت تعبِّر عنه هيئاتهم من وجل .

لقد أسرّت الىّ جوليا ميخائيلوفنا ، فيما بعد ، قائلة :

ـ ذلك بعينه هو ما فجأنى . وعندئذ انما أخذت أدرك حقاً الحالة النفسية التى كان عليها آندره أنطونوفتش .

نعم ، مرةً أخرى ارتكبت غلطة . انه لمن الجائز أنها منذ قليل ، حين خرجتُ من عندها هارباً ، وكانت قد قررت بالاتفــاق مع بطرس ستيفانوفتش أن الحفلة ستقام ، وأنها ستحضرها ، أقول انه لمن الجائز أن تكون قد ذهبت الى حجرة آندره أنطونوفتش الذى كانت الصبيحة الأدبية قد قلبت نفسه رأساً على عقب ، فما زالت به تغريه وتغريه حتى حصلت منه على موافقته على مصاحبتها الى حفلة الرقص . ولكن لا شك أنها تلوم نفسها على ذلك أشد اللوم الآن ! ومع ذلك لم تشأ أن تنصرف . أكان العجب هو الذى يعذّبها ؟ لا أدرى ! انها رغم زهوها قد حاولت عدة مرات أن تعقد حديثاً بينها وبين بعض السيدات ، موجِّهة اليهن ابتسامات متواضعة ، ولكن السيدات سرعان ما كن يتخوفن ثم يتخلصن من الحديث بكلمة نعم أو بكلمة لا ، موجزات مقتضبات ، ويبتعدن عنها متعجلات تعجلاً واضحا .

وكان لا يمثل الطبقة الارستقراطية فى الحفلة الا ذلك الجنرال المحال على التقاعد الذى سبق أن أتيح لى الكلام عنه والذى « فتح باب التذمر على مصراعيه للناس كافة » بعد المبارزة التى قامت بين ستافروجين وجاجانوف • كان الجنرال يتجول فى القاعات مهيب المنظر ، ملاحظاً كل شىء ، حريصا أشد الحرص على أن يظهر بوضعه أنه لم يجىء الا من باب حب الاطلاع على عادات أهل الاقليم • وانتهى به الطواف الى التشبث بجوليا ميخائيلوفنا ، فلم يتركها بعد ذلك ، محاولاً أن يسرى عنها ويواسيها ويهدىء روعها • ان الرجل الممتاز ، المهيب المنظر ، كان قد بلغ من التقدم فى السن أن المرء يقبل منه العطف والشفقة • ومع ذلك كان واضحا على جوليا ميخائيلوفنا أنها يحنقها أن ترى نفسها مضطرة الى الاعتراف بأن هذا العجوز الثرثار قد أباح لنفسه أن تأخذها به شفقة وأن يكون لها بمثابة الحامى تقريبا ، شاعراً بأنه اذ يفعل ذلك انما يشرفها • ومع ذلك لم يتركها الجنرال ، وظل يتكلم بلا توقف •

ـ يقال ان مدينة من المدن لا يمكن أن تبقى الا اذا كان يحميها سبعة صالحين ••• نعم ••• سبعة ••• فيما أظن ••• لا أتذكر العدد المطلوب على وجه الدقة • ومن بين صالحينا السبعة الذين لا يجحدون ، لا أعرف عدد الذين يشهدون حفلتك هذه ، ولكننى رغم حضورهم لا أشعر بالثقة والطمأنينة • انك تغفرين لى ، يا سيدتى الفاتنة ، أليس كذلك ؟ اننى أتكلم رمزاً • ولكننى ذهبت الى البوفيه فعددت نفسى سعيدا لأننى استطعت أن أخرج منه سليما لم يمسسنى سوء • ان صاحبنا الطيب بروخورتش ليس فى مكانه ، وأنا أخشى أن لا يطلع الصباح الا ويكون مبناه قد انقلب عاليه سافله ! أنا أمزح على كل حال • ولكننى أنتظر الرقصة الرباعية التى مدارها على الأدب ، وبعد ذلك أمضى الى سريرى فأنام • اعذرينى فأنا مريض بداء النقرس • اننى أنام فى ساعة مبكرة • وعلى

كل حال ، فأنا أنصحك بأن تنامى أنت أيضا • أنا انما جئت خاصةً لأمتّع بصرى بالجمال الغض النضر • ولست أستطيع طبعا أن أجد منه تشكيلة غنية كالتشكيلة التى يمكن أن أراها فى هذا المكان ••• انهن جميعا من الحىّ الذى يقع على الضفة الأخرى من النهر • وهو حى لا أذهب اليه أبدا • هناك زوجة أحد الضباط ، الضباط القنّاصة اذا لم يخطىء ظنى • انها حسناء ••• وتعرف أنها حسناء • لقد تحدثت مع الصغيرة الغنجة • ما هى بالخجول ! ••• ثم ••• ان الفتيات نضيرات • ولكن ليس فيهن شىء غير هذا • على كل حال ، لقد سُررت بمرآهن • ان بينهن لبراعم ورد حقاً • خسارة أن شـــفاههن سميكة قليلاً • ان الجمـــال الروسى بوجه عام يفتقر الى اتساق القسمات ••• « تغفرين لى ، أليس كذلك ؟ (بالفرنسية) • الأعين جميلة ، يجب الاعتراف بهـــذا ••• هى أعين ضاحكة • ان براعم الورد هذه لذيذة ما ظلت فتية ••• أى مدة سنتين••• أو ثلاث سنين ••• ثم هى تتفتح تفتحاً شديدا ، فتتشوه ، الى الأبد ••• فتبعث فى الأزواج ذلك النوع من « اللا •• اكترا •• ثية » التى تســاهم كثيرا فى مفاقمة قضية المرأة ••• اذا صحّ ما أفهمه من هذه القضية وما أعرفه عنها ••• همْ ••• الصالة جميلة ، والغرف قد أُعدت اعداداً لا بأس به • كان يمكن أن يكون اعدادها أسوأ • والموسيقى أيضا كان يمكن أن تكون أردأ • لا أقول انها كان ينبغى أن تكون أردأ ! ••• الشىء الذى لا ترتاح اليه النفس هو قلة عدد السيدات • لا أقول شيئاً عن زينة السيدات ، بل عن عددهن • من المؤسف أن هذا الرجل ، الذى يرتدى بنطلوناً رمادياً ، قد أباح لنفسه أن يرقص الكانكان منذ الآن • اننى أعذره لو كان يتهزز هذا التهزز عن فرح • ثم انه أحد الصيادلة عندنا ••• انه لكثير على صيدلى أن يبدأ منذ الساعة الحادية عشرة • لقد بكّر كثيراً ••• وفى البوفيه رأيت رجلين يتبادلان اللكمات منذ لحظات ، ولم يطردوهما • ان الذين يتضاربون فى الساعة الحادية عشرة يجب أن يُطردوا ، مهما

تكن عادات الجمهور وأخلاقه ... لا أقول شيئاً عن الساعة الثالثة من الصباح ، ففى الساعة الثالثة من الصباح لا بد من بعض التنازلات . ولكن هل يمكن أن تدوم هذه الحفلة حتى الساعة الثالثة ؟ ... أرى أن فرفارا بتروفنا لم تبرّ بوعدها فترسل أزهاراً . همْ ... ان هموم رأسها الآن لا تسمح لها بالتفكير فى هذا الأمر . يا للأم المسكينة ! والشقيه ليزا ! هل سمعت ؟ هذه قصة ملغزة فيما يقال ، ان ستافروجين يظهر على المسرح من جديد ! ... همْ ... يحـــلو لى أن أذهب الآن فأنام . ان عينىّ تغمضان . والرقصة الرباعية الأدبية ، متى عساها تبدأ ؟

وبدأت الرقصة الرباعية الأدبية أخيراً . وكان الناس بالمدينة ، فى الآونة الأخيرة ، ما ان يجىء الحديث على ذكر الحفلة حتى يتعرضوا لأمر هذه الرقصة ، فان حب الاطلاع كان يثور حتى يبلغ أقصاه . ولا شىء يمكن أن يكون خطراً على نجاح هذه الرقصة كهذه الحالة النفسية . لذلك ما كان أشد خيبة أمل الناس حين رأوها !

انفتح أحد أبواب الصالة البيضاء التى ظلت مغلقة حتى ذلك الحين ، وخرج منه فجأةً عددٌ من الراقصين المقنعين . فسرعان ما أحاط بهـم الجمهور . وجميع الذين كانوا فى البـــوفيه هرعوا الى القاعة . وتهيـأ المقنعون للرقص مصطفين . واستطعت أنا أن أتسلل الى أمام ، فصرت وراء جوليا ميخائيلوفنا وآندره أنطونوفتش والجنرال تماما . وفى تلك اللحظة رأيت بطرس ستيفانوفتش الذى ظل متنحياً طوال الوقت ، رأيته يهـرع نحو جوليا ميخائيلوفنا ، ويهمس قائلاً لها بهيئة تلميذ مذنب .

ــ سوف أبقى فى البوفيه وأراقب الناس .

وكان ذلك منه تظاهراً زائفا مفضوحا لا يهدف فى الواقع الا الى احناق المرأة المسكينة مزيدا من الحنق . فاحمر لونها احمرارا شديدا من فرط الغضب .

فأفلت من لسانها قولها بصوت عالٍ سمعه الناس :

ـ لا تحاول أن تخدعنى بعد الآن أيها الشخص الوقح •

فولّى بطرس ستيفانوفتش هارباً ، راضياً عن نفسه كل الرضى •

انه ليصعب على المرء أن يتخيل رقصةً رمزية أبشع ولا أغبى ولا أدعى الى الرثاء من تلك « الرقصة الرباعية الأدبية » ! ولا شىء أبعد منها عن ذوق جمهورنا ، وأبعث منها على نفوره ! ومع ذلك فان كارمازينوف ، فيما يظهر ، هو الذى وضع فكرتها • صحيح أن التنفيذ قد تولاه ليبوتين، وساعده فيه الأستاذ الأعرج الذى شهد سهرة فرجنسكى • ولكن واضع الفكرة هو كارمازينوف على كل حال • حتى لقد أكّد بعضهم أن كارمازينوف خطر بباله أن يتقنع وأن يشارك هو نفسه فى «الرقصة الرباعية الأدبية » • لم يتجاوز عدد المقنعين ستة أزواج ، هذا اذا صح أن يطلق اسم المقنع على شخص يرتدى ملابس كملابس سائر الناس : كان أحد المقنعين مثلاً ، وهو سيد متقدم فى السن ، قصير القامة ، يلبس رداء فراك، وله لحية بيضاء محترمة (هى الشىء الوحيد المصنوع الذى كان بمثابة قناع) ، كان هذا الرجل يرقص أو قل يتهزز فى مكانه بجدٍ لا يزحزحه عنه شىء ولا يعكره عليه شىء ؛ وينطق أحرفاً غريبة بصوتٍ خافت مبحوح، فكانت هذه البحّة هى الشىء الوحيد الذى يرمز الى جريدة معينة معروفة• وأمام هذا الشخص كان يرقص رجلان عريضان هما «جيم» و «دال» • كان هذا الحرفان معلقين بدبوسين على رداءيهما (الفراك) ، ولكن لم يعرف أحد ماذا يعنيان ولا الى شىء يرمزان • وكان « الفكر الروسى الشريف » انما يمثله سيد متوسط العمر ، على عينيه نظارتان ، وفى يديه قفازان ، ولباسه فراك ؛ مع جنزير فى قدميه (جنزير حقيقى من جنازير السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة) • انه يتأبط محفظة تحتوى على

« ملف » لا أدرى ما هو . ومن جيبه تخرج رسالة مفضوضة مرسلة اليه من الخارج تبرهن لأكثر الناس شكاً وريبة على شرف « الفكر الروسى الشريف » ، كما شرح لنا ذلك بصـوت عالٍ ، لأن الرسالة لم تكن قراءتها ممكنة بطبيعة الحال . والرجل يحمل بيده اليمنى قدحاً كأنه يتهيأ لأن يقترح نخباً . وعلى جانبيه يتواثب اثنان من العدميين قد قُص شعرهما قصيراً . وأمام هذا « الثلاثى » يرقص رجل كهل يرتدى فراكاً ويحمل بيده هراوة . انه يمثل جريدة يومية تصدر بموسكو ، وكأن هيئته تقول: « انتظروا قليلاً فلسوف ترون ما أفعل بكم ! » . ولكنـه رغم هراوته لا يستطيع أن يتحمل النظرة التى يطارده بها « الفكر الروسى الشريف » من خلال نظارتيه ، فهو يحاول أن يشيح عينيه ، حتى اذا خطا خطوة من اثنتين ، انحنى وتلوّى ، ثم لم يعرف أين يدس نفسه من شدة ما يعانى من عذاب الضمير ! ... لا أتذكر الآن بقية سخافات هـذه الرقصة . ولكنها كانت جميعا من هذا الطراز على كل حال ، حتى شعرت أخيرا بعار شديد وخزى أليم . وقد تجلى هذا الشعور بالعار فى جميع الوجوه ، حتى فى الوجوه المشئومة التى وفدت من البوفيه . ولقد ظل الناس صامتين خلال مدة من الوقت ، يتأملون هؤلاء المقنّعين مدهـوشين دهشة غاضبة حانقة . ولكن من عادة الانسان أن الشعور بالعار يجعله شريراً ميالاً الى الاستهتار والاستخفاف . فهذه جلبة صماء تعلو شيئاً بعد شىء :

دمدم أحد أصدقاء البوفيه متسائلاً :

ــ ما معنى هذا كله ؟

وقال آخر :

ــ يا للبلاهة !

فأجاب ثالث :

ـ هذا أدب • انهم ينتقدون جريدة « الصوت » •

ـ ولكن فيم يعنيني أنا هذا ؟

وبين جماعة أخرى دار الحوار التالى :

ـ هؤلاء حمير !

ـ أنا لست حماراً !

ـ وأنا لست حماراً !

وفى جماعة أخرى دار الحوار التالى :

ـ يجب أن يُركل قفاهم بالأقدام وأن يرسلوا الى الشيطان !

ـ تعال نخرب الصالة كلها •

وفى حلقة أخرى :

ـ كيف لا يستحى آل لبكه أن يروا هذا كله ؟

ـ علام يستحون ؟ وأنت لماذا لا تستحى ؟

ـ اننى لأشعر بالحياء فعلاً • ثم انه هو حاكم !

ـ وأنت أيضا خنزير !

ـ لم أشهد فى حياتى كلها حفلة رقص تبلغ هذا المبلغ من العامية والابتذال •

كذلك قالت بلهجة مسمومة وصوت عالٍ ، راغبةً فى أن تُسمع ، سيدةٌ كانت بقرب جوليا ميخائيلوفنا • ان جميع الناس فى المدينة تقريبا يعرفون هذه السيدة التى تبلغ من العمر زهاء أربعين عاما ، السمينة ، المثقلة الوجه بالمساحيق والأصباغ ، المرتدية ثوباً من حرير صارخ الألوان • ولكنها لم تكن تُستقبل فى منـــازل علية القوم • انهـــا أرملة مستشار دولة ، أورثها زوجها منزلاً من خشب وراتباً هزيلاً • وكانت قبل شهرين

قد مضت الى منزل جوليا ميخائيلوفنا تحاول زيارتها ، ولكن جوليا لم تستقبلها .

أضافت تقول وهي تلقى على جوليا ميخائيلوفنا نظرة وقحة :

ـ على كل حال كان هذا متوقعا .

فلم تستطع جوليا ميخائيلوفنا أن تسيطر على نفسها ، فأجابتها قائلة :

ـ اذا كان متوقعاً ، فما كان ينبغي لك أن تجيئي .

فسرعان ما ردّت السيدة تقول رافعةً رأسها في تحدٍ :

ـ كنت ساذجة مسرفة في السذاجة .

كان واضحا أن السيدة كانت تتحرق شوقا الى مشاجرة جوليا ميخائيلوفنا .

ولكن الجنرال تدخل قائلاً بصوت خافت وهو يميل نحو جوليا ميخائيلوفنا :

ـ سيدتي العزيزة ، حقاً انه لمن الأفضل أن تنصرفي . نحن لا نزيد هنا على أن نضايقهم . فلو انصرفنا لتسلوا وابتهجوا أكثر من هذا . لقد قمت بواجباتك الآن ... لاسيما وأن آندره أنطونوفتش ليست صحته حسنة فيما أظن ... قد يحصل شيء خطير .

ولكن كان قد فات الأوان .

ان آندره أنطونوفتش ، منذ أن ظهر المقنّعون ، لم ينقطع عن النظر اليهم بدهشة يمازجها غضب . وحين أخذ الجمهور يضحك ، ألقى على ما حوله نظرات قلقة عدة مرات . وحينذاك انما لاحظ لأول مرة وجوهاً كريهة تستحق العقاب . فارتسمت على وجهه عندئذ أقصى معاني الشدة . وانفجرت قهقهات على حين فجأة : ان ناشر الجريدة اليومية « الرهيبة » بموسكو ، الذي كان يرقص مع هراوة ، وقد عجز عن أن يحتمل النظرة

التى يرشقه بها « الفكر الروسى الشريف » مزيداً من الاحتمال ، وأصبح لا يعرف كيف يتجنبها ، لم يجد وسيلةً أفضل من أن يمشى على يديه ، رافعاً قدميه فى الهواء ، وهذه اشارة لطيفة الى الفوضى الفكرية التى تتخبط فيها هذه الجريدة والى ما تتصف به من بعد عن الحس السليم ونأى عن العقل . ولما كان ليامشين هو الشخص الوحيد الذى يستطيع السير على يديه ، فقد تولى بنفسه تمثيل دور هذه الشخصية التى تحمل الهراوة . لم يكن يخطر ببال جوليا ميخائيلوفنا أن مشهداً كهذا المشهد سيُمثَّل: « لقد أخفوا عنى هذا الأمر ، لقد كتموه عنى ! » . كذلك كانت تردد فيما بعد مستاءةً غاضبة حانقة . وكان الناس يضحكون . ولكنهم لايضحكون طبعاً من « الرمز » الذى لا يهم أحدا ، وانما كانوا يضحكون من منظر سيدٍ يرتدى فراكا وقد جعل رأسه فى أدنى وقدميه فى أعلى . وارتعش فون لمبكه غضبا . وها هو ذا يأخذ يصيح مشيراً الى ليامشين :

ـ شقى ! ... أمسكوه ! ... اقلبوه ! ... اجعلوا قدميه فى أسفل ، ورأسه فى أعلى ... فى أعلى !...

استقام ليامشين على قدميه . وتضاعفت القهقهات .

وصاح فون لمبكه آمراً على حين فجأة :

ـ اطردوا جميع هؤلاء الأوغاد الذين يضحكون !

فاشتد الضحك صخباً ، وطفق الجمهور كله يضج مرحاً :

ـ هذا سلوك غير لائق يا صاحب السعادة !

ـ لا تجوز اهانة الجمهور !

وصاح صوت فى ركن من الصالة يقول :

ـ أنت الغبى !

وقذف آخر قوله :

ـ نصابون !

فلما سمع لبكه هذه الصيحة التفت فجأة ، واصفر وجهه اصفرارا شديدا ، وألمت بشفتيه ابتسامة مبهمة ، لكأنه كان يتذكر شيئاً ويسترد وعيه .

قالت جوليا ميخائيلوفنا وهى تحاول أن تقتاد زوجها وأن تُخرجه من الجمهور الذى كان يزحمهما من كل جهة :

ـ أيها السادة ! اعذروا آندره أنطونوفتش . ان آندره أنطونوفتش مريض . اعذروه . اغفروا له ...

نعم ، لقد سمعتها تنطق بهذه الجملة « اغفروا له » . وقد جرى المشهد سريعا جدا . ولكننى أتذكر جيدا أن جزءا من الجمهور قد ارتاع حين سمع ذلك ، فهرع يخرج من الصالة . بل اننى لأتذكر تلك الصرخة التى أطلقتها امرأة جعلت تبكى بكاء عصبيا وتقول :

ـ آه ... تجدد الأمر !

وفى وسط هذه الفوضى والبلبلة ، انفجرت قنبلة جديدة . فهذا صوت يصيح قائلاً :

ـ النيران ! النيران ! الضاحية تحترق !

لا أدرى على وجه الدقة من أين انبعثت هذه الصرخة . أظن أن أحداً فى حجرة المدخل قد أطلقها بعد أن صعد درجات السلّم أربعاً أربعاً . المهم أن هلعاً وجزعاً عاماً لا يوصفان قد استوليا على الناس . ان أكثر من نصف الجمهور انما يسكن فى الضاحية (أى فى الحىّ الذى يقع على الضفة الأخرى من النهر) . وهرع الناس الى النوافذ ، فأبعدوا الحجب وانتزعوا الستائر . كانت الضاحية تحترق فعلاً . ان الحريق

لم يبدأ الا منذ برهة قصيرة • ولكن المرء يرى رؤية واضحة أن النار قد شبت فى ثلاثة أماكن مختلفة • وذلك هو أفظع ما فى الأمر •

أعول الجمهور يقول :

ــ عمال مصنع شبيجولين هم الذين أشعلوا النار •

وانى لأتذكر بضع صيحات ذات دلالة كبيرة :

ــ كنت أتوقع أن يشعلوا النار ! كنت أوجس هذا طوال هذه الأيام الأخيرة !

ــ هذه ضربة من عمال مصنع شبيجولين • ليس فى هذا شك •

ــ لقد جمعونا هنا عمداً لاشعال النار فى بيوتنا •

ان هذه الصرخة الأخيرة ، وهى أغرب سائر الصرخات كافة ، انما أطلقتها على غير ارادة منها ، دون أن تفكر فيها ، امرأة جُنت من الذعر يقال لها كوروبوتشكا •

واتجه الناس نحو باب الخروج • لن أحاول أن أصف عويل النساء المروّعات ، وبكاء الفتيات ، والتزاحم والتدافع فى حجرة المدخل حول المعاطف والشالات • ولا غرابة فى أن عددا من الناس قد انصرف فى وسط هذه الفوضى قبل أن يعثر على معطفه • ولكننى لا أعتقد أنه كان هناك سرقات كما رُوى ذلك بالمدينة فيما بعد • وقد أوشك لمبكه وجوليا ميخائيلوفنا أن يداسا فى هذا الزحام فيهشما تهشيما •

وكان لمبكه يصرخ مرغياً مزيدا ، ماداً نحو الجمهور ذراعه ، مهدداً :

ــ أوقفوا الجميع ! اعتقلوا الجميع ! لا يخرجنّ أحد !

فجاءه الجواب على ذلك شتائم وسبابا من كل جهة بالقاعة •

وصرخت جوليا ميخائيلوفنا تقول له وقد طاش صوابها :

ـ آندره أنطونوفتش ! آندره أنطونوفتش !

فصرخ يقول وهو يومىء اليها باصبعه :

ـ اعتقلوها هي قبل أي شخص آخر • وفتشوها قبل أن تفتشوا أي شخص آخر ! لقد أقيمت حفلة الرقص لاشعال النار في المدينة •

فأطلقت جوليا ميخائيلوفنا صرخة ، وسقطت مغشياً عليها (لقد أغمي عليها اغماءً حقيقيا في هذه المرة) • فأسرعنا الى نجدتها أنا والأمير والجنرال • وهبَّ الى مساعدتنا في هذه اللحظة الصعبة أشخاص آخرون، حتى ان عددا من السيدات كان بين الذين هبوا الى مساعدتنا • وأفلحنا في أن نخرجها من هذا الجحيم وأن نُركبها عربتها • ولكنها لم تستيقظ من اغمائها الا حين وصلت الى البيت • فكانت الكلمات الأولى التي نطقت بها هي السؤال عن آندره أنطونوفتش • لقد أصبحت لا تفكر الا فيه وسط انهيار جميع أحلامها • وأرسلنا نستدعي طبيبا • وبانتظار وصول الطبيب قضيت الى جانبها ساعةً أنا والأمير • وقد عصفت بالجنرال نوبة كرم وأريحية (رغم أنه كان هو نفسه خائفا مذعورا) فقرر أن يبقى ساهرا على « سرير المسكينة » طول الليل • ولكنه ما ان انقضت عشر دقائق حتى أخذه الكرى فنام على مقعد ، وتُرك وشأنه •

وقد استطاع رئيس الشرطة الذي كان يريد أن ينتقل الى مكان الحادث المشئوم بأقصى سرعة ، استطاع أن يخرج لمبكه من صالة الحفلة وأن يركبه العربة الى جانب جوليا ميخائيلوفنا ، ناصحاً « صاحب السعادة » الحاكم بأن ينال قسطاً من الراحة • انني لا أفهم لماذا لم يلحَّ مزيدا من الالحاح • وطبيعي أن كان فون لمبكه لا يريد أن يسمع أحدا ينطق بكلمة « الراحة » ، ويصرُّ على أن يرى الحريق بنفسه اصرارا شديدا • ولم

يكن هذا بالحجة الكافية ، ولكن رئيس الشرطة اصطحبه فى عربته أخيراً، وأخذه الى «الضاحية» . وقد روى بعد ذلك أن فون لمبكه ظل طـــوال الطريق يحرك يديه باشارات معينة ويصدر أوامر غريبة عجيبة «يستحيل تنفيذها » . وفى التقرير الذى قدمه فيما بعد صرّح بأن « صاحب السعادة كان فى تلك اللحظة ، بسبب ذعر مفاجىء وهلع مباغت ، يعانى نوبة حمى حارة . . » .

لا داعى الى أن أروى عليكم كيف انتهت الحفلة . لقد هرب الجميع الا عشرين أو ثلاثين شخصا وبضع سيدات . أما الشرطة فلم يبق منها أحد.وهؤلاء الذين لم يهربوا لم يسمحوا لأعضاء الأركسترا أن ينصرفوا، حتى انهم ضربوهم حين أرادوا الفرار . وفى الصباح كانت « دكان » بروخورتش قد خوت تماما . لقد ظلوا يشربون حتى ضاعت عقولهم ، وظلوا يرقصون بخطى مترنحة مبعثرة ، وملأوا بالأوساخ الأرض ولطخوا بالأقذار الجدران . فلما طلع الفجر اتجه جزء من العصبة الى الضاحيــة سُكارى تماما ، وكانت النيران قد بدأت تنطفىء . وهنالك استرسلوا فى أنواع جديدة من الفوضى والتشويش ... أما الجزء الآخر منهم ، فكانت الخمرة قد خرّبتهم تخريبا ، فقضوا بقية الليل على الأرض أو على أرائك المخمل يعانون جميع ما يعانيه السكارى من عقابيل السكر البشعة الأليمة. حتى اذا شرقت الشمس أُخرجوا من المنزل جراً من أقدامهم . فهكذا انتهت حفلة الرقص التى أقيمت لمعاونة معلمات اقليمنا .

ان النار لم تشب فى الضاحية من تلقاء نفسها . لقد كان واضحا أنها من فعل فاعلين . وذلك خاصــةً هو ما بث الذعر والهـلع بين سكان « الضاحية » . يجب أن نلاحظ أن الصرخة التى انطلقت قائلة : «النيران!» قد أعقبتها على الفور صرخة أخرى تقول : «انهم عمال مصنع شبيجولين!». ولقد أصبح معروفا اليوم أن ثلاثة من عمال مصنع شبيجولين هم الذين

أشعلوا النار فعلاً . ولكن زملاءهم جميعا قد افتضحت براءتهم ، للقضاة وللناس على حد سواء . ان أولئك الأوغاد الثـلاثة (الذين قبض على واحد منهم فاعترف بكل شيء ، وما يزال الآخران هاربين) ، قد فعلوا فعلتهم هذه مع فدكا ، السجين الهارب من سجن الأشغال الشاقة : ذلك أمر لم يبق أى شك فيه الآن . وهذا مجمل ما نعرفه عن أصل الحريق الذى شب فى « الضاحية » . أما الافتراضات التى قامت فى الأذهان فشأنها شأن آخر . ماذا كان هدف هؤلاء الجناة الثلاثة ؟ أكان يوجههم أحد أم لا ؟ ما تزال الاجابة عن هذا السؤال صعبة أشد الصعوبة حتى الآن !

المهم أن ريحاً قوية قد أورت النيران ، فاذا بالحريق الذى اندلع فى ثلاثة أماكن مختلفة فى آن واحد ، ينتشر انتشارا سريعا جدا فيمتد فى حي بكامله ، لا سيما وأن المنازل التى تقع على هذه الضفة الأخرى من النهر كانت جميعها تقريبا من خشب (سيتبيّن لنا فيما بعد أن واحدا من المساكن الثلاثة قد اكتُشفت فيه النار فسرعان ما أُطفئت) . على أن مراسلى صحف العاصمة قد ضخمت الحادث : فالنيران لم تلتهم فى الواقع الا ربع الضاحية فى أكثر تقدير (ان لم يكن أقل من ذلك) . ان رجال المطافىء فى مدينتنا ،رغم أن عددهم قليل بالقياس الى سعة المدينة وعدد سكانها ، قد عملوا بهمة ونشاط ، وتصرفوا تصرفاً يتسم بالجرأة والجسارة. ومع ذلك فان جميع جهودهم كان يمكن أن تذهب سُدى ، رغم مساعدة الأهالى لهم ، لولا أن الريح قد سكنت فجأة عند طلوع الشمس . اننى حين وصلت الى « الضاحية » بعد ترك الحفلة بساعة رأيت الحريق يستعر استعارا مجنونا . كان الشارع الموازى للنهر مشتعلا كله . وكان المرء يرى على وهج النيران كلّ شيء كأنه فى وضح النهار . لن أسهب فى وصف المشهد تفصيلا : من ذا الذى لا يعـرف روسيا ؟ فى الشـوارع الصغيرة المجاورة ، بلغ الاضطراب حداً رهيبا . السكان الذين ما تنفك

النيران تقترب منهم مهدّدة ، ينقلون أثاث بيوتهم وأمتعتهم العتيقة ، ولكنهم لا يستطيعون أن يعزموا أمرهم على الابتعاد عن منـــازلهم ، فيظلون فى الشارع ، جالسين على صناديقهم وألحفتهم ، تحت نوافذ بيوتهم . الرجال يندفعون فى القيام بأعمال قاسية : يهدُّون ألواح الحواجز بغير رحمــه ، ويهدُّون حتى الخصاص والأكواخ حين تكون فى متناول النيران والرياح. الأطفال الذين انتشلوا من نومهم يبكون . النساء اللواتى فرغن من جمع أمتعتهن حولهن ينتحبن انتحابا شديدا . واللواتى لم يفــرغن من ذلك مازلن يعملن فى نقل متاعهن صامتات . الشرارات وجمرات الفحم تتطاير الى بعيد ، فيسارع المسارعون الى اطفائها كيفما اتفق لهم ذلك . أناس يهرعون من جميع أركان المدينة ويحتشدون فى أمكنة الكارثة . فبعضهم يساعد رجال المطافىء وبعضهم لا يزيد على أن ينظر الى الحريق مشاهداه ان رؤية نيران عظيمة فى الليل يُحدث على الدوام أثراً يهيج الأعصاب ويحرّض النفس فى آن واحد . ذلك هو سرُّ تأثير الأسهم النارية التى تُطلق فى الأعياد ابتهاجا . ولكن الأسهم النارية زينة مقصودة ، وليس فيها خطر مهدِّد . لهذا لا تحدث فى النفس الا احساسات خفيفة ونشوة يسيرة كتلك التى تحدثها كأس شمبانيا . ولا كذلك الحريق : فها هنا ذعر وشعور بخطر شخصى يضافان الى اهتياج فرح تولّده نيران الليل ، فاذا بالمشاهد (اللهم الا اذا ألمت به الكارثة هو نفسه) يشعر بنوع من هــزة عصبية وتستيقظ فى نفسه غــرائز التدمير ، الغــافية عنـــد كل انسان ـ وا أسفاه ! ـ وحتى عند موظف خجول هادىء ! ان هذا الاحساس الغامض يكاد يكون مسكراً دائماً . « أشك أن يكون من الممكن أن يتأمل المرء حريقا دون أن يشــعر من ذلك بلذة ما . . » . ذلكم ما قاله لى ، كلمةً كلمةً ، فى ذات يوم ، ستيفان تروفيموفتش ، حين عاد من رؤية حريق شهده فى الليل مصادفةً ؛ ولقد قال لى هذا الكلام وهو ما يزال

يشعر بالأثر الأول الذى تركه فى نفسه منظر ذلك الحريق • لست آنفى طبعاً أن هذا الهاوى نفسه من هواة الحريق قد يكون قادرا قدرة تامة على أن يلقى بنفسه فى النار لانقاذ طفل أو امرأة عجوز عند اللزوم • ولكن هذا الأمر أمر آخر •

تبعت جمهور المستطلعين فاستطعت دون سؤال أحد أن أصل الى أخطر مكان فى الحريق ، وهنالك لمحت أخيراً لمبكه الذى كنت أبحث عنه بالحاح من جوليا ميخائيـلوفنا • فرأيت الرجـل فى ظرف من أعجب الظروف • كان واقفا فوق بقايا سياج • وفى يساره ، على مسـافة ثلاثين خطوة ، يرى المرء هيكلا أسود لمنزل خشبى من طابقين ، احترق احتراقا شبه كامل ، وبانت فى مكان نوافذه فوهات مفغورة • لقد انهار سـقف المنزل • وهذه حيَّات من النار ما تزال تلعق عوارضه المتفحمة هنا وهناك• وفى الفناء يحاول رجال من رجال المطافىء أن يكافحوا ألسنة اللهب التى أخذت منذ ذلك الحين تخرج من جناح فى وسط الفناء ذى طابقـين • وعلى اليمين ، كانوا يحاولون أن يحموا مبنى كبيراً من خشب قد تسللت اليه النار مرارا ، وكان واضحا أن مصـيره الى الاحتراق • فكان لمبكه يصرخ ، ويحرك يديه باشارات كثيرة أمام الجنـاح ، ويصـدر أوامر لا ينفذها أحد • أحسست أنهم قد تركوه لشأنه يصيبه ما يصيبه • والواقع أن الجمهور الذى كان يحيط به وكان كثيفاً وكان متنوعاً ، وقد عرفت منه عددا من السادة ، بل لقد عرفت منه كبير كهنة الكاتدرائية ، أقول ان هذا الجمهور كان يصغى الى لمبكه مدهوشا مستغربا مستطلعا ، غير أن أحداً لا يكلمه • كان لمبكه أصفر الوجه ، ملتمع العينين ، يلقى خطباً عجيبة ويقول كلاما غريبا • وكان الى ذلك حاسر الرأس ، لأنه فقد قبعته منذ مدة طويلة •

ـ هذا فعل فاعلين ! انهم عدميون ! حين يشب حريق فالمذهب العدمي هو المسئول ...

هذا ما سمعته مرتاعا . والحق أنه أصبح على المرء أن لا يستغرب من لبكه شيئاً . ولكن حتى حين يتوقع الانسان كل شيء ، لا يملك الا أن يهزه الواقع القاسي الأليم وأن يبث الاضطراب في نفسه .

قال له واحد من مفوضي الشرطة وقد هرع اليه مسرعاً :

ـ صاحب السعادة ، عليك أن تعود الى المنزل وأن تنال قسطا من الراحة ... بل انه لخطر عليك أن تبقى هنا يا صاحب السعادة ! ...

ان هذا الموظف ، كما علمت ذلك فيما بعد ، كان قد كلفه رئيس الشرطة بأن يسهر على آندره أنطونوفتش وأن يحاول اقتياده الى المنزل ولو بالقوة في حالة الخطر ، وذلك أمر يفوق طاقة مفوض الشرطة طبعا .

ـ دموع الضحايا ستكفكف ، ولكن المدينة ستهلك . انهم أولئك الأوغاد الأربعة ... الأربعة والنصف ! ... اعتقلوا هـــذا الشقي ! انه وحده المسئول . أما الآخرون فقد افترى عليهم زوراً ! هو يتسلل الى الأسر ، ويدمر شرفها . لقد كلفوا المعلمات باشعال النيران في البيوت . هذا جبن ! هذه حقارة ! هذه خسة ودناءة ! ...

هكذا كان يتكلم الحاكم . واذ رأى فجأةً على سطح البيت المحترق رجلاً من رجال المطافيء تحدق به ألسنة اللهب ، صرخ يقول :

ـ آي ... ماذا يفعل هنا ؟ اسحبوه من هذا المكان ! سوف يسقط ! سوف يهلك ! اطفئوه ! ماذا يعمل هنالك ؟

ـ انه يطفيء النيران ياصاحب السعادة .

ـ مستحيل ! النيران في الضمائر لا في المنازل . اسحبوه من هناك ،

ودعوا كل شيء ! الأفضل أن يُترك كل شيء ! سينتهي الأمر من تلقاء نفسه ! ••• من ذا الذى يبكى أيضا ؟ عجوز ! العجوز تبكى ! لقد نسوا العجوز !

فى الطابق الأرضى من الجناح المحترق كانت تصرخ فعلاً عجوز فى الثمانين من العمر ، هى قريبة صاحب المنزل الذى كانت تلتهمه النيران• لكنها لم تكن قد نُسيت ، وانما هى رجعت بارادتها كالمجنونة تريد أن تنتشل لحافها من غرفة لم تكن النيران قد نالتها ، ولكنها بلغتها الآن فهى تشتعل • فكانت العجوز وقد خنقها الدخان والحرارة الشديدة تصرخ صراخا قوياً مع استمرارها فى دفع لحافها من اطار النافذة بكلتا يديها • فأسرع لمبكه يحاول نجدتها : رئى يركض نحو النافذة ، ويمسك طرف اللحاف ويشده اليه بكل ما يملك من قوة • ولكن المصادفة شاءت بما يشبه العمد أن يسقط لوح من ألواح خشب السقف فى تلك اللحظة نفسها ، فيصيب عنق آندره أنطونوفتش• لم يقتل لوح الخشب حاكمنا ، ولكنه وضع خاتمةً لحياته بالوظيفة ، فى اقليمنا على الأقل • لقد قلبته الصدمة ، ووقع مغشيا عليه •

وطلع الفجر أخيرا ••• طلع كالحاً مشئوماً حزيناً • خبت النيران ، وسكنت الريح • وأخذ يهطل مطر ناعم كسول • كنت قد صرت فى حي آخر من الضاحية ، بعيدا عن مكان الحادث الذى وقع للحاكم • وهناك علمت أشياء غريبة جدا : علمت أنه فى أرض نائية مقفرة ، وراء بساتين الخضار ، على مسافة خمسين خطوة من المساكن الأخرى فى أقل تقدير ، كان يوجد بيت صغير من خشب ، جديد كل الجدة ؛ وفى ذلك البيت المنعزل انما اشتعلت النار قبل أى مكان آخر ، فى أول ظهور الحريق • فلو أن هذا البيت قد احترق ، لما أمكن أن تصل ألسنة اللهب الى المنازل الأخرى من « الضاحية » • وكذلك كان يمكن أن تحترق الضاحية كلها

دون أن يكون هذا البيت مهددا بأى خطر ، مهما تكن الريح شديدة عاتية.
فكيف اشتعلت النار فى هذا البيت اذن ؟ هل كان ذلك من فعل فاعل متعمد؟
ولكن الأمر الأغرب من هذا هو أن النار التى شبت فى البيت قد أمكن
اطفاؤها منذ البداية ، فاذا بأمور خارقة رهيبة تتكشف فيه . ان مالك
البيت ، وهو تاجر صغير كان يسكن غير بعيد عن ذلك المكان ، قد رأى
النار تشتعل فى بيته الجديد ، فأسرع يطفئها بمساعدة الجيران على الفور،
ونجح فى ذلك فعلا ببعثرة الحطب المتكوم عند الحائط . ولكن البيت كان
مسكونا . فماذا رأى فى البيت ؟ رأى ساكنيه ، وهم كابتن معروف فى
المدينة ، وأخته وخادمتها العجوز ، رآهم جميعا مذبوحين فى تلك الليلة
نفسها ، وقد سُلبوا ما يملكون حتما (من أجـــل أن يذهب الى مكان
الجريمة انما كان رئيس الشرطة قد ترك فون لبكه قبيل انقاذ اللحاف.)
كان نبا جريمة الاغتيال هذه قد انتشر بسرعة ، فما طلع الصباح حتى كان
جمهور كبير من الناس قد غزا الأرض الخاوية حول البيت الصغير ، وقد
انضم اليه حتى أناس من المنكوبين . وبلغ الازدحام من الشدة أنه أصبح
يستحيل على المرء أن يتقدم . وقد ذُكر لى أن الكابتن وُجد منحـــور
الرقبة ، راقدا على دكة وهو يرتدى ثيابه كلها ، ولعله حين طُعن كان
نائما كالميت من فرط السكر ، فلم يشعر بشىء ، وانما نزف كما « تنزف
بقرة » . أما أخته ماريا تيموفئفنا فقد كانت « مخرّقة بطعنات سكين » ،
راقدةً على العتبة . وهذا ما يمكن أن يُستنتج منه أنها تخبطت وقاومت
القاتل . وأما الخادمة التى لا شك أن الضجة هى التى أيقظتها من نومها
فقد كانت مهشمة الرأس . ومما رواه مالك البيت أن الكابتن قد جاء اليه
فى صبيحة الأمس سكران كل السكر ، وأراه على سبيل التباهى والمفاخرة
بالغنى ، حزمةً من الأوراق المالية قدرها مائتا روبل على وجه التقريب .
وقد وُجدت المحفظة الخضراء التى كان لبيادكين يضـــع فيها نقوده ،

وجدت فارغةً ملقاةً على أرض الغرفة • ولكن صندوق ماريا تيموفئفنا لم يمسسه أحد ، وكذلك اطار الأيقونة المصنوع من فضة ، وأمتعة الكابتن • واضح أن القاتل ، وهو مستعجل أمره ، كان يعرف المكان ، وكان لا يريد أن يأخذ الا مال الكابتن ، وكان يعرف أين يوجد هذا المال • ولو أن مالك البيت لم يصل بالسرعة المناسبة لأحرقت كومة الحطب البيت كله ، ولكان من الصعب اكتشاف الحقيقة •

ذلك ما كان يرويه الجمهور • وكانوا يضيفون الى هذا أن البيت انما استأجره نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين ، ابن الجنرالة ستافروجين ، وانه هو الذى فاوض مالك البيت على استئجاره : لقد كان مالك البيت لا يريد تأجير بيته ، لأنه كان يقدِّر أن يفتتح فيه حانة ، ولكنه استجاب لالحاح ستافروجين الذى دفع له أجرة ستة أشهر سلفاً دون أن يكترث بمقدار الأجرة أصلاً •

كان الناس يقولون فى الجمهور :

ـ لا شك أن هناك أمراً مدبَّراً •

ولكن أكثرهم كانوا يلزمون الصمت • الوجوه مظلمة مربدة مكفهرة • ولكن النفوس لا تبدو مهتاجة اهتياجا شديدا • على أنهم لا يكفون عن الكلام على ستافروجين • كانوا يقولون : ان المرأة القتيل زوجته • وبالأمس استمال اليه « بحيلة غير مشروعة » ابنة الجنرال دروزدوف ، وهى آنسة تنتمى الى أكرم أسر المدينة • وكان سيُشكى الى بطرسبرج • فمن أجل أن يستطيع تزوج الآنسة دروزدوف انما قُتلت اذن زوجته •

لم تكن سكفورشنيكى تبعد عن المكان أكثر من فرسخين ونصف • لذلك تساءلت (ما زلت أذكر هذا) : ألستُ أحسن صنعا اذا أنا مضيت

أنبىء آل ستافروجين بما حدث دون أن أذكر مع ذلك أنهم يستثيرون الجمهور ويحرّضونه ؟ ولكنني أبصرت عددا من أفراد مشبوهين عرفتهم فورا لأنني كنت قد رأيتهم في حفلة الرقص • واني لأذكر منهم على وجه الخصوص شاباً طويلاً هزيلاً ، جعدَ الشعر ، أدكن اللون : انه قفّال كما عرفت ذلك فيما بعد • لم يكن الشاب سكران ، ولكن على خـلاف الجمهور القائم الصامت ، كان يبدو خارجا عن طوره • انه لا ينى يتكلم فيقول أمورا مفككة مبعثرة ، ويحرك يديه باشارات كثيرة ، ويستشـهد بالشعب سائلا : « ما معنى هذا أيها الاخوة ؟ هل يجوز لنا أن ندع الأمور تجرى على هذا النحو ؟ ••• » •

الفصل الثالث

نهاية رواية

من الصالة الكبرى بسفورشنيكى (تلك الصالة نفسها التى استقبلت فيها فرفارا بتروفنا صاحبنا ستيفان تروفيموفتش آخر مرة) ، كان المرء يستطيع بنظرة واحدة أن يشمل منظر الحريق كله . وفى الفجر ، فى نحو الساعة السادسة من الصباح ، كانت ليزا واقفةً قرب النافذة الأخيرة على اليمين تتأمل الضياء الأحمر الواسع الذى كان يشحب شيئاً فشيئاً . لقد كانت وحيدة . انها ترتدى ذلك الثوب نفسه الذى كانت ترتديه أمس ، فى الصبيحة الأدبية ، وهو ثوب أنيق جداً ، أخضر كابٍ ، مغطى بالدنتيلا ، لكنه الآن مجعد تماماً . واضح أن ليزا قد لبسته بسرعة لتغطى به جسمها ، حتى أن جزأه الأعلى عند الصدر لم يزرَّر تماما . فلما لاحظت الفتاة ذلك احمرَّ وجهها ، وأسرعت تصلح من فوضى هندامها ، وتناولت خماراً كانت قد ألقته عنها فى الليلة البارحة على مقعدٍ حين دخولها، فلفَّت به الآن جيدها . ان شعرها الكثيف يتدلى حلقاتٍ على كتفها اليمنى وان وجهها يبدو منهكاً مهموماً ، ولكن عينيها تلتمعان تحت حاجبيها المقطبين . وها هى ذى تقترب من النافذة ، وتسند جبينها الملتهب على زجاجها البارد .

وفُتح الباب ، ودخل نيقولاى فسيفولودوفتش • قال :

ـ مضى يستطلع الأخبار خادم يركب حصاناً • فما هى الا دقائق حتى نعرف كل شىء • يقول الناس ان جزءاً من « الضاحية » قد احترق، على طول الشاطىء ، يمينَ الجسر • وقد اشتعلت النار بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل • وهى الآن تنطفىء •

لم يمض ستافروجين الى النافذة ، وانما لبث وراء ليزا • ولم تلتفت ليزا •

قالت ليزا غاضبة :

ـ لو صدق التقويم لكان ينبغى أن يطلع الصبح منذ ساعة • ومع ذلك ما يزال يخيم الظلام كأننا فى الليل •

فقال نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين بابتسامة لطيفة محببة :

ـ التقاويم كلها تكذب •••

ولكنه لم يلبث أن شعر بالخجل من قول كلام مبتذل معاد مكرور ، فأسرع يضيف :

ـ لشدما تكون الحياة مضجرة اذا عيشت وفقاً لحسابات التقاويم يا ليزا !

وغضب ستافروجين مرة أخرى من افلات لسانه بسخافة جديدة ، فسكت ثم لم ينطق • فابتسمت ليزا بمرارة ، وقالت :

ـ ان مزاجك ليبلغ من الحزن انك لا تدرى ما عساك تقول لى • ولكن هدىء نفسك ! لقد صدقت فيما قلت : اننى أعيش دائماً على حسب التقويم • كل خطوة من خطاى مرتبة وفقاً للتقويم • أأنت مدهوش ؟

والتفتت ليزا بقوة وجلست على مقعد • وقالت :

ـ اجلس أنت أيضا ، أرجوك ! لن نبقى معا مدة طويلة . ويجب أن أقول لك كل ما بنفسى ... لماذا لا تقول لى أنت أيضا كل ما تود أن تقوله ؟

جلس نيقولاى فسيفولودوفتش الى جانبها ، وأمسك يدها برفق ، أو قل بما يشبه الوجل .

ـ ما هذه اللغة يا ليزا ؟ لماذا هذه اللغة ؟ ما معنى قولك : « لن نبقى معا مدة طويلة ؟ » هذه هى المرة الثانية التى تقولين لى فيها هـذه الجملة الملغزة خلال نصف ساعة منذ أن استيقظت .

قالت وهى تبتسم ابتسامةً خفيفة :

ـ هأنت ذا قد أخذت تحصى جملى الملغزة . ولكن هل تتذكر اننى بالأمس ، حين دخلتُ ، قد قلت لك انك تستقبل ميتة ؟ لقد رأيتَ من المناسب أن تنسى هذه الجملة ، أن تنساها وأن لا توليها انتباها .

ـ لا أذكر هذا يا ليزا . لماذا « ميتة » ؟ يجب أن نحيا ...

ـ وهأنت ذا تقف . لستَ اليوم جمّ الفصاحة والبلاغة . لقد دقت ساعتى على هـذه الأرض ويكفينى هـذا . هـل تتذكر كريستوفر ايفانوفتش ؟

أجاب ستافروجين وقد أظلم وجهه :

ـ لا !

ـ كريستوفر ايفانوفتش ؟ فى لوزان ؟ كان يضجرك اضجارا رهيبا . كان يقول دائما حين يدخل : « اننى آتٍ للحظة واحدة » ، ثم يمكث يوماً بكامله . لا أريد أن أكون مثل كريستوفر ايفانوفتش ، فأبقى يوما بكامله .

ـ ليزا ، هذه اللغة الساخرة تؤلمنى • وهذه التمثيـــل يؤلمك أنت نفسك • علام هذا ؟ لماذا ؟

وسطعت عيناه • وتابع كلامه يقول :

ـ ليزا ، أحلف لك : اننى أحبك الآن أكثر مما كنت أحبك بالأمس حين دخلت الى هنا •

ـ يا له من اعتراف غريب ! لماذا هذه المقـــارنة بين أمس واليوم ؟ لماذا القياس ؟

واستأنف ستافروجين كلامه فقال بلهجة تكاد تعبر عن اليأس :

ـ لن تتركينى ! سوف نسافر معاً ، فى هـــذا اليوم نفسه ! أليس كذلك ؟

ـ اى ! انك توجعنى ! لقد ضغطت يدى ضغطاً شديدا جدا ! نسافر معاً ؟ فى هذا اليوم نفسه ؟ الى أين ؟ « انبعاث جديد » مرةً أخرى ؟ ••• لا ••• كفى تجارب ! ••• ثم اننى عاجزة عن هذا • هذا كله أكبر منى وأعظم منى ! اذا سافرنا ، فسيكون سفرنا الى موسكو ، من أجل أن نستقبل الناس ونزور الناس • ذلك هو مثلى الأعلى • انك تعرفه جيدا • أنا لم أُخف عنك حقيقتى منذ كنا بسويسرا • ولما كان من المستحيل أن نسافر الى موسكو وأن نقوم بزيارات ، مادمتَ متزوجاً ، فلا داعى الى الكلام على السفر •••

ـ ولكن ما الذى جرى بالأمس اذن يا ليزا ؟

ـ جرى ما جرى !

ـ مستحيل • هذه قسوة !

لا يهم أن تكون هذه قسوة ! احتملها !

فدمدم ستافروجين يقول بابتسامة صفراء :

ـ تنتقمين منى لنزوتك بالأمس •

فاحمرت ليزا •

ـ يا لها من فكرة دنيئة •

ـ فلماذا وهبت لى اذن « تلك السعادة كلها » ؟ هـــل من حقى ان أعرف جواب هذا السؤال ؟

ـ لا ! ••• استغن عن هذا الحق • لا تضـــف الحماقة الى دناءة افتراضك • لا حظ لك اليوم ! بالمناسبة : أتراك تخشى رأى الناس ، وأن يدينوك بسبب تلك « السعادة » ؟ اذا كان الأمر كذلك ، فهدىء روعك ، ناشدتك الله ! أنت لم ترتكب اثماً ، وليس لأحد أن يحاسبك ! حين فتحت أنا بابك بالأمس ، كنت أنت لا تدرى من ذا الذى يدخل عليك • لم يكن الأمر الا نزوة منى ، كما قلتَ منذ هنيهة ، ولا شىء غير ذلك • فى وسعك أن لا تغض الطرف أمام أحد ، وأن تسير فى الناس مرفوع الرأس •

ـ ان أقوالك وضحكاتك تجمِّدنى ذعراً منذ ساعة • ان هـــذه «السعادة» التى تكلمينني عنها الآن بهذه اللهجة المبغضة الكارهة ، تكلفنى ••• كل شىء ! هل يمكنني فى هذه اللحظة أن أفقدك ؟ أؤكد لك أننى كنت أحبك أمس أقل مما أحبك اليوم • فلماذا تنتزعين منى اليـــوم كل شىء ؟ هل تعلمين ماذا كلفنى هذا الأمل الجديد ؟ لقد دفعت ثمنه حياة •••

ـ حياتك أنت أم حياة أحد غيرك ؟

فنهض ستافروجين فجأة • وقال يسألها وهو يحدِّق اليها بانتباه :

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أردت أن أعرف فقط هل دفعت ثمنه من حياتك أو من حياتى أنا •••

ثم هتفت تسأله :

ـ أتراك أصبحت لا تفهم شيئاً ؟ لمـاذا نهضت ذلك النهوض المفاجىء؟ لماذا تنظر الىّ على هذا النحو ؟ انك تخيفنى ! ما الذى تخشاه ؟ انك تبث الرعب فى نفسى ! لكأنك خائف • اننى ألاحظ منذ مدة طـــويلة أنك خائف ، ولا سيما الآن ••• فى هذه اللحظة بالذات ••• رباه ! ما أشد اصفرار وجهه !

ـ اذا كنت تعرفين شيئاً يا ليزا ، فاننى أنا لا أعرف شيئاً ••• أحلف لك • وما عن «هذا» تكلمت حين قلت لك اننى دفعت الثمن •••

دمدمت ليزا تقول خائفة :

ـ لا أفهمك البتة !

وسرحت على وجه ستافروجين ابتسامة مبهمة بطيئة آخر الأمر • وعاد يجلس ، وأسند كوعيه الى ركبتيه ، وأخفى وجهه فى يديه •

ـ حلم سىء ••• كابوس ثقيل ••• كنا نتكلم فى أمرين مختلفين •

ـ لا أدرى عمّ كنت تتكلم • هل يُعقل أن لا تكون قـــد حزرت بالأمس اننى سأتركك اليوم ؟ أكنت تعلم هذا أم لا ؟ لا تكذب • أكنت تعلمه ؟

دمدم ستافرجين يقول :

ـ كنت أعلمه •

ـ فماذا تريد أكثر من ذلك ؟ كنت تعلم ، ومع هذا اختلستها ، تلك « اللحظة » • فعلام هذا الحساب كله الآن ؟

صاح ستافروجين يسألها بلهجة أليمة :

ـ قولى لى الحقيقة كلها : حين فتحت بابى بالأمس ، أكنت تعلمين أنك لا تفتحينه الا من أجل يوم واحد ؟

فرشقته بنظرة كره وبغض ، وقالت :

ـ يتفق لأكثر الرجال جدا أن يلقوا أسئلة سخيفة مضحكة . فيم تقلق هذا القلق ؟ أهى الكبرياء التى تدفعك اليه ؟ أهو تصوُّرك أن امرأةً هى التى تتركك ولست أنت الذى تتركها ؟ هل تعلم يا نيقولاى فسيفولودوفتش اننى منذ دخلت هذا المكان لاحظت فيما لاحظت أنك كريم معى غاية الكرم . ذلك بعينه هو ما لا أستطيع أن أحتمله منك .

نهض ستافروجين وسار بضع خطوات فى الغرفة .

ـ طيب ... أسلِّم بأن الأمر كان لا بد أن ينتهى هذه النهاية ... ولكن كيف حدث كل هذا ؟

ـ يا له من اهتمام يشغل بالك ! لا سيما وأنك تعرف الأمر ، وتدركه خيراً مما يدركه أى انسان آخر ، وأنك كنت تتوقع هذه النهاية ! أنا آنسة ، وقد نشأ قلبى وترعرع فى الأوبرا . هكذا بدأت المسألة . ذلك هو السر كله .

ـ لا .

ـ لا شىء فى هذا يمكن أن يجرح كبرياءك . هذه هى الحقيقة كلها . بدأ الأمر بلحظة جميلة لم أستطع مقاومتها . أمس الأول ، حين آذيتك بالكلام على مسمع من الناس ، فأجبتنى بطريقة تزخر فروسية ، حزرتُ فوراً أنك تتحاشانى وتتجنبنى لأنك متزوج ، لا لأنك تحتقرنى ، وهو أمر كنت أخشاه أكثر مما أخشى أى شىء آخر بصفتى فتاة من فتيات المجتمع . لقد أدركت أنك اذ تتجنبنى انما كنت تحمى هذه المجنونة ، أنا . فانظر كم أقدر لك كرمك ! وفى تلك اللحظة هرع بطرس

ستيفانوفتش ، فشرح لى كل شىء • قال انك ملك فكرة عظيمة لا نساوى نحن بالقياس اليها شيئاً ، لا أنا ولا هو ، غير أنتى مع ذلك حجر عثرة فى طريقك ؛ ثم انه لا يريد أبدا أن يتركنا ، وانما هو يحرص على أن يكون الثالث • قال لى أشياء رائعة عن « سفينة » لا أدرى ما هى ، سفينة شراعية لها مجاديف من أشجار القيقب ، وانشدنى أغنية روسـية • أزجيت له المديح ، وقلت له انه شاعر ، فقبـل ذلك وسلّم به على أنه أمر محقق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه • واذ كنت أعلم منذ زمن طويل أن قراراتى ليست الا كنار القش ، عزمت أمرى على أن أتصرف فورا • ذلك كل شىء • وكفى هذا الآن • أرجوك ، لا تسألنى ايضاحات أخرى• والا فقد نتشاجر • لا تخف من شىء انني أتحمل التبـعة كلها • أنا شريرة ، ذات نزوات ، انقدت لاغراء سفينة أوبرا ••• أنا آنسة ! ولكن هل تعلم أننى كنت أتخيل ، رغم كل شىء ، أنك تحبنى حباً جنونيا ؟ لا تحتقر الحمقاء ولا تسخر من هذه الدمعة التى سالت من عينى الآن • اننى أحب سكب الدموع على نفسى ، رثاء لمصيرى ، وتألماً لحظى ! ولكن كفى كفى ! اننى غير قادرة على شىء ، ولا أنت قادر على شىء ! فليعضّ كل منا صاحبه بمدّ لسانه له تهكماً وسخرية ! بهذا لا تتألم كبرياؤنا على الأقل•

هتف نيقولاى فسيفولودوفتش وهو يعقف يديه :

ـ حلم ! جنون ! عزيزتى المسكينة ليزا ، ماذا فعلت ؟

وكان يذرع الغرفة بخطى كبيرة •

حرقت اصبعى ، وهذا كل شىء • أرجو أن لا تأخذ فى البكاء • أصلح وقفتك ، وكن أقل حساسية !

ـ لماذا جئت ؟

ـ أتراك لا تدرك أخيراً سخافة الموقف الذى تضعنى فيه أمام الناس اذ تلقى علىّ هذه الأسئلة ؟

ـ لماذا ضيّعت نفسك بهذه الطريقة الغبية ، السخيفة ؟ وما العمل الآن ؟

ـ أهذا هو ستافروجين ، «الدموى ستافروجين» ، كما تسميك سيدة تهواك هوى شديدا ؟ اسمع ، لقد سبق أن قلت الأمر : اننى أعطيت حياتى كلها من أجل ساعة . وأنا الآن هادئة . فافعل مثلى ! ... على كل حال ، أنت شأنك شأن آخر : ستكون لك « ساعات » أخرى كثيرة ، و « لحظات » أخرى كثيرة !...

ـ على قدر ما سيكون لك منها ، على قدر ما سـيكون لك منها . أعاهدك على ذلك . لا ساعة واحدة أكثر منك .

كان لا ينفك يمشى . لم يرَ النظرة السريعة الثاقبة التى ألقتها عليه، والتى سطع فيها على حين فجأة شعاع أملٍ سرعان ما انطفأ .

ـ ليتك تعرفين ثمن « صدقى » المستحيل فى هذه اللحظة ، ليتنى أستطيع فقط أن أكشف لك يا ليزا ...

ـ أن تكشف لى ؟ هل تريد أن تكشف لى عن شىء أيضا ؟ وقانى الله شرّ مكاشفاتك ...

كذلك قاطعته ليزا شبه مذعورة .

فوقف وانتظر قلقاً مهموماً . قالت ليزا :

ـ يجب أن أعترف لك بأننى منذ كنا فى سويسرا قد رسخ فى ذهنى أن ضميرك يخفى شيئاً ما ، شيئاً رهيباً ، موحـلاً ، داميا ... لكنه فى الوقت نفسه يجعلك مضحكا الى درجة فظيعة . فحذار أن تكشف لى عن هذا الشىء ان صح تقديرى : والا فسوف أضـحك منك ، وأتهكم على حياتك كلها ... آى ! ... هأنت ذا يصفر لونك من جديد ! فلن أقول بعدُ شيئاً ، لن أقول شيئاً ! هأناذا منصرفة ...

كذلك هتفت تقول وهى تنهض بحركة احتقار واشمئزاز ٠

قال ستافروجين يائساً :

ـ عذبينى ! أدينينى ! صبّى علىّ غضبك ! من حقك أن تفعلى هذا٠ لقد كنت أعلم اننى لا أحبك وأننى ضيعتك ! نعم ، «لقد انتهزت اللحظة»٠ كان لى أمل ٠٠٠ منذ مدة طويلة ٠٠٠ أمل أخير ٠٠٠ ولم أستطع أن أقاوم الضياء الذى بهرنى حين جئت من تلقاء نفسك ، بمحض ارادتك ٠ عندئذ ، ظننت فجأة ٠٠٠ ولعلنى ما زلت أظن ٠٠٠

ـ سأجيب على صراحتك النبيلة بصراحة مثلها ٠ لا أريد أن أكون لك راهبة رحمة واحسان ٠ ان لم أفلح فى أن أموت اليوم ـ وهذا يجىء فى حينه اذا جاء ـ فقد أصبح فى يوم من الأيام راهبة ممرّضة ، ولكننى لن أكون ممرّضة لك أنت ، رغم أنك أشبه بكسيح أو أكتع ٠ لقد خيّل الىّ دائماً أنك ستقودنى فى يوم من الأيام الى مكان يسكنه عنكبوت ضخم فى حجم انسان ، وأننا سنقضى حياتنا كلها ناظرين الى العنكبوت مرتعشين من الخوف ، وأن هذا هو ما سيؤول اليه حبنا ٠ اذهب الى داشا : ان داشا ستتبعك الى حيث تقودها ٠

ـ لا تستطيعين أن تنسيها ، حتى فى هذه اللحظة !

ـ يا للكلبة الصغيرة المسكينة ! سلّم لى عليها ! هل تعلم أنك منذ كنت فى سويسرة ، تدّخرها لشيخوختك ؟ يا للتبصر بالمستقبل ! آى ٠٠٠ مَنْ هناك ؟

لقد شُقّ الباب الذى فى آخر الصالة ، فأطل من شقه الضيق رأس سرعان ما اختفى فى تلك اللحظة نفسها ٠

قال ستافروجين سائلاً :

ـ أهذا أنت يا ايجورتش ؟

فعاد الرأس يظهر من شق الباب ، فاذا هو رأس بطرس ستيفانوفتش يجيب عن السؤال قائلا :

ـ بل هذا أنا . نعمت صباحا يا ليزافتا نيقولايفنا . كنت أعلم انني سأجدكما كليكما في هذه الصالة . لم أجيء الا للحظة واحدة يانيقولاى فسيفولودوفتش : يجب عليَّ حتماً أن أقول لك كلمتين ... انه أمر مستعجل جدا ، ولا غنى عنه أبدا . كلمتان فقط !

اتجه ستافروجين نحو الباب . ولكنه ما ان قطع ثلاث خطوات حتى رجع الى ليزا ، وقال :

ـ اذا سمعت شيئاً يا ليزا ، فاعلمي أن الجاني هو أنا .

فارتعشت ونظرت اليه مرتاعة . وخرج مسرعا .

انتقل ستافروجين الى الغرفة المجاورة ، وهي حجرة مدخل كبيرة بيضوية الشكل . وكان بطرس ستيفانوفتش ، عند دخوله ، قد رأى الخادم العجوز ألكسي ايجورتش ، فطلب منه أن يتركه وحيدا .

أغلق نيقولاى فسيفولودوفتش باب الصالة وانتظر . فشمله بطرس ستيفانوفتش بنظرة سريعة فاحصة .

قال ستافروجين :

ـ هيه ؟

فأجاب الزائر وما تزال نظرته كأنها تريد أن تنبش أعماق ستافروجين ، أجاب قائلاً :

ـ اذا كنت على علم بما جرى ، فيجب أن أقول لك ان أحدا منا ليس

مذنبا طبعا ، ولا سيما أنت ، ولا يعدو الأمر أن يكون مصادفة ••• لا يعدو أن يكون تضافرَ عدد من الظــروف ••• الخلاصـــة ••• من الناحية القانونية لا يمكن أن تُمسّ ، وقد جئت لأنبئك •••

ـ هل حُرقوا ؟ هل قُتلوا ؟

ـ قتلوا ! ولكن أجسامهم لم تمسسها النار• ذلك هو الشيء المؤسف• أقسم لك بشرفي أنني غير ضالع فيما حدث ، مهما تكن شكوكك وشبهاتك• ذلك أن من الجائز أن تشتبه فيّ ، هه ؟ هل تريد أن تعرف الحقيقة كلها ؟ اسمع : في لحظة من اللحظات ، خطر ببالي فعلاً أن ••• وأنت الذي أوحيت اليّ بهذه الفكرة ، لا ايحاءً جاداً بطبيعـــة الحال ، بل من باب السخرية لا أكثر ••• (ذلك أنك لا يمكن أن توحي اليّ بشيء كهـذا ايحاءً جاداً) ، ولكنني لم أستطع أن أعزم أمري ، وما كنت لأعزم أمري بحال من الأحوال ، بأي ثمن ، ولو كان مائة روبل ••• لا سيما وأن ذلك لا يعود عليّ بأي نفع ، عليّ أنا طبعا ••• (كان تدفق كلامه يزداد سرعة) • ولكن انظر الى هذه المصادفة العجيبة ! من مالي الخاص (نعم ، من مالي الخاص ، فليس لك في هذا الأمر روبل واحد ، وانك لتعرف هذا حق المعرفة) ، أعطيت ذلك الأبله ليبادكين مائتين وثلاثين روبلاً ، مساء أمس الأول • هل تسمع ؟ مساء أمس الأول ، لا أمس ، بعد الجلسة الأدبية • لاحظ هذا • فهو أمر هام • ذلك انني في أمس الأول لم أكن قد تيقنت بعد من أن ليزافتا نيقولايفنا ستجيء اليك • أعطيت ليبادكين ذلك المبلغ من جيبي ، لأنك في أمس الأول دبّرت لي مكيدة وكشفت عن سرّك لجميع الناس • لا أدخل الآن في بحث الأسباب التي ••• فهذا من شأنك•••لقد تصرفتَ تصرف فارس•••ولكنني أعترف لك أن ذلك كان ضربة عصا على ظهري••• لقد ذُهلت وصُعقت • لقد طاش صوابي • ومع ذلك فانني وقد سئمت جميع هذه التراجيديات ، وكان هذا يعـرقل

خططى أخيرا فقد عاهدت نفسى على أن أرحّل ليبيادكين وأخته الى بطرسبرج مهما كلف الأمر ، على غير علمٍ منك ، لا سيما وأن الكابتن كان لا يحلم الا بهذا . لم أرتكب الا خطيئة واحدة : هى أننى أعطيته المال زاعماً أنه منك أنت . أهذا خطأ أم لا ؟ ربما لم يكن هذا خطأ ؟ هه ؟ ولكن اسمع الآن ، اسمع كيف جرت الأمور ...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وهو فى قمة الحرارة من حديثه ، واقترب من ستافروجين فأمسك ثنية ردنجوته (لعله فعل ذلك عامداً) ، فما كان من ستافروجين الا أن هوى على ذراعه بضربة قوية .

قال بطرس ستيفانوفتش :

ـ ماذا جرى لك ؟ انتبه ... كدت تكسر ذراعى ...

واستأنف حديثه الأول بمزيد من التدفق ، غير مدهوش للضربة :

ـ نقدته المال مساء أمس الأول ، وتمّ الاتفاق على أن يسافر هو وأخته فى الغداة عند طلوع الصباح . وكلفت ذلك الوغد ليبوتين أن يضعه فى القطار. ولكن ليبوتين كان حريصا أشد الحرص على أن يدبر للجمهور ذلك « المقلب » القذر فى الصبيحة الأدبية . لعلك سمعت عن هذا ؟ فاسمع اذن ، اسمع ! لقد شربا معا ، ونظما أشعارا . وكان نصف الأبيات على الأقل من نظم ليبوتين . وألبس ليبوتين صاحبه الكابتن رداء فراك (مؤكدا لى مع ذلك أنه قد اصطحب ليبادكين الى المحطة فى ذلك الصباح نفسه) ، وأخفاه لا أدرى أين ، ليدفعه الى المنصة فى اللحظة المنشودة . ولكن ليبادكين يسكر بسرعة ، لذلك تولى ليبوتين قراءة الأشعار نيابةً عنه . وقامت الفضيحة . اقتيد الكابتن ليبادكين الى البيت شبهَ ميت من فرط السكر ، واختلس منه ليبوتين مائتى روبل ولم يترك له الا قليلا من نقود صغيرة . ولكن كان من سوء حظ ليبادكين أنه فى ذلك الصباح قد تباهى

وأظهر على الماتى روبل أولئك الذين ما كان ينبغى لهم أن يروها • ولما كان فدكا لا ينتظر الا هذه الفرصة ، ولا سيما أنه كان قد سمع بعض الأمور عند كيريلوف (هل تتذكر تلميحك) فقد قرر أن ينتهز هذه الفرصة • تلك هي الحقيقة كلها • يسرنى على الأقل أن فدكا لم يجد المال ، بينما كان يعوّل أن يعثر على ألف روبل حتماً • ولقد كان متعجلاً • فان النيران قد أخافته هو أيضا ••• هل تصدق ؟ لقد كان الحريق أشبه بضربة مطرقة على رأسى • شىء غير مقبول ، هذا الخروج على النظام والانضباط ! اسمع! اننى أعلق عليك آمالاً كبارا وانتظر منك أمورا كثيرة، لذلك لن أخفى عنك شيئاً : الحق أن فكرة الحريق هذه تراودنى منذ مدة طويلة • انها وسيلة من وسائل العمل شائعة جدا فى وطننا • ولكننى كنت أحتفظ بهذه الوسيلة للمحظة الحرجة ، للدقيقة الرائعة العظيمة التى سنقوم فيها كلنا قومةً واحدة ••• ولكن هاهم أولاء أباحوا لأنفسهم أن يتصرفوا من تلقاء أنفسهم ، دون أمرٍ يصدر اليهم عنى ، وفى لحظة نحن أحوج ما نكون فيها الى أن نبقى ساكنين • هذا قلة نظام وانضباط ! ••• الخلاصة ، لا أعرف بعدُ شيئاً ••• وانما يجرى الحديث عن عاملين من عمال مصنع شبيجولين ! ••• ولكن اذا كان واحد من جماعتنا قد شارك فى اشعال هذا الحريق ، وضلع فى هذه القضية من قريب أو بعيد ، فالويل له ! انك تعرف ما يحدث متى تراخى المرء معهم قليلاً ! لا ، لا ، يستحيل الاعتماد على معونة هذا الوغد الديموقراطى و « حلقاته » • ان ما نحن فى حاجة اليه هو ارادة واحدة عليا طاغية تعتمد على شىء ثابت••• عندئذ تأتى الجماعات تلعق أحذيتنا ونستطيع عندئذ أن نستعملها • على كل حال ، رغم ما يُذاع فى كل مكان بالمدينة الآن من أن المدينة قد احترقت لأن ستافروجين يريد أن يقتل زوجته •••

ـ ماذا ؟ أيذاع هذا منذ الآن ؟

ـ لا ، لا منذ الآن والحق يقال • وانى لأعترف بأننى لم اسمع شيئاً من هذا القبيل • ولكن ماذا يمكن أن يُنتظر من الجمهور ؟ ولا سـيما المنكوبين : « صوت الخلق صوت الحق » (باللاتينية) ! هل من الصعب نشر أسخف الشائعات ؟ ولكن ليس هناك ما يجب أن تخشـاه على كل حال • انت من الناحية القانونية برىء ، بل أنت برىء فى الواقع حتى من الناحية النفسية ، لأنك لم ترد جريمة القتل هذه ، أليس كذلك ؟ هـل كنت تريدها ؟ لا • وليس هناك أى دليل يدينك ••• هى مصادفة محض• مع ذلك قد يتذكر فدكا كلماتك الطائشة عند كيريلوف (لمـاذا قلت تلك الكلمات ؟) • ولكن هذا لا يبرهن على شىء ، وسوف نُسكت فـدكا • سأتولى الأمر فى هذا اليوم نفسه •

ـ ألم تنل النيران أجسامهم البتة ؟

ـ البتة ! ان هذا الوغد لم يحسن حتى القيام بالمهمة • ان مايبهجنى على الأقل هو أنك هادىء هذا الهدوء كله ••• فانك ، وان تكن بريئاً كل البراءة ، حتى من جهة النية والتفكير ••• على كل حال ، لاحظ أن هذا يرتب أمورك على خير وجه : هأنت ذا قد ترملت ، ففى وسعك أن تتزوج على الفور فتاةً أخاذة واسعة الثراء ، عدا أنها بين يديك منذ الآن ! انظر ماذا يمكن أن ينتج عن مجرد تضافر عدد من الظروف • هه ؟

ـ أتهددنى أيها الأحمق ؟

ـ دعك من هذا الكلام • ما أسرع ما تصفنى بأننى أحمق ! ما هذه اللهجة ؟ عليك أن تكون راضيا مسرورا ، فاذا أنت ، بدلاً من ذلك ••• انظر كيف تكافئنى أنا الذى هرعت أخبرك بالنبأ خصيصاً ••• بماذا عسانى أهددك ؟ اننى لا أريد أن أملكك بالتهديد • وانما أنا فى حاجة الى ارادتك

الحرة . أنت الضياء والشمس . وأنا الذى أخاف منك خوفا رهيبا . أنا لست مافريكى نيقولايفتش ... بالمناسبة ، تصور : لقد رأيت مافريكى نيقولايفتش فى قرارة حديقتك قرب السياج حين مررت هناك . لا شك أنه قضى الليلة كلها فى ذلك المكان . ليس للجنون الانسانى حدود .

ـ مافريكى نيقولايفتش ؟ صحيح ؟

ـ هى الحقيقة خالصةً ! انه جالس قرب السياج ... على مسافة ثلاثمائة خطوة من هنا ، ان لم يخطىء ظنى . مررت أمامه بأقصى سرعة استطعتُها ، ولكنه رآنى . ألم تكن تعلم ؟ يُسعدنى اذن أننى أنبأتك . ان أمثال هذا الرجل يمكن أن يصبحوا خطرين جدا اذا كان فى حوزتهم مسدس . أضف الى ذلك : الليلَ والمطر وما يعتمل فى نفسه من حنق طبيعى فى مثل هذه الظروف . فعلاً : تصورْ وضعه الآن ! هاها ! ... ما رأيك ؟ لماذا تُراه يبقى متربصا هناك ؟

ـ واضح أنه ينتظر ليزافتا نيقولايفنا .

ـ تماما ! ولكن لماذا عساها تلحق به ؟ ثم ... فى مطر منهمر كهذا المطر ... ياله من أحمق !

ـ ستلحق به .

ـ هه هه ... يا لها من فكرة عجيبة ! معنى ذلك ... ولكن اسمع: ان وضعها الآن قد تغير رأساً على عقب : ما حاجتها الى مافريكى نيقولايفتش؟ أنت أرمل ، وفى وسعك أن تتزوجها منذ غد. انها لا تعرف شيئاً بعد. دعنى فأتصرف فى الأمر كله . أين هى ؟ يجب أن نزف اليها النبأ الجميل ، اليها هى أيضا .

ـ النبأ الجميل ؟

ـ أظن أنه نبأ جميل . هيّا !

ـ ألا يدور فى خلدك أن هذه الجثث سوف تثير شبهاتها ؟

كذلك سأله ستافروجين وهو يلقى عليه نظرة ذات دلالة .

فأجابه بطرس ستيفانوفتش يقول متغابياً :

ـ لا ، أبداً ... اذ من الناحية القانونية ... ثم هبهـا حـزرت شيئاً ما ! ان هذه الأمور تُرتَّب مع النساء بسهولة ! انك لا تعرف النساء بعد ! ... ومن جهة أخرى فان من مصلحتها أن تتزوجك ، لأن سمعتها قد ساءت مهما يكن من أمر . زد على ذلك اننى كلمتها عن السفينة الشراعية التى لها مجاديف من خشب القيقب ، فلاحظت أن هذه الأشياء تفعل فيها فعل السحر . هذه فتاة حارة الطبع . لا تخشى شيئاً ، لسوف تخطو من فوق هذه الجثث حتى لتستغرب أنت نفسك ذلك ، لا سيما وأنك برىء ، ألست بريئاً ؟ ولكنها ستدخر لك ذكرى هذه الجثث لتقدمها اليك بعـد سنتين من الزواج مثلاً . ان كل امرأة تدّخر لزوجها بعض الخطـايا القديمة لتستعملها فى الوقت المناسب . ولكن هل يعلم المرء ماذا يمكن أن يحدث بعد سنة ؟ هأهأهأ ! ...

ـ اذا كنت قد جئت راكباً عربة فاصـطحبها فوراً الى مافـريكى نيقولايفتش . لقد قالت لى منذ هنيهة انها تكرهنى وانها تتركنى . ولن تقبل عربتى أنا طبعاً .

ـ عجيب ! تريد أن تنصرف ؟ لماذا ؟

كذلك سأل بطرس ستيفانوفتش مذهـولاً . فأجابه ستافروجين بقوله :

ـ لعلها حزرت فى هذه الليلة من بعض العلامات والقرائن اننى لا أحبها ... وذلك ما تعرفه منذ زمن طويل على كل حال .

سأله بطرس ستيفانوفتش متظاهراً بالدهشة :

ـ هل صحيح أنك لا تحبها ؟ ولكن اذا كان الأمر كذلك ، فلماذا احتجزتها بالأمس بدلاً من أن تتصرف تصرف رجل شريف فتعلن لها أنك لا تحبها . هذا جبن من جانبك . وما أدنأ الوضع الذى وضعتنى فيه ازاءها !

فانفجر ستافروجين ضاحكاً . ثم أسرع يشرح قائلاً :

ـ اننى أضحك من قردى .

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يضحك مرحاً :

ـ آ ... حزرت اذن اننى انما كنت أمثّل . لقد أردت أن أضحكك . تصور أننى منذ رأيتك داخلاً علىّ أدركت من وجهك فوراً أن ثمة « مصيبة » قد حلّت . بل ربما اخفاق كامل ، هه ؟

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك ثم هتف يصيح وقد غمره الفرح :

ـ أراهن أنكما قضيتما الليلة كلها جالسين أحدكما الى جانب الآخر، على كرسيين ، تضيّعان وقتاً ثميناً فى مناقشة أمور رفيعة نبيلة سامية ! ... اغفر لى ! اغفر لى ! ما شأنى أنا على كل حال ... لقد كنت أعلم منذ الأمس أن ذلك كله سينتهى بينكما الى سخافات . اننى لم آتك بها الا لأسلّيك ، ولأبرهن لك على أنك لن تضجر معى . سوف أخدمك خدمات كثيرة من هذا النوع . اننى ، على وجه العموم ، أحب أن أسرّ الناس . اذا كنت قد سئمت منها الآن ـ وهذا ما كنت أتوقعه وأعوّل عليه حين أتيت الى هنا ـ فاننى فى هذه الحالة ...

ـ ألم تجيئنى بها اذن الا لتسلينى ؟

ـ طبعاً .

ـ وليس لتجعلنى أقرر قتل زوجتى ؟

ـ ولكن هل أنت الذى قتلتها ؟

ـ بل أنت ، فكأن ..

ـ أنا ؟ ألم أقل لك اننى لا شأن لى فى الأمر . لقد بدأت تقلقنى...

ـ أكمل . لقد قلت لى منذ برهة : « اذا كنت قد سئمت منها الآن ، فاننى فى هذه الحالة ... » .

ـ نعم ، فاننى فى هذه الحالة أتولى كل شىء . سأزوجها مافريكى نيقولايفتش بسهولة . يجب أن أذكر لك عابراً أننى لست أنا الذى جعلته يرابط فى آخر الحديقة . فلا ينصرفن بك الخيال الى هذا أيضا . أؤكد لك اننى خائف منه . لقد جئت منذ قليل على ذكر العربة ، فاعلم اننى مررت أمامه بأقصى سرعة ... ذلك لأن معه مسدسا . من حسن الحظ أن معى مسدسى أنا أيضا . هو ذا (هنا أخرج بطرس ستيفانوفتش المسدس وأراه ستافروجين ثم أسرع يخبئه) . لقد تزودت به احتياطا للطوارىء ... على كل حال سأدبر لك الأمر كله فى برهة وجيزة : ان قلبها يتألم الآن حين تفكر فى مافريكى ... أو على الأقل لا بد أن قلبها يتألم . وانى لأشفق عليها حقاً . وما ان آخذها الى مافريكى حتى تعود تفكر فيك ، وتتغنى له بمحاسنك ، وتندد بعيوبه . ذلك هو قلب المرأة . آ ... هأنت ذا تضحك من جديد . لشدما يسرنى أن أراك مرحاً هذا المرح كله . طيب . هيا بنا ! سأبدأ أولاً بمافريكى ... أما الآخرون ... الذين قتلوا ... فلعل الأفضل أن لا نذكر عنهم شيئاً الآن ، أليس كذلك ؟ ستعلم هى بالأمر قريبا .

ـ أى أمر سأعلم به ؟ من الذى قتل ؟ ماذا قلت عن مافريكى نيقولايفتش ؟

كذلك صاحت ليزا سائلة وهي تفتح الباب •

ــ آه ••• أكنت تتنصتين وراء الباب ؟

ــ ماذا قلت عن مافريكي نيقولايفتش ؟ هل قُتل ؟

ــ اذن لم تسمعي • هدئي نفسك • ان مافريكي نيقولايفتش حي ، وان صحته جيدة ، كما تستطيعين أن تقتنعي من ذلك بنفسك فورا ، لأنه مرابط في الحديقة ، قرب الطريق ••• أظن أنه بقي هنالك طوال الليل ، تحت معطفه • لا بد أنه مبلل • وقد رآني حين وصلت •

ــ ليس هذا صحيحا • لقد نطقت بكلمة « قُتل » • فمن الذي قُتل ؟

كذلك ألحت تقول بشك أليم •

فقال ستافروجين بصوت ثابت :

ــ زوجتي هي التي قُتلت مع أخيها ليبادكين وخادمتهما •

ارتعشت ليزا ، واصفرت اصفرارا شديدا •

وأسرع بطرس ستيفانوفتش يتدخل فقال :

ــ مصادفة غريبة ، عجيبة ، ياليزافتا نيقولايفنا • اغتيال من اغبى وأسخف الاغتيالات • استغل الجناة الحريق ليقتلوا ويسلبوا • انه فدكا السجين الهارب من سجن الأشغال الشاقة • لقد كان هذا الأحمق ليبادكين يتباهى في كل مكان بأن جيوبه ملأى مالا ••• ذلك ما جعلني أهرع ••• ضربة فظيعة فعلا • لقد كاد ينقلب ستافروجين حين أبلغته النبأ • وكنا نتباحث الآن لنقرر أنعلمك بالخبر أم لا !

قالت ليزا تسأل ستافروجين وهي تنطق كل كلمة بمشقة :

ــ نيقولاي فسيفولودوفتش ، أهو يقول الحقيقة ؟

ـ لا ، انه لا يقول الحقيقة .

فصرخ بطرس نيقولايفتش يقول :

ـ كيف ؟ ما هذا أيضا ؟

صاحت ليزا :

ـ رباه ! أكاد أُجن !

فصرخ بطرس ستيفانوفتش صراخا قوياً يقول :

ـ ألا فاعلمي اذن أن هذا الرجل قد فقد عقله . مهما يكن من أمر ، فان زوجته هي التي قُتلت . أنظري الى شحوبه الشديد ! ... لقد قضى الليلة كلها معك ، ولم يتركك . فكيف يمكن الاشتباه فيه ؟

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش . قل لي صادقاً كما لو كنت أمام الله . أأنت جانٍ أم لا ؟ يميناً لأصدقنّ كلامك كأنه كلام الله ، ولاتبعنّك الى آخر الدنيا ! نعم ، نعم ! سأتبعك ، مثل كلب ! ...

زأر بطرس ستيفانوفتش يقول غاضباً غضباً مسعوراً :

ـ ما بالك تعذبها هذا التعذيب أيها الانسان العجيب ! يا ليزافتا نيقولايفنا . أحلف لك صادقا ، ولتدقّيني في هاون ان كنت أكذب : ان نيقولاي فسيفولودوفتش بريء . والأحرى أن يقال انه هو الذي قُتل بهذا النبأ . انه يهذي . هأنت ذي ترينه بعينيك . انه عاجز عن أن يفعل شيئاً من هذا القبيل ، حتى بالخيال ! ... ان الذين فعلوا هذه الفعلة أناس من قطاع الطريق ، سيُعرفون حتماً في غضون ثمانية أيام ، وسيُجلدون . هو فدكا السجين الهارب من سجن الأشغال الشاقة وعمالٌ من مصنع شبيجولين . المدينة كلها تتحدث في الأمر ... وهذا هو السبب في أنني ... أنا أيضا ...

قالت ليزا تسأل ملحة :

ـ أهذا صحيح ؟ أهذا صحيح ؟

وكانت تنتظر الكلام الحاسم واجفة راعشة .

قال ستافروجين :

ـ لم أقتل ، وكنت أعارض هذا القتل ، ولكنني كنت أعرف أنهم سيقتلونهم ، فلم أمنع القتلة من ارتكاب ما ارتكبوا . دعيني يا ليزا .

قال ستافروجين ذلك ، ورجع الى الصالة .

خبأت ليزا وجهها بيديها وخرجت من المنزل . فأراد بطرس ستيفانوفتش أن يركض وراءها ، ولكنه عدل عن رأيه هذا ، وهرع يعود الى الصالة .

دمدم يقول وقد جُن جنونه غضباً وأخذ الزبد يخرج من بين شفتيه :

ـ آ ... هكذا اذن ! هكذا اذن ! لستَ خائفاً اذن من شيء .

كان ستافروجين واقفاً في وسط الصالة . فظل صامتا ولم يجب بكلمة . وكان يشدّ شعره بيده اليسرى وقد ألمت بوجهه ابتسامة غامضة.

شدّه بطرس ستيفانوفتش من كمّه بقوة ، وقال له :

ـ هل فقدتَ عقلك ؟ ألى هنا وصلت ؟ انك سوف تشي بجميع الناس ثم تمضي تعتكف في أحد الأديرة ، أو تمضي الى جهنم ! ... ألا فاعلم اذن أنني سأقتلك ، وان لم تكن خائفاً مني .

دمدم ستافروجين يقول وكأنه لم يلاحظ وجود بطرس ستيفانوفتش الا في تلك اللحظة :

ـ هه ؟ أأنت الذي تحدث هذه الجلبة كلها ؟

وبدا عليه فجأة أنه رجع الى وعيه ، فأضاف يقول له :

ـ اركض وراءها ! خذ العربة ! لا تتركها ! ••• ما بالك لا تركض؟ أعدها الى بيتها ، ولا يعلمنْ أحد ! ••• امنعها خاصــــة من الذهاب الى هناك ورؤية الجثث ••• الجثث ! أركبها في العربة قسراً ! ••• يا ألكسي ايجورتش ، يا ألكسي ايجورتش !

ـ انتظر ! لا تصرخ ! هي بين ذراعي مافريكي منذ الآن ! ••• لن يركب مافريكي عربتك ••• انتظر ••• ليس الأمر الآن أمر عربة !

وأخرج مسدسه ثانية ، فالقى عليه ستافروجين نظرة رصينة ، وقال له بصوت هادىء :

ـ اقتلني !

فصاح بطرس ستيفانوفتش يقول مرتعشاً من شدة الغضب :

ـ عجيب ! هل يمكن المرء أن ينطلي عليه تمثيله هــــو نفسه ! حقاً يجب عليَّ أن أقتلك ! وقد كان ينبغي لها أن تبصق في وجهك ! لا ، ما أنت «سفينة» ! أنت قارب عتيق مثقوب ، لا يصلح في أكثر تقدير الا حطباً للموقد • ذلك أنت ! ••• هلاَّ غضبت بعض الغضب على الأقل • لا شك أن جميع الأشياء تستوي في نظرك الآن ، ما دمت تطلب بنفسك أن تُقتل !

ابتسم ستافروجين ابتسامة غريبة وقال :

ـ لولا أنك مهرِّج لكان يمكن أن أقول لك نعم ••• ليتك أذكى قليلاً على الأقل •••

ـ أنا مهرِّج • ولكنني لا أريد أن تكون أنت مهرجاً ، أنت الجزءَ الأساسيَّ من نفسي • هل تفهمني ؟

ولقد كان ستافروجين يفهم • ولعله الوحيد الذي كان يستطيع أن يفهم بطرس ستيفانوفتش • انكم تتذكرون دهشة شاتوف حين قال له ستافروجين ان بطرس ستيفانوفتش قادر على أن يتحمس •

ـ اذهب الآن الى الشيطان ! قد أستطيع من الآن الى الغد أن أتخذ قرارا ما • ارجع غدا •

ـ في الغد اذن ؟ أهذا أكيد ؟

ـ أنَّى لى أن أعرف ! اذهب الى الشيطان !

قال ستافروجين ذلك وخرج •

فجمجم بطرس ستيفانوفتش يحدث نفسه قائلاً : « ربما كان هـذا أفضل ••• من يدرى ! » • وأعاد المسدس الى جيبه •

٢

اسرع بطرس ستيفانوفتش يلحق بليزافتا نيقولايفنا التى لم تكن قد ابتعدت كثيراً •

كان ألكسى ايجورتش قد حاول أن يثنيها عن الخروج ، ولكنه لم يفلح ، فهو الآن يتبعها باحترام ، لابساً رداء الفراك ، حاسر الرأس ، على مسافة منها • ان الخادم العجوز مرتاع أشد الارتياع ، يهمُّ أن يبكى من الهلع ، وهو يضرع اليها أن تنتظر العربة •

قال له بطرس ستيفانوفتش وهو يدفعه :

ـ ارجع الى البيت • مولاك يطلب شاياً ، وليس هناك من يجيئه بالشاى غيرك •

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك للخادم العجوز ، وأمسك ذراع ليزافتا نيقولايفتش بسطوة • فلم تسحب ليزا ذراعها • ولم تكن تملك وعيها كاملاً على كل حال : انها لم تعد الى صوابها بعد •

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول لها :

ـ أولاً : لقد سرت فى اتجاه خطأ ؛ فما ينبغى أن نمر أمام الحديقة؛ لنمض من هنا • وثانيا : يستحيل عليك استحالةً مطلقة أن تعودى الى بيتك سيراً على القدمين ، فالمسافة تبلغ ثلاثة فراسخ ، ولست ترتدين معطفاً • فالأفضل أن تنتظرى قليلاً • لقد وصلت أنا بعربة • وهى الآن فى فناء المنزل • سأستدعيها فتركبينها وأوصلك الى بيتك • فلا يراك أحد•

قالت ليزا بصوت رقيق عذب :

ـ ما أطيب قلبك ! •••

ـ ما هذا الذى تقولين ؟ ان كل انسان شريف لا بد أن يفعل ما أفعل ، فى مثل هذه الحالة •

فنظرت اليه ليزا مدهوشةً تقول :

ـ رباه ! كنت أظنه الخادم العجوز ! •••

ـ اسمعى • يسرنى أن تأخذى الأمر هذا المأخذ ، فما ذلك كله على كل حال الا وهم من الأوهام الاجتماعية الباطلة • ولكن ، اذا كان الأمر كذلك ، أفليس الأفضل أن نأمر العجوز باعداد المركبة ، فما تنقضى دقائق عشر الا وتكون المركبة مهيأة ؟ وبانتظار ذلك نحتمى بسقيفة الباب ، هه ؟

ـ أريد قبل كل شىء ••• أين هى الجثث ؟

ـ يا لها من نزوة غـــريبة ! ذلك ما كنت أخشـــاه ••• لا ••• لا تفكرى فى هذا • لنترك هذه الجثث اللعينة حيث هى • ما بك حاجة الى رؤيتها •

ـ أنا أعرف أين هى ؟ اننى أعرف ذلك البيت !

ـ ليس بالأمر الهام أن تعرفيه • اسمعى • ان المطر ينهمر ، والضباب يغشى كل شيء ـ رباه ! ما أغنانى عن هذا العناء كله ! ••• ـ اســمعى يا ليزافتا نيقولايفنا ! أحد أمرين : اما أن تركبى فى العربة معى ، وفى هذه الحالة فلنقف هنا ، ولتنتظرينى ، اذ لو سرنا عشرين خطوة أخرى فسوف نلقى مافريكي نيقولايفتش •••

ـ مافريكي نيقولايفتش ؟ أين هو ؟ أين ؟

ـ اذا كنت تحرصين حرصا مطلقا على أن تذهبى اليه ، فاننى أوافق على أن أسير معك بضع خطوات أخرى ، لأدلك أين هو ، ولكنى أفـر بعد ذلك • اننى لا أريد الاقتراب منه الآن •

صاحت ليزا قائلة وهى تقف فجأة :

ـ رباه ! انه ينتظرنى ! •••

واصطبغ وجهها بحمرة شديدة •

ـ اذا كان رجلاً متحرراً من الأوهام الاجتماعية ، فلا قيمة للأمر البتة • تعلمين يا ليزافتا نيقولايفنا اننى لا شأن لى فى هذه القضية كلها • تعلمين هذا علماً تاماً ••• ولكننى مع ذلك لا أريد لك الا الخير • اذا لم تنجح « سفينتنا » ، واتضح أنها ليست الا قارباً قديماً بالياً •••

ـ آه ••• رائع !

ـ ها هى ذى تبكى الآن ! يجب أن يتحلى المرء بالشجاعة فى مثـــل

هذه المناسبات • لا ينبغى للمرأة أن تخضع أمام الرجل • فى أيامنا هذه ••• حين يحدث لامرأة أن •••

هنا كاد بطرس ستيفانوفتش أن يبصق من شدة الغضب • ولكنه أردف يقول :

ـ الشيء الرئيسى هو أن لا تأسفى على شيء : ان من الجائز أن تسوّى جميع الأمور فى النهاية • ان مافريكى نيقولايفتش رجل ••• رجل حساس ••• رغم أنه صموت ••• والصمت صفة ممتازة على كل حال ••• المهم أن يكون متحرراً من الأوهام الاجتماعية •

ـ رائع ! رائع !

كذلك هتفت ليزا وهى تضحك ضحكاً عصبياً •

فقال بطرس ستيفانوفتش منزعجاً على حين فجأة :

ـ هوه ! لاحظى يا ليزافتا نيقولايفنا أننى فى سبيلك انما أسعى الآن هذا السعى كله • ما شأنى أنا ! ••• لقد ساعدتك أمس حين أردت أنت نفسك ••• واليوم !••• اننا نستطيع أن نرى مافريكى نيقولايفتش من هنا • انظرى • هو ذا • انه لم يبصرنا • ليزافتا نيقولايفنا ، هل قرأت « باولين ساكس » •

ـ ماذا ؟

ـ « بولين ساكس » • هى رواية • قرأتها حين كنت طالباً • انها تحدثنا عن موظف ، غنى جدا ، رأى زوجته متلبسة بالجرم المشهود ، فى الريف• دعينا من هذا على كل حال ! ماشأنى أنا ؟ ان مافريكى نيقولايفتش سيعرض عليك الزواج حتى قبل أن تصلى الى البيت • سوف ترين • لم يبصرك حتى الآن •

هتفت ليزا تقول كالمجنونة :

ـ آه ... ما يجب أن يراني . فلنهرب ! فلنهرب ! في الغابة ! في الحقول ! ...

وعادت أدراجها راكضة .

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يركض وراءها :

.. ليزافتا نيقولايفنا ! ما هذا الضعف ؟! ... لماذا لا تريدين أن يراك ؟ بالعكس : حدّقي في عينيه ، بكبرياء ! ... اذا كانت المسألة هي مسألة ... هي مسألة بكارتك ... فذلك وهم اجتماعي سخيف ... ذلك تأخر فكري كبير ! ... ولكن الى أين تذهبين ؟ الى أين تذهبين ؟ انها تركض ! ... لنعد الى سكفورشنيكي ، لنركب عربتي ... ولكن الى أين تركضين هذا الركض ... في الحقول ؟! ... ها ... ها هي ذي تقع !

وقف بطرس ستيفانوفتش . كانت ليزا تركض كالمجنونة دون أن تعرف الى أين تمضي . وكان بطرس ستيفانوفتش قد أصبح بعيدا عنها . وتعثرت أخيراً بتلعة من الأرض فسقطت . وفي تلك اللحظة دوّت صرخة رهيبة : انه مافريكي نيقولايفتش رأى هرب الفتاة وسقوطها ، فهو الآن يركض لنجدتها عبر الحقول .

فسرعان ما رجع بطرس ستيفانوفتش الى منزل ستافروجين ليركب عربته بأقصى سرعة .

ها هو ذا مافريكي نيقولايفتش يقف بقرب ليزا مرتاعاً . لقد نهضت ليزا . وها هو ذا يميل عليها ويتناول يدها بيديه . ان الظروف الخارقة التي تكتنف هذا اللقاء قد بثت في نفس الفتى اضطرابا شديدا ، وهذ

دموع تسيل غزيرةً على خديه. لقد رأى تلك التى يحبها حباً يبلغ العبادة، رآها تركض كالمجنونة خلال الحقول ، فى هذه الساعة المبكرة من الصباح، تحت المطر ، دون معطف ، بثوبها الجميـل الذى كانت ترتديه أمس ، مشعَّثة ملطخة بالوحل ... فلم يملك أن يقول كلمة واحدة ، ولم يزد على أن خلع عنه معطفه ، ودثَّر به كتفى ليزا بيديه المرتعشتين . وها هو ذا يهتف قائلاً على حين فجأة ، اذ أحس بشفتى ليزا على يده :

ــ ليزا ! أنا لا أصلح لشىء . ولكن لا تنبذينى ! لا تطردينى !

فقالت له ليزا :

ــ لننصرف من هنا ! لا تتركنى !

وأمسكت ذراعه وجرَّته وراءها . وأردفت تقول بصوت خائف :

ــ مافريكى نيقولايفتش ، كنت أُظهر الشجاعة هناك ، ولكننى هنا خائفة من الموت . سوف أموت ، سوف أموت بعد قليل ، ولكننى خائفة ، خائفة من الموت ...

بهذا دمدمت ليزا وهى تضغط على ذراع صاحبها .

فقال مافريكى نيقولايفتش وهو يلقى من حوله نظرات يائسة :

ــ ليت أحداً هنا على الأقل ... قدماك ستبتلان ... سوف ... سوف تفقدين عقلك .

دمدمت تقول محاولةً أن تبث فيه شيئاً من الشجاعة :

ــ لا تخف ! ما هذا بشىء ! ما هــذا بشىء ! لقد قلَّ خوفى منـذ أصبحت أنت بجانبى . أمسك يدى ، قدنى ! ... الى أين نذهب الآن ؟ الى الدار ؟ لا ... اننى أريد أن أرى الجثث أولاً . يقـال انهم قتلوا زوجته . ولكنه يقول انه هو الذى قتلها . ليس هــذا صحيحا ، أليس

كذلك ؟ ليس صحيحا ، هه ؟ أريد أن أرى بعينىّ ... الأشخاصَ الذين قتلوهم بسببى أنا ! ... بسببهم انما فقدت حبه هذه الليلة ... سوف أرى كل شيء وأعرف كل شيء . أسرع ! أسرع ! اننى أعرف ذلك البيت .. ولقد أشعلوا فيه النار ... مافريكى نيقولايفتش ، لا تغفر لى ، لقد كان سلوكى غير شريف ! لماذا عسى يُغفر لى ؟ ما بالك تبكى ؟ اصفعنى ، واقتلنى ، فى هذا المكان نفسه ، كما يُفعل بكلب !

قال مافريكى نيقولايفتش بصوت ثابت :

ـ لا أحد يحق له أن يحكم عليك . وأنا آخر من يحق له أن يحكم عليك ! غفر الله لك !

ان الحوار الذى جرى بينهما سيبدو للقارىء غريباً عجيباً اذا أنا نقلته . كانا يمشيان يداً بيد ، بخطى وئيدة ، كمجنونين ، سائرين نحو الحريق قُدُماً لا يلويان على شيء . لم يكن مافريكى نيقولايفتش قد فقد الأمل ، بعدُ ، فى أن يلقى عربةً ما ، ولكن الطريق كانت خالية مقفرة . وان رذاذاً من المطر يحجب المنظر ، مذيباً الأشكال والألوان ، مغشّياً كلَّ شيء بنقاب أشهب . كانت الشمس قد شرقت منذ مدة ، ومع ذلك كان الجو كأنه ليل . وفجأةً ، من هذا الضباب المتجلد ، انبجست قامة غريبة ، شاذة . اننى حين أتصور هذا المشهد أتخيل اننى لو كنت فى محل ليزافتا نيقولايفنا لما صدّقت عينىّ . ولكن ليزافتا نيقولايفنا سرعان ما تعرفت صاحب القامه ، فأطلقت صرخة فرح . انه ستيفان تروفيموفتش . كيف هرب من بيته ؟ كيف استطاع أن ينفّذ ذلك المشروع الخيالى الغريب الذى كان يساوره منذ زمن طويل ؟ ـ ستعرفون كل شيء فيما بعد . وحسبى الآن أن أشير الى أنه كان مريضاً منذ ذلك الصباح : كانت به حمى . ولكن لا شيء كان يستطيع أن يثنيه عما عقد النية عليه . انه يسير

فى الطريق الموحلة بخطى ثابتة • ومن يَرَه يدرك أنه كان قد أعدّ قراره كما يمكن أن يُعدّه رجل غير ذى خبرة ، وحيداً فى غرفة مكتبه الهادىء الساكن • كان ستيفان تروفيموفتش مرتديا « لباس السفر » ، أى أن معطفه كان مشدودا على جسمه بحـــزام عريض من جلد لامع ، وكان يحتذى جزمتين عاليتين .• لعل هذه الصورة هى التى كانت فى خياله عن « المسافر » • أما حزام الجلد وحذاء الفارس اللذين كانا يضايقانه فى سيره كثيرا ، فأغلب ظنى أنه كان قد هيأهما منذ عدة أيام • وكان يكمل هذا اللباس قبعةٌ عريضة الحافة ، ولثام مشدود حول عنقه • وكان يحمـــل بيسراه كيساً للسفر صغيراً لكنه محشو حتى ليكاد ينفجر ، ويحمل بيمناه عصا ومظلة مفتوحة • ان هذه الأشياء الثلاثة ـ العصا ، والكيس ، والمظلة ـ كان حملها مزعجا جدا ، وقد ثقلت على ستيفان تروفيموفتش منذ الفرسخ الثانى •

هتفت ليزا تقول :

ـ أهذا أنت ؟ هل يُعقل أن تكون أنت ؟

لقد كانت حركتها الأولى فرحاً ، ولكن سرعان ما حلّ محل الفرح دهش أليم !

وهتف ستيفان تروفيموفتش هو أيضا يقول وهو يهرع اليها :

ـ ليزا ! عزيزتى ! عزيزتى ! هل يُعقل أن ••• أن تكونى أنت قد ••• فى هذا الضباب المظلم ؟ هل ترين الحريق ؟ « انك شقية ، أليس كذلك ؟ » (بالفرنسية) • اننى أرى هـــذا • لا تقصى علىّ شيئاً ، ولا تسألينى عن شىء أيضا • « نحن جميعا أشقياء ، ولكن يجب أن نغفر لهم جميعا ! فلنغفر يا ليز ! » (بالفرنسية) ولنكن أحراراً الى الأبد ! ولكى ننتهى من الناس ونصبح أحرارا « يجب أن نغفر ، وأن نغفر ، وأن نغفر ! (بالفرنسية) •

ـ ولكن ما بالك تجثو راكعاً على ركبتيك ؟

ـ لأنني وأنا أودّع العالم أريد أن أودّع في شخصك ماضيّ كله !

وأخذ ستيفان تروفيموفتش يبكي ، وحمل يدي ليزا الى عينيه • وأردف يقول :

ـ انني أجثو راكعاً أمام كل ما كان في حياتي جميلاً • انني أقبل يديك وأقول لك شكراً ! لقد شطرتُ حياتي شطرين : مجنوناً هناك كان يحلم بأن يرتقي السماء ، « اثنتين وعشرين سنة » ! وشيخاً هنا ، مسحوقاً، متجمداً ، معلما ••• « عند ذلك التاجر ، هذا اذا وُجد ذلك التـاجر » (بالفرنسية) •

وصاح ستيفان تروفيموفتش قائلاً وهو ينهض لأنه أحس بالأرض رطبة تحت ركبتيه :

ـ ولكنك مبتلة يا ليز ! وكيف يمكن هذا ؟ أبهذه الملابس ؟ ••• وسيراً على القدمين ؟ ••• وسط الحقـــول ؟ ••• انك تبكين ! « أأنت شقية ؟ » (بالفرنسية) • آ ••• نعم ••• سمعت ••• ولكن من أين أنت الآن آتية ؟

كان يلقي عليها هذه الأسئلة وجـــلَ الهيئة ، ملقياً على مافريكي نيقولايفتش نظرات دهشة • وأردف يسأل :

ـ ولكن هل تعلمين كم الساعة الآن ؟

قالت ليزا :

ـ ستيفان تروفيموفتش ، هل سمعت عن أولئك الأشخاص الذين قـتلوا ؟ ••• أهذا صحيح ؟ ••• أهذا صحيح ؟ •••

ـ أولئك الأشخاص ! لقد لبثت الليـــل كله أتأمل حمـــرة لهيب جريمتهم • كان لا يمكن أن ينتهوا الى غير هذا •

وسطعت عيناه من جديد • وواصل كلامه يقول :

ـ انني هارب من هذيانهم • انني أنتزع نفسي من كوابيسهم • انني ماضٍ أبحث عن روسيا • أهي توجد ، روسيا ؟ آه ••• هذا أنت أيهـا الكابتن العزيز ! لم يساورني أبدا شك في أنني سأراك في يوم من الأيام تحقق عملاً نبيلاً • ولكن خذي مظلتي • ثم لماذا السير على الأقدام ؟ ناشدتك الله ! خذي مظلتي على الأقل ! وسأجد في النهاية عربة تقلني • لقد رحلت سيراً على القدمين لأن ستازي (يريد أن يقول ناستاسيا) كان يمكن أن تهيج الشارع كله لو عرفت أنني راجل • لقد تسللت مجهولاً • ان جريدة « الصوت » ملأى بقصص عن قطاعي طرق • ولكن يستحيل، فيما أظن ، أن أقع على واحد من قطاع الطرق فور سيري في الطريق • عزيزتي ليزا ، يخيّل الي أنك قلت منذ هنيهة أن أحداً قُتل ، أليس كذلك ؟ رباه ! انها يُغمى عليها •

هتفت ليزا تقول بحرارة وهي تجر مافريكي نيقولايفتش من جديد :

ـ هيَّا بنا ، بسرعة ! ياستيفان تروفيموفتش ، لحظة •••

قالت ذلك وعادت الى ستيفان تروفيموفتش • وتابعت تخاطبه :

ـ أريد أن أرسم عليك اشارة الصليب ، أيها الرجل المسكين ! لعل الأفضل أن توثق بالأغلال ، ولكنني أوثر أن أباركك • أنت أيضا صلِّ للمسكينة ليزا ، قليلاً ، دون أن تتعب نفسك •

وعادت تخاطب مافريكي نيقولايفتش فقالت له :

ـ يا مافريكي نيقولايفتش ، أعد الى هذا الطفل مظلته • أعدها اليه حالاً • هلمّ بنا ••• فلنمش !

ووصلا الى المنزل المشئوم بعد أن كان الجمهور الذى يحتشد فى مكان الجريمة قد سمع كلاما كثيرا عن ستافروجين وعن الفوائد التى يجنيها من مقتل امرأته • ومع ذلك ظل أكثر الناس هادئين صامتين • وانما كان يضطرب ويصرخ بينهم عددٌ من السكارى والمندفعين ، كذلك القفّال الذى سبق أن تكلمت عنه • ان هذا القفّال مشتهر بأنه رجل وديع مسالم ، ولكنه يفقد صوابه تماما حين يعصف به انفعال قوى ، فلا يدرك عندئذ ماذا يفعل •

اننى لم أرَ وصول ليزا ومافريكى نيقولايفتش • فما كان أشدَّ دهشتى حين لمحتها فى وسط الجمهور المحتشد ، بعيدا عنى ! أما مافريكى نيقولايفتش ، فاننى لم أميّزه فى اللحظة الأولى • جائز أن يكون الجمهور قد فصله عن الفتاة ، فأصبح متخلفاً عنها قليلاً • كانت ليزا تشق الحشد الغفير دون أن ترى أو أن تسمع ما يجرى حولها ، كأنها مجنونة هاربة من المستشفى • لذلك لم تلبث أن لفتت اليها الأنظار • فدوّت عندئذ صيحات كثيرة ، وصرخ أحدهم يقول فجأة : « هذه آنسة ستافروجين ! » وقال صوت آخر : « لا يكفيهم أن يقتلوا الناس ، وانما يريدون أيضا أن يروا جثثهم ! » •

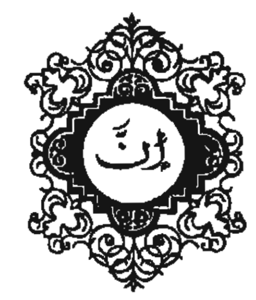
وفجأةً رأيت ذراعاً ترتفع فوق ليزا وتهوى على رأسها • وسمعت فى تلك اللحظة نفسها صيحة رهيبة : انه مافريكى نيقولايفتش يثب لنجدة الفتاة ، ويضرب بجميع قواه الرجلَ الذى كان يفصله عن ليزا • ولكن القفّال الذى كان وراءه أمسك يديه •

كان الاضطراب والازدحام يبلغان من الشدة اننى خلال بضع ثوان لم أستطع أن أرى شيئاً • أظن أن ليزا نهضت ، ولكنها لم تلبث أن سقطت مرةً أخرى بضربة جديدة • وابتعد الجمهور فجأة فشكل دائرةً حول

ليزا الراقدة على الأرض ومافريكي نيقولايفتش المسـعور النازف دماً ، الذى كان يميل على الفتاة عاقفاً يديه • لا أتذكـر على وجه الدقة ماذا جرى بعد ذلك • ولكننى أتذكر أن الناس حملوا ليزا • وركضت أنا وراءهم : كانت ليزا ما تزال تتنفس • بل لعلها لم تكن قد أُغمى عليها • واعتُقل القفَّال وثلاثة أفراد آخرين • ان هؤلاء الثـلاثة ما يزالون الى اليوم يحتجون ببراءتهم ويؤكدون أنهم اعتُقلوا خطأً • ولعلهم صادقون• أما القفَّال فرغم أنه شوهد متلبساً بالجرم ، لم يمكن أن يُستخرج منـه شيء ، بسبب اضطراب أفكاره • وحين دُعيت للشهادة ، رغم أننى لم أَرَ شيئاً كثيراً ، أفدت بأن هذا القتل كان نتيجة تضافر ظروف سيئة ، وأن القتلة وقد هاجهم كل ما كانوا قد سمعوه ، عدا أنهم سكارى ، انما تصرفوا بغير وعى أو شعور ، ولم يدركوا ما كانوا يفعلون • وما يزال هذا رأيى الى اليوم •

الفصل السابع

قرار أقصى



أشخاصاً عدة التقوا ببطرس ستيفانوفتش فى ذلك الصباح . وقد تذكروا فيما بعد أنه بدا لهم مهتاجا اهتياجا شديداً .

وفى الساعة الثانية بعد الظهر مرّ بمسكن جاجانوف الذى وصل أمس من الريف . كان البيت مليئا بالناس ، وكان هؤلاء يناقشون أحداث المدينة بحرارة واندفاع . وقد تحدث بطرس ستيفانوفتش أكثر مما تحدث الآخرون ، واستطاع أن يحملهم على الاصغاء اليه . ان الناس عندنا كانوا دائما يعدونه « طالبا ثرثاراً مختلاً بعض الاختلال » ، ولكنه أدار الحديث على جوليا ميخائيلوفنا ، فكان ذلك موضوعا مثيراً للاهتمام ، فى وسط تلك البلبلة العامة الشاملة . وقد ذكر عن جوليا ميخائيلوفنا ، بصفته من خلصائها المقرّبين ، عدداً من التفاصيل الجديدة غير المتوقعة . ونقل كذلك (كأنما عن طيش ودون أن يريد ذلك) عددا من أحكامها على بعض الأشخاص المرموقين ، فكان من شأن هذا طبعا أن قرص كبرياء الحاضرين منهم . وكان يعبّر عن نفسه بكلام مبهم مقطّع مفكّك . لذلك أشعر الناس بأنه رجل قليل المكر لكنه شريف ، اضطر أن يشرح دفعةً واحدة طائفةً من أنواع سوء التفاهم ، فهو لسذاجته الخرقاء لا يعرف من أين يبدأ وأين ينتهى . وقد أفلت

من لسانه قوله بغير حذر : ان جوليا ميخائيـلوفنا كانت على علمٍ بسرِّ ستافروجين ، وانها هي التي حبكت المؤامرة التي كان بطرس ستيفانوفتش هو نفسه ضحيةً لها ، لأنه كان هو أيضا مغرماً بحب تلك المسكينة ليزاء وقد بلغت من احكام حبك المؤامرة أنه هو ، بطرس ستيفانوفتش ، قد تولى بنفسه « تقريبا » ايصال ليزا الى ستافروجين بالعربة . « نعم ، يا سادة ، انه لسهل عليكم أن تضحكوا ! ولكن لو انني عرفت ، لو انني عرفت ، ما ستؤول اليه الأمور ! » . وجوابا عن الأسئلة القلقة التي ألقوها عليه بصدد ستافروجين صرّح بقوله انه يعتقد أن مقتل ليبادكين لم يكن الا مصادفة محضاً ، وان ليبادكين كان ضحية حماقته نفسها ، لأنه راح يتباهى في كل مكان بأن عنده مالاً . وقد بدت تعليلات بطرس ستيفانوفتش في هذا الصدد واضحة جدا . ومع ذلك علق أحد مستمعيه على كلامه قائلاً « هذا تمثيل لا ينطلي على أحد » : لقد شرب وأكل حتى لقد نام عند جوليا ميخائيلوفنا ان صح التعبير ، وها هو ذا رغم ذلك أول من يقول فيها سوءاً . ليس ذلك بالأمر المستحسن منه كما قد يظن . ولكن بطرس ستيفانوفتش دافع عن نفسه بلهجة وقورة جدا يقول :

ـ اذا أكلتُ وشربت عندها ، فليس ذلك عن عوز . أأكون مذنباً اذا هي دعتني دائماً ؟ اسمح لى أن أكون بنفسي حكَماً على مايجب لها عليَّ من شكر وامتنان !

كان الشعور العام مؤيدا له على وجه الاجمال . « انه لم يخترع البارود طبعاً ، ولكن لا يمكن أن يُعدّ مسئولاً عن حماقات جوليا ميخائيلوفنا . بالعكس : كان فيما يبدو يحاول أن يكبح جماحها ....» .

في نحو الساعة الثانية سرت شائعة على حين فجأة تقول ان ستافروجين قد سافر الى بطرسبرج في قطار الظهر . وقد أثار هذا النبأ فضولاً قوياً ، حتى ان بعضهم اكفهر وجهه . أما بطرس ستيفانوفتش

فقد بلغ من الاضطراب للنبأ أنه غيَّر سحنته فيما يقال ، وصرخ يسأل : « من ذا الذى تركه يسافر ؟ » • ولم يلبث أن غادر الحفل فورا • ولكنه رئى فى منزلين آخرين أو فى ثلاثة منازل أخرى •

وفى نحو المساء استطاع أن ينفذ الى عند جوليا ميخائيلوفنا ، بغير قليل من العناء ، لأنها كانت ترفض رفضاً قاطعاً أن تلقاه • اننى لم أعلم بهذه الزيارة الا بعد ثلاثة أسابيع ، وذلك من جوليا ميخائيلوفنا نفسها ، قبيل رحيلها الى بطرسبرج• وهى لم تطلعنى على التفاصيل ، ولكنها اعترفت وهى ترتعش بأنه فى تلك الزيارة قد «أدهشها ادهاشا يفوق كلّ حد » • أظن أنه هددها بأن يشى بها شريكةً اذا هى تكلمت• لقد كان صمت جوليا ميخائيلوفنا لا غنى عنه اطلاقا لمشاريع بطرس ستيفانوفتش التى كانت المرأة المسكينة تجهلها طبعا • ولم تدرك جوليا الا بعد خمسة أيام لماذا كان يحرص ذلك الحرص كله على أن تصمت ، ولماذا كان يخشى أن يتجلى استياؤها صريحا •

وفى نحو الساعة الثامنة من المساء ، حين خيَّم الظلام كاملاً ، كان « أصحابنا » يجتمعون كلهم ، هم الخمسة ، فى مسكن الضابط حامل الراية ، اركل ، الذى كان يقيم فى منزل صغير بأقصى المدينة يوشك أن يتداعى • ان بطرس ستيفانوفتش نفسه هو الذى دعا الى عقد هذا الاجتماع • ولكنه تأخر عن الموعد فلم يصل حتى الآن ، فأعضاء الحلقة ينتظرونه منذ ساعة كاملة • ان اركل هو ذلك الضابط نفسه الذى لبث فى سهرة فرجنسكى جالساً طول الوقت أمام دفتر ملاحظات ، وفى يده قلم رصاص • انه مقيم عندنا منذ مدة قصيرة ، وهو يقطن فى شارع صغير صامت ، لدى أختين عانسين • وكان يقال انه سيغادر مدينتنا بعد وقت قصير • لقد عُقد الاجتماع فى بيته لأن عقد الاجتماع فى هذا المكان غير معرَّض لأن يلاحَظ كما يمكن أن يلاحَظ فى مكان آخر • ولقد كان

هذا الفنى الغريب صموتاً صمتاً خارقاً : كان يمكن أن يقضى عشر سهرات متتاليات فى مجتمع يبلغ أقصى درجات الحركة والحماسة ، وأن يستمع الى أحاديث طويلة تبلغ أقصى درجات الجلبة والصخب ، دون أن ينبس بكلمة واحدة ، وانما هو ينصت الى المتحدثين ساكتاً ، منقّلا بينهم عينيه اللتين تشبهان عينى طفل ، متفرساً فيهم بانتباه• وكان له وجه جميل لا يخلو من ذكاء • انه ليس واحدا من حلـــقة « الخمسة » التى كان أعضاؤها يعدونه مكلفاً بمهمة خاصة تنفيذية لا أكثر • ولكننا نعلم الآن أنه لم يكن مكلفاً بأية مهمة • ولعله هو نفسه كان لا يدرك وضعه ادراكا واضحا • لقد كان يكفيه أن يعبد بطرس ستيفانوفتش الذى عرفه منذ مدة قصيرة • بمينا لو التقى اركل بأى مخلوق شاذ ، فاستطاع هذا المخلوق الشاذ أن يضفى على حديثه اليه ثوباً اشتراكيا رومانسيا ما ، فى سبيل أن يدفعه الى تأليف عصابة من قطاع الطرق ، ثم أمره من أجـــل وضعه فى موضع الاختبار أن يقتل ويسلب أول فلاح قادم ، لانصاع اركل للأمر الذى صدر اليه ولنفذّه بغير أى تردد • كانت أمه المريضة تعيش فى الريف ، وكان يرسل اليها نصف راتبه الهزيل • فما كان أعظم شـــوق الأم الى تقبيل هذا الرأس الأشقر ، وما كان أشد قلقها عليـــه ، وما كان أقوى حبّها له • لا شك أنها كانت تدعو له كثيراً !

كان « أصحابنا » مضطربين اضطراباً شديداً • لا شك أن أحــداث الليلة البارحة قد أدهشـــتهم وروّعتهم • ان الفضيحة التى ساهموا فى احداثها راضين قد انتهت الى خاتمة لم تكن فى الحسبان قط • فحـــريق المليـــل ، ومقتـــل ليبادكين ، وتهشيم ليزا ، كل ذلك مفاجآت لم تكن جزءاً من برنامجهـــم • انهم يتهمـــون بطرس ستيفانوفتش بالاستبداد ، ويأخذون عليـــه بكثير من المـــرارة أنه يخفى عنهـــم الأمور • الخلاصة أنهم بانتظار وصـــول بطـــرس ستيفانوفتش قد بلغـوا من الحنق أنهم

قرروا أن يسألوه ايضاحات قاطعة ، وأن يطلبوا منه تفسيرات فاصلة . فاذا راوغ مرةً أخرى ، فسوف يحلون حلقتهم ، وسوف ينشئون بدلاً منها جمعية سرية جديدة ترمى الى هدف واحد هو « الدعاية للأفكار » ، وتقوم على قواعد المساواة والديموقراطية . وكان ليبوتين وشيجالوف والشخص الذى يقول انه يعرف الشعب الروسى حق معرفته ، يؤيدون هذا المشروع بحرارة وحماسة ، وكان ليامشين صامتا ولكن هيئته تعبر عن تأييد وتحبيذ . أما فرجنسكى فكان ما يزال مترددا ، وكان يلح على ضرورة انتظار الايضاح من بطرس ستيفانوفتش . وتقرر أخيرا أن يُفسح لبطرس ستيفانوفتش مجال الايضاح . ولكن بطرس ستيفانوفتش ما يزال متأخرا عن الحضور ، فكان اهماله هذا يصب على النار زيتاً . وكان اركل صامتا يحضر الشاى ويقدمها بنفسه فى أقداح على صينية حتى لا تدخل الخادمة الغرفة .

لم يصل بطرس ستيفانوفتش الا فى الساعة التاسعة والنصف . وها هو ذا يتقدم بخطى سريعة نحو المائدة المستديرة التى جُعلت أمام الديوان وتحلقت حولها الجماعة . وقُدِّمت اليه قدح من الشاى لكنه رفضها . وكان وجهه يُعبِّر عن حنق وقسوة وتكبر . لعله أدرك من هيئة الحاضرين فورا أن الحلقة « تتمرد » .

قال وهو يبتسم ابتسامة صفراء ويطوف ببصره على الوجوه :

ـ قبل أن أفتح فمى ، أفرغوا ما فى أنفسكم من كلام !

فانبرى ليبوتين يتحدث « باسم الجميع » فقال بلهجة مستاءة « ان الاستمرار على هذا الأسلوب يهدد كل واحد بتحطيم جبهته » . ونحن لا نخشى أبداً أن تتحطم جباهنا ، لا ، بل اننا مستعدون لهذا أتم الاستعداد، ولكن على شرط أن يكون الهدف هو خدمة العمل المشترك وحده .

هنا قام أفراد الجماعة بحركات شتى تنم عن التأييد . وتابع ليبوتين

كلامه فقال : فيجب اذن أن تكون صريحاً مع أعضاء الجماعة ليعرفوا سلفاً الى أين هم سائرون ، والا فما عسى يحدث ؟ » •

هنا أيضا ظهرت حركات تأييد وقامت دمدمات شتى • وواصل ليبوتين كلامه يقول : ان هذا التصرف يشتمل على اذلال ، كما أنه محفـــوف بالخطر • « ليس معنى ذلك أننا خائفون • ولكن اذا عمل فرد واحـــد بينما الآخرون لا يزيدون على أن يكونوا بيادق شطرنج يحركها كمـــا يشاء ، فانه سيورّطهم جميعا فيما لا يد لهم فيه » •

« نعم ، نعم ! » • كذلك تعالت أصوات الآخرين مؤيدة •

ـ ماذا تريدون مني ؟

ـ ما شأن المكائد الصغيرة التي يدبرها ستافروجين بالعمـــل المشترك والقضية العامة ؟

كذلك تابع ليبوتين كلامه سائلاً باستياء • وأردف يقول :

ـ ربما كان عضواً في اللجنة المركزية ـ هذا اذا كان لتلك اللجنة السرية العجيبة وجود حقا ـ ولكننا لا نريد أن نعرف من ذلك شيئاً • غير أن جريمة قتل قد ارتكبت ، والشرطة تبحث القضية ، فاذا تابعت الخيط الى آخره وصلت الينا •

قال تولكاتشنكو ، الرجل الذي يعرف الشعب الروسي حق معرفته ، قال مضيفاً الى كلام ليبوتين :

ـ اذا أُخذت مع ستافروجين ، فسوف نؤخذ نحن أيضا •

وقال فرجنسكي يختم الحديث :

ـ وسوف نؤخذ بدون أية فائدة تعود على قضيتنا المشتركة •

ـ يا للحماقة ! ان جريمة القتل هذه لا ترجع الا الى المصادفة • ان فدكا هو الذي فعل هذه الفعلة ليسلب الكابتن ما معه من مال •

قال ليوتين معقباً ، وهو يحرك قسمات وجهه بمعنى التهكم :

ـ همْ ! ... مصادفة عجيبة مع ذلك .

ـ ثم ان الخطأ خطؤكم على كل حال .

ـ خطؤنا نحن ؟ كيف هذا ؟

ـ أولا : لقد شاركت أنت نفسك في تدبير الحيلة يا ليوتين . والأخطر من هذا ثانيا أنني أمرتك بترحيل ليادكين الى بطرسبرج ، حتى لقد أعطيتك المال اللازم . فماذا فعلت ؟ لو أنك رحلته لما حدث شيء مما حدث .

ـ ولكن ألست أنت الذي أوحيت الي فكرة حمله على قراءة أشعار في الصبيحة الأدبية ؟

ـ اذا أوحيت اليك فكرة فليس معنى ذلك أنني أصدرت اليك أمراً . ان الأمر الذي أصدرته اليك هو أن ترحله .

ـ « الأمر » الذي أصدرته الي ؟ يا له من تعبير غريب ... ان الواقع هو نقيض هذا : لقد أمرت بالتريث ، وارجاء رحيله .

ـ أخطأتَ الفهم ، وبرهنتَ على أنك شديد الحماقة وعلى أنك لاتتقيد بالنظام . ان جريمة القتل كانت من فعل فدكا . وقد تصرف من تلقاء نفسه بغية الاستيلاء على مال الكابتن . وأنت سمعت أقاويل فصدقتها فوراً ، فخفت . ليس ستافروجين غبياً الى هذا الحد . والبرهان أنه سافر ظهر هذا اليوم بعد أن قابل نائب الحاكم . فلو كان هناك ما يدعو الى الاشتباه فيه ، لما أُذن له بالسفر في وضح النهار .

استأنف ليوتين كلامه بلهجة تشتمل الآن على حقد وتخلو من التحرج :

ـ نحن لا نقول البتة ان السيد ستافروجين قتل بيديه . حتى ليمكن أن يكون جاهلاً بكل شيء ، مثلى أنا . انك لتعلم علم اليقين أننى كنت أجهل كل شيء ، وهأنا ذا مع ذلك قد أُقحمت فى الفخ .

ـ فمن ذا تتهم اذن ؟

كذلك سأله بطرس ستيفانوفتش مربدّ الوجه .

فأجابه ليبوتين :

ـ أتهم أولئك الذين يحرقون المدن .

ـ أنكى ما فى الأمر أنك تمكر وتراوغ . على كل حال ، أرجو أن تحمّل نفسك عناء قراءة هذه الورقة ، وأن تنقّلها بعدئذ بين الآخرين من باب العلم بالشيء .

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك واستل من جيبه رسالةً غير مذيلة باسم صاحبها (وهى رسالة كان ليبادكين قد كتبها الى لمبكه) ، ومدّها الى ليبوتين . فقرأها ليبوتين ثم ناولها جاره ذاهلَ الهيئة . ولم تلبث الرسالة أن طافت على الحضور جميعا .

سأل شيجالوف :

ـ أهذا خط ليبادكين حقاً ؟

فقال ليبوتين وتولكاتشنكو مؤكدين :

ـ نعم ، هو خط ليبادكين .

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يعيد الرسالة الى جيبه :

ـ لم أطلعكم على الرسالة الا لتكونوا على علم ، ولأننى رأيت أنكم ترثون لمصير ليبادكين . هكذا يكون فدكا قد خلّصنا اذن من رجل خطر

الى أقصى حدود الخطر • هناك مصادفات غريبة أحيانا • أليس هذا بليغ الدلالة يا سادة ؟

تبادل أعضاء الحلقة نظرة سريعة •

قال بطرس ستيفانوفتش وقور الهيئة :

ـ والآن يا سادة جاء دورى أنا لأسألكم • كيف أبحتم لأنفسكم أن تشعلوا الحريق فى المدينة بدون اذنى •

ـ ماذا ؟ أنحن أشعلنا الحريق فى المدينة ؟

تابع بطرس ستيفانوفتش يقول دون أن يقيم وزناً لسؤالهم المتعجب :

ـ أفهم أن تكونوا قد اندفعتم فتطرفتم وأسرفتم • ولكن الأمر ليس أمر فضيحة صغيرة فى هذه المرة • لقد جمعتكم هنا أيها السادة لأريكم مدى الخطر الذى أدت حماقتكم الشديدة الى وضعه فوق رءوسكم ، والذى يهدد مصالح أخرى غير مصالحكم أنتم •

هتف فرجنسكي يقول مستاءً وكان قد ظل ساكتاً حتى ذلك الحين :

ـ اسمح لى • نحن الذين كنا ننوى أن نحتج على استبدادك وطغيانك اللذين فرضا هذا التدبير الغريب العجيب الخطير !

ـ اذن أنتم تنكرون • ولكننى أنا أؤكد أنكم أنتم أحرقتم المدينة • لا تكذبوا أيها السادة • اننى أملك معلومات دقيقة • ان عدم انضباطكم يجعل القضية المشتركة والعمل المشترك فى خطر • ما أنتم الا حلقة واحدة فى شبكة واسعة ، فيجب أن تخضعوا للجنة المركزية خضوعاً أعمى • ومع ذلك فان ثلاثة منكم لم يصدر اليهم أى أمر فى هذا الموضوع هم الذين دفعوا عمال مصنع شبيجولين الى اشعال النار فى المدينة ، فشبّ الحريق •

ـ من هم هؤلاء الثلاثة ؟ اذكر أسماءهم !

ـ أمس الأول ، في الساعة الثالثة من الصباح ، في كاباريه « ميوزوتس » ، قمتَ أنت يا تولكاتشنكو بتحريض زافيالوف .

قال تولكاتشنكو منتفضا :

ـ اسمح لى . أنا لم أكد أقول الا كلمةً واحدة فى هذا الصدد ، ولم أكن أنتوى أى شىء معيَّن محدَّد ، ولم أتكلم الا لأنه كان قد جُلد فى الصباح . ثم سرعان ما تركته اذ لاحظت أنه سكران . ولولا أنك ذكَّرتنى بهذا الحادث الآن ، لما خطر ببالى من تلقاء نفسه فى لحظة من اللحظات . ان كلمةً تقال عرضاً ومصادفةً لا يمكن أن تشعل النار فى مدينة .

ـ أنت أشبه بانسان يدهشه كثيراً أن تفجِّر شرارةٌ مخزن بارود .

هتف تولكاتشنكو يقول :

ـ لقد كلمته بصوتٍ خافت ، همساً فى أذنه ، وكنا فى آخر الصالة. فكيف علمت بالأمر ؟

ـ كنت مختبئاً تحت المائدة . لا تخشوا شيئاً أيها السادة . اننى أعرف كل واحد منكم . أراك تبتسم ساخراً يا سيد ليبوتين . طيب . أنا أعلم مثلاً أنك منذ ثلاثة أيام ، فى منتصف الليل ، حين رقدت على فراشك ، قرصت زوجتك حتى أدميتها .

فغر ليبوتين فاه من الدهشة واصفرَّ لونه .

(وقد عُلم فيما بعد أن بطرس ستيفانوفتش قد علم بفعلة ليبوتين هذه من آجافيا ، خادمة ليبوتين التى كانت منذ البداية تتجسس لبطرس ستيفانوفتش) .

سأل شيجالوف وهو ينهض فجأة :

ـ هل أستطيع أن أقرر واقعة ؟

ـ افعل •

فعاد شيجالوف يجلس ، وفكّر لحظةً ، ثم قال :

• اذا كان ما فهمته صحيحا ـ ومن المستحيل أن لا يكون صحيحا ـ فانك قد قلت منذ البداية ثم كررت مرة أخرى ، متكلما بكثير من البلاغة والفصاحة ، وان يكن كلامك نظريا ، أن هناك شبكة تغطي روسيا كلها وأن جماعتنا ليست الا حلقة في هذه الشبكة • فكل جماعة من هذه الجماعات ، وهي جزء من الحزب الذي يتفرع ويتفرع الى غير نهاية ، يجب عليها أن تقوم بدعاية منظمة تقوّض السلطات المحلية ، وتنشر الاضطراب في الأرياف ، وتثير الفضائح ، وتذكي الرغبة في حال أفضل ، وكذلك تعمد الى اشعال الحرائق التي هي وسيلة شعبية جدا ، لتغرق البلاد في وهدة اليأس في الوقت المناسب • أهذه أقوالك نفسها حاولت أن أحفظها كلمةً كلمةً أم لا ؟ أهذا هو برنامجك الذي نقلته الينا بصفتك عضواً في لجنة مركزية لا نعرفها بعد ، وتكاد تبدو لنا قائمة في عالم الغيب ؟

ـ هذا صحيح • ولكن ما أطول اسهابك !

ـ لكل انسان أن يعبّر عما بنفسه كما يشاء • انك حين أفهمتنا أن الشبكة التي تغطي روسيا كلها تُعدُّ منذ الآن بمئات الحلقات ، وحين أفهمتنا أنه اذا قامت كل حلقة من هذه الحلقات بواجبها ، فان روسيا كلها ، فان روسيا كلها ، باشارة واحدة •••

ـ شيطان يأخذكم جميعا ! ان على عاتقي أعباء كافية ، بدون أن تزيدوها أنتم •••

كذلك قال بطرس ستيفانوفتش وهو يتحرك على مقعده •

قال شيجالوف :

ـ طيب • سأوجز • وسأكتفي بأن ألقى عليك السؤال التالى : لقد شهدنا هنا فضائح منذ الآن ، ورأينا استياء الأهالى ، وحطمنا سلطة الادارة المحلية ، وشهدنا حريقا • فممَّ استياؤك اذن ؟ أليس هذا برنامجك ؟ ما الذى تستطيع أن تأخذه علينا ؟

ـ آخذ عليكم عدم خضوعكم !

كذلك صرخ يقول بطرس ستيفانوفتش • وتابع كلامه فقال :

ـ ما دمت أنا هنا فانه لمحظور عليكم أن تتصرفوا بدون اذنٍ منى • كفى ! سيوشى بنا غداً بل ربما الليلة ، وسنعتقل جميعا • ذلك ما أردت أن أقوله لكم • معلوماتى أكيدة •

أذهلهم هذا النبأ بل صعقهم •

ـ سيوشى بنا من حيث أننا مشعلو حرائق ، ومن حيث أننا ثوريون • ان الواشى يعرف جميع التفاصيل • هذه ثمرة حماقاتكم !

صاح ليبوتين يقول :

ـ هو ستافروجين حتماً •

ـ ستافروجين ؟ ••• لماذا ؟ •••

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وجمد • ولكنه لم يلبث الى أن ثاب الى نفسه • ثم قال :

ـ بل هو شاتوف • أظن أنكم تعلمون جميعا أن شاتوف كان فى الماضى عضواً بالجمعية • ويجب علىَّ أن أقول لكم اننى قد كلفت بمراقبته

أناساً لا يرتاب في أمرهم ، فما كان أشد دهشتي حين عرفت أن تنظيم شبكتنا ليس سراً خافياً عليه ... وأنه يعلم كل شيء ! ... ومن أجل أن يجعل السلطة تعفو عن اشتراكه في الجمعية ، فانه سوف يشي بالجميع. ولقد كان يتردد حتى الآن ، وكنت أنا أداريه . أما الآن فانكم بالحريق قد أطلقتم يديه ، وحررتموه من التردد ، فعزم أمره ، ولكن يصده عن الوشاية بنا شيء . سنُعتقل جميعا في الغد ، بصفتنا مشعلي حرائق وبصفتنا مجرمين سياسيين .

ـ ولكن هل هذا صحيح ؟ كيف يعرف شاتوف ؟

كان الانفعال الذي سيطر على أعضاء الجماعة لا يوصف .

ـ هذا صحيح كل الصحة . ليس من حقي أن أطلعكم عن الوسائل التي استعملتها ، ولا أن أذكر لكم كيف اكتشفت كل شيء . اليكم مع ذلك ما لا أزال قادراً على فعله لكم : انني أستطيع ، بواسطة شخص ما ، أن أؤثر في شاتوف دون أن يشتبه في الأمر ، فاحمله على ارجاء الوشاية أربعاً وعشرين ساعة . ففي وسعكم اذن أن تعدوا أنفسكم في مأمن حتى الصباح من بعد غد .

ساد الصمت دقيقة .

ثم صاح تولكاتشنكو فجأة يقول :

ـ فلنرسل شاتوف اذن الى جهنم !

فتدخل ليامشين قائلاً بصوت حانق وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية :

ـ هذا ما كان ينبغي أن نفعله منذ مدة طويلة .

قدمدم ليبوتين سائلاً :

ـ كيف ؟

فأسرع بطرس ستيفانوفتش يتلقف الكرة ويعرض خطته ، فيقول ان المطلوب هو استدراج شاتوف غداً عند هبوط الليل الى المكان النائى الذى دفن فيه آلة الطباعة ، بحجة استردادها . فمتى وصل شاتوف الى هناك « تفعلون اللازم » . وقد دخل بطرس ستيفانوفتش فى تفاصيل سأسكت عنها الآن ، وعرض وضع شاتوف فى الجمعية ، وهو وضع ملتبس كما يعرف القارىء .

قال ليبوتين بصوت متردد :

ـ هذا كله حسن ، ولكن حكاية القتل الجديدة هذه ... سوف تبلبل الأذهان ...

فأجابه بطرس ستيفانوفتش مؤيداً :

ـ حتماً . ولكن هذا أيضا محسوب . اننا نملك الوسيلة التى تمكننا من أن نصرف عنا الشبهات تماما .

وبذلك الوضوح نفسه تكلم عن كيريلوف ، وعن اعتزامه الانتحار ، وذكر أن كيريلوف لن ينتحر الا فى اللحظة المطلوبة ، وأنه سيترك رسالة يتهم فيها نفسه بكل ما يطلب اليه أن يتهم به نفسه (ان القارىء مطلع على هذه الأمور كلها) .

وأضاف بطرس ستيفانوفتش معقباً :

ـ ان اعتزام كيريلوف الانتحار ، وهو اعتزام قاطع يفسّره هو تفسيراً فلسفيا ولكنه ليس فى رأيى الا محض جنون ، معروف « هناك » . و « هناك » لا يدعون لشىء أن يضيع ، لا يتركون لشمرة أن تُفلت ، بل لا يسمحون لذرة غبار أن تذهب سدى . ان كل شىء يمكن أن يفيد عملنا

المشترك • وهكذا فان «اللجنة» اذ تنبأت بالفائدة التى يمكن أن تجنى من انتحاره ، واذ اقتنعت بأن نية الانتحار لديه جدٌ لا هزل ، قد أعطته مالاً ليعود الى روسيا (ذلك أن كيريلوف ـ لا أدرى لماذا ! ـ يحرص حرصا مطلقا على أن يموت بروسيا) ، وعهدت اليه بمهمة تكفل بانفاذها ، وهو ينفذها فعلاً ، وتعهَّد عدا ذلك بأن لا يطلق الرصاص على رأسه الا حين يصدر اليه الأمر بهذا • لاحظوا أنه يريد أن ينفع المجتمع • لا أستطيع أن أقول لكم أكثر من ذلك • ففى الغد ، « بعد شاتوف » ، سأملى عليه رسالةً يصرِّح فيها بأنه هو الذى قتله • وسوف يظهر هذا الأمر معقولاً : فقد كان الرجلان صديقين ، وقد سافرا معاً الى أمريكا وتشاجرا هناك••• سوف يذكر هذا كله فى الرسالة ••• و ••• حتى لقد يمكننا ، اذا كانت الظروف مواتية ، أن نملى على كيريلوف أشياء أخرى أيضا ••• فيما يتعلق بالمنشورات التحريضية مثلاً ••• بل فيما يتعلق بالحريق كذلك ••• على كل حال ، سأفكر فى الأمر مزيداً من التفكير • لا تخشوا شيئاً : انه متحرر من الأوهام الاجتماعية الباطلة ، وسوف يوقّع كل شىء يمكن أن نمليه عليه •

أظهر الحضور بعض الشكوك • ان هذا كله يبدو عجيباً كأنه الخيال • ومع ذلك كانوا قد سمعوا جميعا عن كيريلوف ، ولا سيما ليبوتين •

فقال بطرس ستيفانوفتش قاطعا :

ـ لا تقلقوا أيها السادة • سوف يقبل • وبمقتضى الاتفاقات التى تمت بيننا ، يجب أن أبلغه الأمر قبل موعد التنفيذ بيوم ، أى يجب أن أبلغه فى هذا اليوم • لذلك اقترح أن يصحبنى ليبوتين ، ويشهد لقاءنا ، ويقول لكم عند عودته ، فى هذا اليوم نفسه ، أأنا ذكرت لكم الحقيقة أم لا •

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك ثم أسرع يضيف فى حنق ، كأنه أحسّ أنه بمحاولة اقناع هؤلاء الناس الصغار يهب لهم شرفاً عظيما لا يستحقونه :

ـ على كل حال ، افعلوا ما تشاءون ! فاذا لم تعزموا أمركم فقد انفرط عقدكم وانفكت رابطتكم ، وكان ذلك كله انما يرجع الى عدم طاعتكم والى خيانتكم . وبعد تلك اللحظة ، يمضى كل منا فى سبيله ولكن اعلموا أنكم مهدَّدون عندئذ بالنتائج التى ستترتب على وشاية شاتوف بكم ، وأنكم مهددون عدا ذلك بانزعاج سبق أن نُبِّهتم اليه عند انشاء هذه الحلقة . اننى ، من جهتى ، لا أخشاكم كثيرا أيها السادة ... لا تظنوا أن مصيرى مرتبط بمصيركم ... على كل حال ، ليس لهذا كله من قيمة ...

قال ليامشين :

ـ نحن عازمون على العمل .

ودمدم تولكاتشنكو قائلاً :

ـ ليس هناك حل آخر ؟ واذا أكّد ليبوتين أقوالك عن كيريلوف..

هنا صاح فرجنسكى يقول وهو ينهض :

ـ أنا معارض ! اننى أحتج احتجاجا شديدا على هذا القرار الدموى.

ـ ولكن ؟

كذلك سأله بطرس ستيفانوفتش . فقال فرجنسكى :

ـ ماذا « ولكن » ؟

ـ أنت قلت « ولكن » ، وأنا أنتظر أن تتم كلامك ...

ـ أظن أننى لم أقل « ولكن » ... وانما قصدت اننى اذا اتخذتم هذا القرار ، سوف ...

ـ سوف ماذا ؟

صمت فرجنسكي •

وتدخَّل اركل فجأة فقال :

ـ قد لا يكترث الانسان بأمنه وسلامته ، ولكن اذا كان الأمر يضر بالقضية ، فلا يحق للمرء عندئذ أن يهمل أمنه وسلامته •••

وارتبك اركل وسكت • ونظر الجميع اليه مدهوشين ، رغم انشغال بال كل منهم بمصيره الشخصي • ذلك أنهم لم يألفوا أن يفتح اركل فمه بكلمة أبداً •

قال فرجنسكي :

ـ في سبيل القضية ، أنا مستعد لكل شيء •

ونهضوا • وتقرر أن لا يُعقد اجتماع في الغد ، ولكن أعضاء الحلقة سيُطلعون على الوضع ظهراً ، وسيُتفق عندئذ على التفاصيل • وشرح بطرس ستيفانوفتش أين توجد آلة الطباعة ، ووزّع على الأفراد أدوارهم واحداً واحداً ، ثم مضى الى كيريلوف يصحبه ليبوتين •

٢

صحيح أن « أصحابنا » أصبحوا مقتنعين بأن شاتوف يستعد للوشاية بهم ، ولكنهم مقتنعون في الوقت نفسه بأن بطرس ستيفانوفتش يحركهم كما تُحرَّك البيادق على رقعة الشطرنج • ومع ذلك كانوا يعرفون جميعا أنهم سيذهبون الى المكان الذي حدده لهم ، وأن مصير شاتوف قد تقرر • كانوا يشعرون أنهم أشبه بذباب سقط في نسيج عنكبوت ضخم • فكانوا يشعرون بسخط وحنق ، ولكنهم في الوقت نفسه يرتعشون خوفا •

لا شك أن بطرس ستيفانوفتش قد أخطأ فى حقهم . لقد كان يمكن تدبير الأمور كلها تدبيراً أقرب الى الكياسة ، وأدنى الى اليسر والسهولة لو أنه كلّف نفسه عناء تجميل الواقع ولو قليلا . فبدلا من أن يعرض لهم الوقائع عرضاً يظهر جانبها النبيل ، كأن يحدثهم عن الرومانيين وعن تقيدهم بالنظام وتفانيهم فى سبيل الوطن ، عمد الى التخويف وحده ، فجعل كل واحد منهم يخشى على جلده هو ، وذلك شىء يفتقر الى اللطف والكياسة حقا . صحيح أن كل شىء انما يرتد الى الصراع فى سبيل الحياة ، أى الى تنازع البقاء ، فذلك هو المبدأ الوحيد : هذا أمر يعرفه الجميع . ولكن ، مع ذلك ...

ولكن بطرس ستيفانوفتش لم يتسع وقته للاستعانة بالرومانيين . لقد كان هو نفسه فى حالة تشوش وحيرة . ان اختفاء ستافروجين قد بث فى قلبه كثيرا من الاضطراب . كذب بطرس ستيفانوفتش حين قال ان نيقولاى فسيفولودوفتش قد تحدث مع نائب الحاكم قبل أن يسافر . الواقع أن ستافروجين استقل القطار دون أن يرى أحدا ، حتى أمه . والشىء الغريب أن الشرطة لم تقلقه (حوسبت السلطات على ذلك فيما بعد) . ولقد حاول بطرس ستيفانوفتش أن يستعلم عن ستافروجين ، ولكنه لا يعرف حتى الآن شيئاً . لذلك كان مضطربا أشد الاضطراب . هل كان يمكنه فعلاً أن يستغنى هذا الاستغناء عن نيقولاى فسيفولودوفتش ، وأن يذعن لفقده ؟ ذلكم هو السبب فى أنه لم يكن رقيقا مع « أصحابنا » ، لا سيما وأنهم كانوا يكبلون يديه : فلقد كان يريد فى الواقع أن ينطلق ساعيا وراء ستافروجين على الفور . ولكن كان عليه أن يهتم بأمر شاتوف، وكان عليه أن يعزز ارتباط الخمسة بعضهم ببعض : « من يدرى ؟ قد أظل أستفيد منهم ! » . ذلك ما لعله كان يحدث به نفسه .

زد على ذلك أن بطرس ستيفانوفتش كان مقتنعاً اقتناعا تاما بأن شاتوف

يستعد للوشاية بهم • لقد كذب على « الخمسة » : فالحق أنه لم ير تلك الوشاية أبدا، ولا سمع عنها فى يوم من الأيام، ولكنه كان مقتنعا بوجودها. كان يُخيَّل اليه أن شاتوف لن يستطيع احتمال الأحداث الأخيرة ـ موت ليزا ، مقتل ماريا تيموفئفنا ـ وأنه سيعزم أمره أخيرا على أن يفعل • من يدرى ؟ لعل بطرس ستيفانوفتش كان من حقه أن يفكر هذا التفكير • ولقد عُرِف منذئذٍ أنه يكره شاتوف كرهاً شخصياً : فهما قد تشاجرا مرةً فى الماضى ، وليس بطرس ستيفانوفتش بالذى يغفــر اهانةً فى يوم من الأيام • بل اننى لمقتنع بأن هذا هو السبب الرئيسى فى المؤامرة التى دبَّرها لشاتوف •

ان أرصفة الآجر ضيقة جدا فى بعض الأماكن عندنا حتى لقد تنوب عنها ألواح خشبية أحيانا • فكان بطرس يسير فى وسط الرصيف فيشغله كله، غيرَ مكترثٍ بليبوتين أى اكتراث ، وكان ليبوتين مضطرا أن يركض وراءه أو أنْ تتخبط قدماه فى وحل الشـــارع اذا هو أراد أن يكلمه • وتذكر بطرس ستيفانوفتش فجأة كيف كان يحب هو نفسه هذا الخبب منذ بضعة أيام الى جانب ستافروجين الذى كان هو أيضا (مثـــل بطرس ستيفانوفتش فى هذه اللحظة تماما) يسير فى وسط الرصيف فيشغله كله• فحين وافته ذكرى هذا المشهد كاد يختنق غضبا •

ولكن ليبوتين كان غاضبا هو أيضا : فى وسع بطرس ستيفانوفتش أن يتصرف مع الآخرين كما يحلو له ، ولكن لا معه هو ، هو ليبوتين، الذى يعرف أكثر مما يعرفه الآخرون ، ويرتبط بالتنظيم ارتباطا أوثق ، ويشارك فيه مشاركة أعمق ، وذلك منذ مدة طويلة • صحيح أنه كان يدرك حق الادراك أن بطرس ستيفانوفتش يستطيع حتى فى هذه اللحظه أن يتخلص منه ، بل أن يضيِّعه اذا لزم الأمر • ولكنه كان قد أخذ يكره بطرس ستيفانوفتش منذ مدة طويلة ، بسبب موقف الغطرسة هـذا الذى

يقفه ، وليس بسبب الأخطار التي يقوده اليها • أما الآن وقد تقرر قتل شاتوف ، فانه حانق أكثر من سائر « أصحابنا » مجتمعين ؟ ولكنه يعرف مع ذلك أنه سيشرع غدا في عمله أول واحد ، « كعبد ذليل » ، بل أنه سيحمل عليه الآخرين • لذلك لا يساورني أي شك في أنه لو كان يستطيع أن يقتل بطرس ستيفانوفتش فورا ، دون أن يهلك نفسه طبعا ، لفعل حتماً بغير تردد •

كان غارقاً في احساساته ومشاعره ، ملتزما الصمت ، يخبُّ وراء جلاده • وكان يبدو أن بطرس ستيفانوفتش قد نسيه تماما • ولكنه يصدمه بكوعه من حين الى حين ، دون أن ينتبه الى ذلك أي انتباه • وفجأةً وقف في شارع من شوارعنا الصغيرة التي تحفل بالناس ، ودخل أحد المطاعم •

هتف ليبوتين يسأله :

ـ الى أين ؟ ألا ترى أن هذا مطعم ؟

ـ أريد أن آكل شريحة من اللحم •

ـ المكان يغص بالناس هنا •

ـ لايهمني •

ـ ولكن ••• سنصل متأخرين • الساعة قد بلغت العاشرة •

ـ يستطيع المرء أن يذهب الى كيريلوف مهما يكن الوقت متأخرا •

ـ أنا الذي سوف أتأخر • انهم ينتظرون عودتي •

ـ فلينتظروا ! ومن الغباء أن تعود اليهم • انني لم أصب غدائي اليوم بسببكم •

دخل بطرس ستيفانوفتش الى حجرة خاصة من المطعم • واضطر ليبوتين أن يجلس متنحياً على مقعد ، غاضبا حانقا ، ينظر اليه وهو يأكل •

دام ذلك أكثر من نصف ساعة • لم يتعجل بطرس ستيفانوفتش ، وكان واضحا أنه يتلذذ بتناول طعامه • وقد رنّ الجرس ينادى الخادم عدة مرات ، فطلب منه بيرة ثم طلب خردلا من نوع خاص ، كل ذلك دون أن يتوجه الى ليبوتين بكلمة واحدة • كان يبدو غارقا فى أفكاره العميقة ؟ انه قادر فى الواقع أن يفعل شيئين فى آن واحد : يأكل بشهوة ويفكر • وكان ليبوتين من فرط ما يشعر به من كره وبغض لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره • شىء مرضى حقا • كان يعدُّ كلّ لقمة من لقم شريحة اللحم، التى كان الآكل يحملها الى فمه • انه يكرهه لطريقته فى فتح هذا الفم ، لطريقته فى مضغ الطعام ، لتذوقه اللقم الدسمة أكثر من غيرها ؟ انه يكره شريحة اللحم نفسها•واضطرب بصره أخيرا، وأخذ يشعر بدوار ، وسرت فى ظهره رعدات •

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يرمى الى ليبوتين ورقة :

ـ ما دمت لا تفعل شيئاً ، فاقرأ هذا •

دنا ليبوتين من الشمعة • ان الورقة ملأى بكتابة مرصوصة ، خطُّها لا يكاد يُقرأ وفيها شطب كثير • فلما انتهى ليبوتين من قراءة الورقة بغير قليل من الصعوبة ، كان بطرس ستيفانوفتش قد فرغ من طعامه ، ودفع الحساب ، ونهض لينصرف •

وردّ اليه ليبوتين الورقة فى الشارع • فقال له بطرس ستيفانوفتش :

ـ بل احتفظ بها ، سأشرح لك فيما بعد ••• ولكن ما رأيك على كل حال ؟

فارتعش ليبوتين •

ـ رأيى أن منشورا من هذا النوع ••• سخيف ، ومضحك !

لقد أصبح ليبوتين عاجزاً عن أن يحتمل أكثر مما احتمـــل ، وأن يصبر مزيدا من الصبر ، فكان يحس كأن شيئاً يُنهضه عن الأرض ويلقيه الى أمام • واستطرد يقول وهو يرتعش حنقاً مسعورا :

ـ اذا نحن قررنا أن نوزع منشورات من هذا النوع ، فان الناس جميعا سيحتقروننا لغبائنا وجهلنا بالواقع •

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة قاطعة وهو ما يزال يتقدم بخطى ثابتة :

ـ همْ ••• أما رأيى أنا فرأى آخر •••

ـ ذلك رأيى • هل يُعقل أن تكون أنت الذى كتبت هذا البيان ؟

ـ لا شأن لك •

ـ أرى أيضا أن قصيدة « البطل » قصيدة رديئة جدا كذلك ، ولا يمكن أن يكون هرتسن هو الذى نظم هذه الأشعار •

ـ أنت تكذب : القصيدة رائعة •

قال ليبوتين نافضاً كلّ ما كان يجيش فى قلبه :

ـ يدهشنى أن يُقترح علينا أن نعمل على تقويض كل شىء • فى أوروبا طبيعىّ أن يتمنى المرء أن يتقوض كل شىء ، لأن لديهم طبقـــة بروليتاريا ، أما نحن فلسنا الا هواة ولا نزيد على أن نثير غبارا • ذلك هو رأيى •

ـ كنت أظن أنك من أتباع فورييه •

ـ الأمر عند فورييه مختلف ، مختلف تماما •

ـ نعم ، أعرف ! ما آراء فورييه الا سخافات •

ـ لا ، ليس عند فوريه سخافات ••• معذرة ، يستحيل عليّ أن أصدّق أن الثورة ستقوم في شهر أيار (مايو) •

اضطر ليبوتين أن يحل أزراره من شدة ما كان يشعر به من حر •

قال بطرس ستيفانوفتش منتقلاً بهدوء محيِّر الى موضوع آخر :

ـ كفى • والآن ـ قبل أن أنسى ـ يجب عليك أنت أن تجمع هذا البيان وأن تطبعه • سوف نخرج مطبعة شاتوف من مدفنها ، ونسلمها لك غدا • وعليك ، بأقصى ما تستطيع من سرعة ، أن تطبع لنا عددا من النسخ لنوزّعها أثناء الشتاء تنفيذاً للتعليمات الصادرة الينا • عليك أن تطبع أكبر عدد ممكن من النسخ ، لأن أقاليم أخرى ستطلب منا نسخاً •

ـ لا ، معذرة ••• لا أستطيع أن آخذ على عاتقي أن ••• انني أرفض •

ـ لكنك ستنفذ مع ذلك ما أقـــوله لك • انني أعمل وفق تعليمات اللجنة المركزية ، وعليك أن تطبع •

وأنا أرى أن اللجنة المركزية في الخارج لا تدرك الواقع الروسي، وأنها قد قطعت كل صلة لها بالبلاد • انهم هناك يخرفون • بل ان من رأيي أنه لا يوجد الا حلقة خماسية واحدة هي حلقتنا ، وأن الشبكة التي تتحدث عنها ليست الا وهماً •••

هذا ما انطلق به لسان ليبـــوتين وقد نفد صبره • فقال بطـــرس ستيفانوفتش :

ـ انه لشيء يدعو الى الاحتقار أن تكون قد لاحقت القضية دون ايمان بها ••• وأن تظل تركض الآن ورائي مثل كلب صغير •••

ـ لا ، لست أركض • ان من حقنا أن ننسحب وأن ننشىء جمعية جديدة •

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة التهديد :

ـ غبي !

وقدحت عيناه شرراً .

بقي الاثنان متقابلين لحظات . وأشاح بطرس ستيفانوفتش وجهه أخيراً ، وتابع سيره بخطى ثابتة .

التمعت في ذهن ليبوتين فكرة سريعة كومض البرق فقال يحدث نفسه : « سأعود أدراجي وأقفل راجعا . ان لم أفعل هذا الآن فلن أفعله يوما » . وحين قال ذلك لنفسه كان قد سار عشر خطوات . وفي الخطوة الحادية عشرة شقّت ذهنه فكرة جديدة ، فكرة يائسة ، فلم يعد أدراجه ، ولم يقفل راجعا .

وكانا قد اقتربا من عمارة فيليبوف ، ولكنهما قبل أن يصلا اليها ، سارا في شارع صغير بل قل في ممر لا يكاد يُرى ، مما يحاذي السياج ويمتد على طول حفرة . انهما لا يتقدمان هناك الا في مشقة وعناء ، متشبثين بالسياج في كل لحظة ، لأن القدمين تنزلقان على المنحدر . فلما وصلا الى ناصية ذلك السياج ، أزاح بطرس ستيفانوفتش لوحاً من الخشب ، ودخل من الثغرة . وتبعه ليبوتين مدهوشاً بعض الدهشة . وأعادا لوح الخشب بعد ذلك الى مكانه . هذا هو المدخل السري الذي كان يتسلل منه فدكا الى المنزل .

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول بلهجة قاسية :

ـ يجب أن لا يعرف شاتوف أننا هنا .

٣

كان كيريلوف ، على عادته فى مثل تلك الساعة ، جالساً على أريكته الجلدية يحتسى الشاى • فلما رأى الزائرين لم ينهض ، ولكنه ارتعش وألقى عليهما نظرة قلقة •

قال بطرس ستيفانوفتش :

ــ لم يخطىء ظنك ، فانما أنا جئت لذلك الأمر نفسه •

ــ اليوم ؟

ــ لا ، لا ، بل غدا ••• فى مثل هذه الساعة تقريبا

وأسرع يجلس أمام المائدة متأملاً كيريلوف بشىء من القلق • وكان كيريلوف قد استرد هدوءه على كل حال ، واستعاد وضعه المألوف • قال بطرس ستيفانوفتش يسأله :

ــ انهم لا يريدون أن يصدقونى • هل يسوؤك اننى اصطحبت ليبوتين ؟

ــ لا ، اليومَ لا بأس ••• أما غداً فأريد أن أكون وحدى •

ــ ولكن الأمر سيتم بحضورى •

ــ بل أود أن لا تكون حاضراً •

ــ تذكَّر أنك وعدتَ بأن تكتب كلَّ ما سأمليه عليك وأن تمهره بتوقيعك •

ــ سواء عندى • والآن هل تبقيان مدة طويلة ؟

ــ هناك شخص يجب أن أراه وسأمكث عندك نحو نصف ساعة • فرتِّب أمورك كما تشاء ، لكننى سأبقى نصف ساعة •

التزم كيريلوف الصمت . وكان ليبوتين فى أثناء ذلك قد جلس متنحياً تحت صورة الأسقف . ان الفكرة التى ساورته منذ قليل تستولى على فكره الآن أكثر فأكثر . وكان كيريلوف لا يكاد يلقى اليه بالاً ، ولا يكاد ينتبه اليه أىّ انتباه . ان ليبوتين يعرف نظرية كيريلوف ، وكان فى الماضى يسخر منها . ولكنه اليوم صامت ينظر حوله مظلمَ الوجه .

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يقترب من المائدة :

ـ يسرنى أن أصيب شيئاً من الشاى . لقد أكلت شريحة لحم منذ قليل ، وكنت أعوّل على أن أشرب الشاى عندك .

ـ اشرب اذا شئت .

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة لاذعة :

ـ فى الماضى كنت أنت الذى تقدم لى الشاى !

ـ سيان ! وليشرب ليبوتين أيضا .

ـ لا ... لا أريد !

ـ لا أريد أو لا أستطيع ؟

كذلك سأل بطرس ستيفانوفتش فجأةً وهـــو يلتفت الى رفيقه . فأجابه لبوتين بلهجة ذات دلالة :

ـ لن أشرب عنده .

فقطب بطرس ستيفانوفتش حاجبيه .

ـ تفوح من هذا الكلام رائحة الغيبية . لا يعرف الا الشيطان أى ناس أنتم جميعا !

لم يجبه أحد . ودام الصمت دقيقة كاملة .

عاد بطرس ستيفانوفتش يتكلم بخشونة وجفاف فقال :

ـ أنا لا أعرف الا شيئاً واحداً ، هـــو أنه ما من وهمٍ من الأوهام الاجتماعية سيمنعنا من أن يحقق كل منا واجبه .

سأل كيريلوف :

ـ هل سافر ستافروجين ؟

ـ نعم .

ـ أحسن صنعاً .

ألقى بطرس ستيفانوفتش على كيريلوف نظرة جادة ، ولكنه كظم ما فى نفسه وسيطر على ارادته .

ـ لا يهمنى كثيراً ما تراه من رأى ، ولكن يهمنى أن يفى كل واحد بما قطعه على نفسه من عهد .

ـ سأفى بوعدى .

ـ على كل حال ، كنت أنا دائماً على ثقة بأنك ستفى بعهدك ، كمـا يفعل رجل مستقل متقدم .

ـ أما أنت فرجل مضحك .

ـ لا مانع . يسعدنى أن أُضحك . يسعدنى دائما أن أُسرّ أحداً .

ـ انك ترغب رغبة شديدة فى أن أنتحر ، وتخشى خشيةً قـــوية أن أعزف عن ذلك .

ـ أنت الذى ربطت خطتك بعملنا . لقد شرعنا فى عمل معيَّن على أساس تلك الخطة ، فلا يمكنك بحال من الأحوال أن تعدل عنهـــا الا وتعرِّضنا للخطر .

ـ ليس لكم عليّ أيُّ حق •

ـ أفهم ، أفهم تماما : هذه ارادتك الحرة ، وما نحن بشيء ، وانما المهم أن تتحقق هذه الارادة الحرّة •

ـ وسيكون عليّ أن أحمل على عاتقي جميع دناءاتكم ؟

ـ اسمع يا كيريكوف : أتُراك خائفاً ؟ اذا كنت تفكر في التراجع ، فاعلن هذا فورا •

ـ لست خائفاً •

ـ سألتك هذا السؤال لأنني رأيتك تلقي أسئلةً كثيرة •

ـ أتسافر قريباً ؟

ـ أسؤال آخر ؟

نظر اليه كيريلوف باحتقار •

وعاد بطرس ستيفانوفتش يتكلم وقد أخذ حنقه وقلقه يزدادان وأصبح يعجز عن العثور على اللهجة المناسبة :

ـ اسمع يا كيريلوف : انك تريد أن أسافر من أجل أن تبقى وحدك ، من أجل أن تخلو الى نفسك • وهذه كلها أعراض خطرة عليك، خطرة عليك أنت قبل أي شخص آخر • انك تريد أن تفكر • وفي رأيي أن الأفضل أن لا تفكر ، وانما تُقدم على العمل ببساطة • لقد أخذت تقلقني •

ـ شيء واحد يثير في نفسي الاشمئزاز ، هو انني في لحظة كتلك اللحظة سيكون بقربي حشرة مثلك !

ـ اذا كان هذا ما تخشاه فالأمر بسيط ! انني مستعد لأن أخرج

أثناء ذلك الوقت فأنتظر على درجات المدخل • اذا كنت تقيم هذا الوزن كله لأمور كهذه الأمور وأنت تتهيأ للموت ، فذلك ••• فذلك شيء خطر • سأبقى على درجات المدخل ، ولن يكون عليك الا أن تتخيل أننى لا أفهم شيئاً ، وأننى دونك الى غير نهاية •

ـ لا ، لست دونى الى غير نهاية : انك لا يعوزك الذكاء ، غير أن هناك أمورا كثيرة لا تفهمها لأنك انسان فاسد شرير •

ـ طيب • طيب • أنا مفتون بهذا الكلام • سبق أن قلت لك اننى يسعدنى أن أسرك ••• فى مثل هذه اللحظة •

ـ انك لا تفهم شيئاً •

ـ أقصد أننى ••• على كل حال ، هأناذا أصغى اليك باجلال واعظام •••

ـ بل أنت غير قادر على شيء البتة • انك لا تستطيع حتى أن تخفى فى هذه اللحظة حنقك الحقير وغيظك الدنيء ، رغم أن ذلك يضرك • ستغضبنى أخيراً ، فأرانى أرجيء الأمر ستة أشهر على حين فجأة •

نظر بطرس ستيفانوفتش فى ساعته • ثم قال :

ـ اننى لم أفهم من نظريتك شيئاً فى يوم من الأيام ، لكننى أعلم أنك لم تتخيلها من أجلنا نحن • معنى ذلك أنك ستنفذ عزمك حتى بدون أن يكون لنا فى الأمر شأن • وأعلم أيضا أنك لست أنت الذى التهمت الفكرة وانما الفكرة هى التى التهمتك • فلن تراجع اذن !

ـ كيف ؟ الفكرة التهمتنى ؟

ـ نعم •

ـ ولستُ أنا الذى التهمت الفكرة؟ هذا كلام ممتاز • ان لك بعض الذكاء • ولكنك تكتفى بالمزاح ، أما أنا فلى كبريائى •

ـ عظيم ، عظيم • ذلك بعينه هو ما نحن فى حاجة اليه : أن يكون لك كبرياؤك •

ـ كفى • لقد انتهيتَ من شرب الشاى ، فانصرف الآن !

قال بطرس ستيفانوفتش وهو ينهض :

ـ يجب أن أنصرف فعلاً • ولكن ما يزال الوقت مبكّراً • اسمع يا كيريلوف : هل أجد ذلك الرجل عند الجزّارة ؟ انك تعلم من أعنى ، هه ؟ أم تراها كذبت هى أيضا ؟

ـ لا ، لن تجده عندها ، لأنه هنا •

ـ هنا ؟ شيطان يأخذه ! ولكن أين هو ؟

ـ فى المطبخ • يأكل • يشرب •

ـ كيف سمح لنفسه بأن •••

احمر وجه بطرس ستيفانوفتش غضباً ، وتابع كلامه فقال :

ـ لقد أُمر أن ينتظر ••• يا للحماقة • انه لا يملك لا مالاً ولا جواز سفر •

ـ لا أدرى • لقد جاء يودّعنى • وهو يستعد للسفر • سيسافر الى غير رجعة • يقول انك رجل وغد ، وانه لا يريد أن ينتظر مالك •

ـ آه ••• انه يخاف أن أ ••• اذا ••• أين هو ؟ فى المطبخ ؟

فتح كيريلوف باب حجرة صغيرة مظلمة فيها سلم ذو ثلاث درجات يفضى الى المطبخ الذى هو أشبه بزنزانة تسكنها الخادمة فى العادة • ففى

ركن بهذا المطبخ ، تحت الأيقونات ، كان فدكا جالساً أمام قنينة فودكا وطبق لحم بارد مع بطاطس . كان يأكل على مهل بغير تعجل ، ويبدو نصف سكران . وكان يرتدى سترته المصنوعة من جلد الخروف تأهباً للرحيل . ان السماور يغلى ماؤه وراء الحاجز ، ولكنه ليس لفدكا . بالعكس : ان فدكا نفسه هو الذى أصبح منذ أسبوع يحضّر الشاى « لألكسى نيلتش لأن ألكسى نيلتش قد ألف أن يشرب الشاى فى الليل».. وهناك ما يجعلنى أعتقد أن الخادمة كانت غائبة ، وأن كيريلوف كان قد أمر بطهو اللحم والبطاطس منذ الصباح ، من أجل فدكا .

هتف بطرس ستيفانوفتش سائلاً وهو يهرع الى المطبخ :

ـ ما هذا أيضا ؟ لماذا لم تنتظرنى هناك كما أمرتك ؟

وضرب المائدة بقبضة يده ضربة سريعة .

فاصطنع فدكا هيئة قلة الاكتراث ، ثم قال وهو يقطّع كل كلمة من كلماته متصنعاً :

ـ انتظر يا بطرس ستيفانوفتش ، انتظر قليلاً . يجب عليك قبل كل شىء أن تفهم أنك فى زيارة السيد كيريلوف ، آلكسى نيلتش ، الذى يجب عليك أن تلمّع له حذاءيه ، لأنه بالقياس اليك رجل مثقف ، على حين أنك أنت لست الا ....

قال ذلك والتفت فبصق بغير لعاب . ان لهجته المتغطرسة ، المتفيهقة، الهادئة هدوءاً كاذباً حتى حدوث أول انفجار ، كانت خطرة الى أبعد حدود الخطر . ولكن بطرس ستيفانوفتش لم يتسع وقته لملاحظة الخطر . هذا عدا أن فكره كان تائهاً بعد أن ذهبت بصوابه أحداث النهار واخفاقاته ...

وكان ليبوتين يراقب المشهد من أعلى السلّم .

ـ أتريد أم لا تريد أن تملك جواز سفر وأن تنال مبلغا ضـــخما لتمضى الى حيث أُمرت أن تمضى ؟ أنعم أم لا ؟

ـ اسمع يا بطرس ستيفانوفتش : لقد خدعتنى منذ البداية ، وأنا لذلك أعدُّك وغداً حقيراً كقملة . هذا أنت فى نظرى . لقد وعدتنى بمالٍ كثير لقاء الدم البرىء ، وعدتنى به باسم السيد ستافروجين . ثم اتضحَ أن ذلك كله لم يكن الا كذبا دنيئاً منك . فأنا لم أقبض ألفاً وخمسمائة روبل ، بل لم أقبض كوبكاً واحدا ؛ كما علمنا أن السيد ستافروجين قد صفعك منذ قليل على خدّيك . وهأنت ذا الآن تستأنف تهـــديدك لى ، وتستأنف وعدى بالمال ، ولكنك لا تذكر الغرض من ذلك . ولكننى أحس أنك ترسلنى الى بطرسبرج معتمداً على سذاجتى وسرعتى فى التصديق ، لتنتقم من السيد ستافروجين ، نيقولاى فسيفولودوفتش . فالقاتل حقاً انما هو أنت . وهل تعلم ماذا ينتظرك من جراء انغماسك فى حمأة الرذيلة الى أن كفرت حتى بالله ، الخالق الحق ؟ انك أشبه بوثنى ، وانك لا تفضل تترياً . لقد شرح لك ألكسى نيلتش مراراً ، وهو فيلسوف كبير ، شرح لك مرارا حقيقة الله ، خالق كل شىء ، وحدّثك حديثاً طويلاً عن خلق العالم والحياة الآخـرة ، وعن بعث البشر والحيـــوان كما جاء فى رؤيا القديس يوحنا . ولكنك ظللت لا تحس ولا تنطق ، كشخص أبله جامد. لقد أغويت الضـــابط اركل ، مثل ذلك المغـــوى الشرير الذى يسمى ملحداً ...

ـ يا للسكير ! يسرق الأيقونات ثم يدعو الى الايمان بالله ...

ـ هذا صحيح . أعترف لك بذلك يا بطرس ستيفانوفتش . لقـــد سلبت أيقونات . لكننى اكتفيت بأخذ اللآلىء . ومن يدرى ؟ لعل دموعى فى هذه اللحظة نفسها تتحول الى لآلىء أمام هيكل الرب ، لأننى أُهنت وأوذيت ، لأننى يتيم ، حتى اننى كنت لا أعرف أين أُرقد رأسى . هل

قرأت فى الكتب القديمة ، أنه حدث فى الماضى ، فى الأزمنة السحيقه ، أن رجلاً من البائعين قد سرق لؤلؤة من اكليل السيدة العذراء ، أم المسيح، وهو يصلى ويبكى ؟ وبعد ذلك ، على مرأى من الشعب المحتشد ، سجد أمام الأيقونة ، ووضع المبلغ كله عند قدميها ، فألقت عليه الأم العذراء حجابها تستره عن أعين الناس جميعا ؟ لقد تحققت فى تلك المناسبة اذن معجزة حقيقية ، وأصدرت السلطات أمرها بتدوينها دقيقةً فى كتب الدولة . ولكنك أنت قد سلّلت فأراً . وبذلك تكون قد أهنت يد الرب نفسها . ولولا أنك السيد الذى حملتُه على ذراعىّ مراهقاً ، لقتلتك فى هذه اللحظة نفسها ، فوراً .

جُنّ جنون بطرس ستيفانوفتش من الغضب .

ـ أجبنى ، هل رأيت اليوم ستافروجين ؟

ـ لا أسمح لك بأن تسألنى . ان السيد ستافروجين يُدهش من أعمالك . انه لم يصدر اليك أمراً ولا أعطاك مالاً . بل انه لم يشارك فى جريمة القتل أى مشاركة ، ولو بالفكر والخيال . لقد كذبتَ علىّ .

ـ سوف تنال المال . وسوف تتلقى أيضا ألفى روبل ببطرسبرج ، فى المكان المعيَّن ، بل سوف تتلقى هنالك أكثر من ذلك .

ـ أنت تكذب ، أنت تكذب يا عزيزى ، بل اننى ليضحكنى أن أراك واثقا هذه الثقة كلها . ان ستافروجين هو بالقياس اليك رجلٌ يقف فى قمة سلّم ، وأنت فى أسفل السلم تنبح نباح كلب صغير ، بينما هو يحس أنه يشرّفك كثيراً اذا ارتضى أن يبصق عليك من أعلى .

أعول بطرس ستيفانوفتش يقول وقد بلغ ذروة الحنق :

ـ ولكن هل تعلم أننى لن أدعك تخرج من هنا أيها الشقى ، وأننى سأسلمك للشرطة فوراً ؟

فنهض فدكا بوثبة واحدة وقد قدحت عيناه شرراً . فسرعان ما أخرج بطرس ستيفانوفتش مسدسه . انه لمشهد سريع بشع . وقبل أن يتسع وقت بطرس ستيفانوفتش لاطلاق النـــار ، كان فدكا ، السريع كومض البرق ، قد هوى على خده بلطمة رهيبة أتبعها بلطمة ثانية فثالثة فرابعة على الخد أيضاً . فدمدم بطرس ستيفانوفتش ببضع كلمات مبهوتاً مصعوقاً ، ثم خر على أرض الغرفة .

صاح فدكا يقول باعتزاز وزهو :

ـ هو ذا . افعل به ما تشاء .

ثم تناول قبعته وسحب خُرجه من تحت الدكة وانسل خارجا .

كان بطرس ستيفانوفتش يحشرج مغشياً عليه ، حتى لقـــد تخيل ليبوتين خلال لحظة أنه قد مات . وهرع كيريلوف الى المطبخ . وصرخ يقول :

ـ اليّ بماء .

وغرف ماءً من سطل ، وسكب منه على وجه بطرس ستيفانوفتش . فتحرك بطرس بعد لحظة ، وأنهض رأسه ، ونظر أمامه زائغ البصر .

سأله كيريلوف :

ـ هيه ! كيف الحال الآن ؟

فتأمله بطرس ستيفانوفتش ملياً ، دون أن يتعـــرفه فيما يبـــدو . ولكنه حين أبصر ليبوتين الذى كان ينظر اليه من أعلى السلم ، ابتســـم ابتسامته الشريرة تلك ، ثم اذا هو يتناول مسدسه فجأة ، وينهض عن الأرض .

وصرخ قائلاً وهو يهرع نحو كيريلوف كمجنون :

ـ اذا خطر ببالك غداً أن تهرب كما فعل ذلك الوغد ستافروجين (كان شاحب اللون وكان صوته يختنق فى حلقه) ••• فلسوف أجدك ••• فى الطرف الآخر من العالم ••• وسوف أقبض عليك ••• كذبابة ••• فأسحقك ••• هل فهمت ؟ •••

وصوّب مسدسه الى جبهة كيريلوف • ولكن فى تلك اللحظة نفسها تقريبا ثاب اليه رشده تماما ، فخفض يده ، ودسّ المسدس فى جيبه وخرج راكضا دون أن يقول كلمة واحدة • وتبعه ليبوتين • فسارا فى ذلك الممر نفسه ، محاذيين المنحدر مرةً أخرى ، متشبثين بالسياج كما فعلا فى المجيء • فلما صارا فى الشارع أخذ بطرس ستيفانوفتش يسير بخطى تبلغ من السرعة أن ليبوتين لم يستطع أن يتبعه الا بكثير من العناء • حتى اذا بلغ مفترق طرق توقف على حين فجأة •

وقال يخاطب ليبوتين بلهجة التحدى :

ـ طيب !

وكان ليبوتين ما يزال يرتجف ارتجافا شديدا من ذكرى المسدس والمشهد الذى رآه • ولكن الجواب تساقط من شفتيه كأنما من تلقاء نفسه رغم ارادته ، فقال :

ـ أظن ••• أظن « أنهم من سمولنسك الى طشقند ••• لا ينتظرون الطالب نافدى الصبرى الى هذا الحد » •••

ـ هل رأيت ماذا كان يشرب فدكا فى المطبخ ؟

ـ ماذا كان يشرب ؟ كان يشرب فودكا •••

ـ طيب ••• فاعلم اذن أنه قد شرب الآن فودكا آخر مرة فى حياته، انى أنصحك بأن تتذكر هذا من أجل ماقد تراه من آراء فى المستقبل •

سوف يفيدك أن تتذكره . والآن ، اذهب الى الشيطان ! ... لم أعد فى حاجة اليك حتى الغد ... ولكن حذار : لا ترتكب حماقات !

رجع ليبوتين الى بيته سريع الخطى .

٤

كان ليبوتين قد صنع لنفسه منذ مدة طويلة جواز سفر باسم مزوَّر ان هذا الشخص الصغير الحيسوب ، هذا الخادم الطاغية ، هذا المـــوظف الذى ينتمى الى أتباع فوريبه ويتعاطى الربا فى الوقت نفسه ، قد بدت له منذ زمن طويل هذه الفكرة العجيبة ، وهى أن يحصل على جواز ســفر استعدادا لكل طارىء ، كى يستطيع أن يسافر الى الخارج اذا حدث أن ... نعم لقد بدت له هذه الفكرة ، مهما يدهشكم ذلك من مثله . لقد كان يسلم اذن أن ذلك يمكن أن يحدث ، ومع هذا ، لو سألته ماذا تعنيه هذه العبارة « اذا حدث أن ... » ، لما استطاع أن يجيبك على وجه الدقة.

ولكن ها قد اتضح اليوم هذا الاحتمال على حين فجأة مكتسياً صورةً هى أبعد ما تكون عن التوقع . ان الفكرة اليائسة التى دخل بهـــا على كيريلوف والتى كانت قد ومضت فى ذهنه حين وصفه بطرس ستيفانوفتش بالغباء هى أن يترك كل شىء وأن يهرب الى الخارج فى صباح الغد . ان الذى يرفض أن يسلِّم بأن أشياء خارقة من هذا النوع يمكن أن تحدث فى واقعنا الحالى ، ما عليه الا أن يراجع حياة المهاجرين الروس . ما من أحد منهم هرب لأسباب معقولة أكثر من ذلك : هذا أفق العجائب ، هذه رحاب اللاواقع !

فلما رجع ليبوتين الى البيت أغلق على نفسه الباب بالمفتاح ، ثم أخذ يهيىء كيس السفر . وكانت مسألة المال تشـــغل باله أكثر من أى شىء

آخر : كم يجب أن يأخذ ؟ هل يتاح له أن ينقذ كل ما يملك ؟ نعم ، أن ينقذ • فهو يتصور أنه لم تبق ساعة واحدة يمكن أن يضيعها ، وأن عليه أن يسير عند طلوع الشمس • وكان لا يعرف أيضا أين يجب عليه أن يركب القطار : لعل الأفضل أن يركب القطار بعد محطتين أو ثلاث محطات من مدينتنا ، ولو اقتضى الأمر يمضى الى هناك سيراً على الأقدام • كانت هذه الأفكار كلها تدور فى رأسه كالاعصار وهو يرتب أمتعته فى كيسه ، حين توقف فجأة ، فترك كل شىء ، وتهاوى على أريكته وهو يئن أنةً طويلة •

لقد أحس احساسا واضحا وأدرك على حين فجأة أنه سيهرب طبعا ، ولكنه عاجز عن أن يقرر بنفسه هل يهرب «قبل» مقتل شاتوف أو «بعده»• ذلك أنه الآن ليس الا جسماً عاطلاً عن الحركة ، ليس الا كتلة ساكنة تحرّكها قوة غريبة رهيبة • انه يملك جواز سفر من أجل أن يرحل الى الخارج ، فيستطيع اذن أن يهرب «قبل» شاتوف (أكان يستعجل لولا أن الأمر كذلك ؟) ، ولكنه مع ذلك يدرك أنه لن يسافر «قبل» شاتوف ، بل «بعده» ، لأن الأمر قد تقرر ، ووُقّع ، وخُتم • وها هو ذا يبقى على هذه الحال ، مستلقياً على أريكته ، يعذبه القلق ، ويرتعد لأيسر ضجة ؛ يئن تارةً ، ويحبس أنفاسه تارة أخرى ، ولا يفهم هو نفسه ما الذى يحدث فى نفسه ، حتى حانت الساعة الحادية عشرة ، فحدثت أخيراً الصدمة التى أطلقت قراره • ففى الساعة الحادية عشرة ، ما ان فتح باب غرفته حتى أخبره ذووه أن فدكا ، الهارب من سجن الأشغال الشاقة ، الذى كان ينشر الرعب والقتل والحرائق فى كل مكان ، والذى تلاحقه الشرطة منذ مدة طويلة دون أن تستطيع القبض عليه ، قد وُجد مقتولاً هذا الصباح ، على مسافة سبعة فراسخ من المدينة عند تقاطع الدرب الكبير وطريق زاخارينو • ان المدينة كلها لا تتحدث الا عن هذا النبأ • أسرع

ليوتين يتقصى الأخبار فورا فعرف ما يلى : أن فدكا الذى وُجد مهشم الرأس لا بد أنه قد سُلب ما كان معه ؛ وأن الشرطة تعتقـد ، لأسباب وجيهة ، فيما يبدو ، أن القاتل هو فومكا ، أحد عمال مصنع شيبجولين ، الذى قتل ليبادكين وأخته مشتركاً مع فدكا ، وحاول أن يشعل النار فى بيتهما . ولعل الرجلين ، فدكا وفومكا ، قد تشاجرا فى الطريق على المبلغ الضخم الذى كان فدكا (كما يظن رفيقه) قد سرقه من عنـد الكابتن ليبادكين ....

أسرع ليوتين ا لىمنزل بطرس ستيفانوفتش فعلم من الخادمة أن مولاها قد رجع الى البيت فى نحو الساعة الواحدة من الصباح ، فنام نوماً هادئاً حتى الساعة الثامنة .

لا عجب طبعاً فى موت فدكا : فعلى هذا النحو انما يموت فى العادة أمثال هؤلاء الرجال . ولكن تحقق نبوءة بطرس ستيفانوفتش (« فاعلم اذن أنه قد شرب الآن فودكا آخـر مرة فى حياته ! ») ، بدا له مليئاً بالدلالة ، فوضع حداً لتردده . لكأن صخرة قد سقطت عليه فسحقته الى الأبد .

وحين عاد الى البيت دفع كيس السـفر بقدمه حتى جعـله تحت السرير . وفى الساعة المحددة من المساء وصل أولَ من وصل الى المكان الذى كان يجب أن يُلتقى فيه بشاتوف . ولكنه كان يحمـل فى جيبه جواز السفر .

الفصل الخامس

المسافرة

إن موت ليزا وموت ماريا تيموفئفنا قد سحقا شاتوف سحقاً ، وهدّما نفسه تهديماً . سبق أن قلت اننى لقيته فى ذلك الصباح ، ففوجئت بهيئته التائهة ونظرته الزائغة . وقد ذكر لى ، فيما ذكر ، أنه فى الليلة البارحة ، فى نحو الساعة التاسعة (أى قبل الحريق اذن بثلاث ساعات) كان قد ذهب الى ماريا تيموفئفنا . وفى الصباح مضى يشاهد الجثث ، ولكنه احتفظ بافتراضاته ولم يبح بها لأحد . غير أن عاصفة حقيقية قد ثارت فى نفسه آخر النهار ... و ... و ... أظن اننى أستطيع أن أؤكد أنه فى لحظة من اللحظات قد مرّت به لحظة قرر فيها أن يكشف عن كل شىء . أما ما هو « كل شىء » هذا فانه كان هو نفسه لا يعرفه على وجه الدقة . ومن الواضح أن قيامه بهذه الخطوة ما كان يمكن أن يؤدى الى أية نتيجة . كل ما هنالك أن الرجل كان سيعرّض نفسه للخطر . انه لا يملك أية براهين تدين الجناة : انه لا يملك الا ظنونا وتخمينات لا تعدل اليقين الا فى نظره هو . ولكنه كان مستعداً لأن يضحى بنفسه فى سبيل « سحق هؤلاء الأشقياء » على حد تعبيره هو . فلم يكن بطرس ستيفانوفتش اذن على خطأ حين توقع هذا الانفجار عند شاتوف ، وحين أدرك أنه بارجاء تنفيذ مشروعه الرهيب الى الغد انما

يجازف كثيرا • ومع ذلك قرر الارجاء • غير أنه على عادته كان يمتلىء ثقة بنفسه واحتقارا لجميع هؤلاء « الناس الصغار » ولشاتوف خاصة • انه يحتقر شاتوف منذ مدة طويلة ويحتقر « طبيعته الخاصة البكاءة » ، كما قال عنه حين كان لايزال فىالخارج ؛ لهذا كان مقتنعاً بأنه يستطيع أن يتغلب بسهولة على انسان يبلغ مبلغه من السذاجة والبساطة : يكفيه من أجل هذا أن يكلف أحداً بمراقبته طول النهار ، فاذا لاحظ شيئاً وقف فى طريقه وسدّ عليه سبيل انفاذ ما يريد انفاذه • ومع ذلك أستطيع أن أقول ان « الأنقياء » لم ينجوا ويسلموا فى هذه المرة الا بفضل حادث غير متوقع ما كان لهم أن يتنبأوا به •

ففى الساعة الثامنة من المساء ، بينما كان أصحابنا عند اركل ينتظرون وصول بطرس ستيفانوفتش ويضطربون ويتحركون ، كان شاتوف ، المثقل الرأس المصاب بحمى ، كان مستلقياً على سريره فى الظلام • وكان فى أثناء ذلك يتقلب بين قرار وقرار ، فيغتاظ ويحنق ويتعذب ، ويلعن تردده، ويتنبأ بأنه عاجز عن المبادرة الى القيام بعمل • وشيئاً فشيئاً نام وحلم : حلم بأنه موثق فى سريره لا يستطيع حراكا ، ولكنه مع ذلك يسمع ضجةً رهيبة : ان طرقات قوية تهز باب المنزل ، وجدرانه ، وجناح كيريلوف، وان صوتاً بعيدا ، مألوفاً أليماً ، يناديه باسمه شاكياً متوجعاً • استيقظ شاتوف من نومه منتفضا ، وانتصب على سريره • فما كان أشد دهشته حين أدرك أن الباب ما يزال يُطرق ، وأن الطرقات وان تكن أقلّ قوةً مما كان يسمعها أثناء الحلم ، متكررة وعنيدة ؛ وأن الصوت الغريب الأليم ما يزال يرتفع ولكنه ليس شاكياً متوجعاً ، بل هو على عكس ذلك نافد الصبر شديد الغضب • وكان يختلط به صوت آخر أهدأ منه • وثب شاتوف عن سريره ، وفتح النافذة الصغيرة ، ومدّ رأسه ناظراً ، ونادى قائلاً وقد تجمد من الخوف حقاً :

ـ من هذا ؟

فأجابه من تحت صوت جاف قاطع :

ـ اذا كنت شاتوف فأرجوك أن تقول لى بصراحة وشرف وصدق أتسمح لى بأن أدخل أم لا ؟

« انها هى ! » .

لقد تعرّف صوتها .

ـ مارى ! ... أهذه أنت ؟

ـ نعم ، أنا مارى شاتوف ، وأؤكد لك أن الحوذى لا يستطيع أن ينتظر دقيقة واحدة أخرى .

فنادى شاتوف يقول بصوت ضعيف :

ـ حالاً ... سأشعل الشمعة ...

وأخذ يبحث عن عيدان كبريت ، ولكنه كما يحدث دائماً فى مثل هذه الأحوال لم يهتد اليها ، حتى لقد قلب الشمعدان والشمعة . غير أنه ترك أخيراً كل شىء ، استجابةً للنداء المتكرر الذى أطلقه الصوت نافدَ الصبر تحت ، وانطلق على السلم يهبط درجاته أربعاً أربعاً ، وفتح الباب .

قالت مارى شاتوف وهى تمد اليه كيساً خفيفاً من أكياس السفر المصنوعة من قماش والمزودة بمسامير من نحاس ، مما يُصنع بمدينة درسدن :

ـ تناول كيسى لحظةً ، أرجوك ، حتى أدفع لهذا الغبى أجره .

والتفتت نحو الحوذى فقالت له بلهجة غاضبة :

ـ أبيح لنفسى أن أقول لك ان مطالبتك غير عادلة . لقد ظللت

تجرى بى هنا وهناك ساعة كاملة فى هذه الشوارع الوسـخة . فذلك خطؤك : كنتِ لا تعلم مكان هذا الشارع الغبى وهذا المنزل البليد ! خذ الثلاثين كوبكاً التى تستحقها وثق أنك لن تنال كوبكاً واحدا آخر غيرها .

ـ أنت التى سميت لى شارع « الصعود » يا سيدتى . أما هذا الشارع فهو شارع الابيفانيا . ان شارع الصعود بعيد جدا عن هنا . لقد أوشك حصانى أن يموت تعباً .

ـ شارع « الصعود » ، شارع « الابيفانيا » ! ... لا بد أن تعـرف هذه الأسماء الحمقاء خيراً منى أنا ، لأنك من هذه المدينة . ثم انك مخطىء: أنا انما أسميت لك منزل فيليبوف قبل كل شىء ، فأكدت لى أنك تعرفه. على كل حال ، تستطيع أن تشكونى غـداً الى قاضى الصـلح ، أما الآن فأرجوك أن تدعنى وشأنى ...

تدخل شاتوف قائلاً :

ـ هذه خمسة كوبكات أخرى ...

وأخرج من جيبه قطعة نقدية مدَّها الى الحوذى .

قالت السيدة شاتوف محتجة :

ـ ما تدخلك أنت ؟ اننى أمنعك ...

ولكن الحوذى كان قد انصرف .

أمسك شاتوف زوجته من يدها وأدخلها فى الدهليز .

ـ لنصعد بسرعة يا مارى ، بسرعة ... لا قيمة لهذا البتة ! انك مبتلة تماما ! انتبهى ... ههنا درجات . يؤسفنى أننا من شـدة الظلام لا نرى شيئاً ! السلَّم وعر ... تمسكى بالدربزين جيـدا . ها نحن

وصلنا • هذه غرفتي • معذرة • ليس عندي ضـــوء ! ••• حالا ••• حالا •••

وتناول الشمعدان من أرض الغرفة • ولكنه ظل لا يهتدي الى أعواد الكبريت أيضاً • كانت السيدة شاتوف واقفةً في وسط الغرفة ، جامدةً لا تتحرك ، تنتظر صامتة •

ـ الحمد لله • ها هي ذي عيدان الكبريت •

كذلك هتف شاتوف فرحاً • وأشعل الشمعة • فطافت ماري شاتوف ببصرها على المسكن • ثم قالت بصوت مشمئز :

ـ ذُكر لي أن مسكنك سيء ، ولكنني لم أتوقع كل هذا السوء • آه ••• ما أشد ما أعانيه من تعب !•••

وتهالكت على سرير شاتوف ، الخشن القـــاسي ، خائرة القوى • وأردفت تقول :

ـ أرجوك ، ضع الكيس على الأرض ، واجلس على هذا الكرسي • بل افعل ما يحلو لك • ولكن لا تبق واقفاً هذا الوقوف أمامي • لن أمكث عندك الا وقتاً قصيراً ، الى أن أجد عملاً ، ذلك أنني لا أعرف أحداً هنا؛ ولا أملك قرشا واحداء ولكن اذا كان وجودي يضايقك ، فأرجو أن تعلن لي هذا فورا ، كما ينبغي أن تفعل اذا كنت رجلاً شريفاً صادقاً • مهما يكن من أمر ، أستطيع أن أبيع في الغد متاعا ما ؟ فأدفع أجر فندق ؟ ولكن سيكون عليك في هذه الحالة أن تقودني الى فندق ••• آه ••• ما أشد ما أشعر به من تعب واعياء •

قال شاتوف وهو يرتعش ارتعاشا شديدا :

ـ ماري ، لا يجب أن تتكلمي عن فندق ! ما هذه الفكرة ! لماذا ؟ وضمَّ يديه احداهما الى الأخرى •

ـ اذا كان يمكن تدبير الأمور دون الذهاب الى فندق ، فيجب مع ذلك توضيح الموقف . تذكر يا شاتوف اننا عشنا معا بمدينة جنيف كما يعيش رجل وزوجته ، مدة خمسة عشر يوما ، قبل ثلاث سنين ، ثم افترقنا ، بغير شجار على كل حال . ولكن لا يذهبن بك الظن الى أنني أعود الآن لأستأنف تلك الحماقة . أنا انما أعود لأعمل ، واذا كنت قد اخترت هذه المدينة ، فلأن الأمور كلها عندي سواء . انني غير نادمة على شيء . أرجو أن لا تخطر ببالك سخافة من هذا النوع .

دمدم شاتوف يقول :

ـ أوه ! ماري ! هذا كله لا داعي اليه ، لا داعي اليه البتة !

ـ مادام الأمر كذلك ، ما دمت تملك آراء تبلغ من التقدم هذا المبلغ الذي يتيح لك أن تفهم ما أقول ، فانني أبيح لنفسي أن أضيف انني اذا كنت قد اتجهت اليك ، اذا كنت قد جئت اليك رأساً ، فمما يدفعني الى ذلك أنني لم أعددك في يوم من الأيام رجلاً حقيراً ، بل لعلني عددتك في جميع الأحيان فوق جميع أولئك ... الأوغاد .

كانت عيناها تلتمعان . واضح أنها لا بد أن تكون قد تألمت كثيراً من بعض أولئك « الأوغاد » .

ـ وثق أنني لم أكن أسخر منك منذ قليل حين وصفتك بأنك طيب . لقد تكلمت بصراحة ، دون اصطناع جمل مزوّقة . ثم انني أحتقر الجمل المزوقة . ولكن كفى عن هذا ! لقد أمّلت دائماً أنك ستكون ذكياً ذكاء يكفي لأن يجعلك تتركني هادئة . آه ... كفى ! ما أشد هذا التعب !

ونظرت اليه طويلاً ، بألم . كان شاتوف واقفا على مسافة بضع خطوات منها يصغي الى كلامها خجلَ الهيئة . ولكن وجهه كان يسطع

بنور جديد كمن ارتد عمره سنين عدة الى وراء . ان هذا الرجل القوى القاسى ، المشعث دائما ، قد أحس بعذوبة كبيرة تنفذ فيه فجأة . ان شيئاً غريباً ، غير متوقع ، قد أخذ يهتز فى نفسه . ثلاث سنوات من الفراق لم تكن قد محت من قلبه شيئاً . وفى خلال تلك السنوات الثلاث ، لعله لم يمض يوم واحد دون أن يذكرفيه هذه الانسانة الغالية التى قالت له ذات مرة : « أحبك » . اننى أعرف شاتوف معرفة كاملة ، فأستطيع أن أؤكد واثقاً أنه لم يحلم يوما أن تقول له امرأة « أحبك » . لقد كان قوى العفة شديد الحياء الى حد التوحش ، وكان يظن فى نفسه بشاعة رهيبة ، وكان يكره وجهه وطبعه ، ويعد نفسه نوعا من مسخ مشوه خليق بأن يُعرض فى المعارض . لذلك كان ينزل الشرف فى أعلى منزلة ، ويعده اسمى من كل شيء ، وكان مخلصا لاعتقاداته الى حد التعصب ، فكان يبدو مظلم الوجه صموتا متكبرا فى جميع الأحيان . وها هى ذى الآن ، تلك الانسانة الوحيدة التى أحبته طوال أسبوعين (من هذا هو على يقين) ، الانسانة التى كان يضعها فى مقام أعلى من مقامه بما لا نهاية له ، مع ادراكه الكامل لأخطائها ، الانسانة التى يغفر لها « كل شيء » ، كل شيء على الاطلاق (حتى ان الأمر نقيض هذا ، فان شاتوف يحمّل نفسه جميع الأخطاء) ، هذه الانسانة ، مارى شاتوف ، ها هى ذى أمامه من جديد ، بقربه ... ذلك أمر لا يكاد يُفهم . ان دهشته تبلغ من القوة ، وان فى هذا الحادث شيئاً يبلغ من الهول ويبلغ من السعادة فى الوقت نفسه ، أنه كان لايستطيع حتماً ، ولعله لا يريد ، أن يثوب الى رشده ، فهو يخاف أن يفعل . هذا حلم . ولكنه حين لاحظ نظرتها الموجعة المرهَقة المضناة أدرك أن هــــذه المرأة تتألم . فارتعش قلبه عندئذ ، وتأمّل قسمات وجهها بعطف أليم : كانت نضارة الشباب الأول قد زايلت هذا الوجه المتعب منذ مدة طويلة . ولكنها مع ذلك ما تزال جميلة ، وهى فى نظر شاتوف ما تزال رائعــــة

الجمال (انها فى الخامسة والعشرين من عمرها ، ممتلئة الجسم ، طويلة القامة بل هى أطول من شاتوف ؛ لها شعر كستنائى غزير ، ووجه شاحب مستطيل ، وعينان سوداوان جميلتان تعانيـــان الآن من حمى) ؛ ولــكن حيويتها القديمة التى تشتمل على سذاجة وتسودها قلة الاكتراث ، والتى يعرفها شاتوف جيدا ، قد حلت محلها الآن سرعة الغضب والاهتياج وحلّ محلها نوع من الاستهتار لم تألفه حتى الآن فلا شك أنه شاق عليهـــا . وهى الآن مريضة بخاصة . رأى شاتوف ذلك واضحاً كل الوضــوح . لذلك اقترب منها وأمسك يديها رغم خوفه منها . وقال لها :

ـ مارى ... اسمعى ... لا بد أنك متعبة جدا ... لا تزعلى ، أتوسل اليك ... ما رأيك فى أن تجرعى شيئاً من الشاى ، هه ؟ الشاى مفيد دائما . ليتك توافقين ، هه ؟ ...

ـ أوافق طبعا . انك ما تزال طفلاً كما كنت . اعطنى شاياً اذا كان عندك شاى ما أضيق مسكنك هنا ! وما أشد البرد !

ـ آه ... سأجىء بحطب فورا . عندى حطب !

كذلك هتف شاتوف وهو يتحرك ويسعى هنا وهناك . وتابع يقول :

ـ نعم ... حطب ... أى ... وسآتيك بشاى أيضا ...

وتناول قبعته عازماً أمره .

ـ الى أين تذهب ؟ أليس عندك اذن فى البيت شاى ؟

ـ سيكون عندى شاى ، بعد لحظة واحدة . سوف يكون عندنا كل ما يجب .

وتناول مسدسه من على الرف .

ـ سأبيع هذا المسدس ••• أو أرهنه •

ـ يا للغباوة ! وسيستغرق هذا زمناً طويلاً • اليك بعض النقـــود ما دمت لا تملك شيئاً • ههنا أربعة وعشرون كوبكا فيما أظن • ذلك كل ما معى • لكأن مسكنك مسكن رجل مجنون •

ـ لا ، لا ، لست في حاجة الى نقودك • أنا عائد حالاً ، بعد لحظة ••• سأدبر أمرى حتى بدون المسدس !

وأسرع الى كيريلوف • حدث هذا قبل زيارة بطرس ستيفانوفتش وليبوتين بساعتين تقريبا • ان شاتوف وكيريلوف ، وهما يقيمان في مبنى واحد ، كانا لا يتزاوران أبدا ، واذا اتفق أن التقيا عرضاً لم يكلم أحدهما الآخر ولم يسلّم أحدهما على الآخر : لقد عاشا فى أمريكا جنباً الى جنب مدة أطول مما يجب •

ـ كيريلوف ، أنت عندك دائما شاى • فهل تستطيع أن تعطينى شيئاً من الشاى وأن تعيرنى السماور ؟

كان كيريلوف يسير فى الغرفة طولاً وعرضاً على عادته (انه يظل يسير هكذا طول الليل) ، فوقف وتأمل شاتوف بانتباه ، ولكن بغير دهشة كبيرة •

ـ عندى شاى ، وسكر ، ولكن لماذا الســماور ؟ الشاى ساخن : فاجلس واشرب •

ـ كيريلوف ، لقد عشنا معاً فى أمريكا ••• ان زوجتى وصلت الى بيتى ••• وأنا ••• اعطنى شاياً ••• وانى أحتاج أيضا الى السماور •

ـ اذا كانت زوجتك قد وصلت فأنت فى حاجة الى السماور • لكنك ستناله فيما بعد • عندى اثنان • أما الآن فخذ غلاية الشاى من على المائدة•

انها ساخنه ، ساخنة جدا • خذ كل شيء ، خذ السكر ، خذ كل شيء • الخبز ••• عندى خبز كثير • خذ الخبز كله • وعندى أيضا لحم عجل• وروبل •

ـ اعطنى الروبل ، سأرده اليك غدا • آه ••• كيريلوف !

ـ أهي زوجتك التى كانت بسويسرا ؟ هذا حسن • وحسن أيضا أنك هرعت الىّ •

صاح شاتوف يقول وهو يتأبط غلاية الشاى ويحمل بيديه الخبز والسكر :

ـ كيريلوف! كيريلوف ! ليتك تستطيع أن تتخلى عن نزواتك الرهيبة وأن تنبذ الحادك • اذن لصرت انسانا كبيرا ••• يا كيريلوف !

ـ واضح أنك تحب امرأتك بعد الذى حدث بسويسرا • حسن جدا• اذا احتجت الى مزيد من الشاى فارجع الىّ • فى أية ساعة تعال • اننى أسهر الليل كله • سيكون السماور مهيأً • خذ الروبل • هذا هو • عد الى زوجتك • سأبقى هنا وسأفكر فيك وفى زوجتك •

انقضت مارى شاتوف على الشاى بشراهة ، مسرورةً سروراً واضحا بسرعة زوجها • ولكنهما لم يحتاجا الى السماور : فانها لم تشرب الا نصف فنجان من الشاى ولم تزدرد الا قطعة صغيرة من الخبز • أما لحم العجل فقد نبذته مشمئزة حانقة الهيئة •

قال شاتوف خجلاً وجلاً مع استمراره على التحرك حولها :

ـ أنت مريضة يا مارى • فيك شيء مريض •

ـ طبعا أنا مريضة • اجلس اجلس • من أين جئت بهذا الشاى ؟ لم يكن عندك شاى •

شرح لها شاتوف ، ببضع كلمات ، من هو كيريلوف . وكانت قد سمعت عنه على كل حال .

ـ أعرف أنه مجنون . كفى ، أرجوك . لا ينقصنا أغبياء . اذن ذهبتَ الى أمريكا ؟ أنا أعلم أنك كتبت من هناك .

ـ نعم ... كتبت ... الى باريس .

ـ كفى عن هذا الموضوع ! لنتحدث عن شيء آخر ! هل أنت من دعاة السلافية .

ـ أنا ... ليس معنى هذا أنني ... ولكن لأنني لم أستطع أن أكون روسياً ، فقد أصبحت من دعاة السلافية .

قال شاتوف ذلك وهو يجبر نفسه على ابتسامة هي ابتسامة انسان يعلم أنه يمزح في غير موضع المزاح .

ـ ألست اذن روسياً ؟

ـ لا .

ـ هذه كلها سخافات . اجلس ، أرجوك . ما بالك تركض هذا الركض يمنةً ويسرة ؟ ألعلك تظن أنني أهذي ؟ ربما هذيت بعد قليل . هل قلت انكما في هذا المنزل اثنان لا أكثر ؟

ـ نعم ، اثنان ... وتحت ...

ـ وكلاكما ذكي كصاحبه ؟ وتحت ؟ لقد قلتَ منذ لحظة : «تحت» ... فماذا تحت ؟

ـ لا ، لا شيء .

ـ كيف لا شيء ؟

ـ أردت أن أقول اننا الآن اثنان لا أكثر ، وتحت كانت تقيم أسرة ليبادكين •

ـ التي ذُبحت في هذه الليلة ؟

ألقت ماري شاتوف هذا السؤال وهي تنتصب فجأة • وتابعت تقول :

ـ سمعت عن القتلى منذ وصولي • وشبت عندكم حرائق أيضا ؟

ـ نعم يا ماري • ولعلني ارتكب دناءة كبيرة في هذه اللحظة لأنني أغفر لأولئك الأوغاد •••

قال شاتوف ذلك ونهض وأخذ يسير شاهراً قبضتي يديه في انتفاضة غضب •

ولكن ماري لم تفهمه • لقد كانت تسأل زوجها ، غير أنها لا تصغي الى أجوبته • قالت ماري :

ـ تحدث أشياء جميله في مدينتكم ! آه ••• ما أحقر هذا كله ! ليس هؤلاء جميعهم الا أوغادا • ولكن لماذا لا تجلس ؟ لشدما تضايقني•••

ولم تطق صبراً على ما بها ، فهوت برأسها على الوسادة •

ـ ماري ، سوف أجلس • تحسنين صنعا اذا نمت يا ماري ؛ ما رأيك ؟

لم تجب ماري شاتوف وأغمضت عينيها • انها بوجهه الشاحب أشبه بميتة • واستولى عليها الندم في تلك اللحظة نفسها تقريبا • نظر شاتوف حواليه • وقوّم الشمعة • وبعد أن ألقى نظرة قلقة أخيرة على المرأة الشابة ، ضمّ يديه احداهما الى الأخرى وخرج الى فسحة السلم بخطى رفيقة لا يُسمع لها وقع • ولبث هنالك واقفا قرابة عشر دقائق ، ساكنا لا يتحرك ، ملتفتاً بوجهه الى الجدار • وكان يمكن أن يمكث مدة أطول

لولا أنه سمع خطى خفيفة : ان أحداً كان يصعد السلم ببطء وحذر . تذكر شاتوف أنه نسي أن يغلق باب فناء المنزل .

قال يسأل بصوت خافت :

ـ مَنْ هنا ؟

فلم يجب الزائر المجهول . حتى اذا وصل الى فسحة السلم توقف. ان المرء لا يستطيع في هذا الظلام أن يميز وجهه . وها هو ذا يسأل مدمدماً على حين فجأة :

ـ ايفان شاتوف ؟

فأجابه شاتوف بنعم ، وأسرع يمد يده ليمنعه من الدخول . ولكن الزائر أمسك باليد الممدودة اليه ، فارتعش شاتوف كأنه لامس حية . وقال بصوت مختنق :

ـ ابق هنا . لا أستطيع أن أستقبلك الآن . لقد وصلت زوجتي . سأجيء بشمعة .

فلما عاد حاملاً الشمعة رأى ضابطا شابا لا يعرفه الا وجهاً .

عرّف الآخر بنفسه قائلاً :

ـ أنا اركل . لقد التقينا عند فرجنسكي .

ـ أذكر هذا . كنت تدوّن ما يدور من نقاش .

وظل شاتوف يتكلم بصوت خافت ، وهو يقترب من الفتى خارجاً عن طوره :

ـ اسمع ... أراك رسمتَ على راحة كفي اشارة . فاعلم اذن انني أحتقر هذه الاشارات جميعا وابصق عليها جميعا . انني لا أقبل ... لا أريد ... انني أستطيع أن أرميك الى أسفل السلم ، هل تعرف هذا ؟

فقال الزائر بسذاجة :

ــ لا ، انني لا أعرف شيئاً . هناك شيء عليّ أن أبلغك اياه . وهذا هو السبب في انني جئت بغير ابطاء . ان عندك آلة مطبعة ليست لك ، ويجب عليك أن تردها الى أصحابها كما تعلم ذلك أنت نفسك . لقـــد تلقيت أمرا بأن أقول لك ان عليك أن ترد الآلة غدا ، في الساعة السابعة من المساء ، الى ليبوتين . وأنا مكلف عدا هذا بأن أعلن لك أنك بعد ذلك لن يُطلب منك أي شيء .

ــ لن يُطلب مني أي شيء ؟ أصحيح هذا حقا ؟

ــ لن يُطلب منك شيء على الاطلاق . ستتحقق رغبتك ، ستكون حراً . ذلك بعينه ما كُلّفت بأن أنقله اليك .

ــ من أمرك بهذا ؟

ــ الذين أبلغوني الاشارة .

ــ أأنت آتٍ من الخارج ؟

ــ يخيّل اليّ ، يخيّل اليّ ... انك يجب أن لا تكترث بهذا .

ــ طيب . ولكن لماذا لم تأت قبل الآن ، منذ صدر اليك الأمر ؟

ــ تقيدت بالتعليمات الصادرة اليّ ، ولم أكن وحدي .

ــ أفهم ... أفهم أنك لم تكن وحدك . ولكن لماذا لم يجيء ليبوتين بنفسه ؟

ــ سأجيء اليك غداً في الساعة السادسة من المساء ، وسنمضي الى هناك معاً ، ولن يكون ثمة أحد غيرنا نحن الثلاثة .

ــ وفرخوفنسكي ؟

ـ لن يكون هناك • ان فرخوفنسكى يسافر غدا فى الساعة الحادية عشرة من الصباح •

دمدم شاتوف يقول محنقا مغتاظا وهو يلطم فخذه بقبضة يده :

ـ قدّرت هذا • انه يهرب ، هذا الشقى !

وشرد ذهنه • وكان اركل ينتظر صامتاً ، وهو يلاحظه بانتباه •

ـ ما عساكم تصنعون بالمطبعة ؟ لا يمكنكم أن تحملوها فى خلال المدينة على مرأى وعلم من جميع الناس •

ـ لن نأخذها • ستدلنا على المكان المدفونة فيه ، فنتأكد من أنها موجودة حقا • اننا نعرف الجهة ولكننا لا نعرف الموضع على وجه الدقة • هل سبق أن دللت أحداً على المكان ؟

حدّق اليه شاتوف متفرساً •

ـ صبى مثلك ••• أحمق صغير ••• ها أنت ذا قد وقعت فى الفخ كخروف ! انهم فى حاجة الى شباب مثلك فعلاً ! طيب • انصرف الآن • ان ذلك الوغد قد ورّطكم جميعا ، ولاذ بالفرار •

كانت هيئة اركل ، المسالمة الساذجة ، تدل على أنه لا يفهم •

وردّد شاتوف يقول كازاً أسنانه :

ـ نعم ، لقد هرب فرخوفنسكى ، نعم ، فرخوفنسكى !

قال اركل بلهجة محببة مقنعة :

ـ ولكنه لا يزال هنا • انه لم يسافر • لقد طلبت منه أن يحضر استرداد المطبعة شاهداً ، كما تقتضى ذلك التعليمات التى صدرت الىّ ••• فما كان أشد أسفى حين رفض ذلك بحجة السفر •

قال اركل ذلك مصطنعا السذاجة . وأضاف :

ـ والحق أنه يتعجل السفر ، لا أدرى لماذا !

ألقى شاتوف نظرة شفقة على الغر المسكين ، مرةً أخرى ، ثم رفع منكبيه كأنما ليقول : « هل يستحق أن أرثى لحاله ؟ » .

ثم أعلن قائلاً :

ـ طيب ، سأجىء ! والآن ، هيّا انصرف !

قال اركل وهو يحيى تحيةً مهذبة :

ـ سأتى اذن لاصطحابك فى الساعة السادسة تماما .

وهبط السلم بغير تعجل . ولم يطق شاتوف أن يكظم ما بنفسه ، فهتف يقول له من أعلى :

ـ مغفل !

وكان اركل قد وصل الى تحت ، فالتفت يسأله :

ـ ماذا ؟

ـ لا شىء ! هيّا انصرف !

ـ ظننتك تريد أن تقول لى شيئاً .



ان اركل واحد من أولئك « المغفلين الصغار » الذين يعجزون عن التفكير بأنفسهم فينفذون أوامر غيرهم أحسن تنفيذ ، حتى لقد يبرهنون فى تنفيذها على شىء من حسن الحيلة والمكر . انه مخلص « للقضية » أو قل هو مخلص لفرخوفنسكى اخلاصا متعصبا ، اخلاصا طفوليا ، فهو

يتصرف وفق التعليمات التي أصدرها اليها فرخوفنسكي عند «أصحابنا»، حين وزّعوا فيما بينهم أدوار العمل في الغد • حتى ان بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي قد انتحى به جانبا قبل الافتراق ، وتحدث معه بضع دقائق • ان الطاعة حاجة ملحة من حاجات هذه الطبيعة الغبية، الشرهة الى الخضوع، باسم «قضية كبرى» أو «فكرة عظيمه» طبعا • ولكن الهدف ليس له على وجه الاجمال من شأن في هذه الحالة ، لأن الشباب المتعصبين مثل اركل لايفهمون الاخلاص لقضية الا بمقدار ما تكون هذه القضية متجسدة في شخصية تمثلها في نظرهم • ان اركل ، على أنه حساس ورقيق وطيب ، قد يكون أبعد هؤلاء المتآمرين عن الرأفة والرحمة ، وسوف يساهم في مقتل شاتوف ربما دون أي كره شخصي ، ولكن دون أي تردد أيضا • لقد أوصى مثلاً بأن يلاحظ وضع شاتوف بانتباه ؟ وحين أفلت من لسان شاتوف (ربما دون أن يشعر بذلك) أن امرأته قد عادت اليه ، كان اركل ماكراً مكراً كافيا من أجل أن يدرك أن عليه أن لا يُظهر أي فضول بهذا الصدد • ومع ذلك حزر فورا أن عودة ماري شاتوف يمكن أن يكون لها شان كبير في نجاح ما عقدوا النية على تنفيذه •

والحق أن هذا الحادث وحده هو الذي كان له الفضل في نجاة هؤلاء « الأوغاد » ، وأن عودة امرأة شاتوف هي التي أتاحت لهم أن يتخلصوا منه • ان عودة امرأة شاتوف قد قلبت شاتوف رأساً على عقب ، وأخرجته عن عاداته ، وجرّدته مما عُهد فيه من محاذرة ونفاذ بصيرة • لقد غرق في مشاغله الجديدة ، فأصبح الآن عاجزاً عجزاً مطلقا عن التفكير في الخطر الذي كان معرّضا له • بالعكس : صار يحلو له أن يصدّق حكاية هرب فرخوفنسكي التي تأتي مؤيدة لجميع شكوكه أكبر تأييد •

عاد شاتوف الى الغرفة ، وجلس في ركن من الأركان ، وأسند كوعيه الى ركبتيه ، وخبأ وجهه في يديه • ان خطرات مُرةً تعذبه •

وكان ينهض من حين الى حين ، فيمضى الى السرير ماشيا على رءوس الأصابع ليتأملها ، فيقول محدثاً نفسه :« يا الهى ! لا شك أن حمى خبيثة ستلمُ بها غدا ؟ بل لعل الحمى قد بدأت ! واضح أنها قد أصابها برد . انها لم تألف هذا الجو الفظيع . ثم ... الدرجة الثالثة بالقطار... والرياح فى الخارج والأمطار ! ... ان معطفها خفيف جدا ! ... ولا تكاد تكسوها ثياب ! كيف أتركها وأمنع عنها أية نجدة ؟ وهذا الكيس... هذا الكيس الصغير ، الخفيف ، الذى لا يزيد وزنه على عشرة أرطال... فى أكثر تقدير ! مسكينة ... كم تعذبت ! كم احتملت من آلام ! ولكنها ذات كبرياء ، لذلك لا تتشكى ! غير أنها غاضبة محنقة ! ما أشد حنقها ! الذنب فى هذا ذنب مرضها ! المرض يجعل حتى الملائكة شديدى الحنق ! لا بد أن جبينها محترق جاف . ويا لهذه الهالة الزرقاء حول عينيها ! و... ومع ذلك ما أجمل استدارة وجهها المستطيل ! وهذا الشعر الرائع !...»

قال ذلك محدثاً نفسه ثم حوّل عينيه بأقصى سرعة ، وابتعد مروّعاً من مجرد أن يرى فيها أكثر من انسانة شقية معنّاة مضناة يجب اسعافها . « هل يمكن أن تساور المرء آمال فى مثل هذه اللحظة ؟! ... ما أدنأ الرجل وما أسفله ! » .

ورجع الى ركنه ، وجلس ثانيةً ، ودفن وجهه فى يديه من جديد ، واسترسل فى الأحلام ، والذكريات ... وعادت الأحلام تنبعث فى نفسه .

« آه ... ما أشد ما أشعر به من تعب ! » تذكر شاتوف هذه الصيحة، وتذكر الصوت الضعيف المحطم . « رباه ! كيف يمكننى أن أتركها فى مثل هذه اللحظة ! أنها لا تملك الا أربعة وعشرين كوبكاً . وقد مدت الىّ محفظة نقودها ، الصغيرة ، العتيقة الرثة ! انها تبحث عن عمل ... ماذا تعرف عما يجرى هنا ، بل ماذا يعرفون جميعا عن روسيا ؟ أطفال

سذَّج أغرار يستطيعون الاسترسال فى الأخيلة والأوهام ! يا للمسكينة ! انها تغضب لأن روسيا لا تشبه الفكرة التى قامت فى ذهنها عنها وهى فى الخارج ! مســاكين ! سذج أبرياء ! ولــكن ... حقــا ان البرد هنا شديد ! ... » .

تذكر أنها اشتكت من البرد ، وأنه وعد بايقاد المدفأة . « عنـدى حطب . فى وسعى أن أُصعده . بشرط أن لا أُوقظها ! سأحاول . وما العمل بلحم العجل ؟ قد تأكل منه حين تستيقظ ... سوف نرى ! ان كيريلوف يظل ساهرا طول الليل ! بأى شىء يمكننى أن أغطيها ؟ انهـا نائمة نوما عميقا ، ولكن لا شك فى أنها تحس ببرد ، ببرد شديد ... » .

دنا من السرير مرة أخرى . كان ثوب المرأة الشابة مشمورا بعض الشىء فكانت ساقها اليمنى مكشوفة حتى الركبة . فتقهقر شاتوف بحركة مفاجئة ، كأنه أحس برعب ، ونضا عن جسمه معطفه (محتفظاً بردنجوته وحده) ، فغطى به ساقيها مشيحاً بعينيه عن النائمة .

هذه الأمور كلها ـ الاسترسال فى الأحلام ، التأمل ، ايقاد المدفأة ، السير فى الغرفة ذهابا وايابا على رءوس الأصابع ـ قد استغرقت ساعتين أو ثلاث ساعات جاء فرخوفنسكى وليبوتين فى أثنائها الى عند كيريلوف . ونام شاتوف أخيرا فى ركنه . وانطلقت من صدر مارى أنةٌ على حين فجأة ؛ لقد استيقظت من نومها ونادته . فانتفض كما ينتفض مجرم .

ـ مارى ... لقد نمت ... ما أشقانى يا مارى !

نهضت مارى ، ونظرت حولها مدهوشة ، فلعلها كانت لا تدرك أين هى ! وها هى ذى تضطرب على حين فجأة ، مستاءةً غاضبةً ؛ وصـاحت تقول له :

ـ لقد استوليت على سريرك . وغلبنى النوم فنمت ، ولكن لماذا لم

توقظني ؟ كيف أبحت لنفسك أن تظن أنني أريد أن أكون عالةً عليك ؟

ـ هل كان يمكنني أن أوقظك يا ماري ؟

ـ نعم ، كان يمكنك أن توقظني ، بل كان يجب عليك أن توقظني. ليس عندك الا سرير واحد استوليت أنا عليه ، فما ينبغي لك أن تضعني في موقف خطأ ! أتُراك تظن أنني أنتوي استغلال حسناتك ؟ استرد سريرك فورا ، وسأرقد أنا على كراسي ...

ـ ماري ، ليس عندي كراسي كافية . ثم ليس عندي ما أضعه عليها.

ـ اذن سأرقد على أرض الغرفة . والا سيكون عليك أنت أن ترقد على أرض الغرفة . سأنام على أرض الغرفة حالاً .

ونهضت ، وتقدمت خطوة ، الا أن آلام مغص شديد قد جردتها فورا من كل قوة ، ومن كل عزيمة ، فعادت تتهالك على الكرسي في أنين. فهرع شاتوف اليها ، ولكن ماري أمسكت يده ، وشدت على هذه اليد شداً قوياً يكاد يهشمها ، وهي تدفن رأسها في الوسادة .

ـ ماري ، عزيزتي ، ان الدكتور فرنتزل قريب جدا من هنا . وأنا أعرفه جيدا ... ففي وسعي أن أستدعيه .

ـ دعني وشأني !

ـ أين ألمك يا ماري ، قولي لي ! في امكاننا أن نضع لك كمادات ساخنة ... على البطن . لا حاجة الى طبيب من أجل هذا ... أم تؤثرين قليلاً من دواء الخردل .

سألته بصوت غريب :

ـ ما هذا الكلام ؟

ورفعت رأسها ونظرت اليه مرتاعة .

قال شاتوف مدهوشا :

ـ ماذا تعنين يا ماری ؟ رباه ! لقد فقدت عقلی تماما . ماری ، سامحینی . ولكننی لا أفهم شیئاً البتة .

ـ دعنی . لیس هذا شأنك . بل انه لیكون أمراً سخیفا مضحكا من جهتك أن ...

وابتسمت بمرارة .

وأردفت تقول :

ـ اقصص علیّ شیئاً . امش وتكلم . اننی أطلب منك هذا للمرة المائة .

أخذ شاتوف یسیر فی الغرفة طولاً وعرضاً ، محاولاً أن لا یرفع عینیه نحو المرأة الشابة .

ـ یوجد هنا ـ لا تزعلی یا ماری ، أرجوك ـ یوجد هنا شیء من لحم العجل وقلیل من الشای . انك لم تأكلی الا قلیلاً جدا ...

فحركت ماری یدها باشارة اشمئزاز وتقزز . فعضّ شاتوف علی شفتیه .

قالت ماری :

ـ اسمع . اننی انتوی أن أفتتح هنا ورشة تجلید أقیمها علی أسس الاشتراك المبنیّ علی العقل . فقل لی : ما رأیك ؟ أأنجح أم أخفق ؟

ـ لكن الناس عندنا لا تقرأ یا ماری . ولا توجد كتب . أنّی له «هو» أن یفكر فی تجلید الكتب ؟

ـ من «هو» ؟

ـ القاریء . ساكن هذه المدینة یا ماری .

ـ هلاَّ تكلمت بوضوح • ما معنى قولك «هو» ؟ من هو ؟ ألا تعرف قواعد النحو ؟

دمدم شاتوف يقول متلعثماً :

ـ هذا في روح اللغة يا ماري •

ـ دعني من الروح هذه • أرحني من كلامك • لقد سئمت • ولماذا لا يجلد القارىء هنا كتبه ؟ لماذا لا يجلد ساكن هذه المدينة كتبه ؟

ـ لأن قراءة كتاب وتجليده مرحلتان من مراحل الحضارة تضم كل منهما فترة طويلة • ففي البداية يتعلم الانسان القراءة ، شيئاً فشيئاً ، خلال عدة قرون ، ولكنه لا يعتني بكتبه أي اعتناء ، بل يعاملها معاملة شيء ليس له أية قيمة • أما تجليد الكتاب فهو علامه على أن الكتاب أصبح يحظى باحترام ، وهو يدل على أن الانسان أصبح لا يحب أن يقرأ فحسب ، بل على أنه أصبح يعرف ما للقراءة من عظيم الشأن • ان روسيا لم تبلغ هذه المرحله حتى الآن • أما أوروبا فانها تجلد الكتب منذ مدة طويلة •

قالت ماري :

ـ رغم لهجتك المتعالمة المتفيهقة ، فان ما تقـــوله ليس غبيا ، وهـــو يذكرني بالأحاديث التي كانت تقوم بيننا منذ ثلاث سنين • لقد كنت لمَاح الفكر أحيانا قبل ثلاث سنين •

نطقت ماري هذه الكلمات بتلك اللهجة نفسها التي تكلمت بها حتى تلك اللحظة ، وهي لهجة فيها اشمئزاز ، وفيها جموح ونزوة •

عاد شاتوف يتكلم فقال في حنان :

ـ ماري ، ماري ! أوه ! ماري ! ليتك تعرفين جميع التغيرات التي حدثت منذ ثلاث سنين حتى الآن ! لقد سمعت عنك أنك تحتقرينني لأنني

تخليت عن اعتقاداتي السابقة ! وهل تعلمين ما الذي أصبحت أنبذه وأرفضه ؟ لقد أصبحت أنبذ أعداء الحياة الحية ، صرت أرفض اللبراليين الصغار المتخلفين الذين يختشون استقلال أنفسهم ، صرت أنبذ العبيد من أدعياء المفكر ، وصرت أنبذ أعداء الحرية والشخصية ، وصرت أنبذ أولئك المنحطين من دعاة التحلل والفساد والتفسخ . ماذا نجد عند هؤلاء ؟ اننا نجد عندهم التردي ، والتفاهة ، والسخف في أحقر أشكاله وأكثرها بورجوازية ؟ ونجد مساواة الحسد ، المساواة الخالية من الكرامة الشخصية ، المساواة كما يتصورها خادم أو كما كان يتصورها فرنسي عام ٩٣ ... والأنكى من ذلك أنهم جميعا ليسوا الا أوغادا ، أوغادا ، أوغادا ! ...

دمدمت ماري تقول بصوت فيه ألم :

ـ نعم ، هناك أوغاد كثير ...

كانت مستلقية استلقاء تاما ، على الجنب قليلاً ، كأنها تخاف أن تتحرك ، محدقةً الى السقف بنظرة ثابتة محمومة . وكان وجهها شاحبا ، وكانت شفتاها يابستين محترقتين .

قال شاتوف :

ـ أتسلمين اذن بهذا يا ماري ؟ أتسلِّمين به ؟

فهمَّت أن تحرك يدها باشارة انكار ، غير أن مغصاً جديدا عقف جسمها فجأة ، فهرع اليها شاتوف كالمجنون من الذعر ، فشدت على يده بكل ما تملك من قوة ، دافنةً وجهها في الوسادة ، كما فعلت في المرة الأولى .

ـ ماري ، ماري ! قد يكون مرضك خطيراً ! ماري !

فصرخت تقول بما يشبه الغضب الحانق وهي تدير ظهرها :

ـ اسكت ... لا أريد ! لا أريد ! اننى أمنعك من أن تنظر الىّ هكذا . اننى لا أريد شفقتك . اننى أرفض هذه الشفقة . امش ، تكلم ، قل أى شىء ! ...

كان شاتوف كمن ضاع عقله تماما ، فدمدم ببضع كلمات غير متميزة.

فقاطعته سائلةً بصوت منزعج :

ـ ما الذى تعمله هنا ؟

ـ أعمل فى مكاتب تاجر من التجار . ولو شئت يا مارى لكسبت هنا مالاً كثيراً .

ـ هنيئاً لك به ...

ـ لا تتخيلى يا مارى أننى ... أنا لم أقصد شيئاً البتة ...

ـ وماذا تعمل أيضا ؟ الى ماذا تدعو ؟ انك لا تستطيع الامتناع عن الدعوة الى شىء ما : ذلك فى طبعك .

ـ أدعو الى الله يا مارى .

ـ الذى لا تؤمن به أنت نفسك . اننى لم أستطع أن أفهم هذه الفكرة فى يوم من الأيام .

ـ دعينا من هذا يا مارى . سوف نتحدث عنه فيما بعد .

ـ ماذا كانت ماريا تيموفئفنا تلك ؟

ـ هذا أيضا ندعه الآن ونتحدث عنه فيما بعد .

ـ أمنعك من أن تكلمنى بهذه الطريقة ! هل صحيح أن جريمة القتل هذه انما هى من صنع أولئك ... الأوغاد .

ـ بدون أى شك يا مارى .

قال شاتوف ذلك كازاً أسنانه . فأنهضت ماري رأسها ، وهتفت تقول له :

ـ أمنعك من أن تحدثني عن هذه الأمور أبدا ... أبدا ...

وتهالكت على السرير وقد وافتها آلام أخرى عنيفة . هذه ثالث نوبة. غير أن الأنّات في هذه المرة قد أصبحت صرخات .

قالت :

ـ آه ... انك لا تُطاق ! لا تطاق !

وكانت تتخبط وتدفع عنها شاتوف الذي مال عليها .

قال لها شاتوف :

ـ ماري ، سأفعل ما تريدين ، سأمشي وأتكلم ...

ـ ولكن ألا ترى اذن أن الأمر بدأ ؟

ـ الأمر بدأ ؟ أي أمر بدأ ؟

ـ لا أعرف ! لا أفهم شيئاً ! آه ... لعنة الله عليّ ... لعنة الله على كل شيء !

ـ ماري ، ليتك تقولين لي ما هو الأمر الذي بدأ ... اذ ماذا أستطيع أن أفعل ؟ ... انني لا أفهم ...

ـ أنت رجل ثرثار لا فائدة منه ، أنت مغرور متفيهق ... آه ... ألا لعنة الله عليكم جميعا ! ...

ـ ماري ! ماري !

وأخذ يعتقد أنها جُنَّت .

فنهضت ماري نصف نهوض ونظرت اليه ، وقالت له :

ـ ألست ترى اذن أنني في مخاض ؟

وكان الكره والألم قد قلبا وجهها . وأردفت تقول :

ـ ألا فلتحل اللعنة على هذا الولد !

هتف شاتوف يقول وقد أدرك أخيراً ما يحدث :

ـ ماري ! ماري ! لماذا لم تقولي لي قبل الآن ؟

وتناول قبعته بحركة حازمة . قالت ماري تجيبه :

ـ وهل كنت أعرف ذلك حين دخلت الى هنا ؟ أكنت أجيء اليك لو كنت أعلمه ؟ لقد قيل لي انني لن ألد الا بعد عشرة أيام . الى أين تذهب ؟ الى أين تذهب ؟ انني أمنعك ...

ـ سأجيء بمولِّدة . سوف أبيع مسدسي . نحن الآن في حاجة الى المال قبل كل شيء .

ـ أمنعك من أن تفعل أي شيء . لا أريد مولِّدة ... تكفيني أية امرأة عجوز . ما يزال معي أربعة وعشرون كوبكاً في محفظة نقودي ... الفلاحات يستغنين عن المولِّدة . واذا فطست ، كان ذلك أفضل ...

ـ سأجيء بامرأة عجوز ، وبمولِّدة أيضا . ولكن كيف أتركك وحيدة يا ماري ؟

لكنه وقد قدَّر أن تركها الآن وحيدةً خيرٌ من تركها وحيدةً بعد حين ، هُرع يهبط السلم مسرعا ، لا يلتفت الى أنَّاتها وصرخاتها .

٣

دخل شاتوف أولاً على كيريلوف . كانت الساعة قريبة من الواحدة . ان كيريلوف واقف في وسط غرفته .

ـ كيريلوف ، امرأتي تلد .

ـ كيف ؟

ـ تلد . سوف تلد ولداً .

ـ أأنت متأكد ؟

ـ نعم . الآلام بدأت . هي في حاجة الى امرأة عجوز ما ... فورا ... هل يمكننا العثور على واحدة ؟ كان هنا عجائز كثيرات ...

قال كيريلوف :

ـ يؤسفني أني لا أُحسن التوليد ... أقصد لا أعرف كيف يكون التوليد ... أوه ! ... انني لا أهتدي الى الكلمات التي تعبّر عن قصدي.

ـ تريد أن تقول انك لا تستطيع أن تساعد امرأةً تلد . ولكن ليس هذا هو الأمر . ما نحن في حاجة اليه انما هو امرأة عجـــوز ، خادمة ، ممرّضة ...

ـ سنأتي بواحدة . ولكن قد لا نستطيع احضارها فورا . أستطيع أن أحلّ محلّها اذا شئت .

ـ أوه ! مستحيل . أنا ذاهب فورا الى عند المولّدة فرجنسكي .

ـ حقيرة !

ـ نعم يا كيريلوف ، لكنها خير مولّدة . صحيح أن كل شيء سيجري معها بغير رأفة ، وبغير فرح ، وبغير حب ، صحيح أنها فظة غليظة القلب . آه ... ما أكبره من سرٍ مع ذلك أن يولد كائن جديد ! وما أعجب ماري اذ تلعنه منذ الآن ! ...

ـ اذا شئت فانني ...

ـ لا ، لا ، ولكن أثناء غيابي (نعم ، سأجيء بها هذه الفرجنسكي)

اصعدْ أنت الى غرفتى من حين الى حين ، وتنصَّت من خلال الباب على ما يجرى • ولكن لا تدخل ، لأنك سترعبها اذا دخلت • لا تدخل أبدا • تنصَّت فقط • لا يعرف المرء ماذا يمكن أن يحدث • فاذا سمعت شيئاً رهيباً يحدث ، فادخل عند ذاك •

ـ فهمت • اليك هذا الروبل أيضا • كنت أريد أن آكل فى الغد دجاجة • أما الآن فقد صرفت النظر عن ذلك • أركض بسرعة ، اركض بكل ماتملك من قوة • سيظل السماور يغلى طول الليل •

كان كيريلوف يجهل كل شىء عن المؤامرة المبيته لشاتوف • بل انه كان لا يخطر بباله الخطر الذى يتعرض له شاتوف • كل ما كان يعرفه هو أن بين « هؤلاء الناس » وبين شاتوف حسابات قديمة • ومع ذلك كان قد أُقحم بعض الاقحام فى هذه القضية ، على أثر تعليمات تلقاها فى الخارج (وهى على كل حال تعليمات مبهمه وسطحية ، لأن كيريلوف قد ظل دائما فى خارج الجمعية) ، ولكنه فى الآونة الأخيرة كان قد ترك كل شىء ، وتحرر من جميع المهمات ، ونأى بنفسه عن كل أمر من الأمور ، ولا سيما « العمل المشترك » ، وانصرف انصرافا تاما الى حياة التأمل وحدها • لذلك فرغم أن فرخوفنسكى قد جاء الى كيريلوف مع ليبوتين بغية أن يقتنع ليبوتين بأن كيريلوف سيرضى أن ينسب الى نفسه مقتل شاتوف ، فان بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى لم يقل لكيريلوف كلمةً واحدة عن هذه القضية، مقدّرا أن ذلك خطر ، لأن كيريلوف ليس بالرجل الذى يوثق به ويُطمأن اليه • وهكذا آثر أن يرجىء الايضاحات الى الغد ، وأن يضع كيريلوف أمام الأمر الواقع • كان فرخوفنسكى يقول لنفسه : ان كيريلوف ستستوى عنده جميع الأمور فى تلك اللحظة • وقد لاحظ ليبوتين جيدا أن فرخوفنسكى لم يجىء على ذكر شاتوف عند كيريلوف ، رغم الوعد الذى

بذله « لأصحابنا » • ولكن ليبوتين كان عندئذ أكبر اضطرابا وأشد انفعالا من أن يعترض أو يحتج •

ركض شاتوف الى شارع « النملة » بسرعة الريح ، لاعناً طول الطريق شاعراً بأنه لن يصل الى نهايته •

وكان أفراد أسرة فرجنسكى قد ناموا جميعا منذ مدة طويلة حين طرق شاتوف بابهم • فلما لم يتلقَّ أى جواب أخذ يضرب مصراع الباب بقبضة يده ضربات قوية • فأخذ كلب من كلاب الحراسة فى فناء المنزل ينبح نباحا شديدا حانقا ، وهو يجر سلسلته • وطفقت كلاب الشارع كلها تردُّ على نباحه بنباح مثله فورا • فكانت جلبة رهيبة •

وفتحت كوة النافذة أخيراً •

ـ ما بالك تطرق الباب هذا الطرق ، وماذا تريد ؟

انه فرجنسكى نفسه ، الذى يتعارض صوته الرقيق تعارضا واضحا مع هذه الضوضاء الشديدة •

وعلا صوت صارخ غاضب حانق يسأل منسجما فى هـذه المرة مع الظروف ، هو صوت أخت زوجة فرجنسكى ، العانس :

ـ من الطارق ؟ من هذا الوغد ؟

ـ أنا شاتوف • امرأتى عادت ، وقد جاءها المخاض فهى تلد •••

ـ طيب • مع السلامة •

ـ جئت ساعياً الى آرينا بروخوروفنا أريد اصطحابها ، ولن أنصرف بدون آرينا بروجوروفنا •

ـ انها لا تستطيع أن تذهب الى أى بيت • ولا يحق لجميع الزبائن أن يوقظوها فى الليل • اذهب الى ماكشابفنا ، ودعنا وشأننا •

كذلك صرخت العانس الساخطة . وكان يُسمع مع ذلك أن فرجنسكى كان يحاول أن يسكتها ، ولكنها كانت تدفعه عنها ولا تدع له أن يتكلم .

صرخ شاتوف يقول مكرراً :

ـ لن أنصرف .

فأجابه فرجنسكى الذى استطاع أخيرا أن يبعد أخت زوجته عن كوة النافذة :

ـ انتظر ! انتظر ! أرجوك يا شاتوف ، انتظر خمس دقائق ، وسوف أوقظ آرينا بروخوروفنا ... ولكن كفاك طرقاً ونداءً . هذا فظيع !

وبعد دقائق خمس أحسَّها شاتوف دهراً ، ظهرت آرينا بروخوروفنا فى النافذة .

قالت له من الكوة تسأله :

ـ أرجعت زوجتك اليك ؟

فما كان أسدَّ دهشته من أن صوتها لم يكن غاضبا ، بل كان صارما فحسب : الحق أن آرينا بروخوروفنا لا تستطيع أن تتكلم بغير هذه الطريقة .

قال يجيبها :

ـ نعم رجعت . وهى الآن تلد .

ـ ماريا اجناتيفنا ؟

ـ نعم ، ماريا اجناتيفنا طبعا .

وساد صمت . كان شاتوف ينتظر . وسمع تهامس وراء الزجاج .

سألت السيدة فرجنسكى :

ـ هل وصلت منذ مدة طويلة ؟

ـ هذا المساء ، الساعة الثامنة . تعالى بسرعة ، أرجوك ...

واستؤنف التهامس : لعلهم يتشاورون .

ـ ألست مخطئاً ؟ أهى التى أرسلتك ؟

ـ لا ، لم ترسلنى اليك . لقد طلبت أية امرأة عجوز ، حتى لا تتكلف نفقات . ولكن لا تخافى . سأدفع لك .

ـ طيب . سأجىء ، سواء أدفعت أم لم تدفع . لطالما قدرت العواطف الاستقلالية لدى ماريا اجناتيفنا ، رغم أنها لا تتذكرنى فى أغلب الظن . هل عندك الأشياء الضرورية فى البيت ؟

ـ لا ، ليس عندى شىء ؛ ولكن يمكن احضار أى شىء ...

حدث شاتوف نفسه قائلاً وهو يتجه الى بيت ليامشين : « هؤلاء الناس قادرون على الكرم مع ذلك . ان الانسان وأفكاره شيئان مختلفان اختلافا كبيرا ، فيما يخيل الى . لعلنى مخطىء كثيراً فى حقهم ... جميع البشر مذنبون ... جميعهم يخطئون ... ولكن ليتهم يدركون ذلك ! ... » .

لم يحتج شاتوف الى أن يطرق باب ليامشين مدة طويله . وما كان أشد دهشته حين رأى ليامشين يفتح الكوة على الفور تقريبا : لقد قفز من سريره حافى القدمين متعرضا للاصابة بالبرد ، رغم انه رهيف العناية بنفسه شديد الاهتمام بصحته . غير أن تعجله كان له فى تلك اللحظة سبب خاص : انه منذ الاجتماع الذى عقده أصحابنا يحس باضطراب شديد وقلق عنيف فلا يستطيع أن ينام . كان يرتعد خوفا ، وينتظر فى كل لحظة ظهور زوار

لا يرغب فى زيارتهم • وكان الشىء الذى يعذبه خاصةً هو وشاية شاتوف التى كان لا يشك فى أن شاتوف مقدم عليها لا محالة • وهذا بابه يُطرق طرقاً قوياً •

فلما لمح شاتوف بلغ من الرعب أنه أوصد الكوة ورجع الى سريره •

وعاد شاتوف يطرق الباب ويصرخ •

صاح ليامشين يقول بصوت مهدِّد متوعِّد ولكنه كان يرتعد خوفا ، صاح يقول بعد دقيقتين حين قرر أن يفتح الكوة واستطاع أن يقتنع بأن شاتوف وحيد ليس معه أحد :

ـ كيف تجرؤ أن تحدث هذه الجلبة كلها فى الليل ؟

ـ هذا مسدسك • خذه واعطنى خمسة عشر روبلاً •

ـ ما معنى هذا ؟ أأنت سكران ؟ هذا عمل خليق باللصوص وقُطَّاع الطرق • سوف يصيبنى زكام • انتظر قليلا ، ريثما أتدثر بمعطف •

ـ اعطنى خمسة عشر روبلاً على الفور • والا ظللت أصرخ وأطرق الباب الى الصباح • لسوف أحطم النافذة •

ـ وأنا سأصرخ مستنجدا ، فتُسجن •

ـ أتظن أننى سأظل أخرس فلا أستدعى الشرطة ؟ من منا نحن الاثنين أحرى بأن يخاف الشرطة ، أأنا أم أنت ؟

ـ كيف يمكن أن تراودك أفكار دنيئة هذه الدناءة كلها ! ••• اننى أعرف الى ماذا تلمح • انتظر • انتظر • لا تطرق الباب • رحماك ! هل يمكن أن يملك المرء فى بيته ليلاً مبالغ ضخمة كالتى تطلبها ؟ وما حاجتك الى المال اذا لم تكن سكران ؟

ـ ان امرأتى رجعت • لقد خفَّضت لك عشرة روبلات • ولم أطلق

من المسدس رصاصة واحدة . استردّ المسدس . استردّه فورا ، في هذه اللحظة !

مدّ ليامشين يده من الكوة بحركة آلية وأخذ المسدس . ولكنه بعد لحظة تفكير أطلّ برأسه مرة أخرى ودمدم يقول زائغ الهيئة مرتعشاً كل الارتعاش :

ـ أنت تكذب . لم ترجع امرأتك ... كل ما هنالك أنك تريد أن تهرب .

ـ يالك من غبي أبله ! لماذا عساني أهرب ؟ ان صاحبك بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي هو الذي يهرب ، لا أنا . لقد ذهبت الى زوجة فرجنسكي ورضيت أن تأتي . اسأل . ان زوجتي تلد . أنا في حاجة الى مال . أعطني خمسة عشر روبلاً .

ها هي ذي نيران من أفكار متناثرة تنتشر في رأس ليامشين . ان الموقف يبدو له في ضوء جديد كل الجدة على حين فجأة . ولكن الخوف زاد عقله ظلاماً .

ـ ولكن كيف هذا ؟ ... انك لم تكن تعيش مع امرأتك !

ـ سأحطم رأسك اذا ألقيت أسئلة كهذه !

ـ أوه ! سامحني . فهمت . ولكن ذلك النبأ قد أدهشني ... فهمت ... فهمت ... ولكن هل رضيت آرينا بروخوروفنا أن تجيء حقا ؟ لقد زعمت في البداية أنها عندك منذ الآن . ألم يكن ذلك صحيحا اذن ؟ أرأيت كم تكذب في كل لحظة ؟

ـ لا شك أنها الآن عند امرأتي . لا تؤخرني . ليس ذنبي أنا أنك غبي أبله .

ـ لا ، لست غبياً . هذا غير صحيح . معذرة ، يستحيل عليّ تماما أن ...

قال ليامشين ذلك ، وفقد صوابه من جديد ، فعاد يغلق الكوة . ولكن شاتوف أطلق صرخات بلغت من القوة أن ليامشين ظهر ثانية .

ـ هذا اعتداء عليّ ... لا أكثر ولا أقل ! ماذا تريد منى ؟ هيّا ، قل ، ماذا تريد منى ؟ أفصح عن مرادك . ولاحظ ، لاحظ أن الوقت ليـــل .

ـ أريد خمسة عشر روبلاً يا حمار !

ـ ولكن ربما كنت لا أريد استرداد المسدس . ليس هذا من حقك انك قد اشتريت وانتهى الأمر ، فليس من حقك أن ترد ما اشتريت . لست أملك مبلغاً كهذا المبلغ ليلاً . أين لى بمثل هـــذا المبلغ الآن ؟ من أين عساني أجيئك به ؟

ـ لا يخلو بيتك من مال أبدا . لقد تنازلت لك عن عشرة روبلات ، ولكن جشعك أمر معروف جدا .

ـ تعال بعد غد . هل فهمت ؟ بعد غد صباحا ، عند الظهر تماما ، فأرد اليك كل شيء ، كل شيء ، هه ؟

عاد شاتوف يضرب بقبضة يده اطار النافذة ضربات قوية . ثم قال:

ـ اعطني عشرة روبلات حالاً ، ثم تعطيني الباقي غدا في الصباح .

ـ لا بل خمسة روبلات بعد غد في الصباح . أما غدا ، فمستحيل. مستحيل كل الاستحالة . لا فائدة من مجيئك غدا ، لا فائدة البتة !

ـ هات عشرة روبلات يا حقير !

ــ لماذا تشتمنى وتهيننى ؟ انتظر حتى أشعل شمعة . لقد كسرت مربع الزجاج . يالها من فكرة أن يجىء المرء الى الناس ليلاً لاهانتهم ! خذ !

قال ليامشين ذلك ومدّ الى شاتوف ورقة نقدية .

تناول شاتوف الورقة . انها خمسة روبلات .

قال له ليامشين .

ــ أحلف لك اننى لا أستطيع أن أعطيك أكثر من هذا . اقتلنى اذا شئت . ولكن هذا كل ما أملك أن أعطيك . بعد غدٍ ، ممكن . أما الآن، فلا ...

أعول شاتوف قائلاً :

ــ لن أنصرف !

ــ طيب . خذ أيضا . هاتان ورقتان . ولكن ذلك كل شىء . اصرخ ما شئت أن تصرخ ، فلن أعطيك شيئاً آخر ... لا ... لا ... لا ! ...

كان يشعر بكرب رهيب ، وكان العرق يتصبب منه .

نظر شاتوف فى الورقتين النقديتين . ان كلاً منهما روبل واحد . فمجموع ما قبضه اذن سبعة روبلات .

قال شاتوف :

ــ شيطان يأخذك ! سأعود غداً يا ليامشين ، ولأقتلنك اذا لم تكن قد أعددت لى الثمانية روبلات الباقية .

فحدث ليامشين نفسه قائلاً : « وأنا لن أكون غداً فى البيت أيها الغبى ! » .

وصاح يقول لشاتوف الذى كان قد أخذ يركض مسرعاً :

ـ انتظر لحظة ، انتظر . ارجع . قل لى : هل رجعت اليك زوجتك حقاً ؟

فأجابه شاتوف قائلاً :

ـ غبى !

٤

كانت آرينا بروخوروفنا لا تعلم شيئاً عن القرارات التى اتُخذت أمس فى الاجتماع . ذلك أن فرجنسكى ، حين عاد الى البيت ، وكان مصعوقا ، لم يجرؤ أن يحدث امرأته فى الأمر . لكنه فى صباح الغد لم يطق صبرا فروى لها جزءا مما يعرف أى قال لها ان المعلومات المتوفرة لدى فرخوفنسكى تشير الى أن شاتوف يستعد لأن يشى بالجميع . ولكن فرجنسكى حرص على أن يضيف الى ذلك قوله انه من جهته لا يصدّق هذه الدعوى كثيرا . ومع هذا شعرت آرينا بروخوروفنا برعب شديد . وذلك هو السبب فى أنها ، رغم تعبها الشديد كل الشدة بسبب اشرافها فى الليلة البارحة على ولادة عسرة ، قد قررت أن تذهب الى شاتوف بلا ابطاء حين سعى اليها شاتوف طالبا معونتها . لقد كانت دائما مقتنعة بأن رجلاً امّعة مثل شاتوف لا يتورع أى تورع عن ارتكاب دناءة من هذا النوع ، ولكن وصول ماريا اجناتيفنا يبدل الوضع تبديلاً كاملاً . ان ذعر شاتوف ، وكربه ، ويأسه ، وتوسله ، وضراعته ؟ ان ذلك كله يدل على أن عواطف الخائن قد تغيرت : ان رجلاً يقرر تسليم نفسه لا لشىء غير تضييع الآخرين ، لا يمكن أن يكون وجهه هذا الوجه ، ولا يمكن أن تكون لهجته هذه اللهجة . كذلك كانت تقول لنفسها آرينا بروخوروفنا.

الخلاصة : لقد قررت أن ترى كل شيء بعينى رأسها ، وأن تعرف كل شيء بنفسها • وقد سُرّ فرجنسكى كثيراً من قرارها هذا • حتى لقد شعر بأنه يتخفف من حمل ثقيل ، بل انه أخذ الآن يأمل خيراً : ان وضع شاتوف يتعارض تعارضا تاما مطلقا مع شكوك فرخوفنسكى •

لم يخطىء شاتوف : فحين وصل الى البيت كانت آرينا بروخوروفنا قد سبقته اليه • وقد بادرت آرينا بروخوروفنا منذ وصولها الى طرد كيريلوف الذى كان يترقب عند أسفل السلم • ولم تشأ المريضة أن تتعرف المولّدة على أنها من قدامى الأصحاب • كانت فى حالة نفسية سيئة جدا ، فهى شريرة شرسة ساخطة قد استبد بها وسيطر عليها « يأس فيه جبن لا مثيل له » ، على حد تعبير آرينا بروخوروفنا • ولكن آرينا لم تلبث أن طوّعتها بعد خمس دقائق فى أكثر تقدير •

وحين دخل شاتوف كانت تقول لها :

ـ ما بالك تكررين أنك لا تريدين مولّدة باهظة الأجور ؟ هذه سخافات ، هذه آراء فاسدة ناشئة عن حالتك التى ليست حالة طبيعية سليمة• اذا جاءتك امرأة عجوز ما ، فمن الجائز أن تجرى الأمور مجرى سيئاً • هذا أحد احتمالين متساويين قوة • ثم انك قد تقعين فى مشاكل وتدفعين نفقات ضخمة اذا لم تتعهدك مولّدة ماهرة تزعمين أنها باهظة التكاليف • ثم من قال لك ان أجورى غالية ؟ سوف تدفعين لى فى المستقبل ، ولن أطلب منك كثيرا • وأنا من جهة أخرى أضمن لك النجاح والسلامة • لن تموتى بين يدى • ما أكثر ما رأيت من حالات كحالتك ! أما الولد فسأحمله منذ الغد الى ملجأ ، ثم نعهد به الى مرضع فى الريف ، فينتهى كل شيء • حتى اذا شُفيت وجدت عملاً ، فما هو الا وقت قصير حتى تكونين قد عوّضت شاتوف أجور الاقامة والنفقات التى لن تكون ضخمة الى الحد الذى تتصورين •••

ـ لا يحق لى أن أكون عالةً عليه ...

ـ هذه عواطف معقولة ومشاعر نبيلة . ولكن ثقى أن شاتوف لن يتكبد أية نفقة اذا هو رضى أن يترك أوهامه وأخيلتـــه وأن يعتنق آراء أسلم وأصح. يكفى أن لا يرتكب حماقات، أن لا يجرى فى المدينة مدلّياً لسانه نافخاً فى بوق . ان شاتوف ، اذا لم يحتجز بالقوة ، لن يتورع عن الذهاب منذ الغد الى جميع أطباء المدينة بغية اصطحابهم اليك . عندى أنا ، أهاج جميع كلاب الحى . لست فى حاجة الى طبيب . قلت لك اننى أضمن كل شىء . على أنك تستطيعين أن تستعينى بامرأة عجوز لخدمة البيت . هذا لا يكلّف نفقة ذات بال . ثم ان شاتوف يمكن أن يفيد فى شىء ما أيضا . ان له ذراعين وساقين . فسيذهب اذن الى الصيدلية دون أن يجرح هذا كرامتك . ما هذا منةً منه وكرم . أليس هو الذى جعلك فى هـــذا الوضع ؟ ألم يوقع شقاقاً بينك وبين تلك الأسرة التى كنت تعملين عندها مربية ، ولم يكن له من ذلك الا هدف أنانى هو أن يتزوجك ؟ لقد سمعنا عن هذا ... ثم انه قد هرع الينا كالمجنون وأحدث جلبةً كبيرة . اننى لا أريد أن أفرض حضورى على أحد . واننى لم أجىء الا من أجلك أنت تقيداً بالمبدأ ، لأن جماعتنا يجب أن ينصر بعضها بعضا . قلت له هذا حتى قبل أن أخرج من بيتى . فاذا كان وجودى فى نظرك نافلاً فوداعا اذن ! بشرط أن لا يقع لك سوء ، وهو سوء ليس تحاشيه بالأمر السهل .

كذلك قالت آرينا بروخوروفنا ، حتى لقد قامت لتنصرف .

وكانت مارى قد بلغت من الضعف والألم ، وبلغت من الخوف مما ينتظرها فى الواقع أنها لم تجسر أن تدع آرينـــا بروخوروفنا تنصرف . ولكن آرينا بروخوروفنا أصبحت كريهة فى نظرها فجأة : ان كل ما قالته آرينا كان متعارضا أشد التعارض مع ما كان يحدث فى نفس مارى . غـير أن خوفها من أن تموت بين يدى مولّدة ليست بذات خبرة قد جعلهـــا

تتغلب على نفورها من آرينا وكرهها لها • وكذلك أصبحت تجاه شاتوف منذ تلك اللحظة أكثر شدةً وأقل رحمة ، حتى لقد حظرت عليه في النهاية لا أن ينظر اليها فحسب ، بل أن يلتفت بوجهه نحوها •

وتفاقمت الآلام مزيدا من التفاقم ، واشتدت اللعنـات والشتائم التى تطلقها مارى مزيدا من الاشتداد •

قالت آرينا بروخوروفنا :

ـ سنطرده الى الخارج • انه بوجهه المنقلب يبث فى نفسك الخـوف والرعب • انه شاحب كميت •

والتفتت تقول لشاتوف :

ـ ولكن فيم يعنيك أنت هذا ؟ ألا انك لرجل غريب شاذ حقا ! ماهذه المهزلة !

لم يجب شاتوف • لقد قرر أن يلتزم الصمت •

ـ رأيت فى مثل هذه الأحوال آباء بلهاء يفقـدون عقولهم تماما • ولكن أولئك على الأقل •••

ـ اسكتى ، أو دعينى أفطس ! لا يقل أحد كلمةً بعد الآن، لا أريد، لا أريد •

كذلك صرخت مارى •

ـ يستحيل على المرء أن لا يفتح فمه • لا بد أن يكون المرء قد فقد عقله حتى يفرض مثل هذه المطالب • ولكنك فى حالة غير طبيعية • لنتكلم فى أمور جـدية على الأقل • قـولى لى : هل أعـــددت كل شىء ؟ أجب يا شاتوف • هى فى حالة لا تمكنها من الاجابة •

ـ قولى لى ما هى الأشياء اللازمة تماما •

ـ ألم تهيء اذن شيئاً ؟

كذلك أجابته آرينا بروخوروفنا ، ثم أخذت تحصى له ما هى فى حاجة اليه • يجب أن نذكر لها هذا الفضل ، وهو أنها لم تطلب الا ماهو لازم كل اللزوم • وقد اتضح أن بعض الأشياء المطلوبة متوفر عند شاتوف• وأخرجت مارى مفتاحها ومدّته اليه ليفتح الكيس الذى حملته فى سفرها• واذ كانت يداه ترتعشان فقد استغرق ادخال المفتاح فى القفل وقتاً أطول من الوقت اللازم ، فأثار هذا حنق مارى وأغاظها غيظا شديدا • ولكن حين هرعت آرينا بروخوروفنا لتأخذ المفتاح من يدى شاتوف لم تشأ المريضة أن تنظر آرينا فى كيسها وأصرّت باكيةً صارخةً على أن يكون شاتوف هو الذى يتولى فتح الكيس •

وكان لا بد من الذهاب الى كيريلوف لاحضار بعض الأشياء • ولكن ما ان غادر شاتوف الغرفة حتى أخذت مارى تناديه بصرخات كبيرة ، ثم لم تهدأ ثائرتها الا حين رجع شاتوف مسرعاً ليشرح لها أنه لا يخرج الا لحظةً واحدة ، وأن خروجه لا غنى عنه ، وانه عائد على الفور •

قالت آرينا بروخوروفنا ضاحكة :

ـ ما أصعب ارضاءك يا سيدتى الصغيرة ! فتارةً تطلبين أن يُلصق أنفه بالحائط فلا ينظر اليك ، وتارة تنفجرين باكيةً اذا هو اضطر أن يغيب لحظة • لا بد أن يتخيل شيئاً فى النهاية • هيَّا ، هيَّا ! لا تضطربى • أنا أمزح طبعا •

ـ ليس من حقه أن يتخيل شيئاً •

ـ لولا أنه هائم بك حباً لما ركض فى الشوارع كالمجنون ، ولما هاج جميع كلاب المدينة • لقد حطم اطار نافذة بيتى •

٥

كان كيريلوف مستمراً في ذرع غرفته جيئة وذهاباً ، وقد بلغ من فرط الاستغراق في تأمله أنه نسي حتى وصول امرأة شاتوف ، فكان يصغي الى شاتوف دون أن يفهم عنه .

قال أخيراً وكأنه ينتزع نفسه انتزاعا شاقا من فكرة جذابة فاتنة :

ـ آ ... نعم ... امرأة عجوز ... أكنت تتكلم عن زوجتك أم عن حاجتك الى امرأة عجــوز . آ ... نعم ، عن زوجتـك وعن امرأة عجوز ، أليس كذلك ؟ تذكرت الآن . لقـــد بحثت وسألت : فالعجـوز ستأتي ، ولكنها لن تأتي فوراً . خذ الوسادة . ماذا أيضا ؟ نعم ... انتظر ... هل اتفق لك يا شاتوف في يوم من الأيام أن شعرت بلحظات انسجام كلي شامل ؟

ـ اسمع يا كيريلوف ، يجب عليك بعد الآن أن لا تسهر كل ليلة...

بدا على كيريلوف أنه ثاب الى نفسه . والشيء الغريب أنه أخــذ يتحدث حديثا فيه من اليسر والسهولة والراحة والمنطق أكثر مما عُهد فيه . واضح أنه كان قد صاغ هذه الأفكار لنفسه منذ مدة طويلة ، بل لعله أيضا قد سطّرها على الورق . قال :

ـ هناك لحظات تدوم خمس ثوان أو ستاً تحس أثناءها فجأة بحضور الانسجام الأبدي ، وبأنك بلغت هذا الانسجام الأبدي . ليس ذلك شيئاً أرضياً : لا أقول انه سماوي ، ولكنني أقول ان الانسان من جانبه الأرضي عاجز عن احتماله . فيجب أن يتغير جسم الانسان أو يموت . انه شـعور واضح ، لا جدال فيه ، مطلق . تدرك الطبيعة كاملة على حين فجأة ، وتقول لنفسك : نعم ، هذا هو ، هذا حق . حين خلق الله العالم كان يقول في

آخر كل يوم : « نعم ، هذا خير ، هذا عدل ؛ هذا حق » • ليس ذلك نوعاً من ترقق العاطفة والحنان • انه شيء آخـــر • انه فرح • وأنت عندئذ لا تغفر شيئاً ، اذ لا يبقى ثمة ما تغفره • وليس ذلك حتى حباً • آه ••• انه فوق الحب • الأمر الرهيب هو أنه واضح وضوحا مخيفا مروّعاً • غير أن فرحاً واسعاً يغمر كل شيء ! لو دام أكثر من خمس ثوانٍ ، لما استطاعت النفس أن تتحمله ولكان عليها أن تزول • في هذه الثواني الخمس أحيا حياةً بكاملها ، واني لمستعد في سبيلها أن أهب حياتي كلها ••• لأن هذه الثواني الخمس تساويها • من أجل أن يستطيع المرء احتمال ذلك عشر ثوان يجب أن يتغير جسمه • وأظن أنه يجب على الانسان أن يكف عن التناسل • لماذا الأطفال ، لماذا نمو الانسانية ، اذا كانت الغاية قد بُلغت ؟ لقد جاء في الانجيل أن البشر لن يلدوا بعد البعث في الحيـــاة الآخرة ، وانهم سيكونون جميعا كملائكة الله • هذه اشارة • هل امرأتك تلد ؟

ـ هل يحدث لك هذا كثيرا يا كيريلوف ؟

ـ كل ثلاثة أيام ، كل أسبوع •••

ـ ألست مصابا بمرض الصرع •

ـ لا •

ـ ستصاب بهذا المرض • انتبه يا كيريلوف : لقد سمعت أن مرض الصرع انما بهذا يبدأ • وقد حدثني أحد المصابين به فوصف لي المشـاعر التي تسبق نوبات الصرع تفصيلاً • لقد تكلم هو أيضا عن ثوانٍ خمس ، فكان يقول ان المرء يستحيل عليه أن يتحمل هذا مدةً أطول • تذكّـر جرة النبي محمد ، التي لم تكن قد فرغت من مائها حين عاد من معراجه الى السماء • ان الجرة هي هذه الثواني الخمس التي تتحـــدث عنها ، وان

المراج هو هذا الانسجام الكلى الذى تحس به • ولقد كان محمد يصاب بغيبوبة •

انتبه الى الصرع يا كيريلوف •

قال كيريلوف وهو يبتسم ابتسامة وادعة :

ــ لن يتسع الوقت لاصابتى بهذا الداء •

٦

كان الليل ينقضى بطيئاً • وكان شاتوف يُطرد ويُشتم ثم يُستدعى• لقد بلغت مارى ذروة الهلع • كانت تصرخ قائلة" انها تريد أن تعيش « حتماً ، حتماً » ، وانها خائفة من الموت ، فهى ما تنفك تكرر « يجب أن لا أموت ، يجب أن لا أموت ! » • ولولا أن آرينا بروخوروفنا كانت هناك لكان يمكن تجرى الأمور مجرى سيئاً جدا • ولكن آرينا بروخوروفنا قد استطاعت أن تسيطر على المريضة شيئاً فشيئاً ، فأصبحت المريضة فى النهاية تخضع لأى أمرٍ تصدره اليها ، كما يخضع طفل • لقد عمدت آرينا بروخوروفنا الى الشدة والقسوة لا الى الرفق واللين ، ولكنها كانت خبيرة فى فنِّها • وأخذ الصبح يطلع • وتخيلت آرينا بروخوروفنا فجأة" أن شاتوف ، وقد خرج الى فسحة السلم ، هو الآن يصلى ويدعو الله ، فانفجرت تضحك • فأخذت مارى تضحك هى أيضا ، ضحكا خبيثا ، ضحكا ساخرا ، فكأن هذا الضحك كان يخفِّف عنها بعض التخفيف وأخيرا أُخرج شاتوف من الغرفة • فبقى على فسحة السلم ، مستنداً الى الجدار ، فى الوضع الذى فاجأه فيه اركل بالأمس • كان يرتعش كورقة فى مهب الزيح ، وكان يخشى أن يفكر • ولكن ، كما يحدث للمرء فى الحلم ، كان فكره يتابع الصور التى تتشكل فى خياله وتنقطع فى كل لحظة•

لم يعد يسمع أنات ، بل أصبح يسمع اعوالات رهيبة ، وصرخات كصرخات وحش ، صرخات لا تطاق تصل اليه من الغرفة • أراد أن يسدّ أذنيه ، ولكنه لم يستطع أن يعزم أمره على ذلك ، وجثا على ركبتيه مكرراً بغير شعور : « ماري ! ماري ! » وفجأةً سمع صرخة جديدة أرعشته وأنهضته بوثبة واحدة ، هي صرخة طفل صغير ، صرخة ضعيفة ، كأنها مصدوعة • فرسم على نفسه اشارة الصليب وهرع الى الغرفة • كانت آرينا بروخوروفنا تمسك كائناً صغيراً أحمر مجعّداً ، لا حول له ولا قوة ، يستدر الشفقة، يمكن أن تعصف به نسمة خفيفة كأنه ذرة من غبار ، ولكنه يصرخ ويحرك ذراعيه وساقيه الصغيرة كمن يريد أن يطالب بحقه في الحياة • وكانت ماري كالمغمى عليها ، لكنها فتحت عينيها بعد دقيقة ، وألقت على شاتوف نظرة غريبة ، نظرة جديدة كل الجدة ، نظرة كان لا يستطيع أن يفهمها بعد ، ولا رآها أبدا قبل الآن •

سألت بصوت فيه ألم :

ـ صبي ؟ صبي ؟

فأجابتها آرينا بروخوروفنا وهي تقمّط الطفل :

ـ نعم ، صبي بدين •

وقبل أن تضعه بين وسادتين على السرير ، ناولته شاتوف لحظةً ، فاذا بماري ، وكأنها تخشى أن تراها آرينا بروخوروفنا ، تومىء الى زوجها ، فيسرع يقرّب منها الطفل •

دمدمت تقول بصوت ضعيف وهي تبتسم :

ـ ما أجمله !

فهتفت آرينا بروخوروفنا تقول وقد أدهشها ما رأته في وجه شاتوف من تهلل الأسارير :

ـ انظروا اليه قليلاً ! انظروا الى وجهه العجيب !

فجمجم شاتوف قائلاً وقد أسكره الكلام الذى قالتـــه مارى عن الطفل :

ـ ابتهجى يا آرينا بروخوروفنا ... انها فرحة كبرى !

فصاحت آرينا بروخوروفنا تقـــول مرحة وهى تذهب وتجىء فى الغرفة لترتّبها :

ـ فرحة كبرى ؟ ما هذا الذى تقول ؟

فدمدم شاتوف يقول كالسكران :

ـ ان انبثاق كائن جديد سر كبير ، سر لا يُفهم يا آرينا بروخوروفنا. خسارة أنك لا تفهمين هذا .

كان شاتوف كمن فقد عقله ، وكانت الكلمات كأنها تخرج من فمه رغم ارادته . وتابع كلامه يقول :

ـ كانا اثنين ، فاذا بكائن انسانى جديد يظهر : روح جديدة ، تامة. مكتملة ؛ لم تخلق مثلّها يد انسانية قط ؛ فكر جديد ، حب جديد . هذا أمر يكاد يكون رهيبا . لا شىء أعظم من هذا فى العالم .

ـ أمواج من الكلام ! ليس الأمر كله الا نموّ الجسم ، ولا شىء غير هذا . لا سرّ !

كانت آرينا بروخوروفنا تضحك ضـــحكاً مرحاً صريحاً . وتابعت كلامها تقول :

ـ على هذا الأساس يكون نشوء أحقر بعوضة سراً من الأسرار . ولكن اسمعى ما سأقوله لك : الأجدر أن لا يولد فى العالم بشر لا فائدة

منهم • قبل أن تلدوا أطفالاً ابدأوا بتغيير كل شيء ، بحيث لا يكونون بغير فائدة منهم • أما الآن فيجب عليك أن تحملى الوليد بعد غدٍ الى ملجأ اللقطاء •

قال شاتوف مطرقاً الى الأرض :

ـ لن أحمله الى ملجأ اللقطاء بحال من الأحوال !

ـ أتتبناه ؟

ـ هو ابنى منذ الآن !

ـ طبعا • انه يحمل اسم شاتوف ؟ ان القانون نفسه يوجب أن يكون اسمه شاتوف • فلا تمثّل دور محسن الى الانسانية • انك لا تستطيع الاستغناء عن الألفاظ الكبيرة ! هذا كله حسن جدا • ولكن آن لى أن أنصرف •

كذلك قالت آرينا بروخوروفنا وقد فرغت من ترتيب الغرفة • وأردفت تقول :

ـ سأرجع فى هذا الصباح مرةً أخرى ، وسأعود أيضا فى المساء اذا وجب الأمر • أما الآن وقد تمّ كل شيء على ما يُرام ، فيجب أن أزور نساءً أخريات ينتظرننى • لقد عثرتَ على امرأة عجوز يا شاتوف ، ولكن لا تتكل عليها وابق هنا • قد يُحتاج اليك • أعتقد أن ماريا اجناتيفنا لن تطردك ••• هيَّا ، هيَّا ، أنا أمزح •

وبقرب البوابة التى رافق اليها شاتوف المولّدة مشيعاً ، أضافت تقول :

ـ لقد أضحكتنى الى آخر أيام حياتى • لن أتقاضى منك أجرا ••• لسوف أضحك من هذا حتى فى المنام • حسبى ذلك • لم أر فى حياتى رجلاً أبعث على الضحك منك هذه الليلة •

وانصرفت مرتاحة أشد الارتياح ، راضيةً كل الرضى • كانت تحدث نفسها قائلة : « انه لواضح من منظر شاتوف ومن أقواله أن هذا الرجـل قد صيَّر نفسه أباً منذ الآن ، وأنه ليس الا امَّعةً ضعيف الشخصية » • ورغم أنها كان عليها أن تزور امرأة أخرى على الفور فقد ذهبت أولاً الى بيتها لتبلغ فرجنسكى انطباعاتها •

بدأ شاتوف يكلم مارى خجلاً وجلاً فقال لها :

ـ مارى ، انها تقول ان عليك أن لا تنامى حالاً • لكننى أرى مع ذلك أن هذا سيكون شاقاً جدا عليك • سأجلس هنا ، قرب النافذة ، أسهر عليك ، هل تريدين ؟

قال ذلك وجلس قرب النافذة وراء الديوان ، بحيث لا تستطيع أن تراه • ولكنها نادته بعد دقيقة ، وسألته بلهجة احتقار أن يرتِّب وسائدها • وبينما كان شاتوف ينفِّذ أمرها ، كانت هى تحدِّق الى الجدار باصرار •

ـ ما هكذا ! ما هكذا ! ••• يا لخراقة يديك !

كان شاتوف يبذل كل ما فى طاقته •

وأمرته على حين فجأة قائلةً له بصوت أجش ، جاهدةً أن لا تنظر اليه :

ـ ملْ علىَّ •

فارتعد ولكنه مال عليها •

ـ مزيداً من الميل ••• ما هكذا ••• اقترب أكثر ! •••

وفجأة أمرَّت يدها اليسرى حول عنق شاتوف • وأحسَّ شاتوف على جبينه بقبلة حارة مخضلة •

ـ مارى !

كانت شفتا المرأة الشابة تختلجان . وكان واضحا أنها تحاول أن تسيطر على نفسها ، ولكنها أنهضت جسمها فجأة ، وقالت متقدة العينين :

ـ ان نيقولاى ستافروجين رجل شقى !

وبارحتها قواها بغتة فعادت تتهالك على السرير ، دافنة رأسها فى الوسائد ، وانفجرت باكية وهى تضغط بيديها يد شاتوف .

ومنذ تلك اللحظة لم تفلت زوجها . وطلبت اليـــه أن يجلس الى جانب سريرها . وكانت لا تستطيع أن تتكلم ، فهى تتأمله مليا ، وقـد ألمت بوجهها ابتسامة افتتان ، ابتسامة طفلة صغيرة بلهاء . كل شىء كان يبدو لهما متغيراً . أخذ شاتوف يبكى بكاء طفل ، ثم طفق يتكلم فيما هب ودب بلهجة الملهم كأنه سكران ، ويقبل يديها من حين الى حين مرة تلو مرة . وكانت هى تصغى اليه نشوى ، ربما دون أن تفهم ما كان يقوله ، ولكنها تمسد شعره بيـــد ضعيفة واهنة ، وترتبه وتصـففه وهى تتأمله بحب ووجد . كلمها عن كيريلوف ، وعن الحياة الجديدة التى ستبدأ بالنسبة اليهما ، وعن وجود الله ، وعن طيبة البشر . ومن فرط حماستهما، أخرجا الطفل من أقماطه ليعجبا به مزيدا من الاعجاب .

هتف شاتوف قائلاً وهو يمسك الطفل فى ذراعيه :

ـ مارى ! لقد انتهينا من الهذيان القديم ، من الخزى ، من الموات القذر . ألا فلنبدأ العمل نحن الثلاثة ! ان حياة جديدة تفتح ذراعيها لنا ! نعم ، نعم ! ولكن ماذا نسميه يا مارى ؟

فأجابت تكرر سؤاله بدهشة :

ـ ماذا نسميه ؟

وارتسم على وجهها فجأة ألم شديد .

وضمت يديها احداهما الى الأخرى ، ونظرت الى شاتوف عاتبه الهيئة ، ودفنت وجهها في الوسائد .

هتف شاتوف يسألها مرتاعا :

ـ ماذا ؟

ـ كيف أمكنك أن ... كيف أمكنك أن ... آه ... عقوق !

ـ عفوك يا ماري ، عفوك يا ماري ! ... أنا انما سألت ماذا نسميه ... لست أفهم ...

قالت وهي تُنهض رأسها المحترق المبلل بالدموع :

ـ سنسميه ايفان ، ايفان . كيف أمكنك أن تتصور أن في وسعنا أن نسميه باسم آخر ، باسم « فظيع » ؟

ـ ماري ، هدئي نفسك . ان أعصابك مهتاجة !

ـ وهذه فظاظة أخرى منك . لماذا تنسب دموعي الى اهتياج أعصابي؟ ... يميناً لو اقترحتُ أن نسميه بذلك الاسم ... ذلك الاسم الفظيع... لوافقت أنت فورا ، حتى لقد لا تنتبه الى الأمر أي انتباه . آه ... ما أشد عقوقكم ... ودناءتكم ... جميعا ، جميعا ! ...

وبعد دقيقة ، ساد بينهما السلام طبعا ، وألح عليها شاتوف أن تنام قليلاً . فنامت ، ولكن دون أن تدع يده التي كانت تقبض عليها بيديها . وكانت تستيقظ من حين الى حين ؛ فتنظر اليه كأنها خائفة أن ينصرف ، ثم تغفو ثانيةً على الفور .

وصلت العجوز التي أرسلها كيريلوف حاملةً « تهنئاته » ، وحاملة كذلك شاياً ساخناً وشرائح لحم ومرقاً وخبزاً أبيض « لماريا اجناتيفنا » .

فشربت المريضة المرق بشراهة ؟ وقمطت العجوز الطفل • وأجبرت مارى زوجها شاتوف على أن يأكل شريحة لحم أيضا •

وكان الوقت يمضى • وأخذ التعب من شاتوف كل مأخذ فغفا على كرسى مستنداً برأسه الى وسادة زوجته • وعلى هذه الحال انما وجدتهما آرينا بروخوروفنا حين جاءت برا بوعدها • فأيقظتهما مرحة ، وألقت الى مارى بتعليماتها ، وفحصت الطفل ، وحظرت على شاتوف مرة أخرى أن يترك زوجته • ثم بعد أن مازحت الزوجين بشىء من الازدراء والتعالى، انصرفت راضية مسرورة كما فعلت فى الصباح •

حين استيقظ شاتوف ، كان الظلام قد خيَّم • فأشعل الشمعة ، وأسرع يبحث عن العجوز ، فما كان أشد دهشته حين هبط السلم فاذا هو يسمع وقع خطوات خفيفة محاذرة • كان هناك رجل يتقدم نحوه : انه اركل •

همس شاتوف يقول له :

ـ لا تدخل •

ثم أمسك يد الزائر وقاده نحو البوابة • وقال له :

ـ انتظرنى هنا • سأرجع فورا • نسيتك تماما • لقد عرفت كيف تذكّرنى بك !

بلغ شاتوف من الاستعجال أنه لم يدخل على كيريلوف واكتفى بمناداة المرأة العجوز • وقد غضبت مارى أشد الغضب واستاءت أشد الاستياء من أنه « أمكن أن يخطر بباله أن يتركها وحيدة » •

فهتف يقول لها متحمساً :

ـ هذه آخر مرة • ان طريقا جديدة تنشق أمامنا ؟ ولن نفكر أبدا ، أبدا ، فى هول الأيام الماضية •

واستطاع أن يهدئها بعض التهدئة ، ووعدها أن يرجع فى الساعة التاسعة تماما ، وقبّلها و وقبّل الطفل ، وأسرع يدرك اركل .

اتجه الرجلان نحو حديقة آل ستافروجين ، فى سكفورشنيكى ، حيث كان شاتوف ، قبل سنة ونصف سنة ، قد دفن فى موضع ناء ، على حدود الحديقة ، عند غابة صنوبر ، المطبعة التى عُهد بها اليه . ان المكان موحش ، مقفر ، بعيد عن مسكن آل ستافروجين . والمسافة بينه وبين منزل فيليبوف تُقدّر بثلاثة فراسخ ونصف ، وربما بأربعة فراسخ .

قال شاتوف سائلاً :

ـ هل نقطع الطريق كله سيراً على الأقدام ؟ اننى أفضّل كراء عربة .

فقال اركل :

ـ بل يجب أن نقطع الطريق سيراً على الأقدام . لقد أصروا على هذا كثيراً . ان الحوذى يمكن أن يُتخذ شاهدا .

ـ طيب . لا بأس . المهم أن أنتهى ، أن أنتهى !

وكانا يسيران بخطى سريعة .

هتف شاتوف يسأل صاحبه :

ـ اركل ، بنىّ ، هل سعدت فى حياتك يوما من الأيام ؟

فقال اركل متعجباً :

ـ يبدو لى على كل حال أنك الآن سعيد .

الفصل السادس

ليلة مشقات ومخاوف

أثناء النهار طاف فرجنسكى على بيوت جميع «أصحابنا» لينبئهم بأن شاتوف لن يشي بهم حتماً ، وذلك بسبب عودة امرأته التى ولدت عنده منذ قليل : كان يستحيل على فرجنسكى أن يسلّم بأن شاتوف يمكن أن يكون خطراً فى هذا الأوان ، « لمعرفته بالقلب الانسانى». ولكن ما كان أشدّ حسرة فرجنسكى حين لم يجد أحداً منهم فى بيته ، الا اركل وليامشين . ولقد أصغى اركل الى كلامه صامتا رقيق الهيئة . ولكن حين ألقى عليه هذا السؤال المباشر : « أأنت ذاهب اليوم الى الموعد فى الساعة السادسة ؟ » أجابه اركل وهو يبتسم : « طبعاً ! » .

أما ليامشين فقد كان فى سريره ، دافنا رأسه تحت الغطاء ، وكان يبدو عليه أنه مريض فعلاً . وحين رأى فرجنسكى خاف خوفا شديد ، ومنذ أن أخذ فرجنسكى يتكلم تضرع اليه ، محركاً يديه ، بأن يُترك هادئاً مرتاحا . غير أن المعلومات التى ذكرها فرجنسكى عن شاتوف بدت له هامة فأصغى اليها بانتباه . حتى اذا علم أن زائره لم يجد أحداً من «أصحابنا» فى بيته ، أزعجه ذلك كثيراً . وقد اهتز فرجنسكى هو أيضا حين قصّ عليه ليامشين ، بكلامٍ مفكك ، ما وقع لفدكا (وكان قد علم ذلك من ليبوتين) . فلما ألقى عليه فرجنسكى هذا السؤال المباشر : «هل

يجب الذهاب الى الموعد ؟ » ، عاد ليامشين يضطرب وأعلن « أن ذلك كله لا شأن له هو به ، وأنه لا يعرف شيئاً ، وأن عليهم أن يتركوه هادئاً • » •

رجع فرجنسكى الى بيته قلقاً مرهقاً • ولقد كان يصعب كثيرا أن يخفى عن أسرته ما يعتمل فى نفسه ، لأنه اعتاد أن لا يكتم عن امرأته شيئاً • ولقد كان يمكن أن يرقد أخيراً فى سريره مثل ليامشين لولا أن فكرةً جديدة قد نبتت فجأة فى ذهنه المحموم ، فكرةً بدا له أنها يمكن أن تدبر الأمور بما يرضى الجميع • وقد بثت هذه الفكرة فى نفسه شجاعة، حتى انه أصبح ينتظر الساعة المحددة نافد الصبر ، وانطلق يسير الى مكان الموعد المضروب فى وقت أبكر من اللازم •

كان المكان حزيناً كئيباً على حدود حديقة آل ستافروجين الواسعة • لقد ذهبتُ اليه خصيصا فيما بعد ، وانى لأتخيل مدى ما كان يبدو عليه ذلك المكان من جهامة وشؤم فى ذلك المساء الحزين من أماسى الخريف • كانت أشجار الصنوبر الضخمة الطاعنة فى السن تشكّل فى ظلمات الغابة بقعاً سوداً مبهمة • وقد بلغت الظلمة من الحلك أن المرء لا يكاد يرى قدّامه أكثر من خطوتين • ولكن بطرس ستيفانوفتش وليبوتين واركل قد تزودا بمصابيح • ان مغارة من حجارة غير مقدودة ، مغارةً مضحكة ، كانت قد بُنيت فى ذلك المكان لا يدرى أحد متى ، ولا يدرى أحد لأى غـــرض بُنيت • والمائدة والكراسى الموجـــودة فى داخل المغارة كانت منخورة مسوّسة متآكلةً تتساقط غبارا • ان بين منزل السادة أصحاب الأرض وبين الغابة غدرانا ثلاثة تتعاقب على مسافة فرسخ • والغدير الثالث يقع يمنةً على بعد نحو مائتى متر من المغارة • يصعب على المرء أن يفترض أن ضجةً ما ، كصرخة أو حتى طلقة رصاص ، يمكن أن يسمعها سكان المنزل الذى هجره أصحابه ولم يبق فيه، منذ سفر نيقولاى فسيفولودوفتش بالأمس وسفر ألكسى ايجورتش ، الا خمسة خدم عجائز أو ستة • ومن

الجائز جدا على كل حال ، حتى لو سمعوا صرخات ألم أو نداءات استغاثة، أن لا يزعجوا أنفسهم بالانطلاق الى مكان الصوت اغاثةً للضحية .

فى الساعة السادسة وعشرين دقيقة كان الجميع قد اجتمعوا ، الا اركل الذى كان عليه أن يقود شاتوف . فى هذه المرة لم يتأخر بطرس ستيفانوفتش . لقد وصل مع تولكاتشنكو . وكان تولكاتشنكو قاتم الوجه مهموم النفس . لقد بارحته وقاحته المعهودة فيه ، وبارحته رباطة جأشه وثقته بنفسه . انه لا يترك بطرس ستيفانوفتش ، ويبدو مخلصاً له بغير تحفظ . وهو الآن كثير الحركة والسعى ، لا يكف عن الهمس فى أذن صاحبه ، ولكن صاحبه لا يكاد يجيبه أو هو يجمجم منزعج الهيئة ببضعة كلمات تخلصاً منه .

ولقد وصل شيجالوف وفرجنسكى قبل بطرس ستيفانوفتش بقليل. فلما أبصراه انسحبا متنحيين ، ملتزمين الصمت . فرفع بطرس ستيفانوفتش مصباحه وتفرس فيهما بانتباه فيه استهانة واحتقار ، قائلاً لنفسه : « انهما يستعدان للكلام » .

سأل مخاطباً فرجنسكى :

ـ ألم يجىء ليامشين ؟ من قال انه مريض ؟

أجاب ليامشين قائلاً وهو يخرج من وراء شجرة :

ـ أنا هنا .

كان يرتدى معطفاً ضخماً ، وقد أحاط عنقه وكتفيه بغطاء ، فلا يكاد يميز المرء وجهه الا بكثير من العناء ، ولو سلط عليه ضوء المصباح .

ـ لا ينقص اذن الا ليبوتين .

وخرج ليبوتين من المغارة دون أن يقول كلمة واحدة .

رفع بطرس ستيفانوفتش مصباحه من جديد . وقال له :

ـ لماذا تختبىء ؟ لماذا لم تخرج فى الحال ؟

فدمدم ليبوتين يقول ، ربما دون أن يعرف ماذا كان يريد أن يقول على كل حال :

ـ افترض أننا محتفظون بحرية ... حركاتنا ..

قال بطرس ستيفانوفتش رافعاً صوته ، محدثاً بذلك جواً يناقض جو الهمس الذى يسود منذ قليل :

ـ أيها السادة ... أظن ... أنكم تدركون أنه لا فائدة الآن من الافاضة فى الكلام . لقد قيل أمس كل شىء ، وكُرِّر كل شىء ، بوضوح، وبجلاء . ولكننى أرى فى الوجوه أن بعضكم يودون أن يتكلموا . فليتكلموا ، بأقصى سرعة . ليس لدينا متسع من الوقت : من الممكن أن يجىء به اركل بين لحظة وأخرى ...

تدخل تولكاتشنكو قائلا لا يدرى أحد لماذا :

ـ لسوف يجىء به حتماً .

وقال ليبوتين يسأل دون أن يعرف أيضاً لماذا يلقى هذا السؤال :

ـ اذا لم يخطىء تقديرى ، فان أول شىء نفعله هو استلام المطبعة ، أليس كذلك ؟

ـ حتماً . علام نضيِّع مطبعة ؟

بهذا أجاب بطرس ستيفانوفتش وهو يقرِّب المصباح من وجه ليبوتين. واستطرد يقول :

ـ لكننا اتفقنا بالأمس على أن استلام المطبعة ليس الا خدعة . سوف

يدلنا على المكان الذى دفن فيه المطبعة ، فنتولى نحن اخراجها من الأرض فيما بعد . اننى أعلم أنها على مسافة عشر خطوات من احدى زوايا هذه المغارة . كيف أمكن أن تنسى هذا يا ليبوتين ؟ شيطان يأخذك ! لقد تم الاتفاق على أن تمضى الى لقائه وحدك ، ثم لا نظهر نحن الا بعد ذلك ... ان أسئلتك غريبة . اللهم الا أن يكون لكلامك دافع واحد هو الرغبة فى الكلام لا أكثر ...

كان وجه ليبوتين مربداً ، ولم يجب بكلمة . ولبث الجميع صامتين بضع لحظات . وقامت الريح تهب على ذرى أشجار الصنوبر فتهزها .

أضاف بطرس ستيفانوفتش يقول نافد الصبر :

ـ آمل أيها السادة أن يقوم كل منكم بواجبه .

دمدم فرجنسكى يقول منفعلاً انفعالا شديدا ، وهو يجرى بيديه حركات عريضة :

ـ أعرف أن زوجة شاتوف قد رجعت اليه هذه الليلة ، وأنها ولدت. ومن يعرف القلب الانسانى ... يدرك بداهة ... أنه لن يشى بنا... لأنه سعيد ! ... لقد سعيت الى الجميع ركضاً فى هذا اليوم ... لكننى لم أجد أحداً ... فلعلنا نستطيع أن نعدل الآن عن ...

وتوقف عن الكلام منقبضَ الحلق .

فسأله بطرس ستيفانوفتش وهو يتقدم منه :

ـ اذا أصبحت سعيداً على حين فجأة ، فهل تتراجع لا عن وشاية (لأن الأمر ليس أمر وشاية) ، بل عن القيام بواجب محفوف ببعض الأخطار ، واجب تصورتَه قبل أن تعرف سعادتك ، واجب تعدُّه واجبك، رغم مخاطره ورغم ضياع سعادتك ؟

ـ لا ، لا أتراجع • لا أتراجع بحال من الأحوال !

كذلك صرخ فرجنسكى مرتعشاً أشد الارتعاش ، بحماسة تكاد تكون مضحكة •

ـ أنت تؤثر اذن أن تعود شقياً تعيساً على أن تكون جبانا رعديدا !

ـ نعم ، نعم ؟ بالعكس ••• أوثر أن أكون جبانا ••• لا ، ليس هذا ما أريد أن أقوله ••• أريد أن أقول اننى أوثر أن أكون شقياً على أن أكون جبانا •

ـ فاعلم اذن أن شاتوف يعدُّ هذه الوشاية واجبا مقدسا ، ويعدها عملاً متفقاً ومبادئه كل الاتفاق • والبرهان على ذلك أنه يخاطر كثيراً حين يسلمنا للسلطات • صحيح أن السلطات ستغفر له أشياء كثيرة ، مراعاةً لوشايته ، واكراما لها • ولكن رجلاً مثله لا يتقهقر فى يوم من الأيام عن القيام بما يعده واجباً • ما من سعادة تبقى وتدوم • لسوف يثوب الى نفسه منذ الغد ، فيلوم نفسه لوماً مراً ، ثم ينفذ ما عقد العزم عليه • ثم أين السعادة فى رجعة امرأته اليه بعد غياب ثلاث سنين لتلد فى بيته ولداً حملت به من ستافروجين ؟

قال شيجالوف :

ـ ولكن ما من أحدٍ رأى تلك الوشاية على كل حال !

فصرخ بطرس ستيفانوفتش يقول :

ـ أنا رأيتها • انها موجودة • وهذا الكلام كله غباء مطلق أيها السادة •

فانفجر فرجنسكى فجأةً يقول :

ـ وأنا أحتج ، أحتج بكل قواى ••• اننى أريد ••• اليكم ما أريد :

حين يصل نهب الى لقائه جميعا ، ونسأله عن حقيقة الأمر . فاذا صحّ أن هناك وشاية طلبنا اليه أن يعدل عنها وأن يحلف على ذلك ... وعندئذ ندعه ينصرف . على كل حال يجب أن نحكم عليه ، لا أن نختبىء ثم ننقض عليه .

ـ منتهى الغباء أن نفسد عملنا كله بالركون الى يمين يحلفه . أيها السادة ، ان ما تفعلونه الآن لهو البلاهة بعينها ! أهذا هو اذن موقفكم فى ساعة الخطر ؟

كان فرجنسكى ما يزال يردد قوله :

ـ أحتج ... أحتج ...

ـ على كل حال ، سُدّ بوزك ! والا لم نتمكن من سماع الاشارة . ان شاتوف (أوه ! ما هذا الغباء كله !) ... سبق أن قلت لكم ان شاتوف من دعاة السلافية ، أى انه من أغبى النـــاس طراً ... على كل حال ، لا يهمنى هذا ... لا يعنينى هـــذا فى شىء ! ... انكم بمقاطعاتكم لى لا تزيدون على ارباك فكرى ، وتشويش ذهنى ... ان شاتوف ، أيهـــا السادة ، كان رجلاً ساخطاً ؛ ولما كان عضواً فى الجمعية رغم كل شىء ، سواء أأراد ذلك أم لم يرده ، فلقد كنت آمل حتى آخر لحظة أن نستطيع الاستفادة منه بصفته ساخطاً، وكنت أهتم به وأداريه وأراعيه رغم التعليمات القطعية التى صدرت الىّ بشأنه . ومع ذلك قرر أخيراً أن يشى بنا ! الى جهنم على كل حال ! ... ولكن فليجرؤ واحد منكم أن ينسحب الآن ! ما من أحد يحق له أن يترك « القضية » . تستطيعون أن تقبّلوا شاتوف اذا شاء قلبكم ذلك ، ولكن ليس من حقكم أن تعرّضوا كل شىء للخطر ركونا الى عهدٍ يقطعه على نفسه ، أو يمين يحلفه . وليس يتصرف هذا التصرف الا خنازير أو أناس باعوا أنفسهم للحكومة ...

أسرع ليبوتين يسأل قائلاً :

ـ من الذى باع نفسه للحكومة هنا ؟

ـ ربما أنت . خير لك أن تسكت يا ليبوتين . انك لا تتكلم الا بحكم العادة . الذين باعوا أنفسهم للحكومة هم جميع الذين يخافون فى لحظة الخطر . لن تخلو صفوف الجبناء يوما من غبى يهرب فى آخر دقيقة صارخاً : « المغفرة المغفرة ! اننى أسلمكم اياهم جميعا . . » . ولكن اعلموا أيها السادة أنه ما من وشاية يمكن أن تجعلكم تحصلون على العفو . قد يُخفَّف العقاب درجتين ، ولكنه سيظل نفياً الى سيبيريا . هذا عدا أنكم لن تفلتوا عندئذ من سيفٍ آخرَ أقطع من سيف الحكومة .

كان بطرس ستيفانوفتش غاضبا فى حديثه أشدَّ الغضب . وهنا تقدم شيجالوف نحوه بخطى ثابتة حازمة ، وقال بثقة هادئة ومنطق منظم على عادته (وانى لأعتقد أنه لو تزلزلت الأرض من تحته ، لما رفع صوته ولما غيَّر ترتيب كلامه أى تغيير) :

ـ اننى أقلّب المسألة على وجوهها المختلفة منذ مساء الأمس ، ولقد وصلت بعد طول التفكير الى نتيجة واضحة هي أن قتل شاتوف ليس فقط تضييعاً لوقت ثمين يمكن أن يُستعمل استعمالاً أجدى وأجل شأناً ، بل هو كذلك انحرافات من تلك الانحرافات المشئومة التى طالما أضرَّت بالقضية وأخَّرت نجاحها عشرات السنين ، باخضاعها لتأثير أناس خفاف سياسيين ليسوا اشتراكيين صرفاً . لقد جئت الى هنا لغرض واحد هو أن احتج على هذا المشروع ، آملاً أن يؤثر عملى هذا فى العقول ؛ وهأنذا أنسحب لا خوفاً من الخطر ولا حباً بشاتوف الذى لا أشتهى أن أقبّله البتة ، بل لأن هذا الأمر ، من بدايته الى نهايته ، يناقض برنامجى . أما عن الوشاية بكم ، ففى وسعكم أن تكونوا مطمئنين كل الاطمئنان : فلن أشى بكم !

قال شيجالوف ذلك ثم استدار وانصرف .

هتف بطرس ستيفانوفتش قائلاً وهو يخرج مسدسه من جيبه :

ـ شيطان يأخذه ! لسوف يلقاهما فيحذّر شاتوف .

وسُمع صوت ديك المسدس وهو يُرفع .

قال شيجالوف وهو يلتفت :

ـ ثق انني اذا لقيت شاتوف فقد أحييه ولكنني لن أحذّره .

ـ هل تعلم أن هذا يمكن أن يكلفك غالياً يا سيد فوريه ؟

ـ أرجوك أن تلاحظ أنني لست فوريه . انك اذ تخلط بيني وبين ذلك الثرثار العاطفي المجرد ، تبرهن على أنك تجهل مخوطتي جهلاً تاماً، رغم أنها كانت بين يديك . أما عن تهديدك ، فانني أقول لك انك قد أخطأت اذ رفعت ديك مسدسك : فان هذا لا يمكن الا أن يضرك في اللحظة التي نحن فيها . واذا نويت أن تنتقم مني غداً أو بعد غد ، فانك ستجلب لنفسك بقتلي هموما جديدة : سوف تقتلني ، ولكنك ستعود الى مذهبي عاجلاً أو آجلاً . الوداع !

في تلك الدقيقة دوّت صفرة صفارة على مسافة مائتي متر ، في الحديقة ، من جهة الغدير . وكما اتُّفق بالأمس ردّ ليبوتين على الصفرة فوراً بصفرةٍ مثلها . (كان قد اشترى في ذلك الصباح نفسه من السوق صفارة من تلك الصفارات الصغيرة التي يستعملها الأطفال ، لأنه لا يستطيع الاعتماد في الصفير على فمه الأثرم) . وكان اركل قد أبلغ شاتوف في أثناء الطريق انه سيتبادل اشارات مع ليبوتين ، حتى لا يراود شاتوف أي اشتباه .

قال شيجالوف وهو يخفض صوته :

ـ لا تخش شيئاً . سوف أتجنبهما ، فلا يبصراني .

وبدون أن يسرع ، قفل راجعا الى بيته عبر الحديقة المظلمة .

ان الناس يعرفون الآن أدق التفاصيل من حادثة مقتـل شاتوف . واليكم ما جرى :

في البداية تقدم ليبوتين يستقبل شاتوف واركل عند باب المغارة . فبادر شاتوف يقول له ، دون أن يحييه ، ودون أن يمد له يده ، رغبةً منه في الانتهاء من الأمر بأقصى ما يمكن من سرعة ، قال له بصوت قوي :

ـ هيه ، اين معولك ؟ أليس معك مصباح آخر ؟ لا تخف ! ليس في المكان مخلوق . ولو أطلقت قنبـلة من مدفع لمـا سمع أحـد في سكفورشنيكي شيئاً ! المطبعة هنا ، في هذا المكان تماما ...

قال شاتوف ذلك وهو يضرب بقدمه موضعاً من الأرض يقـع على مسافة عشر خطوات من زاوية المغارة فعلاً ، من جهة الغابة .

في تلك اللحظة نفسها وثب تولكاتشنكو على شاتوف من خلف ، وانقض اركل على كوعيه يمسكهما ، وهرع ليبوتين ينقض عليه من أمام. واستطاع الثلاثة أن يقلبوه فورا ، وأن يهشموه على الأرض . وعندئذ تدخل بطرس ستيفانوفتش مسلحاً بمسدسه .

يقال ان شاتوف قد التفت الى جهته حينذاك ، فاستطاع أن يتعرفه . ان مصابيح ثلاثة كانت تنير المشهد . أطلق شاتوف صرخة قصيرة ، يائسة، غير أن بطرس ستيفانوفتش أطبق مسدسه على جبهة شاتوف بيد ثابتـة واثقة ، وضغط الزناد ، فانطلقت الرصاصة في رأس شاتوف ، ولم يكن صوت انطلاقها قوياً فيما يقال . مهما يكن من أمر ، فان أحداً لم يسـمع صوت انطلاق الرصاصة في سكفورشنيكي . لكن شيجالوف الذي لم يكن

بعيدا بعداً كبيرا قد سمع الصرخة وصوت انطلاق الرصاصة حتماً ، ومع ذلك لم يتوقف ، وقد اعترف هو نفسه بهذا فيما بعد .

مات شاتوف تواً ، على وجه التقريب . وأظن أن بطرس ستيفانوفتش كان الشخص الوحيد الذى احتفظ لا بهدوئه فيما اعتقد ، بل بحضور ذهنه . فها هو ذا يجلس القرفصاء ، ويأخذ ينبش جيوب القتيل بيد متعجلة لكنها ثابتة . فلم يجد مالاً (كانت محفظة نقود شاتوف قد بقيت تحت وسادة ماريا اجناتيفنا) ، ولم يعثر الا على ثلاث وريقات لا قيمة لها : رسالة تتعلق بأعمال ، وعنوان كتاب ، وفاتورة مطعم فى الخارج كان شاتوف يحتفظ بها منذ سنتين لا يدرى الا الله لماذا ! دسّ بطرس ستيفانوفتش هذه الوريقات فى جيبه . واذ لاحظ حينئذ أن رفاقه المتجمعين حول الجثة كانوا يتأملونها دون أن يفعلوا شيئاً ، أخذ يشتمهم شتماً فظاً غليظاً . فسرعان ما ثاب اركل وتولكاتشنكو الى رشدهما ، فأسرعا ينفذان أوامره ، فهرعا الى المغارة ، وعادا منها بصخرتين كبيرتين تزن كل واحدة منهما نحو عشرين رطلاً . ولما كانت النية منصرفةً الى القاء الجثة فى الغدير الأقرب (الثالث) ، فقد ربطت الصخرتان بقدميها وعنقها . ان بطرس ستيفانوفتش هو الذى تولى القيام بهذا العمل ، أما تولكاتشنكو واركل فلم يزدا على أن أمسكا الصخرتين ، ونقلاها اليه . مدّ اركل صخرته أولاً . وبينما كان بطرس ستيفانوفتش يوثق قدمى الجثة متذمرا ويربطهما بالصخرة مدمدماً ، وقد دام هذا وقتاً طويلاً ، كان تولكاتشنكو مائلاً الى أمام ، على وضع يشبه أن يكون وضع الاحترام ، ممسكاً الصخرة الثانية بيديه الممدودتين لينقلها الى بطرس ستيفانوفتش بلا ابطاء متى أمره بذلك ، حتى انه لم يخطر بباله أن يضع حمله على الأرض بانتظار صدور الأمر . فلما فرغ بطرس ستيفانوفتش من عمله نهض وتأمل الوجوه التى

تحيط به ، تأملها بانتباه • وعندئذ انما حدث حادث غريب ، لم يكن يتوقعه أحد قط ، حادث أدهش الجميع •

سبق أن قلنا ان اركل وتولكاتشنكو هما اللذان عملا ، وان الآخرين لبثوا فى أماكنهم لا يفعلون شيئاً • وحين هجم الجميع على شاتوف فان فرجنسكى هرع هو أيضاء ولكنه لم يمسس شاتوف ولا ساعد فى طرحه على الأرض • أما ليامشين فانه لم ينضم الى الآخرين الا بعد أن أطلق فرخوفنسكى الرصاصة • وبينما كان فرخوفنسكى يربط الصخرتين بالجثة ، أى خلال عشر دقائق تقريبا ، كان من ينظر الى وجوه هؤلاء الناس يخيَّل اليه أنهم أشبه بمن لا يشعر بما يحدث ، ويحس أنهم الى الدهشة والاستغراب أقرب منهم الى القلق والاضطراب • ان ليبوتين ماثل الى أمام ، قرب الجثة • ووراءه ينظر فرجنسكى من فوق كتفه مستطلعاً ، حتى انه منتصب على رءوس الأصابع ليرى رؤية أحسن • أما ليامشين فقد اختبأ وراء فرجنسكى ، يختلس نظرة سريعة الى المشهد من حين الى حين، ثم ما يلبث أن يعود الى الاختباء فورا • ولكن حين فرغ بطرس ستيفانوفتش من عمله ونهض واقفا ، أخذ فرجنسكى يرتعش ارتعاشا شديدا من قمة رأسه الى أخمص قدميه على حين فجأة ، ثم ها هو ذا يضم يديه احداهما الى الأخرى ، ويصرخ خائفا :

ـ ليس هذا أبدا ! لا ، لا ، ليس هذا أبدا !

ولعله كان سيضيف الى هذا الكلام شيئاً جديدا لو أن ليامشين أمهله • غير أن ليامشين لم يلبث أن قبض عليه من الخلف فجأة ، وشده متشبثاً به تشبثاً قوياً ، وطفق يطلق صرخات حادة رهيبة • انه يتفق لرجل أصابه جزع مباغت وهلع عنيف ، أن يأخذ يصرخ بصوت ليس صوته المألوف ولا يمكن أن يفترضه له أحد أبداً فى الأحوال العادية • ان الأثر الذى يحدثه هذا الصوت فى النفس احساس لا يحتمل ولا يُطاق فى

بعض الأحيان • فكذلك كان ليامشين يصرخ بصوت ليس صوتا انسانيا بل هو صوت حيوانى • وظل ليامشين قابضاً على عنق فرجنسكى من خلف ، وظل يصرخ صراخا ما ينفك يشـــتد بلا توقف ، محملق العينين فاغر الفم ، ضارباً الأرض بقدميه فكأنه يقرع طبلا • فبلغ فرجنسكى من فرط الخوف أنه أخذ يصرخ هو أيضا ، محاولا أن ينتزع نفسه من عنـاق ليامشين ؛ وأخذ يتخبط ويجهد أن يضربه من خلف ما أمكنه أن يفعل ، وقد استبد به واستولى عليه حنق مسعور ما كان لأحد أن يتوقعه منه • وساعده اركل أخيراً فى التخلص من ليامشـــين • ولكن حين استطاع فرجنسكى المرتاع أن يتخلص من ليامشين ، نظر ليامشين حـوله فأبصر بطرس ستيفانوفتش فهجم عليه وهو يطلق صرخات جديدة • وتعثر بالجثة فسقط فوقها ، فتشبث ببطرس ستيفانوفتش تشبثاً بلغ من القوة أنه فى اللحظة الأولى لم يستطع لا بطرس ستيفانوفتش نفسه ولا تولكاتشنكو ولا ليبوتين أن يحملوه على تركه • فكان فرخوفنسكى يصرخ ويشتم ويضربه على رأسه بقبضتى يديه • حتى اذا أفلح فى الافلات منه أخيراً ، أمسك مسدسه وصوبه على فم ليامشين الفاغر • ولكن ليامشين ظل يصرخ رغم التهديد ، بينما كان تولكاتشنكو واركل وليبوتين ممسكين بذراعيه امساكا قويا •

وأخيرا لف اركل منديله حتى جعـــله كالكرة ، فأدخـله فى فم ليامشين بحذق ، فأوقف بذلك صراخه ، بينما كان ليبوتين وتولكاتشنكو يوثقان يديه وراء ظهره بحبل •

دمدم بطرس ستيفانوفتش وهو ينظر الى المجنون قلقاً :

ـ غريب !

لقد كان مدهوشاً أشد الدهشة •

وأردف يقول حالم الهيئة شارد الذهن :

ـ كنت أتصوره غيرَ ذلك !

وتُرك ليامشين فى حراسة اركل موقتاً . لقد كان ينبغى الاسراع. انهم قد صرخوا وأسرفوا فى الصراخ حتى ليمكن أن يكونوا قد نبّهوا أهل سكفورشنيكى . أخذ بطرس ستيفانوفتش وتولكاتشنكو مصباحيهما ، وأمسكا جثمان القتيل من تحت الرأس ؛ كما رفعه ليبوتين وفرجنسكى من القدمين . كان الجثمان ثقيلاً بالصخرتين المربوطتين به . وكان ينبغى قطع مسافة مائتى خطوة بل أكثر . ان أقوى هؤلاء الرجال هو تولكاتشنكو . وقد نصح بأن يكون المشى منتظماً، ولكن أحداً لم يُصغ اليه، وساروا كيفما اتفق . كان بطرس ستيفانوفتش يسير على اليمين . انه مقوس الظهر تقوساً شديدا ، يسند بكتفه رأسَ الميت ، ويمسك الصخرة من تحتها باليد اليسرى . واذ لم يخطر ببال تولكاتشنكو أن يساعده طوال نصف المسافة، فقد ناداه بطرس ستيفانوفتش شاتما . فدوّت صرخته القصيرة فى الصمت . ظل الرجال يتقدمون دون أن يقولوا كلمة . حتى اذا صاروا على حافة الغدير صرخ فرجنسكى يقول من جديد ، وقد ثناه حمله وأرهقه ثقله ، صرخ يقول بصوت قلق خائف :

ـ ليس هذا أبداً ؛ لا ، لا ، ليس هذا أبداً !

ان المكان الذى ينتهى عنده هذا الغدير الثالث ، وهو غدير كبير ، مكان خالٍ لا يرتاده أحد ، ولا سيما فى هذا الأوان المتقدم من السنة . والماء قرب الحافة قد اجتاحته الحشائش .

وُضعت المصابيح على الأرض . ورُجّحت الجثة بضع لحظات ثم رميت فى الغدير ، فكان لسقوطها فى الماء دوى أصم طويل .

رفع بطرس ستيفانوفتش مصباحه يحاول متابعة سقوط الجثة؛ وكذلك فعل الآخرون مستطلعين . ولكنهم لم يروا شيئاً : فان الجثة المثقلة

بالصخرتين قد هوت الى القـــاع رأساً ، وسرعان ما امّحت الدوائر التى ظهرت على سطح الماء حين سقوطها فيه . انتهى كل شيء .

قال بطرس ستيفانوفتش مخاطباً الجميع :

ـ أيها السادة ، ليس يخامرنى أى شك فى أنكم تشـــعرون الآن بذلك الزهو المرتبط دائما بتحقيق واجبٍ ارتضى المرء أن يقوم به حراً من تلقاء نفسه . واذا كنتم الآن ، وا أسفاهً ، أشد اضطرابا من أن تحسوا ذلك الشعور ، فلسوف تحسونه فى غدٍ حتماً ، والا كان عاراً وخزياً أن لا تحسوه . أما السلوك المشـين الذى سلكه ليامشـين ، فاننى أريد أن لا أرى فيه الا نوبة مرض ، ولا سيما أنه كان مريضاً بالفعل هذا الصباح فيما قيل لى . وأما أنت يا فرجنسكى ، فتكفيك لحظة تفكير حتى تدرك أن مصلحة القضية تجعل من المستحيل علينا أن نركن الى عهد يقطعه شاتوف على نفسه ، وأن ما فعلناه هو ما كان ينبغى فعله . سوف ترى فيما بعد أن الوشاية كانت مهيأة كل التهيئة . اننى أوافق على نسيان صيحاتك ! واعلموا أن لا شيء يهددنا الآن . فما من أحد سـيخطر بباله أن يشتبه فى أحد منكم ، وخاصةً اذا أحسنتم التصرف . أى أن كل شيء على وجه الاجمال رهن بكم ومتوقف على اقتناعكم بأنكم أحسنتم عملاً ، وهو اقتناع آمل أن يكون راسخاً فى أنفسكم منذ الغد . من أجل هـذا الغرض وأغراض أخرى انما اجتمعتم ؛ ولأنكم تؤمنون بأفكار واحدة انما أنشأتم بحريتكم هذا التنظيم ليساعد بعضكم بعضا ، وليكون كل منكم رقيباً على الآخـر اذا اقتضى الأمر ذلك . ان كلاً منكم يقـع على عاتقه عبء كبـير يجب أن يحمله ، وتقع على عاتقه مهمة ضخمة يجب أن يحققها . انكم مدعوون الى تجديد مجتمع منهوك فاسد عفن : فلتكن هذه الفكرة حافزاً يبث فيكم الشجاعة ويحضكم على العمل باستمرار ! ان جميع جهودكم يجب أن ترمى الى انهيار كل شيء : الدولة وأخلاقها . سنظل وحدنا واقفـين ،

نحن المهيئين منذ مدة طويلة لأن نستلم السلطة . فأما الأذكياء فسوف نجعلهم ملحقين بنا ؛ وأما الأغبياء فسوف نركب على ظهورهم . ما ينبغي أن يقلقكم هذا . يجب علينا أن نعيد تربية الجيل الحالي ، لنجعله جديرا بالحرية . ما يزال هناك ألوف من أمثال شاتوف . سوف ننظم صفوفنا من أجل أن نقود الحركة : انه لعار علينا أن لا نستولي على ما يقدّم نفسه الينا ان صح التعبير . أنا ذاهب توّاً الى كيريلوف . وفي صباح غدٍ ستكون معي الرسالة التي يصرّح فيها قبل موته بأنه مسئول عن كل شيء . وسيبدو الأمر معقولاً جداً . أولاً لأنه كان على خصام شديد مع شاتوف : لقد عاشا في أمريكا جنباً الى جنب ، فاتسع وقتهما لأن يكونا عدوين . وثانيا لأن شاتوف قد هجر عقائده القديمة وهذا أمر معروف ، فلا بد أن يكرهه كيريلوف لخيانته ولامكان وشاية شاتوف به ، فهذه اذن عداوة من العداوات التي لا سبيل فيها الى صلح . ذلك كله سيُذكر في الرسالة . وسيعترف كيريلوف أيضا بأنه آوى فدكا . وهكذا لن يستطيع أولئك الحمير أن يفهموا من الأمر شيئاً ، بل لن يخطر ببالهم أن يشتبهوا فيكم . غداً لن نلتقي أيها السادة . ان عليّ أن أقوم بجولة في المقاطعة . ولكنكم ستعرفون أخباري بعد غد . أنصحكم بأن تقضوا نهار غد في منازلكم . والآن يجب أن نسلك في العودة طرقاً مختلفة . اليك أعهد بليامشين يا تولكاتشنكو . ارجع به الى بيته . وتستطيع أن تؤثر في فكره ، وأن تشرح له خاصةً أن خوفه يمكن أن يكون خطراً أشد الخطر عليه . ولا أريد أن أشك في قريبك شيجالوف ، ولا فيك أنت يا سيد فرجنسكي : انه لن يشي بنا . ولا يبقى علينا الا أن نأسف لوضعه . على أنه لم يعلن أنه ترك الجمعية . لذلك لم يحن حين دفنه . ولكن فلنسرع يا سادة : الحذر واجب ، ولو كان الآخرون حميراً ...

انصرف فرجنسكي مع اركل . وقبل أن يعهد اركل بليامشين الى

تولكاتشنكو ، اقتاده الى قرب بطرس ستيفانوفتش وأعلن أن ليامشين قد ثاب الى رشده ، وأنه نادم ، وأنه ستغفر ، حتى انه لا يتذكر ما حدث له تذكراً واضحا .

انصرف بطرس ستيفانوفتش وحيدا ، وسلك الطريق الأطول ، وهو الطريق الذى يدور حول الغدران . فما كان أشد دهشته حين بلغ منتصف الطريق فاذا هو يرى ليبوتين ساعياً وراءه لاحقاً به ، سائلا اياه :

ـ بطرس ستيفانوفتش ، هل تعلم ان ليامشين سوف يشى بنا ؟

ـ لا بل سيثوب الى صوابه فيدرك أنه اذا وشى بنا كان هو نفسه أول من يذهب الى سيبريا . ما من أحد سيشى بنا الآن . وأنت أيضاً لن تشى .

ـ وأنت ؟

ـ سأسلمكم جميعا بطبيعة الحال متى انتبهت أيسر اشتباه فقدّرت أنكم مقبلون على خيانة . انك لتعلم ذلك . ولكنك لن تخون . أمن أجل أن تقول لى هذا انما ركضت ورائى مسافة فرسخين ؟

ـ بطرس ستيفانوفتش ، بطرس ستيفانوفتش ! قد لا نلتقى بعد اليوم أبداً !

ـ من أين تأتى بهذا الكلام ؟

ـ قل لى شيئاً واحداً لا أكثر ...

ـ ما هو ؟ أنا شخصيا أوثر أن تنصرف ...

ـ كلمة واحدة ، ولكن بشرط أن تكون صادقة : هل حلقتنا التى تتألف من خمسة أعضاء هى الحلقة الوحيدة فى العالم ، أم هل هناك

حلقات أخرى تبلغ عدة مئات ؟ اننى ألقى هذا السؤال من ناحية رفيعة بمعنى عال ٍ يا بطرس ستيفانوفتش •

ـ أرى ذلك من فرط اهتياجك • ولكن هل تعلم أنك أشد خطراً من ليامشين ؟

ـ أعلم ، أعلم ! ولكن أجبنى •

ـ ما أكبر حماقتك ! انى لأتساءل : فيم يهمك الآن أن تعرف أنحن حلقة واحدة أم مائة ؟

صاح ليبوتين يقول :

ـ معنى هذا أنه ليس هناك الا حلقة واحدة • كنت أقدّر ذلك • بل كنت واثقاً منه منذ مدة طويلة •••

وبدون أن ينتظر جوابا آخر استدار وغاب فى الظلام •

لبث بطرس ستيفانوفتش حالماً شارد الذهن لحظة • ثم قال يحدث نفسه فجأة : « لا ، لن يخون أحد منهم • ولكن يجب أن يبقوا معاً وأن يطيعوا ، والا فلسوف ••• على كل حال ما أحقرهم من ناس ! » •

٢

ذهب بطرس ستيفانوفتش أولاً الى بيته وهيأ حقيبته باعتناء دون تعجل • ان القطار السريع يسافر فى الساعة السادسة من الصباح • وهذا القطار الذى لا يسير الا مرةً كلَّ أسبوع يعمل منذ مدة قصيرة على سبيل التجربة • وكان بطرس ستيفانوفتش قد أبلغ « أصحابنا » أنه سيجول قليلاً فى المنطقة ، ولكن نياته كانت غير ذلك فى الواقع ، كما ظهر هذا فيما بعد •

فلما فرغ من اعداد حقيبته ، دفع أجرة مسكنه لصاحبة المنزل التى كان قد أبلغها أمر رحيله ، وذهب بعربة الى اركل الذى يسكن غير بعيد عن المحطة . ثم لم يتجه الى بيت كيريلوف الا فى الساعة الواحدة ، وقد دخل اليه من الممر الذى كان يسلكه فدكا .

كان بطرس ستيفانوفتش معتكر المزاج جدا . وعدا المزعجات الكبيرة التى كانت آخذة بخناقه (من ذلك مثلاً أنه ما يزال لا يعرف شيئاً عن ستافروجين) ، كان قد بلغه فيما أظن (لكننى لست واثقاً من هذا) نبأ جاءه سراً من بطرسبرج فى أغلب الظن ينبهه الى خطر كبير يهم أن يحدق به بعد مدة قصيرة . ان أساطير كثيرة تروج الآن فى مدينتنا عن هذا الموضوع طبعاً . ولكن لا يستطيع أن يعرف الحقيقة الا أولئك الذين مهمتهم أن يعرفوا كل شىء . أما أنا فأعتقد أن بطرس ستيفانوفتش لا بد أنه كان له عملاء فى خارج مدينتنا . فمن الجائز جداً أن يكون قد تلقى تنبيهاً ما . بل اننى لمقتنع ، رغم الشك الشديد المستخف الذى عبَّر عنه ليبوتين فى ذروة كربه ، أن بطرس ستيفانوفتش يمكن أن يكون له حلقتان أو ثلاث حلقات ، فى بطرسبرج أو فى موسكو مثلاً ؟ ولا بد أن يكون له على كل حال عدد من المنضوين ، وأن تكون له علاقات لعلها غريبة كل الغرابة . انه بعد رحيله بثلاثة أيام وصل الى مدينتنا أمرٌ بالقبض عليه فورا ، لا أدرى هل للجرائم التى ارتكبها عندنا أو لجرائم أخرى أيضا . وقد جاء هذا الأمر فى حينه ، ليقوّى الرعب الرهيب الذى يكاد يكون رعباً غيبياً ، أعنى الرعب الذى استولى على السلطات فى المدينة وعلى المجتمع كله ، بعد أن كان هذا المجتمع مصراً على عدم الاكتراث ، وذلك حين اكتُشفت جريمة قتل شاتوف العجيبة التى أوصلت اضطرابنا الى آخر مداه بملابساتها السرية الغريبة . ولكن الأمر بالقبض على بطرس ستيفانوفتش قد وصل بعد فوات الأوان ، فحين وصل هذا الأمر الى مدينتنا،

كان بطرس ستيفانوفتش قد وصل الى بطرسبرج واستقر فيها باسم مستعار. حتى اذا أحس أن الأمور تجرى مجرى سيئاً ، تسلل هارباً الى خارج البلاد على الفور . ولكننى أستبق الأحداث .

حين دخل بطرس ستيفانوفتش على كيريلوف كان خبيث الوجه شرس الهيئة ، حتى لكأنه حاقد على كيريلوف حقداً شخصياً فهو يريد أن ينتقم منه . وبدا على كيريلوف أنه سُرَّ برؤيته . واضح أنه كان ينتظره منذ مدة طويلة ، وأنه كان ينتظره على حالة من نفاد الصبر تكاد تكون مرضية . كان وجهه ساحباً أكثر مما عُهد فيه من شحوب . وكانت نظرة عينيه السوداوين ثقيلة ساكنة .

قال وهو ينطق بألفاظه فى مشقة :

ـ كنت أظن أنك لن تجىء .

ولكنه لم ينهض لاستقبال الزائر ، وظل جالساً فى ركن الديوان . فتفرس بطرس ستيفانوفتش فى وجهه صامتاً لا ينبس بكلمة . ثم قال له أخيراً :

ـ هيَّا ! كل شىء على ما يرام ! لم نعدل عن خطتنا ! مرحى !

وابتسم ابتسامةَ حمايةٍ وقحة ورعاية مؤذية . ثم أسرع يقول بمرح خبيث :

ـ اسمع . لقد تأخرتُ عن الموعد . وليس عليك أن تلومنى . لقد أهديت اليك ثلاث ساعات .

ـ لا أريد أن تهدى الىَّ ساعات اضافية . وليس فى امكانك أن تهدى الىَّ هدية ... يا غبى !

فارتعش بطرس ستيفانوفتش وسأله :

ـ كيف ؟

ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه . فقال له وهو على تلك الهيئة نفسها التي تعبر عن رعاية وقحة :

ـ ما أسرع تأذيك ! أوه ! أوه ! أراك غضبت ! ان الهدوء أفضل في مثل هذه اللحظة . وخير شيء هو أن تعد نفسك مثل كريستوف كولومب وأن لا تعدّني الا فأرة لا يمكنها أن تهينك . سبق أن نصحتك بهذا أمس .

ـ لا أريد أن أعدك فأرة !

ـ أيكون هذا مديحاً ! أوه ! الشاي بارد ! كل شيء مقلوب رأساً على عقب . ما هذا الذي أراه هناك في صحن ؟

واقترب من النافذة . وأضاف يقول :

ـ دجاجة بالرز ! ... ولكن لماذا لم يؤكل منها شيء ؟ أنت اذن في حالة تبلغ من الغرابة أن دجاجةً لا ...

ـ أكلت . ليس هذا شأنك . اسكت !

ـ طبعاً ليس هذا شأني . ولكن الأمرين في نظري لا يستويان . هل تتصور أنني لم أكد أتغدى ؟ فاذا صحَّ تخميني ، وهو أنك لست في حاجة الى هذه الدجاجة ، كان في وسعي أن ... هه ؟

ـ كُلْ ان استطعت .

ـ شكراً ، وسأشرب شاياً .

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وجلس الى المائدة فورا ، على الركن الآخر من الديوان ، وجعل يأكل بشراهة ، مع استمراره على مراقبة

ضحيته بطرف عينه . وكان كيريلوف يحدّق اليه بحنق يمازجه اشمئزاز، وكأنه لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره .

هتف بطرس ستيفانوفتش يقول دون أن يكف عن الأكل :

ـ يجب علينا مع ذلك أن نتكلم فى موضوعنا . لم تتراجع ، هه ؟ والرسالة ؟

ـ قررت الليلة أن الأمرين عندى سواء . سوف أوقّع الرسالة . وعن المنشورات التحريضية أيضا ؟

ـ نعم ، أيضا . سأملى عليك النص على كل حال . ما اهتمـــامك بهذا ؟ هل يُعقل أن يهمك مضمون هذه الرسالة فى مثل هذه اللحظه ؟

ـ ليس هذا شأنك .

ـ طبعاً . لا يعدو الأمر بضعة أسطر تقول فيها انك أنت وشاتوف قد وزعتما منشورات بمساعدة فدكا الذى كنت تؤويه . ان هذه النقطـة الأخيرة ، أعنى فدكا واقامته عندك ، أمر هام . هى أهم شىء . هأنت ذا ترى أننى صريح معك .

ـ تقول شاتوف ؟ لماذا شاتوف ؟ لن أتكلم عن شاتوف .

ـ يا للفكرة العجيبة ! فيم يهمك هذا ؟ انك لا تستطيع أن تلحق به ضرراً بعد الآن !

ـ رجعت زوجته . ولقد استيقظت وأرسلت تسألنى أين هو .

ـ أرسلت تسألك أين هو ؟ همْ ... هذا شىء ! قد تسأل مرةً أخرى ... يجب أن لا يعرف أحد أننى هنا ...

بدا القلق على بطرس ستيفانوفتش .

ـ لن تعرف شيئاً . لقد نامت ثانية . وان آرينا فرجنسكي ، مولّدتها، هي الآن بقربها .

ـ أظن ... أنها لن تسمع . ولكن من الأفضل ، كما ترى ، أن يُقفل الباب بالمفتاح .

ـ لا ، لن تسمع . أما شاتوف ، فسوف أخبئك في الغرفة الأخرى اذا جاء .

ـ شاتوف لن يجيء . وسوف تكتب أنكما تشاجرتما لأنه كان يستعد للوشاية بك هذا المساء ... وأنك قتلته .

هتف كيريلوف وهو يثب عن الديوان :

ـ مات ؟

ـ اليوم ، في الساعة الثامنة من المساء ، بل قل أمس ، لأن الساعة الآن هي الواحدة من الصباح .

ـ أنت الذي قتلته ... لقد تنبأت بذلك منذ أمس .

ـ لم يكن التنبؤ بذلك أمراً صعباً . قتلته بهذا المسدس نفسه ...

قال ذلك وأخرج مسدسه كمن يريد أن يريه كيريلوف ، ولكنه لم يعده الى جيبه ، بل ظل قابضاً عليه باليد اليسرى ، استعدادا لكل احتمال ...

وأردف يقول :

ـ انك لانسان غريب يا كيريلوف : ألم تكن تعرف أنت نفسك أن الأمور لا يمكن أن تنتهي الى غير هذه النهاية مع هذا الغبي ؟ لقد كان التنبؤ بذلك أمراً سهلاً . كم مرة شرحته لك ! لقد كان شاتوف يستعد

لوشاية ، وكنت أراقبه • ولم يكن يمكننا أن ندعه يفعل • أنت نفسك تلقيت تعليمات بهذا الشأن • وقلت لى منذ ثلاثة أسابيع •••

ـ اسكت • أنت قتلته لأنه بصق فى وجهك بمدينة جنيف •

ـ لهذا الأمر ولأمر آخر أيضا ، بل لأمور أخرى كثيرة • ولكن بدون كره على كل حال • ما لك ؟ لماذا هذه الهيئة ؟ أوه ! أوه ! علام هذه النظرة الى الأمور ! •••

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك ، وهبَّ يقف بوثبة ، ممسكاً مسدسه بيده لأن كيريلوف كان قد أمسك مسدسه الذى هيأه وألقمه منذ الصباح • وصوَّب بطرس ستيفانوفتش سلاحه نحو كيريلوف • فضحك كيريلوف ضحكة صفراء وقال له :

ـ اعترف أيها الوغد أنك تناولت مسدسك عالماً بأننى كنت سأقتلك ••• ولكننى لن أقتلك ••• رغم أن ••• رغم أن •••

وصوَّب الى بطرس ستيفانوفتش مرةً أخرى كأنه يجرِّب نفسه ، ولا يستطيع العدول عن اللذة التى يمكن أن يتمتع بها اذا هو قتله •

وكان بطرس ستيفانوفتش ما يزال ينتظر متأهبا ، مصمما على الانتظار الى آخر دقيقة دون أن يضغط الزناد ، متعرضاً بذلك لخطر تلقى الرصاصة الأولى : ان كل شىء يمكن توقعه من هذا « المهووس » • ولكن المهووس خفض ذراعه أخيراً ، وهو يرتعش ارتعاشا شديدا ، ويعجز عن النطق بكلمة واحدة •

وقال بطرس ستيفانوفتش خافضا سلاحه هو أيضا :

ـ كفى عبثاً ! كنت أعلم أنك انما تتسلى • ولكن هل تعلم أنك كنت تخاطر مخاطرة كبيرة ؟ لقد كان يمكن أن أضغط على الزناد •

وعاد يجلس على الديوان هادئاً ، وصبّ لنفسه الشاى بيدٍ ترتجف بعض الارتجاف •

وضع كيريلوف مسدسه على المائدة ، وجعل يسير فى الغرفة طولاً وعرضاً •

ـ لن أكتب أننى قتلت شاتوف ••• لن أكتب شيئاً ••• لن أوقّع الرسالة •

ـ لن تكتب ؟

ـ لا !

ـ يا له من جبن ! وياله من غباء !

كذلك هتف يقول بطرس ستيفانوفتش وقد اخضر لونه غضبا •

وأردف يقول :

ـ على كل حال ، كنت أتنبأ بذلك • ولكنك لا تغدر بى وأنا عاجزا عن كل حيلة • افعل ما يحلو لك • اذا استطعت أن أجبرك اجبارا فسوف أفعل • مهما يكن من أمر ، فأنت جبان !

لقد فقد بطرس ستيفانوفتش صوابه •

واستطرد يقول :

ـ طلبتَ منا مالاً ، وبذلت انا وعوداً كثيرة ••• لكننى لن أدعك هكذا : سوف أرى بعينى على الأقل كيف ستطلق الرصاص فى رأسك •

قال كيريلوف بلهجة حازمة وهو يقف أمامه :

ـ أريد أن تنصرف فوراً •

فأجابه بطرس ستيفانوفتش وهو يتناول مسدسه مرة أخرى :

ـ أما هذه فلا ! أبداً !... من يدرى ؟ لقد تُقرر أن تؤجل كل شيء الى غد ، خبناً أو جبناً ، ثم تمضى تشى بنا فى الغد لتقبض بضعة قروش أخرى . ذلك أنهم سيدفعون لك مبلغاً طيباً اذا أنت وشيت بنا . شيطان يأخذك . ان أمثالك لا يتورعون عن شيء . ولكن اطمئن . لقد تنبأت بالأمر : لن أنصرف قبل أن أهشّم رأسك بهذا المسدس ، كما فعلت بذلك الحقير شـاتوف ، اذا أنت خفت وأرجأت تنفيذ مشروعك . فلتذهب الى جهنم !

ـ أتصرّ حتماً على معرفة لون دمى ؟

ـ اعلم اننى لا أفعل هذا كرهاً بك أو بغضاً لك . أنت لا تعنينى . وانما أنا أعمل فى سبيل « القضية » . انك لترى أنه لا يمكن الاعتماد على أحد . لست أفهم من فكرتك شيئاً . لست أنا الذى أوحيت اليك بهـــذه الفكرة . حتى قبل أن تعـــرفنى ، كنت قد أطلعت أعضـــاء جمعيتنا على خطتك . لاحظ أن أحداً منهم لم يدفعك الى ذالك ، بل ان أحداً منهم لم يكن يعرفك . ولقد أسررت اليهم بكل شيء من تلقاء نفسك ، فى نوع من سورة عاطفية . فما ذنبنا اذا نحن وضعنا ، بالاتفاق معك ، وتلبيةً لاقتراح منك ، (نعم ، تلبيةً لاقتراح منك ، لاحظ هذا) ، أقول ما ذنبنا اذا نحن وضعنا خطه عمل يستحيل علينا أن نغيّر منها الآن شيئاً ؟ لا ، لا ، انك قد ارتبطت والتزمت . لقد قطعت على نفسك عهداً ، وقبضت مالاً . هــذا لا تستطيع أن تنكره ...

لقد تحمس بطرس ستيفانوفتش وهو يتكلم ، ولكن كيريلوف كان قد انقطع عن الاصغاء اليه منذ مدة طويلة . كان يذرع الغرفة حالم الهيئة، شارد الذهن !

قال وهو يقف أمام بطرس ستيفانوفتش مرةً أخرى :

ــ اننى آسف على شاتوف .

ــ وأنا أيضاً آسف عليه ، ولربما ..

ــ اسكت أيها الشقى ... سوف أقتلك .

كذلك أعول يقول كيريلوف وهو يحرك يده باشارة تهديد لا لبس فيها .

فنهض بطرس ستيفانوفتش بوثبة واحدة ، ورفع يده كمن يريد أن يحمى نفسه ، وقال :

ــ طيب ، طيب ، أنا كاذب ... اننى غير آسف عليه البتة ! ولكن كفى ، كفى !

فصمت كيريلوف واستأنف سيره فى الغرفة . ثم قال :

ــ لن أتراجع . أريد أن أنتحر الآن . الجميع أوغاد .

ــ فكرة عظيمة : ليس هناك الا أوغاد فى كل مكان ، ولما كان الانسان الشريف لا يستطيع الا أن يشعر من ذلك باشمئزاز ، فان الأفضل أن ...

ــ غبى ! أنا أيضا وغد ، مثلك ، ومثل جميع الناس ! لم يوجد رجل شريف فى يوم من الأيام .

ــ أخيراً وضع اصبعه على الحقيقة . كيف لم تدرك حتى الآن ، وأنت رجل ذكى ، ان جميع البشر سواء ، وأنه لا أحد خير أو شر من أحد . وانما هناك أذكياء وأغبياء ، وأنه اذا كان الجميع أوغاداً (وذلك خطأ على كل حال) فليس هناك اذن أناس شرفاء ؟

سأل كيريلوف وهو ينظر الى بطـــرس ستيفانوفتش مدهوشاً بعض الدهشة :

ــ ألست تمزح ؟ انك تتكلم بحرارة وبساطة . هل يُعقل أن يكون لأمثالك اقتناعات ؟

ــ كيريلوف ، أنا لم أستطع في يوم من الأيام أن أفهم لماذا تريد أن تنتحر . كل ما أعرفه أن انتحارك نابع من اقتناع واعتقاد ... ولكن اذا كنت تشعر بحاجة الى أن تفضي بما في نفسك ، ان صح التعبير ... فأنا مستعد للاســـتماع ... ولكن يجب أن لا يغيب عن بالنـــا أن الوقت يجري ...

ــ كم الساعة الآن ؟

أجاب بطرس ستيفانوفتش وهو ينظر في ساعته :

ــ هي الثانية تماما منذ الآن .

وأشعل سيجارة . وحدث نفسه قائلاً لها : « أظن أن التفاهم بيننا ما يزال ممكناً » .

ودمدم كيريلوف يقول :

ــ ليس لديّ ما أفضي به اليك .

قال بطرس ستيفانوفتش :

ــ انني أتذكر تذكراً غامضاً أن مدار المناقشة على الله ... لقد سبق أن شرحت لي هذا مرةً ، بل مرتين . فقلت لي : اذا أنت انتحرت أصبحت الهاً ، أليس هذا ما قلته ؟

ــ نعم ، أصبح الهاً .

حاذر بطرس ستيفانوفتش أن يبتسم . وانتظر . فرشقه كيريلوف بنظرة ماكرة . وقال له :

ـ ما أنت الا ماكر محتال وسياسى كاذب . انك تريد أن تستدرجنى الى مجال النقاش الفلسفى وأن تورى حماستى من أجل أن تُحلّ السلام والوئام ، من أجل أن تبدّد غضبى ، حتى اذا تصالحنا انتزعت منى الورقة التى تريدها بشأن شاتوف .

فقال بطرس ستيفانوفتش يجيبه بصراحة وبراءة توشكان أن تكونا طبيعيتين :

ـ لنسلّم جدلاً بأننى وغد ، ولكن فيم يهمك هذا الآن ياكيريلوف ! لماذا نتشاجر ؟ هلاّ قلت لى لماذا نتشاجر ؟ أنت لك طبيعتك ، وأنا لى طبيعتى ، ثم ماذا ؟ ثم اننا كلينا ...

ـ من الأوغاد ...

جائز ... ولكنك تعلم أنت نفسك أن هذه كلها كلمات لا أكثر .

ـ لقد ظللت طول حياتى أرغب فى أن لا تكون كلمات ، بل شيئاً آخر . اننى ما عشت الا من أجل هذا ... من أجل أن تكون شيئاً آخر غير الكلمات . وما زلت الى الآن أريد فى كلّ يوم أن لا تكون كلمات فحسب ...

ـ كل امرىء يبحث عما يناسبه ، ويسعى الى ما يوافقه ! ... ان السمكة ... أقصد ان كل انسان ينشد رخاءه بمعنى من المعانى . هذا كل شىء . وهو معروف منذ زمن طويل .

ـ تقول ينشد رخاءه ؟

ـ لا داعى الى الجدال فى الألفاظ •

ـ لا بل لقد أحسنت التعبير • الرخاء • صحيح • الله ضرورى ، اذن لا بد أن يوجد •

ـ تماما •

ـ لكننى أعلم أنه غير موجود ، ولا يمكن أن يوجد •

ـ ذلك أرجح •

ـ هل يُعقل أن لا تفهم أن انسانا من الناس لا يمكن أن يستمر فى الحياة حاملاً فكرتين كهاتين ؟

ـ فليس عليه اذن الا أن يطلق فى رأسه الرصاص •

ـ هل يُعقل أن لا تدرك أن المرء يمكن أن ينتحر لهـــذا السبب وحده ؟ انك لا تفهم أن من الممكن أن يوجد رجل ، رجل واحـــد بين ملايين الرجال ، قد لا يحتمل هذا التناقض فيعزف عن الحياة !

ـ لا أفهم الا شيئاً واحداً ، هو أنك تبدو متردداً ••• وذلك سىء جداً •

قال كيريلوف وهو ما يزال يمشى طولاً وعرضاً ، مظلم الهيئة ، حتى انه لم يسمع الجملة الأخيرة التى قالها بطرس ستيفانوفتش :

ـ ان ستافروجين ، هو أيضا ، قد التهمته الفكرة •••

ـ كيف ؟

كذلك هتف بطرس ستيفانوفتش قائلاً وهو يصيخ بسمعه • وتابع كلامه :

ـ أية فكرة ؟ هل حدثك عن نفسه ؟

ـ لا بل حزرت : حين يؤمن ستافروجين ، فانه لايؤمن بأنه يؤمن . وحين لا يؤمن ، فانه لا يؤمن بأنه لا يؤمن .

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول :

ـ همْ ... ان لستافروجين أمراً آخر ، أذكى من هذا .

وكان يقلق للمجرى الجديد الذى يجرى فيه الحديث ، ويلاحظ وجه كيريلوف الشاحب . قال يحدث نفسه : « شيطان يأخذه . انه لن ينتحر . لقد أوجست دائماً هذا . انه يتلذذ بتخيلاته . يا لهذه الزمرة من الناس ما أحطّها ! » .

ـ انك آخر من يبقى معى . فلا أحب أن نفترق افتراقاً سيئاً .

فتردد بطرس ستيفانوفتش لحظة قبل أن يجيب ، قائلاً لنفسه : « ما هذا أيضاً ؟ » . ثم قال يجيبه :

ـ ثق كل الثقة يا كيريلوف اننى لا أحمل لك أية عداوة من حيث أنا انسان ، ولا أضمر لك أى حقد شخصى ، ولكننى كنت دائماً ...

ـ أنت رجل شقى وفكر زائف ، ولكننى مثلك . وسوف أموت أنا ، وتحيا أنت .

ـ هل تريد أن تقول اننى أبلغ من السوء والرداءة والخبث مايضمن لى البقاء على قيد الحياة ؟

كان لا يعلم بعدُ هل يفيده أن يستمر فى الحديث أو لا يفيده . وقرر أن « يدع الأمر للظروف » . غير أن لهجة الاستعلاء والاحتقـــار التى يستعملها كيريلوف فى مخاطبته ، والتى طالما أزعجته وأغاظته فى الماضى ، تحنقه الآن أكثر من أى وقت مضى . لعل ذلك يرجع الى أن

كيريلوف سوف يموت بعد ساعة (ولقد كان بطرس ستيفانوفتش لا يحول بصره عنه رغم كل شيء) ، فكان ذلك يهوّن شأنه ويطفف قيمتـــه في نظره ، فهو انسان نصف حي نصف ميت ان صح التعبير ، انسان لايطيق بطرس ستيفانوفتش أن يحتمل كبرياءه وزهوه بنفسه .

ـ يخيّل الي أنك تسحقني بتفوقك لأنك ستنتحر ، هه ؟

قال كيريلوف الذي لم يسمع في هذه المرة أيضا ما قاله بطـــرس ستيفانوفتش :

ـ يدهشني أكبر الدهشة أن الناس يستمرون في الحياة .

ـ هم ! ... طيب ... لنسلّم جدلاً ... هـــذه فكرة ... ولكن ...

ـ قرد ! انك تسارع الى قول « نعم » لتستولي عليّ . اسكت . أنت لا تفهم شيئاً . اذا كان الله غير موجود فأنا الله .

ـ هذه بعينها هي النقطة التي لم أستطع أن أفهمها منك في يوم من الأيام : لماذا أنت الله ؟

ـ اذا كان الله موجوداً ، كانت الارادة كلها له ، وكنت أنا عاجزاً عن كل شيء في خارج ارادته . أما اذا لم يكن موجودا فالارادة كلهـــا ارادتي ، وعليّ أن أنادي بارادتي الخاصة .

ـ ارادتك الخاصة ؟ ولماذا عليك أن تنادي بها ؟

ـ لأن الارادة كلها الآن انما هي ارادتي . هل يُعقل أن لا يوجد على وجه الأرض كلها شخص يجرؤ أن ينـــادي بارادته الخاصة في صورتها القصوى بعد أن قتل الله وآمن بتلك الارادة الخاصة التي له . ان مثل من يعجز عن ذلك كمثل فقير ورث مالاً ولكنـه لا يجـــرؤ أن

يقترب من الكيس لأنه يعد نفسه أضعف من أن يحق له الاستيلاء عليه. أريد أن أنادى بارادتى أنا . سأفعل ذلك ولو فعلته وحدى .

ـ أحسنت ! افعله !

ـ يجب علىّ أن أطلق الرصاص فى رأسى لأن الصورة القصوى التى تتجلى فيها ارادتى هى الانتحار .

ـ ولكنك لا تنتحر وحدك . كثيرون انتحروا قبلك .

ـ لأسباب أخرى . أما للمناداة بالارادة الشخصية وحدها ، لا لأى سبب آخر ، فأنا الوحيد الذى ينتحر .

حدّث بطرس ستيفانوفتش نفسه قائلاً : « لا ، لن ينتحر » .

وقال منزعجاً مغتاظاً :

ـ هل تعلم ؟ لو كنت فى مكانك لجعلت ارادتى تتجلى فى أن أقتل شخصا آخر ، أما أن أقتل نفسى فلا . فبذلك يمكنك أن تكون نافعا . سأدلك على من تقتله ، اذا كنت لا تخاف . فى هذه الحالة تستطيع أن لا تطلق الرصاص على نفسك اليوم . يمكننا أن نتفاهم .

ـ أن أقتل شخصا آخر فذلك أدنى شكل من أشكال تجلى ارادتى. هذا تفعله أنت . هذا أنت . أما أنا فلست أنت : أنا أريد الشكل الأعلى، أريد الصورة القصوى . فسأنتحر .

جمجم بطرس ستيفانوفتش يقول لنفسه ساخطا : « اكتشف هذا وحده ! » .

واستأنف كيريلوف كلامه وهو ما يزال يذهب ويجيء فى الغرفة :

ـ يجب أن أنادى بأننى غير مؤمن . ان أعلى فكرة فى نظرى هى

أن الله غير موجود . تاريخ الانسانية بأسره يشهد لي . حتى الآن كان الانسان يخلق الهاً ليعيش دون أن ينتحر . أنا وحدي ، لأول مرة في تاريخ العالم ، أرفض أن أخترع الهاً . ألا فليعلم جميع الناس هذا ، مرةً الى الأبد .

قال بطرس ستيفانوفتش يحدث نفسه وقد ازداد قلقه : « لن ينتحر » .

وقال يحرضه :

ـ من الذي سيعلم هذا ؟ لسنا هنا الا اثنين . ربما ليبوتين ؟

ـ سيعلمونه جميعا ، جميعا ! لا شيء يخفى ! «هو» الذي قال ذلك .

وأشار بنوع من الحماسه الى صورة المسيح التي كان يشتعل أمامها سراج .

ثارت ثائرة بطرس ستيفانوفتش . قال :

ـ اذن ما زلت تؤمن «به» وتشعل سراجاً . ربما من باب الاحتياط لكل شيء ، هه ؟

لزم كيريلوف الصمت . وأضاف بطرس ستيفانوفتش قوله :

ـ في رأيي أنك ما تزال تؤمن به أكثر مما يؤمن به كاهن !

ـ بمن ؟ به « هو » ؟ اسمع ...

قال كيريلوف ذلك وتوقف محدقاً الى أمام كأنه في حالة نشوة ووجد ؟ وتابع كلامه :

ـ اسمع . فكرة عظيمة : في ذات يوم نُصبت ثلاثة صلبان . كان أحد المصلوبين يبلغ من قوة الايمان أنه قال للذي كان الى يمينه : « في

هذا اليوم نفسه ستكون معى فى الجنة » • وانتهى اليوم ومات الاثنـان ، ولم يجدا لا جنةً ولا بعثاً • لم يتحقق قول المصلوب • اسمع • ان ذلك الرجل كان أعظم رجل فى الأرض • بسببه انما وُجـــدت الأرض • فالأرض كلها وجميع ما عليها لا تكون بغيره الا جنونا • لم يوجد قبـله ولن يوجد بعده انسان يشبهه ولو تحققت معجزة • والمعجزة انمـا هى أن هذا الانسان لم يوجد أحد مثله ولن يوجد أحـــد مثله فى يوم من الأيام • فاذا كان الأمر كذلك ، اذا كانت قـوانين الطبيعـة لم تدار حتى « ذلك الانسان » ، اذا كانت لم تراع حتى معجزتها ، واضطرته أن يحيا فى وسط الكذب ، وأن يموت بسبب كذبة ، بينما الأرض كلها ليست الا أكذوبة ، ولا تقوم الا على الكذب والضلال ، فان قوانين هذه الأرض نفسها ليست الا كذبا ، وليست الا مهزلة شيطانية ! فعلام يحيا المرء ؟ أجب اذا كنت رجلاً !

ـ هذه مسألة أخرى تماما • اخال أنك تخلط بين شيئين مختلفين ، وهذا لا ينبئنى بأى خير • ولكن اسمح لى : ماذا اذا كنت الله ؟ مادا اذا انتهى الكذب فأدركت أن الكذب كان يصدر عن ذلك الاله القديم ؟

صاح كيريلوف يقول خارجاً عن طوره :

ـ هأنت ذا أخيراً فهمت ! الفهم اذن ممكن ، ما دام واحد مثـلك قد فهم • هل تدرك الآن أن سلامة الجميع انما تكون بالبرهان على هـذه الفكرة للجميع ؟ ومن الذى سيبرهن عليها ؟ أنا ! اننى لا أتصور كيف يستطيع ملحدٌ يعلم أن الله غير موجود ، كيف يستطيع أن لا ينتحر فورا • لأن يدرك المرء عدم وجود الله ، ثم لا يدرك فى الوقت نفسه أنه هو الله ، فتلك استحالة ، والا وجب على المرء أن ينتحر • اذا كنت تشعر بذلك فأنت ملك ، ولن تنتحر ، بل ستعيش فى المجد • واحد لا بد حتما

أن ينتحر أول من ينتحر . والا فمن عسى يبدأ ويبرهن ؟ انني أنا الذى سأنتحر لأبدأ وأبرهن . لست بعدُ الهاً الا بالرغم منى ، وأنا شقى لأننى « مضطر » أن أنادى بارادتى الخاصة . جميع الناس أشقياء لأنهم يخافون أن ينادوا بارادتهم . كان الانسان دائماً حتى الآن فقيراً وشقياً ، لأنه كان يخشى أن يحقق الصورة القصوى لارادته . كان لا يستعمل ارادته الا خفيةً وسراً ، كتلميذٍ فى مدرسة . انني بائس بؤساً رهيباً لأننى خائف خوفاً فظيعاً . الخوف لعنة الانسان ... لكننى سأنادى بارادتى ! أنا مضطر أن أؤمن بأننى لا أؤمن . سأبدأ ، وسأنهى . سأفتح الباب . وسأنقذ . ذلك وحده سينقذ جميع البشر ، وسيبدلهم تبديلاً جسمياً من الجيـــل المقبل . اذ ما ظل الانسان فى حالته الجسمية الراهنــة ـ ولقد فكرت فى هذا ملياً ـ فسيستحيل عليه استحالةً مطلقة أن يستغنى عن الاله القديم. لقد ظللت أسعى ثلاث سنين الى صفة ألوهيتى ، حتى وجدتها : ان صفة ألوهيتى هى حرية ارادتى ! ذلك كل شىء ! فبفضل ارادتى انما يمكن أن تتجلى الصورة القصوى لعدم خضوعى ، ولحريتى الجديدة ، حـــريتى الرهيبة . ذلك انها رهيبة . انني أنتحر لأبرهن على عدم خضوعى وعلى حريتى الجديدة .

كان وجهه شاحباً شحوباً شديداً ، وكانت نظرته ثقيلة . كان يبدو أنه يعانى حمـّى . خُيِّل الى بطرس ستيفانوفتش أنه سيقع على الأرض .

هتف كيريلوف يقول فجأة بوحى مباغت :

ـ أعطنى الريشة ! أَمْلِ علىّ ما شئت ، وسأوقّع على أننى قتلت شاتوف . أَمْلِ علىّ ما دام هذا يسلينى حتى الآن . لا أخشى ما قد يقوله العبيد المتغطرسون . لسوف ترى بنفسك أن كل ما كان خافياً سيُعلم . وستُسحق أنت ... أظن ! أظن !.

انتهز بطرس ستيفانوفتش اللحظة المواتية مرتعشاً من فرحه بالنجاح،

فنهض بوثبة واحدة ، وأسرع يضع الحبر والورق أمام كيريلوف فورا ، وأخذ يملي عليه :
« أصرّح أنا ألكسى كيريلوف ... » .
ـ قف ! لا أريد ! لمن أصرّح ؟
كان كيريلوف يرتعش كأن به حمى . ان هذا التصريح والفكرة التى أوحاها اليه فجأة ، يستغرقان كل انتباهه ويفتحان مخرجاً موقتاً لنفسه المرهقة التى أسرعت تندفع فيه فوراً .
ـ لمن أصرّح ؟ أريد أن أعرف لمن أصرح !
ـ لا تصرّح لأحد ، بل للجميع ، لأول من سيقرأ . لماذا التحديد ؟ هل تريد أن تصرّح للعالم كله ؟
ـ للعالم كله ؟ مرحى ! وبدون أى ندم ! لا أريد ندماً ! لا أريد أن أخاطب السلطات .
ـ لا ! فلتذهب السلطات الى جهنم ! هيّا اكتب اذا كنت جاداً !
كذلك هتف بطرس ستيفانوفتش ، ثائرَ الأعصاب .
ـ انتظر . أريد أن أرسم فى أعلى الصفحة فماً ماداً لسانه .
ـ سخافة ! لا داعى الى الرسم . يمكن التعبير عن كل شىء باللهجة وحدها .
أصبح بطرس ستيفانوفتش لا يكاد يستطيع كظم غيظه .
قال كيريلوف :
ـ باللهجة ؟ حسن جداً . نعم ، باللهجة ، باللهجة . أَمْلِ علىّ اللهجة !
أخذ بطرس ستيفانوفتش يملى عليه بصوت ثابت صارم ، مائلاً على كتف صاحبه ، متابعاً بانتباه شديد كلّ حـــرف من الأحـــرف التى كان كيريلوف يرسمها بيد مرتعشة من الانفعال :

« أصرّح أنا ألكسى كيريلوف ، بأننى فى هذا ... من شهر تشرين الأول (اكتوبر) ، عند الساعة الثامنة مساءً ، قد قتلت الطالب شاتوف فى الحديقة ، بسبب خيانته ووشايته عن المنشورات التحريضية وعن فدكا التى أقام عندنا بعمارة فيليبوف عشرة أيام . واننى انتحر الآن بطلقة مسدس لا لأن ضميرى يعذبنى ، أو لأننى خائف منكم ، بل لأننى قد وضعت مشروع الانتحار هذا منذ كنت فى خارج البلاد . . »

سأله كيريلوف مدهوشاً مستاءً :

ـ أفهذا كل شىء ؟

فقال بطرس ستيفانوفتش وهو يحاول أن ينتزع منه الرسالة :

ـ لا تزد كلمة واحدة !

هتف كيريلوف يقول :

ـ قف !

ووضع يده على الورقة . واستطرد :

ـ ما هذا السخف ! أحب أن أقول مع من قتلت . لماذا فدكا ؟ والحريق ؟ أريد أن أقول كل شىء ، وأن أشتمهم فوق ذلك ! اللهجة ! اللهجة !

قال بطرس ستيفانوفتش متوسلاً الى صاحبه ، خائفاً أن يمزق كيريلوف الورقة :

ـ هذا كاف يا كيريلوف . أؤكد لك أن هذا يكفى ! من أجل أن يصدّقوك يجب أنَ يكون كلامك أغمض ما يمكن ، يجب أن لا يشتمل الا على اشارات . يجب أن لا تبدى الا طرفاً من الحقيقة ، طرفاً صغيراً هو القدر اللازم لجذبهم واغرائهم . مهما نقل نحن ، فلسوف يكذبون هم أكثر منا ، ولسوف يصدّقون طبعا ما يكونون قد لفّقوه أكثر مما يصدّقون

ما نلفقه نحن ، وهذا أفضل • أعطني الورقة • هى هكذا كاملة • هيا ! أعطنيها !

كان بطرس ستيفانوفتش يحاول أن يستولى على الرسالة • وكان كيريلوف يصغى اليه محملق العينين ، وكأنه يبذل جهداً من أجل أن يفهم ، ولكن كان واضحاً أنه أصبح لا يفهم شيئاً •

صرخ بطرس ستيفانوفتش يقول غاضباً على حين فجأة :

ـ ما هذا يا رب ! لم يوقع حتى الآن • ما بالك تحملق هكذا ؟ هلاّ وقعت !

فدمدم كيريلوف يقول :

ـ أريد أن أشتمهم •••

ـ اكتب : عاشت الجمهورية ! هذا كافٍ •

فافتتن كيريلوف بهذا الاقتراح أعظم الافتتان ، وزأر يقول :

ـ أحسنت ! « عاشت الجمهورية الديموقراطية الاجتماعية الشاملة أو الموت ! » لا ، لا ، لا هكذا ! بل : « حرية ، مساواة ؟ أخوة ؟ أو الموت ! » • هذا أفضل ! هذا أفضل كثيراً •

وبلذة واضحة كتب تلك الجملة تحت توقيعه •

كرر بطرس ستيفانوفتش يقول :

ـ كفى ! كفى !

ـ انتظر قليلاً أيضا ! اسمع ، أريد أن أوقع مرة أخرى باللغة الفرنسية « من كيريلوف ، السيد الروسى ، المواطن فى العالم » • هأ هأ هأ ! بل انتظر ، وجدت ما هو أفضل من ذلك أيضاً ! أوريكا ! « طالب روسى ، مواطن فى العالم المتمدن » • عظيم !

ووثب عن الديوان ، وتناول مسدسه الموضوع على النافذة بحركة سريعة ، وهرع الى الغرفة المجاورة وأغلقها وراءه بالمفتاح • لبث بطرس

ستيفانوفتش لحظةً حالماً ، متجهاً ببصره الى الباب . وخاطب نفسه قائلاً :
« اذا عزم أمره فوراً فقد ينتحر ، أما اذا أخذ يفكر فلن يحدث شيء ! » .

وبانتظار ما سيقع ، تناول الرسالة وجلس وأعاد قراءتها ، فأعجبته كثيراً . وجعل يحدث نفسه قائلاً :

« ما الذي نحن في حاجة اليه جملةً ؟ نحن في حاجة الى أن نشوشهم فترةً من الوقت ، وأن ندفعهم في طريق خطأ . الحديقة ؟ لا حديقة هنا ، وسينتهون اذن الى ادراك أن الحديقة المقصودة في هذه الرسالة انما هي حديقة سكفورشنيكي . ولكن يكون قد انقضى بعض الوقت قبل أن توافيهم هذه الفكرة . وبعد ذلك يستغرق البحث في الحديقة وقتاً آخر . فاذا اكتشفوا الجثة أخيراً ، أدركوا أن الرسالة كانت صادقة فيما قالته ، ولا بد أن يكون سائر ما قالته صادقا ، ومنه قصة فدكا . ولكن ما فدكا ؟ ان فدكا هو الحريق الذي أُشعل ، وليبادكين الذي قتل . كل شيء اذن قد صدر عن هنا ، عن عمارة فيليبوف . بينما هم لم يروا شيئاً ولا خطر ببالهم شيء ! لسوف يفقدون صوابهم حقا . ولن يدور في خلدهم أن يكون « لأصحابنا » شأن في هذه الأمور كلها . سوف يدورون حول شاتوف وكيريلوف وفدكا وليبادكين . ولكن علام هؤلاء القتلى جميعا ؟ ذلك سر سيظل يصعب عليهم أن يجدوا حلاً له ! ... غريب ... ما باله لم يطلق على نفسه النار حتى الآن ! ... » .

كان بطرس ستيفانوفتش يقرأ النص الذي أملاه ويعجب به ، ومع ذلك كان يصيخ بسمعه شاعراً بقلق يعذبه تعذيباً شديداً . واعترته نوبة حنق مسعور على حين فجأة . ونظر في ساعته : كان الوقت قد تقدم كثيراً . ان كيريلوف قد حبس نفسه في الغرفة المجاورة منذ أكثر من عشر دقائق . تناول بطرس ستيفانوفتش الشمعدان واقترب من الباب . وخطر بباله في تلك اللحظة نفسها أن الشمعة ستكون قد ذابت كلها بعد عشرين دقيقة ،

وأنه لا يملك شمعة أخرى غيرها . وضع يده على قبضة الباب ، ومدّ آذنه : لم يسمع شيئاً . وفجأة فتح الباب ورفع الشمعة ، غير أن شيئاً ما قد وثب عليه معولاً . فأسرع يعيد اغلاق الباب ، واستند اليه بكل ثقله. لم يعد يُسمع شيء . صمت كصمت الموت .

لبث بطرس ستيفانوفتش مدة طويلة واقفاً ، متحيراً ، والشمعة بيده. انه حين فتح الباب لم يستطع أن يميز شيئاً كثيراً . ولكنه لمح كيريلوف في آخر القاعة بسرعة كومض البرق ، لمحه واقفا قرب النافذة ، وأدهشه كثيرا وثوب المهندس عليه ذلك الوثوب الذي يعبّر عن حنق حيـــواني وحشي . ارتعش بطرس ستيفانوفتش ، ووضع الشمعة على المائدة ، ورفع ديك المسدس ، ومضى بخطى كخطى الذئب يتربص في آخر الغرفة : هكذا يكون لديه متسع من الوقت لأن يصوّب ويشد الزناد قبل كيريلوف، اذا فتح كيريلوف الباب وهجم عليه .

أصبح بطرس ستيفانوفتش لا يصدّق أن كيريلوف سوف ينتحر . كان يحدّث نفسه قائلاً : « انه واقف في وسط الغرفة يفكر . في وسط غرفته المظلمة المشئومة ... ولقد وثب الى أمام وهو يزأر ... هنـــاك احتمالان : فاما انني أزعجته في اللحظة التي همّ أن يضغط فيهـــا زناد مسدسه لينتحر . واما انه يتساءل ما السبيل الى قتلي . نعم ، هـــذا هو الأمر . انه يفكر . هو يعلم أنه اذا جبن عن الانتحار ، فلن أنصرف أنا قبل أن أقتله . اذن يجب عليه أن يقتلني حتى لا أقتله . وهذا الصمت المستمر ! ... أنكى ما في الأمر أنه يؤمن بالله ، بل انه يؤمن بالله أكثر مما يؤمن بالله كاهن من الكهان ... لا لن ينتحـــر ! ما أكثرهم الآن ، هؤلاء « الشاذين » ! وغد ! سافل ! ولكن الشمعة ! الشمعة ! بعـد ربع ساعة ستكون قد ذابت حتماً ... يجب انهـــاء الموضـــوع . يجب انهاء الموضوع مهما كلف الأمر ... ثم انني أستطيع أن أقتله الآن . الآن

وقد وقّع الرسالة لن يظن أحد انني أنا القاتل : يمكنني أن أضع الجثة وضعاً يوهم بأنه انتحر انتحاراً . سأضع المسدس فارغاً في يده ... ولكن كيف أقتله ؟ اذا فتحت الباب هجم عليّ مرة أخرى وأطلق قبل أن أطلق ... نعم ، ولكنه لن يصيبني . هذا مؤكد . » .

هكذا كان بطرس ستيفانوفتش يترجح متخبطاً بين ضرورة المبادرة وبين التردد عن العمل ، وهو يرتعش من نفاد الصبر . وأخيراً تناول الشمعة واقترب من الباب جاعلاً مسدسه أمامه . وحاول باليد اليسرى التي تحمل الشمعدان أن يمسك قبضة الباب وأن يديرها بغير صوت ، ولكن قبضة الباب صرّت صريراً مسموعاً . فسرعان ما قال بطرس ستيفانوفتش لنفسه : « سوف يطلق النار » . ودفع الباب بضربة قوية من قدمه ورفع الشمعدان وصوّب المسدس . لا صرخة ، و لاانفجار . الغرفة خالية .

ارتعش بطرس ستيفانوفتش . لم يكن للغرفة الا باب واحد هو الباب الذي دخل منه . لم يهرب اذن كيريلوف . رفع بطرس ستيفانوفتش الشمعة الى أعلى، وجال ببصره على الغرفة : لم ير أحداً . نادى كيريلوف، بصوت خافت أولاً ، ثم بصوت قوي . لا جواب .

« أيكون قد هرب من النافذة ؟ » .

وكانت الكوة مفتوحة . «سخف . لايمكنه أن يهرب من الكوة..». مضى بطرس ستيفانوفتش الى النافذة رأساً . « لا ، مستحيل » . وفجأة التفت بحركة قوية ، وجمد في مكانه .

عند الجدار المقابل ، توجد خزانة على يمين الباب . وعلى يمين هذه الخزانة ، في الزاوية التي تتشكل من التقائها بالجدار ، كان كيريلوف واقفا على وضع غريب كل الغرابة : فهو جامد ، ساكن ، مسبلٌ يديه على طول جذعه ، قائم الرأس ، ملتصق الظهر بالجدار ، يبدو كأنه يريد أن

بمَّحى ، وأن يختفى أكبر اختفاء ممكن • كان يريد قطعاً أن يتقى نظرة بطرس ستيفانوفتش • أمر يصعب تصديقه • وكان بطرس ستيفانوفتش، من المكان الذى هو فيه ، لا يرى الا الأجزاء البارزة من هذه القامة ، ولا يجرؤ أن يقترب ليرى كيريلوف رؤية أوضح ، وليحل اللغز ويكشف السر • ان قلبه يخفق خفقاناً ثقيلاً • وفجأةً ، استولى عليه حنق مجنون : فها هو ذا يصرخ صراخا شديدا ، ويضرب بقدميه الأرض ، ويهجم على كيريلوف •

ولكن حين صار على مقربه منه ، حتى كاد يلمسه ، توقف بغتةً وقد استبد به ارتياع • ان الشيء الذى شدهه خاصةً هو أنه رغم صرخاته ووثوبه المسعور ، ظل الرجل ساكنا سكونا مطلقا ، لا يختلج اختلاجة واحدة ، فكأنه تمثال من صخر أو لعبة من شمع • وكان وجهه مصطبغاً بصفرة غريبة ، وكانت عيناه السوداوان تحدقّان ثابتتين الى نقطة فى الفضاء أمامه • خفض بطرس ستيفانوفتش الشمعدان ورفعه ، فأنار بذلك جميع أجزاء ذلك الوجه المتجمد • ولاحظ على حين فجأة أن كيريلوف ، رغم تحديقه الثابت الى أمام ، كان ينظر اليه بطرف عينه ، ولعله كان يرصده• فخطر بباله عندئذ أن يقرّب الشمعة من وجه « ذلك السافل » ، فيحرقه ليرى ما عساه يفعل • ولاح له فى تلك اللحظة نفسها أن ذقن كيريلوف تتحرك ، وأن ابتسامة ساخرة تلمّ بشفتيه ، كأنه قد اكتشف غرضه • فجُنّ جنون بطرس ستيفانوفتش خوفا وغضبا وأمسك كيريلوف من كتفه •

ان ما حدث بعد ذلك قد بلغ من الهول والسرعة أن بطرس ستيفانوفتش لم يستطع بعد ذلك فى يوم من الأيام أن يتذكر تسلسل الحوادث على وجه الدقة • انه ما ان أمسك كيريلوف حتى خفض كيريلوف جسمه بغتةً ، ثم اذا هو بضربة من رأسه يسقط الشمعة على

الأرض . لقد تدحرج الشمعدان بضجه قوية ، وانطفأت الشمعة . وفى تلك اللحظة نفسها أحسّ بطرس ستيفانوفتش بألم شديد فى خنصر يده اليسرى . فصرخ صرخة طويله . لقد تذكر فيما بعد أنه وقد فقد صوابه تماما ، قد ضرب جمجمة كيريلوف بأخمص المسدس ثلاث ضربات ، فكان كيريلوف ما يزال يعضّ اصبعه . واستطاع بطرس ستيفانوفتش أخيرا أن يحمله على ارخاء اصبعه ، وهرع يخرج من الغرفة متلمساً طريقه فى الظلمات ، بينما كانت تلاحقه صرخات رهيبة تكررت عشر مرات :

ـ فورا ! فورا ! فورا ! ...

ولكن بطرس ستيفانوفتش ظل يركض ، وحين دوّت طلقة المسدس كان قد وصل هو الى الدهليز . فلما سمع دوى الرصاص توقف ، ولبث ساكناً بضع دقائق ، يفكّر فيما يجب عليه أن يفعله . وأخيراً قرر أن يعود الى الغرفة التى كان فيها كيريلوف . كان عليه قبل كل شيء أن يعثر على الشمعة التى أسقطها كيريلوف من يديه ، والتى لا بد أنها ملقاة على يمين الخزانة . ولكن كيف يشعلها ؟ وهذه صورة غامضة تعود الى ذهنه: بالأمس ، حين ركض الى المطبخ حيث كان فدكا يأكل ، قد لمح فى أغلب الظن علبة كبريت فوق لوح كبير من خشب أحمر . فهاهو ذا يتجه الآن الى باب المطبخ تلمساً ، فيفتحه ، ويتبع الممر الصغير ، ويهبط الدرجات الثلاث ، ويمد يده الى ذلك الموضع نفسه من لوح الخشب ، فاذا هو يقع على علبة كبريت ملأى فعلاً ، فيأخذها ، ويعـــود صاعداً الى فوق ، فى الظلام أيضا . حتى اذا صار قريبا من الخزانة ، حيث ضرب كيريلوف بأخمص مسدسه ، تذكر اصبعه المعضوضة فجأة ، تذكرها حينئذ فقط . وفى تلك اللحظة نفسها أحس بألم لا يكاد يُطاق . فكزّ أسنانه ، وأشعل الشمعه ، وأعادها الى الشمعدان ، وألقى على ما حوله نظرة دائرة : كان جثمان كيريلوف راقدا على الأرض ، قرب النافذة المفتوحة كوّتها ، متجه

القدمين نحو الزاوية القائمة من الغرفة • ان الرصاصة التى انطلقت من المسدس فى الصدغ الأيمن قد خرجت من الجهة اليسرى نحـــو أعلى الجمجمة ، فبذلك اخترقت الرأس من طرف الى طرف • وهذه اللطخات من الدم والدماغ قد انتثرت هنا وهناك • وكان المنتحر ما يزال ممسكاً سلاحه بيده • لا بد أنه قد مات على الفور •

فحص بطرس ستيفانوفتش كل شىء بعناية ، ثم نهض وخرج ماشياً على رءوس الأصابع • وأغلق الباب وراءه • ووضع الشمعدان على المائدة فى الغرفة الأولى ، وفكر لحظةً ، فقرر وأن لا يطفىء الشـمعة ، اذ قال لنفســه انها لا يمكن أن تسبب حريقـاً • وبعد أن ألقى نظرة أخيرة على الرسالة التى كانت موضـوعة فى مكان بارز ، ابتسـم على غير ارادة منه ، وترك الجناح سائراً على رءوس الأصابع أيضاً ، لا ندرى لماذا !

حتى اذا تسلل الى الخارج من الممـــر الذى كان يسلكه فدكا ، حرص على أن يسده وراءه بعناية واهتمام •

٣

فى الساعة السادسة الا عشر دقائق تماما ، كان بطرس ستيفانوفتش واركل يذهبان ويجيئان على رصيف المحطة أمام صف طويل من حافلات القطار السريع • ان بطرس ستيفانوفتش مسافر ، وقد رافقه اركل مودعاً• كانت الأمتعة قد سُجِّلت ، وكانت حقيبة السفر قد وُضعت على مقعد فى احدى حجرات الدرجة الثانية ايذانا بأن المكان محجوز • وقد انطلقت الاشارة الأولى التى تؤذن برحيل القطار ، فالمسافرون ينتظرون الآن قرع الجرس بالاشارة الثانية • وكان بطرس ستيفانوفتش ينظر يمنةً ويسرةً لا يحاول أن يختبىء عن الأبصار ، وكان يلاحظ الناس الذين يدخلون

حافلات القطار ، بانتباه شديد • ولكنه لم ير أي صديق ، ولم يُتح له أن تحيي بحركة من الرأس الا تاجرا كان يعرفه معرفة غامضة ، وكاهناً شاباً كان ذاهباً الى أبرشيته التي تبعد عن المدينة محطتين •

واضح أن اركل كان يود في هذه اللحظات الأخيرة لو يتكلم في أمور هامة ، رغم أنه ربما كان لا يعلم على وجه الدقة ما الذي يود او يتكلم فيه ، ولكنه لا يجرؤ أن يكون هو البادىء بالكلام • وكان يبدو له أن بطرس ستيفانوفتش قد ضاق ذرعاً بوجوده ، وأنه ينتظر انطلاق الاشارة الثانية من الجرس مؤذنة بتحرك القطار •

قال اركل على خجل ووجل ، وكأنه يريد أن ينبِّه بطرس ستيفانوفتش الى خطر ما :

ــ انك تنظر الى الناس بطلاقة وحرية •••

ــ لم لا ؟ ما المانع ؟ لا ينبغي لي بعدُ أن أختبيء • لم يحن الأوان بعد • اطمئن • كل ما أخشاه هو أن يرسل الشيطان الينا ليبوتين : انه اذا سمع شيئاً فسيهرع الينا فورا •

قال اركل وقد عزم أمره آخر الأمر على أن يتكلم جاداً :

ــ بطرس ستيفانوفتش ، انهم ليسوا بمضمونين •

ــ من ؟ ليبوتين ؟

ــ هو والآخرون •

ــ سخف ! بعد الذي جرى أمس ، أصبحت قابضاً على زمامهم جميعا • لا أحد منهم سيخون • لا بد أن يفقد واحدهم عقله حتى يخاطر هذه المخاطرة •

ــ بطرس ستيفانوفتش ، سيفقدون عقولهم •

لعل هذه الفكرة قد سبق أن خامرت فكر بطرس ستيفانوفتش ، لذلك أزعجته ملاحظة اركل مزيداً من الازعاج •

ـ أتراك خائفا أنت أيضا يا اركل ؟ انني أعتمـــد عليك أكثر من اعتمادى على جميع الآخرين • أنا أعرف الآن ما قيمة كل واحد منهم ، انني أعهد بهم اليك ، فأطلعهم على ما حدث ، بل اذهب اليهم فى هـــذا الصباح نفسه • أما تعليماتى المكتوبة فاقرأها عليهم غدا أو بعد غد حين يكونون قد ثابوا الى أنفسهم وعاد اليهم رشـــدهم ••• ولكن ثق أنهـم سيكونون ، حتى منذ الغد ، قادرين على أن يسمعوها وأن يفهموها • ذلك أنهم خائفون خوفا رهيبا ، وسيصبحون كالشمع ليونة ! ••• أنت خاصةً لا تفقدنْ شجاعتك •

ـ آه يا بطرس ستيفانوفتش ، الأفضل أن لا تسافر !

ـ ولكننى لن أغيب الا عدة أيام • سأعود قريبا •

قال اركل بحذر ولكن بلهجة ثابتة :

ـ بطرس ستيفانوفتش • هبك ذهبت حتى الى بطـــرسبرج ••• أتظن أننى لا أدرك أنك انما تعمل فى سبيل « القضية » وحدها ؟

ـ لم أكن أنتظر منك أقل من هذا يا اركل • اذا كنت قد حزرت اننى مسافر الى بطرسبرج ، فلا بد انك أدركت أيضا أمس أننى لم أكن أستطيع ، فى مثل تلك اللحظة ، أن أقول لهم اننى مسافر الى بعيد ، وذلك حتى لا أفزعهم • لقد رأيت بنفسك صنف هؤلاء الناس • ولكنك تدرك اننى مسافر لأمر خطير ، خطير أقصى الخطورة ، أمر يعنينا جميعا ويتعلق بنا جميعا ، ولا أسافر هربا كما يفترض شخص مثل ليبوتين •

ـ بطرس ستيفانوفتش ، هبْك سافرت حتى الى الخارج ، فلسوف أفهم ذلك • أنا أدرك أن المفروض فيك والمطلوب منك أن تكون حذراً،

حريصا على شخصك ، لأنك أنت كل شيء ، أما نحن فلسنا شيئاً • اننى أفهم يا بطرس ستيفانوفتش •

وكان صوت الشاب المسكين يتهدج ويختلج •

ـ شكراً يا اركل ! آى ••• لقد لمست خنصرى المريضة •••

كان اركل قد صافح بطرس ستيفانوفتش بخراقة ، فلمس اصبعه الجريحة المضمدة بضماد من قماش التافتاه الأسود •

وأردف بطرس ستيفانوفتش يقول :

ـ أكرر لك مرةً أخرى اننى لا أسافر الى بطرسبرج الا التماساً للأخبار • وقد لا أمكث فيها الا أربعاً وعشرين ساعة أعود بعدها الى هنا• ومن أجل أن أحوّل عنى الشبهات سوف أقيم فى الريف، عند جاجانوف• اذا تخيلوا أنهم معرّضون لخطر فسأضع نفسى فى مقدمتهم ، فأكون أول من يصاب • على كل حال ، اذا أطلت اقامتى ببطرسبرج ، فسأعلمك فوراً ••• بالطريقة التى تعرفها ••• فتتولى أنت ابلاغهم •

وانطلقت الاشارة الثانية التى تؤذن بتحرك القطار بعد قليل •

ـ لم يبق لنا الا خمس دقائق • اسمع • اننى لا أريد أن تتفرق الحلقة التى هنا وأن تتبعثر • لا لأننى خائف ••• فلا تخش علىّ شيئاً• ان حلقات شبكتنا كثيرة ، ولست أحرص على هذه حرصا خاصا • ولكنها تزيد حلقات الشبكة حلقةً على كل حال • ثم اننى أعلم أن فى وسعى أن أعتمد عليك ، رغم اننى أتركك هنا وحيدا فى وسط هؤلاء الحمقى الأغبياء • لا تخش شيئاً • لن يخونوا ، لن يجسروا أن يخونوا •••

هنا رأى بطرس ستيفانوفتش فتى كان مقبلاً عليه بفرح ، فصاح

بطرس يسأله بصوت مرح ، صوت يختلف كل الاختلاف عن صوته فى حديثه مع اركل :

ـ آ ... أأنت مسافر اليوم ؟ أتركب القطـــار السريع ؟ لم أكن أعرف ذلك . الى أين أنت ذاهب ؟ الى عند امك ؟

ـ لا بل اننى ذاهب الى أبعد من ذلك ، الى « ر ... » . ثمـــانى ساعات فى القطار ! وأنت ؟ الى بطرسبرج ؟

كذلك سأله الفتى ضاحكاً، فأجابه بطرس ستيفانوفتش وهو يضحك ضحكاً صريحاً طلقاً :

ـ لماذا تفترض اننى مسافر الى بطرسبرج ؟

فرفع الفتى له اصبعه مهدداً . وكان الفتى يلبس قفازين .

وتابع بطرس ستيفانوفتش كلامه فقال خافضاً صوته خفضاً يحمل معنى السر :

ـ نعم . حزرت . أنا مسافر الى بطرسبرج ومعى رسائل من جوليا ميخائيلوفنا . يجب علىّ أن أرى ثلاث شخصيات أو أربعا ... بصراحة: شيطان يأخذهم ! يا لها من مهنة لعينة كريهة !

فسأله الفتى هامسا :

ـ ولكن قل لى : لماذا دب الذعر فى نفسها فجأة ؟ لقد رفضت حتى استقبالى أمس . وفى رأيى أنها يجب أن لا تقلق على زوجها . ليس هناك ما يوجب القلق . بالعكس : لقد وثب وثبة رائعة أثناء الحريق . جازف بحياته تقريبا .

عاد بطرس ستيفانوفتش يضحك وقال :

ـ ومع ذلك ... المسألة هى أنها تخشى أن يكون أحد قد كتب من

هنا ... هناك أشخاص تشتبه فيهم . ثم هناك ستافروجين خاصة ، أو قل الكونت « ك ... » . هذه قصة طويلة ... قد أروى لك طرفا منها أثناء الطريق ... اذا سمحت لى بذلك مشاعر الفروسية طبعا ! ... أعرّفك بالضابط اركل . هو قريب لى .

لم يكن الفتى قد انقطع عن التفرس فى اركل بطرف عينيه . فلما عرّفه به بطرس ستيفانوفتش وضع يده على قبعته محيياً ، فــردّ اركل التحية .

ــ هل تعلم يا فرخوفنسكى أن قضاء ثمانى ساعات فى القطار أمر فظيع ؟ عندنا هنا ، فى الدرجة الأولى من القطار ، الكولونيل بيرستوف ؟ رجل مسلٍ جداً ، هو جارى فى الريف . لقد تزوج فتاة اسـم أسرتها جارين . فتاة لائقة جداً . حتى ان عنده أفكاراً ... لقد قضى هنا يومين، انه يعشق لعب الورق عشقاً جنونياً (الويست) فما رأيك فى أن ننظم لعبة « ويست » ؟ هه ؟ هنــاك شخص رابع يمكن أن يشــاركنا اللعب : انه بريبوخلوف ، تاجر من « ت ... » ، له لحية طويلة ، مليونير ، مليونير فعلاً ... أنا أقول لك ذلك ... سـأعرّفك به . كيس دنانير ، مسلٍ جداً ! سنضحك كثيراً !.

ــ يحلو لى كثيرا أن ألعب «الويست» ، ولا سيما فى القطار ، لكننى راكب فى الدرجة الثانية !

ــ لا قيمة لهذا ! تعال الى حجرتنا . سأنبىء رئيس القطـــار . انه يطيعنى بدون أن يقول كلمة واحدة . ماذا معك ؟ حقيبة سفر ؟ غطاء ؟

ــ هيّا بنا ! نذهب الى هناك .

تناول بطرس ستيفانوفتش حقيبته وغطاءه وكتابه بمساعدة اركل ،

ومضى يستقر فى الدرجة الأولى ، راضيا عن هذا التغيير كل الرضى ، سعيدا به كل السعادة .

ورنّ جرس المحطة مرة ثالثة . فقال بطرس ستيفانوفتش يخاطب اركل منشغلاً أشد الانشغال ، ماداً يده الى الضابط من خلال الباب :

ـ طيب يا اركل . هأنت ذا ترى أن علىّ أن ألعب بالورق معهم .

ـ لا داعى الى أن تشرح لى يا بطرس ستيفانوفتش . اننى أفهم حق الفهم يا بطرس ستيفانوفتش ، أفهم كل شىء .

ـ طابت أيامك ! ...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك مودّعاً اركل ، والتفت على حين فجأة يستجيب لنداء الفتى الذى كان يريد أن يعرّفه بصاحبيه . ولم ير اركل صاحبه بطرس ستيفانوفتش بعد ذلك قط .

رجع الى بيته حزينا كل الحزن . ليس رحيل بطرس ستيفانوفتش بغتةً هو الذى يبث الاضطراب فى نفسه ، لا ... ولكن ... ولكن بطرس ستيفانوفتش قد تحول عنه بسرعة كبيرة استجابة لنداء هذا الفتى الأنيق ... ثم ... ثم لقد كان فى وسعه أن يقول له فى وداعه شيئاً آخر غير هذا التعبير « طابت أيامك » ، أو أن يصافحه مصافحةً أقوى على الأقل .

ان تلك المصافحة التى تشتمل على قلة الاكتراث هى التى تحدث أكبر ألم . غير أن هناك شيئاً آخر أيضا قد بدأ يعذب قلبه الصغير ، شيئاً كان هو نفسه لا يفهمه ، شيئاً له علاقة بالليلة البارحة .

الفصل السابع

آخر رحلة لستيفان تروفيموفتش

أنا واثق بأن ستيفان تروفيموفتش كان يزداد خوفاً كلما اقتربت ساعة تنفيذ مشروعه الجنونى . أنا واثق بأنه تألم كثيراً ، ولا سيما عشية رحيله ، أثناء الليلة الرهيبة التى شب فيها الحريق . لقد روت ناستاسيا فيما بعد أنه اضطجع فى سريره متأخراً ونام . ولكن هذا لا يدل على شىء : ألا يُروى عن المحكوم عليهم بالاعدام أنهم ينامون نوما عميقا عشية تنفيذ الحكم فيهم ؟ ورغم أن ستيفان تروفيموفتش قد غادر مسكنه فى الفجر ، أى حين يكون الناس العصبيون فى حالة من فرط الاهتياج عادةً (تتذكرون أن الميجر ، قريب فرجنسكى ، كان يكف عن الايمان بالله متى طلع النهار) ، فأنا واثق بأنه ما كان له فى يوم من الأيام قبل الآن أن يتصور بغير جزع أنه سيمضى وحيدا فى الطرق ، وسيجد نفسه فى مثل هذه الحال . ولكن يجب أن نفترض أن الكرب الشديد قد بثّ فى نفسه شجاعة ، وأضعف ـ فى البداية ـ فظاعة ذلك الاحساس بالوحدة الكاملة الذى غزاه فجأة منذ ترك « ستازى » وبارح العش الدافىء الذى عاش فيه عشرين عاما . ومهما يكن من أمر ، فان ستيفان تروفيموفتش ما كان له الا أن يرحل ، ولو أحس احساساً واضحاً بكل ما كان ينتظره . لقد كان فى هذه الرحلة نوع من بطولة يثير حماسته

رغم كل شيء • كان يمكنه طبعا أن يقبل الشروط الرائعة التى وضعتها له فرفارا بتروفنا ، وأن يرتضى آلاءها « كرجل عامى » طفيلى ، ولكنه رفض تلك الصدقة ورحل • فها هو ذا الآن يترك كل شيء ، ويرفع « راية الفكرة العظيمة » عاليةً كل العلو ، الفكرة العظيمة التى سيموت من أجلها فى الطريق العام ! ••• لا بد ان حالته النفسية كانت هى هذه• ولا بد أن مشروعه قد بدا له فى هذه الصورة •

ولقد ألقيت على نفسى مرارا كثيرة هذا السؤال الآخر أيضا : لماذا رحل ماشياً ؟ لماذا لم يركب عربة ؟ وأجبت نفسى عن ذلك السؤال فى أول الأمر بأن هذا يرجع الى ما عُرف فى الرجل من ضعف الحس العملى ، والى ما كان عليه من اضطراب فكرى بتأثير العاطفة العنيفة التى كانت تسيطر عليه آنذاك • لقد تراءى لى أن الحصول على جواز طريق واكتراء عربة (ولو كانت ذات جرس) كانا يبدوان له أمرين مبتذلين عاميين • فالأجمل والأوقع فى النفس أن يسافر ماشياً مشى الحجاج (ولو كان هذا الحاجُ مزوداً بمظلة) ، ولا بد أن يكون لهذه البادرة شأن أكبر فى نفس فرفارا بتروفنا • أما اليوم ، بعد أن انتهى كل شيء ، فاننى أتصور أن الأمور جرت مجرى أبسط من هذا : لقد كان يخشى أن يكترى عربة لأن فرفارا بتروفنا قد تعلم الأمر فتمنعه من السفر بالقوة (لا شك أنها كانت ستفعل ذلك) ، ويخضع هو ، فأين تصير « الفكرة العظيمة » حينذاك ؟ هذا عن اكتراء العربة ، وأما عن جواز الطريق ، فمن الواضح أنه لكى يحصل المسافر على جواز طريق يجب أن يعرف الى أين هو مسافر • ولم تكن تلك حال ستيفان تروفيموفتش • حتى ان هذا بعينه هو ما يعذبه فى هذه الساعة أكثر من أى شيء آخر : لقد استحال عليه استحالةً مطلقة أن يعزم أمره على تحديد مكان من الأمكنة • ذلك أنه لو اختار هذه المدينة أو تلك من المدن لبدا له مشروعه على الفور

سخيفاً ومستحيلاً . انه يحس ذلك سلفاً . ما عساه فاعلاً في تلك المدينة التي يختارها ؟ لماذا يختار هـذه المدينة دون سـواها ؟ أبحثاً عن ذلك «التاجر» ؟ ولكن أي «تاجر» ؟ عندئذ انما كان ينبجس في ذهنه ذلك السؤال الرهيب . الواقع أنه لا شيء في نظره كان مريعا مثـل « ذلك التاجر » الذي يسرع هو الى البحث عنه ويخاف أشد الخوف أن يعثر عليه طبعا . لا ، الأفضل أن يمشي في الطريق العام ، الأفضل أن يمضي دون أن يفكر في شيء ما ظل ممكنا أن لا يفكر في شيء . الطريق العام ... شيء طويل ، طويل جدا ، لا يرى المرء له نهاية ، كالحياة الانسانية، كالأحلام الانسانية . الطريق العام يتضمن فكرة . أما جواز السفر في الطريق فأية فكرة يمكن أن يتضمن ؟ جواز السفر نهاية كل فكرة ... « عاش الطريق العام » ، وعلى بركة الله ...

بعد أن التقى بليزا ذلك اللقاء غير المتوقع ، وهو اللقاء الذي سبق أن وصفته ، استأنف ستيفان تروفيموفتش مشيه وقد انتابته سـورة من حماسة أشد . ان الطريق العام يبعد عن سكفورشنيكي مسافة نصـف فرسخ . أمر غريب : ان ستيفان تروفيموفتش لم يلاحظ في البداية أنه سلك الطريق العام . ما كان له في تلك اللحظة أن يحتمـل أن يفكر تفكيرا منطقيا ، أو على الأقل أن يشعر شعورا واضحا بما كان يفعله . وهذا رذاذ من المطر يتساقط من حين الى حين ، ولكن ستيفان تروفيموفتش لا يفطن حتى الى هطول المطر ؛ وهو لم يفطن أيضا الى أنه رمى كيسـه وراء كتفه ، وأن ذلك قد سهّل مشيه كثيراً . ولعله كان قد مشى فرسخاً أو فرسخاً ونصف فرسخ ، حين توقف فجأة ونظر حوله . ان الطريق الأسود ، المحفّر ، المحفوف بأشجار مائية ، يمتد أمامه الى غير نهاية. وعلى يمينه حقول عارية قد حُصدت منذ مدة طويلة . وعلى شماله حـراج مقطوعة نمت على جذوع أشجارها فروع صغيرة ، ثم غابةٌ بعد ذلك .

وهناك ، هنــاك فى بعيد ، خط الســكة الحــديدية الذى لا يُكاد يرى ، وانما يدل عليه دخان قطار لا يُسمع له صوت من شدة البعد . شعر ستيفان تروفيموفتش بخوف ، ولكن الخوف لم يدم الا لحظة واحدة . وتنهد ستيفان تروفيموفتش على غير ارادة منه ، ووضع كيسه على الأرض، وجلس ليستريح قليلاً . وشعر برعدة تسرى فى جسمه حين جلس ، فأحكم تلففه بمعطفه . واذ لاحظ أيضا أن المطر يهطل فتح مظلته . ولبث جالسا على هذه الحال مدة طويلة ، وهو يحرّك شفتيه من حين الى حين ، ويمسك قبضة المظلة امساكا قويا . كانت صورة مبعثرة أشد التبعثر تدور فى ذهنه وتتلاحق وتتطارد بعضها وراء بعض . « ليز ، ليز ، ومعها مافريكى ذاك ... ما أغربهم من ناس ! ... ولكن ما ذلك الحريق الذى تحدثوا عنه ؟ ... وتلك الجثث ؟ ... أظن أن «ستازى» لم تعلم بشىء بعد ... لا بد أنها ما تزال تنتظرنى مع القهوة ... بالورق ؟ هل حدث لى أن خسرت رجالاً أثناء اللعب بالورق ؟ همْ ... فى بلادنا ، فى روسيا ، فى العهد الذى يقال له عهد العبودية ... آه ... رباه !... وفدكا ؟ ... » .

ارتعش ستيفان تروفيموفتش مرتاعا ، ونظر حوله : « ماذا اذا كان فدكا مختبئاً هنا فى مكان ما ، وراء بعض الشجيرات مثلا ؟ ... يقال انهم عصابة كاملة تهاجم المارة فى الطريق العام . آه ... يا رب ! وأنا الذى ... لأقولنّ له الحقيقة كلها . سوف أقول له اننى مذنب ... واننى تألمت له خلال عشر سنين ، أكثر مما تألم هو حين كان جنديا ... و... وسوف أعطيه محفظة نقودى . همْ ! ... « معى أربعون روبلاً . سوف يأخذ المال ثم يقتلنى مع ذلك » (بالفرنسية) .

بهذا حدث ستيفان تروفيموفتش نفسه جزعاً ، ثم اذا هو أثناء هذا الجزع يطوى مظلته ــ لا ندرى لماذا ــ ويضعها على الأرض الى جانبه .

وفى بعيد ، على الطريق ، ظهرت عربة . انها آتية من المدينة . أخذ ستيفان تروفيموفتش يراقبها قلقاً بعض القلق . وجعل يحدث نفسه قائلا : « الحمد لله ... هذه عربة . انها تسير بطيئة . لا يمكن أن يكون هذا خطرا . هذه أفراس من هنا ، أفراس بليدة مسكينة ... لطالما قلت ان هذه السلالة من الأفراس ... لا بل ان بطـــرس ايلتش هو الذى تكلم فى النادى عن السلالة ، بينما كنت أنا أجمع الحصيلة ، ثم ... ولكن ماذا وراء العربة ؟ ... أظن أن فى العربة امرأة قروية ... قروى وقروية . هذا مُطمئْن . المرأة فى خلف ، والرجل فى أمام . هــذا مطمئن جدا . ووراء العربة بقرة مربوطة من قرنيها . هذا مطمئن الى أبعد حدود الطمأنينة . » .

ووصلت العــربة الى حيث كان ستيفان تروفيموفتش . انها عربة من عربات الفلاحين ، متينة وجديدة . كانت المرأة جالسةً على كيس كبير ، وكان الفلاح راكبا فى الأمام على حافة العربة متــدلى الساقين . وكانت بقرة حمراء مربوطةٌ من قرنيها تتبع العربة فعلاً . تأمل الرجل وامرأته ستيفان تروفيموفتش محملقين ، ونظر اليهما ستيفان تروفيموفتش أيضا . ولكن ما ان تجاوزاه عشرين خطوة حتى أسرع ينهض ليلحــق بهما . ان مجاورة العربة تبدو له مطمئنةً حتما . ولكنه ما ان وصل الى العربة حتى كان قد نسى كل شىء ، وعـاد يغـرق فى أحلامه . وأغلب الظن أنه كان يتقدم فى سيره دون أن يخطر بباله أنه فى نظـــر الفلاح وامرأته فى هذه اللحظة أعجب وأغرب ما يمكن أ نيلتقى به المرء فى الطريق العام .

ولم تطق الفلاحة صبراً ، فسألته وهو يرفع نحوها نظرة ذاهلة :

ــ من أنت ، اذا جاز لى أن ألقى هذا السؤال ؟

انها امرأة فى نحو السابعة والعشرين من عمرها ، ممتلئة الجسم ، سوداء الشعر ، زاهية اللون ، كانت ابتسامتهـــا اللطيفة التى ترتسم على شفتيها الحمراوين تكشف عن صفين رائعين من الأسنان البيض .

دمدم ستيفان تروفيموفتش يسألها بدهشة أليمة :

ـ أتكلمينني أنا ... أنا ؟

قال الفلاح بثقة :

ـ لا شك أنه تاجر .

هو فلاح قوى الجسم ، فى نحو الأربعين من عمره ، له لحية غزيرة تضرب الى حمرة وتحف بوجهه العريض . وما هو بالرجل الغبى .

قال ستيفان تروفيموفتش مدافعا عن نفسه كيفما اتفق :

ـ لا ... لست تاجراً ... أنا ... أنا ... « أنا شىء آخـــر » (بالفرنسية) .

وأبطأ خطوه ، فصار وراء العربة يسير محاذيا البقرة .

عاد الفلاح يتكلم فقال بعد أن سمع كلمات أجنبية :

ـ لا بد أنه سيد من السادة .

وشدّ الأزمّة .

وقالت المرأة تكمل كلامه :

ـ ونحن كنا نقول لأنفسنا : لعله يتنزه .

ـ هل ... هل عنى تتكلمين ؟

ـ الأجانب يصلون عادةً بالقطار . وعدا هذا ، لا يبدو على حذاءيك أنهما من هنا .

قال الفلاح بلهجة الواثق بنفسه أيضا :

ــ هذان حذاءا رجل عسكرى .

ــ لا ، لست عسكريا ، اننى ...

وحدّث ستيفان تروفيموفتش نفسه منزعجاً يقول : « ما أغرب هذه المرأة ! وما أعجب تفرسها فىّ ! ... » على كل حال « (بالفرنسية) ... الخلاصة : أشعر بأننى مذنب فى حقهم ، ومع ذلك لست بمذنب » .

فأخذت « المرأة » تكلم زوجها هامسة .

ــ اذا كان هذا لا يسوؤك ، فنحن يسرنا أن نُركبك معنـــا ... لا لشىء غير ارضائك .

فثاب ستيفان تروفيموفتش الى نفسه فجأة . وأسرع يقول :

ــ نعم نعم يا صديقىّ . يسرنى هذا كثيراً . لأننى متعب جدا . ولكن كيف أتسلق اليكما .

وأضاف يحدث نفسه : « شىء غريب جدا ... مشيت الى جانب البقرة هذه المدة الطويلة كلها ولم يخطر ببالى أن أركب عربتهما . حقاً ان « الحياة الراقية » شىء خاص جدا ... » .

ومع ذلك لم يوقف الفلاح حصانه . وأخيراً قال يسأله بشىء من عدم الثقة :

ــ ولكن الى أين أنت ذاهب ؟

فلم يفهم ستيفان تروفيموفتش فورا .

ــ هل الى خاتوفو مثلا !

ــ الى خاتوف ؟ لا ... وأنا لا أعرفه ، وان كنت قد سمعت عنه.

ـ خاتوفو ، خاتوفو ، هذه قرية ، قرية !

ـ قرية ؟ « رائع » (بالفرنسية) • أعرف هذا الاسم فعلا •••

وظل ستيفان تروفيموفتش يمشى ، ولا يدعوه أحد أن يركب • وفجأة خطرت بباله فكرة عبقرية • قال :

ـ لعلكم تتخيلون أننى ••• ولكن معى جواز سفر ، وأنا أستاذ ، أو قولوا ان شئتم معلم ، ولكننى معلم رئيسى ، « نعم ، هكذا يمكن أن يُترجم عملى » • أود كثيراً لو أركب معكم ، وسوف أشترى لكم ••• سوف أشترى لكم نصف زجاجة من الخمر •

قال الفلاح :

ـ خمسون كوبكاً يا سيدى ••• الطريق شاقة •

وقالت المرأة :

ـ والا كنا مغبونين •

ـ خمسون كوبكاً ؟ موافق على خمسين كوبكاً • و « هذا أفضل ، ان مجموع ما معى أربعون روبلاً ، ولكن ••• » (بالفرنسية) •

أوقف الفلاح الحصان ، ورُفع ستيفان تروفيموفتش الى العربة بجهد مشترك ، فجلس على الكيس الى جانب المرأة • وسرعان ما عاد يغرق فى أحلامه • كان يدرك هو نفسه ، فى بعض اللحظات ، أنه مسرف فى الذهول وأنه لا يفكر فى حاله • وكان يعجب لذلك • بل ان هذا الاحساس بالضعف العقلى كان يؤلمه ويجرح كرامته •

قال يسأل المرأة الشابة :

ـ وما ذاك ••• فى الخلف ؟

فقالت الفلاحة ضاحكة :

ـ كأنك يا سيدى لم تر فى حياتك بقرة !

وتدخل الفلاح فقال :

ـ اشتريناها من المدينة . لقد فطست بهائمنا فى الربيع الماضى ... بالطاعون . هلكت الماشية فى كل مكان ، عند جميع الجيران ، هلك أكثر من نصفها . كارثة حقا .

وضرب الحصان بسوطه .

فقال ستيفان تروفيموفتش مدمدماً :

ـ نعم ، هذا يحدث عندنا ، فى روسيا ... ونحن على وجه العموم، معشر الروس ... نعم ... هذا يحدث ...

ـ اذا كنت معلماً فما ذهابك الى خاتوفو ؟ اللهم الا أن تكون ماضياً الى أبعد من خاتوفو ...

ـ أنا ... لا ... لن أمضى الى أبعد منها . على وجه الاجمال ... أقصد ... أنا ذاهب الى أحد التجار .

ـ ربما الى سباسوف ؟

ـ نعم ، تماما ، الى سباسوف . لا قيمة لهذا على كل حال .

قالت المرأة ضاحكة :

ـ اذا كنت ذاهباً الى سباسوف ، مشياً على القدمين ، وبهذين الحذاءين ، فسوف تصل اليه بعد أسبوع ...

ـ تماما ، ولكن ما قيمة هذا « يا أصدقائى » (بالفرنسية) ، ما قيمة هذا ؟

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش مقاطعا . وأردف يحدث نفسه :

« ما أعجبهم ! المرأة تتحدث خيراً من زوجها على كل حال . وانني لألاحظ بوجه الاجمال أن أسلوبهم قد تبدل بعض التبدل منذ الغاء القنانة. ولكن فيم يهمهم أن يعرفوا انني ذاهب الى سباسوف أو الى مكان آخر ؟ ما دمت أدفع أجر ركوبي فلماذا لا يدعونني وشأني ؟ » .

تابع الفلاح كلامه فقال :

ـ اذا كنت ذاهباً الى سباسوف ، فيجب ركوب السفينة .

وأسرعت المرأة تتدخل فقالت :

ـ هذا صحيح . اذ لو تبعت الشاطىء بالعربة لدرت دورة طولها ثلاثون فرسخاً .

ـ بل أربعون .

واستأنفت المرأة كلامها فقالت :

ـ غداً ، في الساعة الثانية ، ستجد السفينة في أوستيفو .

ولكن ستيفان تروفيموفتش أصرّ على التزام الصمت .

وصمت رفيقاه . كان الرجل يحرك الزمام ، وكانت المرأة تبادله ملاحظات قصيرة من حين الى حين . وغفا ستيفان تروفيموفتش ، فما كان أشد دهشته حين هزته المرأة ضاحكة ، فاذا هو يرى نفسه في قرية من القرى الكبيرة ، أمام باب « عزبة » ذات ثلاث نوافذ .

ـ غفوت يا سيدي ؟

ـ ما هذا ؟ أين أنا ؟ آ ... نعم ... لا بأس ...

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش متنهداً ، ونزل من العربة .

وألقى حوله نظرة حزينة مكتئبة . وبدا له منظر القرية عجيبا ، وأحسّ بغربة شديدة . وأسرع يقول للفلاح :

ـ كدت أنسى أن أنقدك الخمسين كوبكاً !

لقد كان واضحا أنه منذ الآن يخشى أن يتركهما .

قال له الفلاح :

ـ ستدفع فى العزبة . ادخل ، ارجوك .

فصعد ستيفان تروفيموفتش درجات الباب المرتجة . ودمدم يقول لنفسه متحيراً قلقاً : « كيف يمكن هذا ؟ » . ولكنه مع ذلك دخل . «هى التى أرادت ذلك » (بالفرنسية) . وطعنت هذه الفكرة قلبه . ولكنه سرعان ما نسى كل شىء ، نسى حتى كونه دخل العزبة .

تتألف العزبة من غرفتين ، وهى منزل مضىء نظيف ، لم يكن فندقاً ولكن معارف صاحبه قد ألفوا أن يتلبثوا عنده ، وأن يبيتوا فيه .

اتجه ستيفان تروفيموفتش الى الركن تحت الايقونات ، بدون تحرج أو خشية ، ناسيا أن يسلّم ، فجلس هناك واسترسل فى أحلامه . وفى أثناء ذلك انتشر فى جسمه ، على حين فجأة ، احساسٌ لذيذ بالدفء أعقب برد الطريق ورطوبته ؛ فسرت فيه رعدة ، ولكن هذه الرعدة القصيرة التى يعرفها الأشخاص العصبيون حين تنتابهم الحمى وينتقلون فجأة من البرد الى الدفء ، كانت لذيذةً له الى أقصى الحدود . وها هو ذا يرفع رأسه . ان الرائحة الشهية التى تفوح من فطائر كانت ربة البيت مشغولة باعدادها قد دغدغت أنفه .

فنهض نصف نهوض ، وتمتم يقول مبتسماً ابتسامة طفل :

ـ ما هذه ؟ فطائر ؟ «شىء عظيم» (بالفرنسية) .

فسألته ربة البيت بأدب :

ـ هل تريد أن تصيب شيئاً منها يا سيدى ؟

ـ نعم ، أريد ، هذا ما أريده ، أريد فطائر ... وأسألك شيئاً من الشاى كذلك .

ـ السماور ؟ بسرور كبير .

وقدّمت اليه الفطائر فى طبق كبير عليه رسوم أزهار ضخمة زرقاء، وهى فطائر من قمح وشلت ، مصنوعة بالطريقة القروية ، رقيقة جدا ، مرشوشة بالزبدة الطازجة المحمية . انها فطائر لذيذة ، ذاقها ستيفان تروفيموفتش متمتعاً بمذاقها أكبر التمتع .

ـ ما أدسمها ! وما أطيبها ! ليت المرء يستطيع أن يشرب معها « اصبعاً من خمرة » (بالفرنسية) .

ـ أليست الفودكا هى ما يرغب فيه سيدى ؟

ـ هى بعينها . قليلاً من الفودكا . قليلاً جدا .

ـ بخمسة كوبكات ؟

ـ نعم ، بخمسة ، بخمسة ... قليلاً جداً .

كذلك كان يردد ستيفان تروفيموفتش وهو يبتسم ابتسامة سعيدة .

اذا سألت شخصاً من الشعب أن يفعل من أجلك شيئاً ، فانه يخدمك بسرور وعناية اذا أراد واستطاع . ولكن اذا سألته أن يجيئك بفودكا ، فان استعداده الهادىء للخدمة ما يلبث أن يحل محله تعجل فرح ، واعتناء يوشك أن يشتمل على عاطفة وحنان . ان الذى يجيئك بالفودكا يعرف حق المعرفة أنك أنت الذى ستشربها لا هو ، ولكنه مع ذلك يشاطرك اللذة التى تنتظرك نوعا من المشاطرة ...

ما انقضت ثلاث أو أربع دقائق (وكان الكاباريه على مسافة خطوتين) حتى وضعت أمام ستيفان تروفيموفتش زجاجة وقدح كبيرة .

سأل مدهوشاً :

ـ أهذا كله لى أنا ؟ لطالما شربت فودكا فى البيت ، ولكننى لم أكن أعلم أنه يمكن الحصول على هذا المقدار كله بخمسة كوبكات .

وملأ القدح ونهض واتجه بشىء من الأبهـة صوب رفيقة رحلته ، القروية الشابة ذات الحاجبين الأسودين التى شدَّ ما أرهقه فضولها ، والتى كانت جالسة الآن فى الركن المقابل من الغرفة . رفضت القروية فى أول الأمر مضـطربةَ الهيئة كل الاضـطراب ، لكنها لم تلبث أن سايرت المواضعات الاجتماعية فنهضت وشربت الكأس ثلاثَ جرعات ، كما تفعل النسـاء عادة ، مصعِّرةً وجهها كأن الشراب قد حـرق فمها ، ثم ردَّت الكأس الى ستيفان تروفيموفتش وهى تنحنى أمامه . فانحنى سـتيفان تروفيموفتش هو أيضـا ، برصانة ووقار ، ثم رجع الى مكانه مرفـوع الرأس .

لكأنه انقاد لالهام مفاجىء : هو نفسه كان لا يعرف قبل ثانية واحدة أنه سيقدم فودكا الى المرأة الشابة .

قال يحدث نفسه راضيا عن سلوكه أشد الرضى : « اننى أعـرف معرفة كاملة ، نعم ، معرفةً كاملة ، كيف يجب أن يكون سلوك المرء مع الشعب . لطالما قلت لهم هذا » .

وسكب لنفسه باقى الفودكا ، ورغم أن هذا الباقى كان لا يملأ كأساً كاملة ، فقد بثت الخمرة دفئاً وحرارة فى جسمه ، حتى لقد أثرت فى رأسه .

قال يخاطب نفسه بالفرنسية : « أنا مريض تماما . ولكن ليس شراً كبيراً أن يكون المرء مريضا » .

وهنا سمع صوتا عذبا ، هو صوت امرأة ، يسأله :

ـ ألا تريد أن تشترى كتابا ؟

فما كان أشد دهشته حين رفع عينيه فرأى سيدة ـ « سيدة حقا ، ان هيئتها هيئة سيدة » ـ بسيطة المظهر فى نحو الثلاثين من العمر ٠ انها ترتدى ثيابا على زى سكان المدن : ثوبا أسود وشالاً أشهب كبيرا على الكتفين ٠ وان فى وجهها لشيئاً محبباً الى القلب سرعان ما أعجب به ستيفان تروفيموفتش ٠ لقد عادت فى هذه اللحظة الى العزبة التى تركت فيها أشياءها على دكة ، ومنها محفظة نقود كان ستيفان تروفيموفتش قد تأملها مستطلعا حين دخل ، ومنها كيس من قماش مشمّع ٠

استلت المرأة من الكيس كتابين صغيرين مجلّدين تجليدا جميلاً ، وعلى غلاف كل منهما صليب ، ومدّتهما الى ستيفان تروفيموفتش ٠

ـ « آ ٠٠٠ أظن أنه الانجيل ! » (بالفرنسية) ٠٠٠ بسرور عظيم ٠٠٠ آ ٠٠٠ فهمت الآن ٠٠٠ أنت من تسمى بائعة متجولة ٠ سمعت عن هذا ٠٠ خمسون كوبكاً ؟

أجابت البائعة :

ـ خمسة وثلاثون كوبكاً ٠

ـ بكل سرور ٠ « لا اعتراض لى على الانجيل » (بالفرنسية) ٠ و ٠٠٠ اننى أريد منذ مدة طويلة أن أعيد قراءته ٠

وتذكر فى تلك اللحظة أنه منذ ثلاثين عاما على الأقل لم يفتح هذا الكتاب ، وأنه قبل سبع سنين قد تذكر بضع عبارات بمناسبة كتاب رينان « حياة يسوع » ٠ واذ لم يكن معه نقود صغيرة ، أخرج ورقاته الأربع ، ورقات العشرة روبلات التى كانت كلّ ثروته ٠ فأقبلت ربة البيت تعرض عليه أن تبدل له احدى هذه الورقات بنقود صغيرة ، وعندئذ فقط انما لاحظ ستيفان تروفيموفتش أن العزبة كانت ملأى تقريبا بأناس يلاحظونه

بانتباه ويبدو عليهم أنهم يتكلمون عنه • وكانوا يتكلمون كذلك عن حريق الضاحية • وكان صاحب البقرة الذى وصل من المدينة متدفقاً فى الحديث تدفقاً خاصاً • وكان المتكلمون يتهمون عمال مصنع شبيجولين •

قال ستيفان تروفيموفتش يحدث نفسه : « أمر غـــريب • انه لم يفاتحنى أنا بكلمة واحدة عن الحريق ، وكان مع ذلك يتكلم طـــول الوقت ! » •

ـ ستيفان تروفيموفتش ، أأنت من أرى يا سيدى ؟ حقا لم أكن أتوقع أن ألقاك هنا ! ••• ألم تعرفنى ؟

هكذا هتف على حين فجأة رجـــل متقـدم فى السن يرتدى دثاراً فضفاضا له ياقة عريضة مقلوبة • انه بوجهه الحليق يبدو خادما قديما •

خاف ستيفان تروفيموفتش حين رأى أنه عُرف • وجمجم يقول :

ـ معذرة ••• لا أتذكر •••

ـ لا تتذكرنى ؟ أنا آنيسيم ، آنيسيم ايفانوفتش • كنت فى خـدمة المرحوم السيد جاجانوف • كم من مرة رأيتك مع فرفارا بتروفنا عنـد المرحومة آفدوتيا سرجيفنا ! كنت أحمل اليك كتباً على الدوام ، بل لقد جئتك أيضا مرتين بمربيات من بطرسبرج •

قال ستيفان تروفيموفتش مبتسما :

ـ آ ••• نعم ••• الآن عرفتك ••• أنيسيم ••• أأنت تســكن هنا ؟

ـ قرب سباسوف ، فى دير « ف ••• » ، عند مارفا سرجيفنا ، أخت آفدوتيا سرجيفنا • لعلك تذكر أن ساقها كانت قد كُسرت : وثبت من العربة حين كانت ذاهبة الى حفلة رقص • انها تسكن الآن قرب الدير ، وأنا فى خدمتها • واليوم أذهب الى المدينة كما ترى لألقى أهلى •

- نعم ، نعم ...

تابع آنيسيم كلامه فقال بابتسامة مفتونة :

- اننى سعيد جدا برؤيتك . لقد كنت تحسن معاملتى دائماً . ولكن الى أين تذهب هكذا وحيدا يا سيدى ؟ ... ما كنت تسافر وحيدا قبل اليوم قط ، فيما يبدو لى .

نظر اليه ستيفان تروفيموفتش بارتياع .

- ألست ذاهباً الينا ، الى سباسوف ؟

- نعم ، الى سباسوف . يخيل الىّ أن الجميع مسافرون الى سباسوف ...

- ربما الى عند فيدور ماتفتش ؟ ما أعظم السرور الذى سوف يملأ قلبه حين يراك ! لقد كان يحمل لك أعظم التقدير دائماً ! وكثيراً مايتكلم عنك حتى الآن .

- نعم نعم ، سأذهب أيضا الى عند فيدور ماتفتش .

- تحسن صنعاً يا سيدى . ان الفلاحين هنا مدهوشون كل الدهشة . يقولون انك قد وُجدت فى الطريق العام وحيدا ماشيا : انهم بلهاء !

- اننى ... المسألة ... اسمع يا آنيسيم : لقد راهنت ، على طريقة الانجليز فى الرهان ، وسوف أقطع المسافة ماشياً ، وسوف ...

- نعم ، هذه هى المسألة ... هذه هى المسألة .

كان آنيسيم يصغى اليه باستطلاع لا يرحم . وأصبح ستيفان تروفيموفتش لا يطيق صبراً ، وبلغ من الاضطراب والقلق أنه أراد أن ينهض وأن يخرج من العزبة . ولكن جيء بالسماور ، وفى تلك اللحظة نفسها عادت البائعة المتجولة الى الغرفة . فهبّ ستيفان تروفيموفتش يقدم

اليها شابا بوثبة انسان لاح له خلاصه ، فغُلب آنيسيم على أمره ، وتراجع منسحباً .

كان حضور ستيفان تروفيموفتش قد أيقظ دهشة الفلاحين وقلقهم فعلاً . كانوا يتساءلون : « من هذا الرجل ؟ . » . لقد وُجد ماشياً فى الطريق العام . وهو يقول انه معلم . وهو يرتدى ملابس رجل أجنبى. وعقله عقل طفل يخبط فى أجوبته خبط عشواء . لكأنه هارب . وهو عدا ذلك يملك مالاً ! » . وخطر ببالهم أن يبلغوا السلطات . « لا سيما وأن المدينة يسودها الاضطراب » . ولكن آنيسيم رتَّب الأمور بسرعة : خرج الى الدهليز وشرح للفلاحين أن ستيفان تروفيموفتش ليس معلماً وانما هو « عالم كبير يعنى بجميع أنواع العلوم . وأنه كان هو نفسه يملك فى البلد أرضاً، ولكنه منذ اثنتين وعشرين عاما يسكن عند الجنرالة ستافروجين التى يحتل لديها المقام الأول . وان المدينة كلها تحترمه . وأنه كان يتفق له أن يخسر فى « نادى النبلاء » خمسة وعشرين روبلاً بل مائة روبل فى ليلة واحدة . أما رتبته فهى رتبة مستشار ، وهى تعادل لدى العسكريين رتبة ليوتنان كولونيل . وأما المال فلا غرابة فى أن يملك منه قدراً كبيراً، لأن الجنرالة تعطيه ما يشاء بغير حساب » ، الخ ، الخ .

قال ستيفان تروفيموفتش يحدث نفسه وقد أسعده أن يتخلص من آنيسيم وأخذ ينظر بدهشة ممتعة الى جارته البائعة المتجولة : « ألا انها لسيدة حقا ، سيدة كما يجب تماما . وكانت البائعة فى أثناء ذلك تشرب الشاى من صحن الفنجان عاضةً على قطعة السكر بأسنانها . فتابع ستيفان تروفيموفتش حديثه مع نفسه معلقاً : « لا ضير ، لا ضير فى أن تعض على قطعة السكر ... ما هذا بذى قيمة (بالفرنسية) . ان فيها شيئاً نبيلاً، مستقلاً ، وادعاً فى الوقت نفسه . « سيدة كما يجب تماما » (بالفرنسية)، ولكنها من نوع خاص . » .

ولم تلبث أن أعلمته أن اسمها صوفيا ماتفئفنا أوليتينا ، وأنها تقيم عادةً في « ك ... » ، عند اختها الأرملة . وقالت له انها هي أيضاً أرملة . فان زوجها الذي كان مساعداً ورُفّع الى رتبة ملازم ثانٍ تكريما لخدماته قد قتل في سباستوبول .

ـ ولكنك ما تزالين في ريعان الشباب ، « لم تبلغي الثلاثين من العمر » (بالفرنسية) .

فقالت صوفيا وهي تبتسم :

ـ بل عمري أربعة وثلاثون عاما .

ـ كيف ؟ أتفهمين الفرنسية ؟

ـ قليلاً . لقد عشت أربع سنين في أسرة من أسر المالكين ، فتعلمت الفرنسية قليلاً بفضل الأولاد .

وقصّت عليه أنها ترمّلت في الثامنة عشرة من عمرها ، فدخلت بعض الوقت في سلك « راهبات المحبة » بسباستبول ، ثم عملت عند أشخاص كثيرين ، وهي الآن تبيع أناجيل .

ـ « ولكن يا الهي ! » (بالفرنسية) ، ألست أنت التي وقعت لها تلك القصة العجيبة ، بل تلك القصة التي لا يكفي أن توصف بأنها عجيبة ؟

فاحمرت المرأة . نعم . انها هي التي وقعت لها تلك القصة .

قال ستيفان تروفيموفتش بصوت يختلج من شدة الاستياء والاستنكار :

ـ « هؤلاء الحقراء ، هؤلاء الأشقياء » ! (بالفرنسية) .

ولكن حين وافته هذه الذكرى انقبض قلبه ، وهوى غارقاً في أفكاره

وخواطره من جديد • حتى اذا ثاب اليه وعيه ، فلاحظ أنها ليست معه ، قال لنفسه : « غريب ! لقد انصرفت ثانية ! انها تخرج باستمرار ، وان هناك ما يشغلها دائماً • حتى ليبدو أنها مهمومة ••• « آه لقد أصبحت أنانيا » (بالفرنسية) •

ورفع عينيه فأبصر آنيسيم ، ولكنه أبصره هذه المرة فى جو ينذر بشر مستطير • كانت العزبة ملأى بفلاحين أتى بهم آنيسيم طبعا • كان هناك صاحب العزبة ، والفلاح الذى اشترى البقرة من المدينة ، وفلاحان آخران (هما من سائقى العربات) ، ورجل قصير نصف سكران ، يرتدى ثياب الفلاحين لكنه حليق فلعله أحد سكان المدن ، وكان صوته يعلو فى الكلام على صوت سائر المتكلمين • كان هذا الجمع كله يتناقش فى أمر ستيفان تروفيموفتش • أما صاحب البقرة فكان يؤكد أن اتباع طريق شاطىء البحيرة بالعربة يرسم دورة لا تقل عن أربعين فرسخاً بل تزيد ، فيجب حتماً ركوب السفينة • وكان الرجل القصير الثمل وصاحب العزبة يحتجان على هذا احتجاجا حاراً :

ــ اذا قطع سيادته البحيرة بالسفينة فلا شك أن هذا أسرع • ولكن من الممكن فى هذا الطقس أن لا تستطيع السفينة الرسو على الشاطىء •

فيقول آنيسيم راداً بحرارة شديدة :

ــ بل سترسو ، سترسو خلال أسبوع آخر •

ــ صحيح ، ولكنها لا تسير سيراً منتظما مطرداً لأن الجو قد سبق أوانه • فقد يتفق لك أن تنتظر ثلاثة أيام فى أوستيفو •

ويزأر آنيسيم قائلاً :

ــ ستكون السفينة هنا غدا ، فى الساعة الثانية تماما • وستصلون الى سباسوف قبل الليل يا سيد • الأمر كما أقول لك •

تساءل ستيفان تروفيموفتش بينه وبين نفسه وهو يرتعش منتظراً أن يقرروا مصيره : « ولكن من هذا الرجل ؟ » (بالفرنسية) •

وتقدم السائقان هما أيضا يشاركان فى الحديث ويعرضان خدماتهما• انهما يطلبان ثلاثة روبلات للوصول الى أوستيفو • فصاح الآخرون قائلين هذا أجر معتدل معقول ، هو الأجر نفسه الذى كان يُطلب طوال فصل الصيف •

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول محاولاً الدفاع عن نفسه :

ـ ولكن حالتى هنا جيدة ••• ولا أريد أن •••

ـ حالتك هنا حسنة ••• هذا صحيح ••• ولكنها ستكون عندنا فى سباسوف أحسن أيضاً ، وسيسعد فيدور ماتفئتش برؤيتك أكبر السعادة !

ـ يا أصدقائى ، كل هذا لم أكن أتوقعه •••

ودخلت صوفيا ماتفئفنا ثانيةً ، فجلست على الدكة حزينة منهارة ، وقالت لربة البيت :

ـ لن أستطيع الذهاب سباسوف •

فصاح ستيفان تروفيموفتش يقول وكأن هذا النبأ قد ردّه الى الحياة وأنعشه :

ـ ماذا ؟ أأنت أيضا ذاهبة الى سباسوف ؟

فذكرت له أن ناديجدا ايجورفنا سفتلتسينا ، وهى من مالكات الأطيان فى هذه النواحى ، قد طلبت منها أمس أن تنتظرها فى خاتوفو لتقلّها الى سباسوف ، ثم لم تجىء هذه السيدة •

وكررت البائعة المتجولة تقول :

ـ فماذا أعمل الآن ، فماذا أعمل الآن ؟

ـ « ولكن يا صديقتي العزيزة والجديدة » (بالفرنسية) ، يمكنني أنا أيضا أن أُقلَّك الى تلك القرية ... ما اسمها ؟ لقد اكتريت عربة ، وغداً ... نعم غداً، سنكون في سباسوف .

ـ أأنت ذاهب الى سباسوف أيضا ؟

ـ « وما العمل ، بل انني سعيد جداً بهذا ! » (بالفرنسية) ، سأُقلُّك الى هناك مسرورا كل السرور .

والتفت يسأل السائقين :

ـ من منكما اتفقت معه على السفر الى سباسوف ؟

لقد أصبح ستيفان تروفيموفتش يتعجل السفر الى سباسوف نافد الصبر فجأة .

وبعد ربع ساعة كانا قد استقرا بمساعدة آنيسيم في عربة مغطاة . أما ستيفان تروفيموفتش فكان مغتبطاً كل الاغتباط نشطاً كل النشاط ، وأما المرأة فكانت وقد جلست الى جانبه مع كيسها المصنوع من قماشٍ مشمَّع ، تطوف بشفتيها ابتسامةٌ تعبر عن الاعتراف بالجميل .

صاح آنيسيم يقول منهمكا حول العربة :

ـ سفراً ميمونا . ما كان أسعدنا بلقائك !

ـ استودعك الله ، استودعك الله ياصديقي ، استودعك الله !

ـ سترى فيدور ماتفئفتش ياسيدي ...

ـ نعم يا صديقي ، نعم ، فيدور ماتفئفتش ... ولكن استودعك الله.

٢

ما ان سارت العربة حتى بدأ ستيفان تروفيموفتش الكلام فقال :

ـ اسمعى يا صديقتى .. اتسمحين لى بأن أعدّك صديقةً لى ؟ ... اذن اسمعى يا صديقتى ... « أنا أحب الشعب . هذا ضرورى لا غنى عنه ولكن يبدو اننى لم أر الشعب يوماً عن كثب . لا شك فى أن ستازى من الشعب أيضاً ... ولكن الشعب الحقيقى » (بالفرنسية) ، الشعب الحقيقى الذى نلقاه على الطريق العام ، ليس له من هم فيما يبدو لى الا أن يعرف الى أين أنا ذاهب ... ولكن فلنسامحه ... أظن أننى أهرف هرفاً ... ولكن ذلك يرجع الى اننى متعجل .

قالت صوفيا ماتفئفنا وهى تنظر اليه بانتباه ولكن باحترام :

ـ أنت مريض فيما أرى .

ـ لا ، لا ؛ يكفى أن أغطى جسمى جيدا . الهواء بارد مع ذلك ، بل هو بارد جدا . ولكن فلندعْ هذا الآن . أريد أن أتكلم فى أمر آخر . « أيتها الصديقة العزيزة التى ليس لها نظـير » (بالفرنسية) ، يخيَّل الىَّ أننى سعيد تقريبا . وهذا بفضلك أنت . والسعادة تضرنى ، لأننى سرعان ما أغفر لجميع أعدائى .

ـ ولكن هذا حسن جدا .

ـ ليس دائما ، « أيتها العزيزة البريئة » . اسمعى ... « من الآن سندعو الى الانجيل ونبشر به معاً » (بالفرنسية) ، وسيسرنى أن أبيع كتبك الصغيرة الجميلة هذه . نعم « يخيَّل الىَّ أن هذه فكرة ربما كانت رائعة ، « شىء جديد جدا فى بابه » (بالفرنسية) . ان الشعب متـدين ، « هذا أمر مسلَّم به » ، ولكنه لا يعرف الانجيل بعد . فسوف أشرحه

له . وحين يشرح المرء هذا الكتاب الممتاز ، حين يشرحه بصوت عال ، فانه يستطيع أن يصحح أخطاءه . اننى مستعد لأن أولى هذا الكتاب أعظم الاحترام . هكذا أستطيع أن أكون نافعا حتى فى الطريق العام . لقد كنت نافعا فى جميع الأحيان ، قلت لهم ذلك ، « وقلته لتلك العقوق العزيزة » (بالفرنسية) . آه ... فلنغفر ، فلنغفر قبل كل شىء ، فلنغفر للجميع ، ولنغفر دائماً ! ... ولنأمل أن يغفر لنا الآخرون أيضا . نعم ، لأن كل واحد منا مذنب فى حق الآخرين . الجميع مذنبون .

ـ لقد أحسنت القول فيما يبدو لى .

ـ نعم ، نعم ، أحس أننى أحسن القول ، وأجيد الكلام . سأحسن مخاطبتهم ، ولكن ... ماذا كنت أريد أن أقول ؟ ماذا كانت فكرتى الرئيسية ؟ اننى أرتبك دائماً ، لم أعد أتذكر ... هل تسمحين لى بأن لا أتركك الآن أبداً ؟ اننى أحس أن نظرتك ... بل اننى مدهوش من آدابك فى السلوك . انك بسيطة ، وانك تستعملين تعابير شعبية ، وتشربين من صحن الفنجان ، عاضةً على تلك القطعة اللعينة من السكر ، ومع ذلك فيك شىء ساحر ؟ وانى لأرى فى قسمات وجهك ... أوه ! لا تحمرّى ولا تخافى منى خوفك من رجل . « أيتها العزيزة التى لا تضاهى ، المرأة عندى هى كل شىء » (بالفرنسية) . لا أستطيع أن أعيش الا الى جانب امرأة ، ولكن الى جانبها فقط ... أواه ! اننى أرتبك ارتباكا رهيبا ... لا أفلح فى تذكر ما كنت أريد أن أقوله . سعيدٌ ذاك الذى تبعث اليه السماء بامرأة دائما ... و ... وأعتقد اننى متحمس كثيرا . فى الطريق العام أيضا يمكن أن تتحقق فكرة عظيمة . نعم ، ذلك ما كنت أريد أن أقوله بصدد الفكرة ، تذكرت الآن . منذ قليل عجزت عن وضع يدى على ما كنت أريد أن أقوله . أوه ! كنا هناك فى خير حال ، بينما « البرد يشتد هنا اشتدادا فظيعا » (بالفرنسية) . بالمناسبة : ان مجموع ما معى

هو أربعون روبلاً ، فاليك المال ، خذيه ، خذيه ، اننى لا أحسن تدبير أمرى ؛ قد أضيّعه ؛ قد يُسرق منى ، و ... يخيّل الىّ أننى أريد أن أنام . رأسى يدور ، يدور ، يدور . أوه ! ما أطيب قلبك ، ما أكرم نفسك ! بماذا تغطيننى ؟

ـ لا شك أنك تعانى حمّى ، وقد أعطيتك غطائى . أما عن المال ، فاننى أفضّل أن ...

ـ ناشدتك الله ! « لا تتكلمنْ عن هذا بعد الآن . لأنه يؤلمنى » (بالفرنسية) . ما أنبل نفسك !

وكفّ عن الكلام فجأة ، ولم يلبث أن نام نومَ المحموم . كانت رعدات تهزه من حين الى حين .

ان الطريق الموارب المختصر الذى سلكاه لقطع سبعة عشر فرسخاً لم يكن بالطريق الجيد . وقد ارتجت العـــربة ارتجاجا شديدا . فكان ستيفان تروفيموفتش يستيقظ من حين الى حين ، فيرفع رأسه عن الوسادة الصغيرة التى دستها صوفيا ماتفئفنا تحت عنقه ، ويمسك يد المرأة الشابة ، ويسأل : « أأنت هنا ؟ » كأنما هو يخشى أن تتركه . وكان يقـــول لهــا أيضا انه يرى فى المنام فكاً عريضاً مكشراً عن أسنان ، وان هذا يثـــير اشمئزازه . فكانت صوفيا ماتفئفنا تقلق قلقا شديدا .

وتوقفت العربة أخيراً أمام عزبة كبيرة لها أربع نوافذ ، ولها ملحقات كثيرة فى الفناء . وها هو ذا ستيفان تروفيموفتش ، المتعجل كثيراً ، يدخل الغرفة الثانية رأسا ، وهى أجمل الغرف وأوسعها . وسرعان ما اكتسى وجهه الوسنان تعبيراً عن الهم على حين فجأة . أعلن لربة الدار فورا ، وهى امرأة بدينة طويلة فى نحو الأربعين من عمرها ، سوداء الشعر ،

حتى ان شفتها العليا يظللها شارب صغير ، أعلن لها أنه يريد أن تُحجز الغرفة كلها له وحده ، وأن يُغلق الباب ، وأن لا يدخل أحد «لأن هناك كلاما كثيرا يجب أن نتبادلاه • نعم ، هناك أمور كثيرة يجب أن أقولها لك يا عزيزتي » (بالفرنسية) • وعاد يقول لربة البيت وهو يحرك يده باشارات عريضة « سأدفع لك ، سأدفع لك » •

كان يتكلم في تعجل • ومع ذلك كان لسانه لا يطاوعه • وأصغت اليه ربة المنزل بغير بشاشة ولكنها لزمت الصمت علامةً الموافقة ، وهي موافقة زاخرة بمعاني التهديد على كل حال • لم يلاحظ هو هذا ، بل أسرع يأمرها بأن تخرج وأن تجيئها بالعشاء من غير أي ابطاء (كان يبدو متعجلاً أكبر التعجل) •

فما كان من ذات الشارب الا أن قالت له وقد نفد صبرها وفقدت سيطرتها على نفسها :

ـ ليس هذا نزُلاً يا سيدي • اننا لا نقدم للمسافرين هنا غداء • كل ما أستطيع أن أفعله لك هو أن أسلق لك بعض السلطان وأن أحضّر السماور • ولن يكون عندنا سمك طازج الا في الغد •

حرّك ستيفان تروفيموفتش ذراعيه نافد الصبر وهو يكرر بلهجة غاضبة حانقة : « سأدفع ، سأدفع ، ولكن أسرعي ! » • وتم الاتفاق على اعداد حساء بالسمك ودجاجة مقلية • وقد أعلنت صاحبة البيت في أول الأمر أن القرية كلها ليس فيها دجاجة واحدة ، ولكنها قبلت مع ذلك أن تحاول العثور على دجاجة ، متظاهرةً في الوقت نفسه بانها تخدم الرجل خدمة كبيرة •

وما ان خرجت حتى جلس ستيفان تروفيموفتش على الديوان ،

وأجلس صوفيا ماتفئفنا الى جانبه • ان الديوان والمقاعد التى تؤثث الغرفة كانت فى حالة يرثى لها • وفى وسعنا أن نقول عن هذه الغرفة الواسعة بعض السعة انها كانت بسريرها المخبأ وراء حاجـــز فى داخل فجوة ، وبورق جدرانها الأصفر الممـــزق المهترىء ، وبصورها الليتـــوغرافية الأسطورية الفظيعة ، وبأيقوناتها المصطفة صفاً طويلاً ، وبأثاثها غـــير المتجانس ، كانت مزيجا كريها من أذواق القرية والمدينة • غـــير أن ستيفان تروفيموفتش لم يلق نظرة واحدة على ذلك كله ، بل انه لم يلق حتى نظرة من النافذة على البحيرة الواسعة التى تمتد على بعد ثلاثين خطوة من العزبة •

ـ ها نحن أصبحنا وحيـدين ! لن يؤذن لأحـد بالدخول • أريد أن أحكي لك كل شيء ، كل شيء ، من البداية •

ارتسم على وجه صوفيا ماتفئفنا قلق شديد ، وقاطعته تقول :

ـ هل تعلم يا ستيفان تروفيموفتش •••

فسألها وهو يبتسم ابتسامة افتتان :

ـ « كيف ؟ أتعرفين اسمى منذ الآن » ؟ (بالفرنسية) •

ـ عرفته منذ قليل ، حين كنت تتكلم مع آنيسيم• ولكن اليك ما أريد أن أقوله لك اذا أذنت •••

ومالت عليه وألقت نحو الباب نظرات قلقة خشية أن تُسمع، وأخذت تهمس قائلةً له ان هذه القرية خطرة على المرء أشد الخطر : فالفلاحون هنا صيادون ، ولكنهم يعيشون خاصةً من استغلال المسافرين اذ يجبرونهم على أن يدفعوا لهم فى الصيف ما يشاءون • والناس لا يجيئون الى هذه القرية التى لا تقع فى طريقهم الا لأن السفينة تلبث فيها • فاذا تأخرت السفينة ـ لأنها حين يسوء الجو لا تستطيع الرسو على الشاطىء ـ كثر

الناس كثرة كبيرة فاذا جميع الدور مشغولة • والفلاحون لا ينتظرون الا هذا : اذ يحملون المسافرين على أن يدفعوا ثلاثة أضعاف ما يجب دفعه فى أيسر أمر من الأمور • وصاحب هذا المحل أكثر أهل القرية كبرياء وغروراً ، لأنه أغناهم • انه يملك شبكةً لا يقل ثمنها عن ألف روبل •

كان ستيفان تروفيموفتش ينظر الى وجه صوفيا المتوقد ، بما يشبه أن يكون عتباً • حتى لقد حاول عدة مرات أن يوقفها عن الكلام بحركة من يده • ولكنها كانت حريصةً على فكرتها وأنهت ايضاحاتها : لقد سبق لها أن جاءت الى هذه القرية فى الصيف الماضى مع « سيدة من أسرة ممتازة » ، فأمضتا معا فيها يومين بانتظار السفينة • الا ان الأفضل أن لا تتكلم عما قاسته : لقد كان ما قاسته رهيبا فظيعا • « انك قد حجزت الغرفة لك وحدك ياستيفان تروفيموفتش ••• وما أقوله الآن انما أريد به تنبيهك ••• ان الغرفة المجاورة فيها منذ الآن مسافرون : رجل مسن، وشاب ، وسيدة مع طفلين • ولكن العزبة ستكون فى الغد غاصةً بالناس، لأن السفينة لم تصل ، فلا بد اذن أن ترسو فى الغد حتماً • ان أصحاب الدار سيطلبون منك مبلغاً باهظاً لو طُلب حتى فى بطرسبرج لكان فضيحة • غرفة مستقلة ، وغداء كالذى أمرت به ، وازعاج تسببه لسائر المسافرين ، ذلك كله سيكلفك كثيرا ••• » •

كان ستيفان تروفيموفتش يتألم • كان يتألم فعلاً •

ـ أرجوك يا بنيتى ! « كفى ، كفى ! ان معنا مالاً ، وبعد ذلك يفعل الله ما يشاء » (بالفرنسية) • بل اننى ليدهشنى أن أراك أنت صاحبة الأفكار العالية الرفيعة تقولين هذا الكلام ••• « كفى ، كفى ! انك تعذبيننى » ! (بالفرنسية) •

كذلك صاح يقول ثائر الأعصاب • وأردف :

ـ ان أمامنا المستقبل كله ، وأنت ... أنت تحاولين أن تخيفيني من المستقبل ...

وسرعان ما شرع يحكي لها قصته كلها ، ولكنه بلغ في كلامه من فرط التعجل أنه كان يصعب حتى فهمه في البداية . ودامت قصته مدة طويلة . لقد جيء بحساء السمك ، ثم جيء بالدجاجة المقلية ، وجيء أخيرا بالسماور ، والرجل ما يزال يتكلم ... كان يعبّر بطريقة غريبة، بطريقة مرضية . ولكنه كان مريضا بالفعل . ان توتراً مفاجئاً في جميع قواه العقلية كان لا بد أن يؤدي ـ كما تنبأت بذلك صوفيا ماتفئفنا قلقةً ـ الى وهن شديد في جسمه المصاب اصابة بالغة . بدأ بالكلام عن طفولته حين « كان يجري في الحقول عاري الصدر » . وبعد ساعة كاملة من الكلام وصل الى الحديث عن زواجيه ببرلين . لا أريد أن أسخر منه ، وهيهات أن يخطر ببالي الضحك عليه . ولكنني أذكر أنه تحدث عن زواجيه حديثه عن شيء عظيم حقا ؟ لقد كان في نظر نفسه يناضل من أجل الوجود ، على حد التعبير الحديث . انه يرى أمامه المـــرأة التي اصطفاها لتكون رفيقة طريقه ، فها هو ذا يعلّـمها ان صح التعبير . ماينبغي أن تكون عبقرية ستيفان تروفيموفتش سراً مكتوما عنها . لعله كان يعقد على صوفيا ماتفئفنا آمالاً فيها كثير من المبالغة الشديدة ، ولكنه كان قـد اختارها . انه لا يستطيع أن يستغني عن امرأة . هو نفسه ، على كل حال، كان يحزر من تعبير وجهها أنها لا تكاد تفهم عنه ، أن أهم ما في كلامه لا تفهمه . فكان يقول لنفسه : « لا ضير ، ليس لهذا قيمة ، سوف تنتظر . سوف تفهمني الآن بقلبها ... » .

وصاح يقول قاطعا حديثه عن قصة حياته :

ـ صديقتي ! ما أنا في حاجة الا الى قلبك ، والى هـــذه النظرة الساحرة التي تلقينها عليّ ... لا تحمرّي ! سبق أن قلت لك ...

وغمضت الأمور فى عقل صوفيا المسكينة خاصةً حين أخذ يشرح لها بافاضة واسهاب أن أحداً لم يفهمه حتى الآن ، وأن « الموهبة عندنا فى روسيا مآلها الى الذبول والضياع لا محالة » . لقد اعترفت صوفيا فيما بعد قائلة : « كان كلامه أذكى من أن أستطيع فهمه » . وكانت تصغى باجتهاد شاق محملقة العينين . فلما اندفع ستيفان تروفيموفتش فى « التنكيت » ، فأخذ يتهكم على « العقول التقدمية التى تقودنا » حاولت أن تستبدل بالحزن مرحاً وأن ترد على ضحكه بابتسامة ، ولكن محاولتها بلغت من الاخفاق أن ستيفان تروفيموفتش شعر هو نفسه بشىء من الاضطراب ، فأخذ عندئذ يتهجم بعنف وقسوة على « العدميين » ، و « الناس الجدد » ، فارتاعت المسكينة ارتياعا شديدا . ثم لم يهدأ بالها قليلا ـ وكان هدوءاً خداعا على كل حال ـ الا حين وصل ستيفان تروفيموفتش من حديثه الى تلفيق رواية حب ، بالمعنى الأصلى لكلمة الرواية . ان المرأة مرأة ولو كانت راهبة . فها هى ذى الآن تبتسم ، وتهز رأسها ، ثم تحمرّ وتخفض عينيها ، فيزداد ستيفان تروفيموفتش افتتانا ، ويزداد الهامه اتقادا ، فتتكاثر أكاذيبه فى الرواية مزيدا من التكاثر . واذا بفرفارا بتروفنا تستحيل الى سمراء فاتنة (« سبت الأفئدة فى بطرسبرج وعواصم أوروبا ») ، وكان زوجها قد « قُتل برصاصة فى سيباستوبول » ، لأنه كان يحس بأنه غير جدير بحب زوجته ، وبأن عليه أن يدع الميدان خاليا لمنافسه ، أى لستيفان تروفيموفتش . « لا تضطربى يا عزيزتى الرقيقة العذبة ، لا تضطربى يا عزيزتى المسيحية الفاتنة ! لقد كان حبنا يبلغ من الروعة ومن اللطافة أننا لم نتصارح عن عواطفنا فى يوم من الأيام » . كذلك صاح يقول وقد صدّق أكاذيبه هو نفسه . وتابع يقول ان سبب ذلك الموقف انما هو فتاة شقراء (ان لم تكن داريا بافلوفنا ، فمن عسى تكون ؟ حقاً لا أدرى !) . فلقد كانت تلك الفتاة الشقراء تدين للسيدة السمراء

بكل شيء ، فالسيدة السمراء هي التي عُنيت بتربيتها وتعليمها من حيث انها تمت اليها بقرابة بعيدة ؛ فلما حزرت السيدة السمراء ما تحمله الفتاة الشقراء له من حب انطوت على نفسها . ولما أدركت الفتاة الشقراء من جهتها ما تحمله السيدة السمراء لستيفان تروفيموفتش من حب انطوت على نفسها هي أيضا . وهكذا انطوى الثلاثة على أنفسهم وظلوا يتألمون صامتين طوال عشرين عاما يعذّبهم نبل نفوسهم ويرهقهم من أمرهم عسراً . « آه ... يا له من هوى ! يا له من هوى ! » . كذلك صاح يقول وهو يكاد يبكي في سورة من حماسة صادقة . « كنت أراها (السيدة السمراء) في كمال تفتح جمالها ، أراها جريحَ القلب ، تخطر أمامي خجلةً من جمالها (ومرةً قال : « خجلةً من بدانتها ») . وهرب في النهاية ، مودعاً الى الأبد ذلك الحلم الحار الذى دام عشرين عاما . « عشرون عاما ! والآن ، في الطريق العام ... » . بذلك ختم روايته . ثم ازدادت حمى رأسه فأخذ يشرح لصوفيا ماتفئفنا ما دلالة « لقائهما العارض الحاسم الى آخر عصور الدهر أبد الآبدين ! » . فاضطربت صوفيا ماتفئفنا أشد الاضطراب ، ونهضت أخيراً عن الديوان . وهمّ عندئذ أن يرتمي جاثيا على ركبتيه ، فبلغت المرأة المسكينة من الارتياع أن الدموع سالت من عينيها . وكان الليل يهبط ، وهما مختليان في هذه الغرفة المغلقة منذ عدة ساعات .

دمدمت تقول :

ـ لا . الأفضل أن تدعني أذهب الى الغرفة المجاورة . ما عسى يقول هؤلاء الناس جميعا ؟!...

وأفلتت أخيرا . وتركها تمضي واعداً اياها أنه سينام فورا . وكان يشكو من صداع شديد على كل حال . ان صوفيا ماتفئفنا ، حين دخلت

الغرفة منذ قليل ، قد تركت كيسها وأمتعتها فى الغرفة المجاورة ، عاقدةً عزمها على أن تبيت ليلتها مع ربة الدار • ولكنها لم تستطع أن ترتاح •

ففى أثناء الليل أصيب ستيفان تروفيموفتش بنوبة من نوبات الكوليرين التى يعرفها فيه أصدقاؤه والتى كانت تعقب عنده كل توتر عصبى قوى وكل هزة انفعالية • فكذلك قضت صوفيا ماتفئفنا ليلتها كلها بغير نوم • واضطرت كأنما لتعتنى بالمريض أن تذهب وتجىء مارةً بالغرفة التى كان ينام فيها رب الدار وزوجته وسائر المسافرين ، فأخذ هؤلاء أخيرا يدمدمون متذمرين ، حتى لقد جعلوا فى النهاية يشتمونها حين أرادت فى الفجر أن تحضِّر السماور • وكان ستيفان تروفيموفتش فى شبه غيبوبة ، يحس فى بعض الأحيان آنه جىء بالسماور ، وأنه يُجرَّع شيئاً ما (هو شراب التوت ساخنا) ، وأن كمادات ساخنة توضع على بطنه وصدره • وكان يحس طوال الوقت «أنها» قريبة منه ، وأنها «هى» التى تذهب وتجىء ، وتُنهضه ثم ترقده ؟ وفى نحو الساعة الثالثة من الصباح شعر بتحسن • فجلس على سريره ، ثم وضع قدميه على الأرض ؟ وفجأةً ، دون أن يحس بما يفعل ، سجد أمام صوفيا ماتفئفنا : ولم يكن سجوده اليوم كركوعه بالأمس ، فهو الآن يهوى على قدميها ويقبِّل حافة ثوبها • فدمدمت المسكينة تقول وهى تحاول أن تنهض وأن تعيده الى سريره :

ـ ماذا تفعل ؟ اننى لا أستحق •

فقال وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى بحركة عبادة :

ـ انت مخلِّصى • « انك نبيلة كمركيزة ! » (بالفرنسية) وأنا ••• أنا رجل شقى ، انسان بائس ! آه ••• اننى لم أكن طوال حياتى الا رجلاً غير شريف •••

فقالت صوفيا ماتفئفنا ضارعةً اليه :

ـ هدىء نفسك !

ـ لقد كذبتُ منذ قليل ، كذبتُ غرورا وتبجحا ، كذبتُ كسلاً وبطالةً . كل ما قلته لم يكن الا كذباً ، كل ما قلته ، الى آخر كلمة ! آه ما أشقانى !

هكذا أعقبت نوبةَ الكوليرين نوبةُ مذلة . لقد سبق أن أتيح لى أن تكلمت عن تلك النــوبات بصــدد الرســائل التى كان يكتبها الى فرفارا بتروفنا . وفجأةً تذكر ليز ، ولقاءهما بالأمس فهتف يقول : « فظيع ! لا بد أن شقاءً قد حلّ ، ولم أسألها عما وراءها ! لم أفكّر الا فى نفسى! ماذا حلّ بها ؟ ألا تعرفين ماذا أصابها ؟ » .

ثم أخذ يحلف أنه « لن يخون أبدا » وأنه « سيعود اليها » (يقصد فرفارا بتروفنا) . قال : « سنمر كلّ يوم أمام بابها (يقصد هو وصوفيا ماتفئفنا) ، ساعة تركب عربتها لتقوم بنزهتها الصباحية ، وسنتأملها بصمت ... آه ... أريد أن تضربنى على خــدى ! ما ألذّ أن تضربنى على خدى ! وسأمد لها خدّى الأيسر ، « كما يقول كتابك ! » (بالفرنسية) . الآن فقط فهمت ما معنى مدّ الخد الأيسر ... ولم أكن قد فهمته قبل الآن فى يوم من الأيام ... » .

قضت صوفيا ماتفئفنا يومين رهيبين . انها ما تزال حتى هذا اليــوم لا تتذكرهما الا وترتعد . لقد بلغ ستيفان تروفيموفتش من شدة المرض أنه كان عاجزاً عن ركوب السفينة حين وصلت السفينة فى الساعة الثانية تماما من بعد الظهر ، فى هذه المرة . ولم تستطع صوفيا ماتفئفنا أن تقرر أن تذهب وتتركه وحده ، وعدلت عن السفر الى سباسوف . وقد روت

فيما بعد أن المريض كان سعيدا جدا حين علم أن السفينة سافرت • لقد دمدم يقول وهو راقد على سريره :

ـ رائع ! حالتى هنا حسنة ، أحسن منها فى أى مكان آخر • لن تتركينى ، أليس كذلك ؟ آه ••• لا ••• لم تتركينى !

ولكن الواقع أن حالته لم تكن حسنةً «هنا» • لقد كان رأسه مليئاً بالأحلام ، فكان لا يريد أن يعرف شيئاً عن المصاعب التى تجتازها صوفيا ماتفئفنا • كان يعدُّ مرضه وعكةً عارضة • حتى ان فكره كان لا يتلبث عليه ، لانشغاله بشىء آخر : كيف سيسافران معا من مدينة الى مدينة « يبيعان هذه الكتب الصغيرة » • وطلب منها أن تقرأ له الانجيل •

ـ منذ مدة طويلة لم أقرأه ••• فى النص الأصلى • فاذا سألنى أحد كان يمكن أن أخطىء • فالأفضل أن يكون المرء مستعدا •

جلست صوفيا الى جانبه وفتحت الكتاب • وأخذت تقرأ ، فاذا هو يقاطعها منذ أول آية قائلاً لها :

ـ انك تجيدين القراءة اجادة عظيمة • لقد أخطأ ظنى •••

قال هذه الجملة الغامضة بحماسة • ولقد كان شديد الحماسة دائما على كل حال •

قرأت له خطبة الجبل •

قال لها :

ـ « كفى كفى يا بنيتى ! » (بالفرنسية) • أتحسبين أن هـذا غير كاف ؟

وأغمض عينيه منهوكا • لقد كان خائر القوى جدا • لكنه لم يفقد

شعوره بعد . نهضت صوفيا ماتفئفنا ، مفترضةً أنه يريد أن ينام . لكنه استوقفها بحركة من يده :

ـ صديقتي . لقد ظللت أكذب طوال حيـــاتي ، حتى حين كنت أقول الحقيقة . لم أتكلم يوما في سبيل الحقيقة ، بل في سبيل نفسي . انني أعلم هذا من قبل ، ولكنني لم أر الا الآن أن ... آه ... أين هم أصدقائي الذين طالما آذتهم صداقتي ؟ لقد آذيتهم جميعا ، جميعا ! « هل تعلمين ؟ » (بالفرنسية) أنني ربما كنت أكذب حتى في هذه اللحظة ؟ نعم ، انني أكذب ، هذا أكيد . المهم انني أصدّق ما أقوله حين أكذب. وأعسر الأمور أن يحيـا المرء بدون أن يـكذب . نعم ، نعم ، ذلك هو أعسر الأمور قاطبة !

قال هذه الجملة الأخيرة بحماسة شديدة .

قالت صوفيا ماتفئفنا تقترح في وجل وخشية :

ـ ستيفان تروفيموفتش ، ألا يحسن أن نستدعى طبيبا من المدينة ؟

فأدهشه هذا الاقتراح الى أقصى حدود الادهاش . وقال لها :

ـ لماذا ؟ « أأنا مريض الى هذا الحد ؟ لا ، ليس هذا بمرض ذي بال ! » (بالفرنسية) . ما حاجتنا الى غرباء ؟ والا عُلم أنني هنا ، وعندئذ ... لا ، لا ، لا حاجة الى غرباء ، بل نبقى وحدنا . وحدنا . وحدنا ...

وقال بعد لحظة صمت :

ـ اسمعي . اقرئي لي شيئاً آخر في كتابك ، دون اختيـــار ، على المصادفة ، ما يقع تحت بصرك ...

ففتحت صـــــوفيا ماتفئفنا الكتاب وأخــذت تقرأ . فكان ستيفان تروفيموفتش يردد :

ـ على المصادفة ، دون اختيار ، أىّ شىء ...

« واكتب الى ملاك كنيسة اللاوديكيين » .

ـ ما هذا ؟ من أين هذا ؟

ـ من رؤيا يوحنا .

ـ « آ .. نعم .. تذكرت .. رؤيا يوحنا .. اقرئى .. اقرئى » (بالفرنسية) . قلت لنفسى اننا اذا فتحنا الكتاب على المصادفة سنكتشف مستقبلنا . أريد أن أعرف ما الذى وقعت عليه من الرؤيا . اقرئى بعد كلمة « الملاك » ، « الملاك » ...

« واكتب الى ملاك كنيسة اللاوديكيين : هذا يقوله الأمين الصادق ، الأمين الشاهد بداءة خليقة الله . أنا عارف أعمالك . لست بارداً ولا حاراً . ليتك كنت بارداً أو حاراً . فلأنك فاتر ، ولست بارداً ولا حاراً ، أنا مزمع أن أتقيأك من فمى . أنت تقول انى أنا غنى وقد استغنيت ولا حاجة بى الى شىء . ولا تعلم أنك شقى وبائس وفقير وأعمى وعريان !» .

هتف ستيفان تروفيموفتش يقول وقد أنهض رأسه متقد العينين :

ـ هذا ... وهذا فى كتابك . لم أعرف فى حياتى هذه الصفحة الرائعة . أتسمعين : لأن تكون باردا ، باردا ، خير من أن تكون فاترا ، من أن تكون فاترا « فحسب » . آه ... لسوف أبرهن ... ولكن لا تتركينى ، لا تهجرينى ! لسوف نبرهن لهم ، لسوف نبرهن لهم !

قالت وهى تمسك يديه وتشدهما وتحملهما الى قلبها :

ـ لا يخطر ببالى أن أتركك ياستيفان تروفيموفتش . لن أتركك أبداً .

وكانت تنظر اليه بعينين مليئتين بالدموع . « كنت أشعر نحوه باشفاق شديد فى تلك اللحظة » . كذلك روت تقول فيما بعد .

وأخذت شفتا ستيفان تروفيموفتش تختلجان •

ـ ولكن ما العمل الآن يا ستيفان تروفيموفتش ؟ يجب أن نبلغ أصدقاءك أو أقرباءك •••

ولكنه بلغ من شدة الذعر حين سمع هذه الكلمات أنه ندم على اثارة هذه المسألة من جديد • فتوسل اليها أن لا تستدعى أحدا ، وأن لا تشرع فى القيام بأى شىء ، توسَّل اليها وهو يرتعش ارتعاشا شديدا • وكان يلح الحاحاً قوياً ويصر على أن تعاهده بأن « لا تبلغ أحداً ، أن لا تبلغ أحدا البتة ، فنبقى وحدنا » و « نسافر معا » (بالفرنسية) •

وأسوأ من ذلك أن صاحب الدار وامرأته أخذا يقلقان ، وأخذا يتذمران ، وأخذا يعذّبان صوفيا ماتفئفنا • فدفعت لهما وأرتهما أنها ما تزال تملك مالاً • فهدأهما ذلك بعض الوقت ، ولكن الرجل طلب جواز سفر ستيفان تروفيموفتش • فأشار المريض بيده الى حقيبته الصغيرة وهو يبتسم ابتسامة تعالٍ واحتقار ، فوجدت صوفيا فى الحقيبة قرار احالته على التقاعد أو ورقة أخرى من هذا النوع ، وهى الورقة التى أقام بها فى المدينة حتى ذلك الحين • ومع ذلك ظل صاحب البيت يلحُّ على ضرورة نقله الى مكان آخر « لأن بيتنا ليس مستشفى ، ولأننا سوف نلقى ازعاجات كثيرة اذا مات » • فاستشارته صوفيا ماتفئفنا فى أمر طبيب تستدعيه ، فقال ان استدعاء الطبيب من المدينة يكلف نفقات باهظة لا قبل لها بها ، فعدلت عن فكرتها • وعادت الى قرب المريض الذى انهارت قواه انهيارا شديدا • لقد كان ستيفان تروفيموفتش يضعف مزيدا من الضعف ساعة بعد ساعة •

قال لها المريض :

ـ والآن اقرئى لى تلك الصفحة ••• عن الخنازير •

فقالت له مرتاعة :

ـ كيف ؟

ـ عن الخنازير ... « أولئك الخنازير » ... أذكر أن الشياطين دخلت فى خنازير هلكت جميعا . اقرئى لى تلك الصفحة حتما . سأقول لك السبب فيما بعد . أريد أن أتذكر تلك الصفحة كلمة كلمة . يجب أن أتذكرها .

وكانت صوفيا ماتفئفنا تعرف الانجيل جيدا ، فسرعان ما وجدت تلك الصفحة من انجيل لوقا ، التى صدَّرت بها قصتى هذه . وهأناذا أكررها هنـا :

« وكان هناك قطيع كبير من الخنازير يرعى فى الجبل ، فتضرعت الشياطين الى يسوع أن تدخل فى الخنازير . فأذن لها . فخرجت من ذلك الانسان ودخلت فى الخنازير . فاندفع القطيع من أعلى الجرف الى البحيرة ، وغرق فيها . فلما رأى رعاة القطيع ما حدث هربوا ونشروا النبأ فى المدينة وفى القرى . فخرج الناس ليروا ما جرى ، فلما وصلوا الى قرب يسوع وجدوا الانسان الذى كانت الشياطين قد خرجت منـه ، وجدوه لابساً ثيابه ، مالكا عقله ، جالسا عند قدمى يسوع . وروى لهم شهود الحادث كيف خلص المجنون . . » .

قال ستيفان تروفيموفتش متأثراً تأثراً قوياً :

ـ اسمعى يا صديقتى ... ان هذه الصفحة الرائعة ... الخارقة ... كانت لى دائما حجر عثرة ... « فى هذا الكتاب » (بالفرنسية) ... لذلك احتفظت بها فى ذاكرتى منذ طفولتى . غير أن فكرةً وافتنى الآن ، فكرة هى تشبيه أو « مقارنة » . ان أفكاراً كثيرة توافينى الآن . اسمعى : هذه هى روسيا تماما . ان هؤلاء الشياطين الذين يخرجون من المريض

ليدخلوا فى الخنازير هم جميع الجراح والعفونات والقذارات والشياطين الصغيرة والكبيرة التى تراكمت خلال القرون فى مريضنا الغالى العظيم ، فى روسيا ! « نعم ، فى روسيا هذه التى أحببتها دائماً » (بالفرنسية) . غير أن فكرة رائعة ، وارادة جبارة ستهبطان عليها من السماء ، كما هبطتا على ذلك المجنون . وستتخلص من جميع الوساخات والنتانات التى ستطلب هى نفسها أن تدخل فى الخنازير . بل لعلها قد دخلت منذ الآن ... انها نحن ، نحن وأولئك ، بتروشا ... « والآخرون معه » (بالفرنسية) ، وربما أنا أيضاً فى طليعتهم . سوف نهوى من أعلى الجرف الى البحر كمجانين مسحورين ، وسوف نهلك جميعا . وهذا خير . اننا لا نصلح لغير ذلك . ولكن المريض سوف يشفى ، وسيجلس عند « قدمى يسوع »، وسينظر الجميع اليه مدهوشين ... عزيزتى ... « سوف تفهمين فيما بعد ... سوف نفهم معا » (بالفرنسية) .

قال ستيفان تروفيموفتش ذلك وأخذ يهذى ، وأُغمى عليه أخيراً. فأخذت صوفيا ماتفئفنا تبكى جالسةً بقربه . انها لم يغمض لها جفن منذ ثلاث ليال ، وهى تتحاشى صاحب البيت وامرأته اللذين كان يهيئان شيئاً كما تحس بذلك صوفيا . ولم يأت الخلاص الا فى اليوم الثالث . ففى الصباح عاد الى ستيفان تروفيموفتش شعوره ، وتعرّف المرأة ومدّ اليها يده . فرسمت اشارة الصليب ، واستردت أملها . وأراد أن ينظر من النافذة ، فقال : « هه ! هذه بحيرة ! يا الهى ! لم أرها من قبل » وانه ليقول هذا الكلام اذ سُمعت قرقعة عربة وقفت أمام الباب . فسرعان ما أثار وصولها هرجاً خارقاً فى المنزل كله .

انها فرفارا بتروفنا بشخصها تصل على عربة ذات أربعة أحصنة مع خادمين ودراريا بافلوفنا . لقد حدثت هذه المعجزة ببساطة تامة . فان آنيسيم كان غداة وصوله الى المدينة يعذبه حب الاطلاع والفضول ، فمضى

يروى لخدم فرفارا بتروفنا أنه رأى ستيفان تروفيموفتش وحيداً فى قرية من القرى ، وأن الفلاحين قد لقوه ماشياً فى الطريق العام ، وانه سافر الى سباسوف . واذ أن فرفارا بتروفنا كانت من جهتها شديدة القلق منذ ذلك الحين ، وكانت قد أرسلت تبحث عن الهارب فى كل مكان ، فقد قادوا اليها آنيسيم . فلما سمعت ما رواه ، ولا سيما التفاصيل المتعلقة بسفر ستيفان تروفيموفتش الى أوستيوف بعربة مع امرأة اسمها صوفيا ماتفئفنا ، أسرعت تستعد فورا ، واندفعت فى اثر الهارب الذى ما تزال تجهل أنه مريض .

حين دوّى صوتها القاسى الصارم ، خاف حتى صاحب البيت وامرأته . انها لم تتوقف هناك الا سائلة ، لاقتناعها بأن ستيفان تروفيموفتش لا بد أن يكون قد سافر الى سباسوف منذ مدة طويلة . فلما علمت أنه ما يزال هنا وأنه مريض دخلت العزبة منفعلةً أشد الانفعال .

وصاحت تسأل حين رأت صوفيا ماتفئفنا التى ظهرت لحظتئذ فى عتبة الغرفة الثانية :

ـ أين هو ؟ لقد حزرت فورا من هيئتك الوقحة أنك أنت . اخرجى من هنا أيتها الوغدة ! أخرجوها من هنا ، اطردوها ، والا فسأجعلك تُسجنين الى آخر حياتك يا عزيزتى . لقد سبق أن سُجنتْ فى المدينة ، وستعود الى السجن . لا يسمحنْ أحد لنفسه بأن يدخل الى هنا ما بقيت أنا أيها السيد . أنا الجنرالة ستافروجين ، وانى أستأجر البيت كله . وأنت يا عزيزتى ، ستُحاسبين على كل شىء .

اضطرب ستيفان تروفيموفتش عند سماع هذا الصوت الذى يعرفه جيدا . وأخذ يرتعد . ولكن فرفارا بتروفنا كانت قد دخلت الى ماوراء الحاجز . وجرّت بقدمها كرسياً وهى متقدة العينين ، وجلست ، ثم ارتدّت بجذعها الى المسند وصرخت تقول لداشا :

ـ اذهبى الى الغرفة الثانية ، ابقى قليلاً مع صاحب البيت وامرأته . ما هذا الفضول ؟ وأحكمى اغلاق الباب وراءك .

وظلت خلال بضع لحظات تتفرس صامتةً بنظرة صقر فى وجه ستيفان تروفيموفتش المذعور . ثم قالت أخيراً تسأله بسخرية حانقة ساخطة :

ـ هيه ، ستيفان تروفيموفتش ، كيف صحتك الآن ؟

فأجابها يقول طائش اللب :

ـ « أيتها العزيزة » (بالفرنسية) ... لقد تعلمت معرفة الواقع الروسى ... وسأعود الى الانجيل .

فصرخت تقول مغتاظة ضامة يديها :

ـ آه ... أيها الرجل الفاسق ، أيها الرجل الذى لا نبل له ! لم يكفك أن جللتنى بالعار ، بل كان لا بد لك من الارتباط أيضا ... آه ... أيها العجوز الداعر !

ـ « عزيزتى » (بالفرنسية) .

واختنق صوته فى حلقه . فلم يستطع أن يضيف كلمة واحدة ، واكتفى بأن نظر اليها مستدير العينين من الرعب .

ـ من هذه ؟

ـ « هذه ملاك ... هذه أكثر من ملاك عندى » (بالفرنسية) ... لقد ظلت طوال الليل ... لا تصرخى ، لا تخيفيها ، «عزيزتى ، عزيزتى» (بالفرنسية) ...

وثبت فرفارا بتروفنا عن كرسيِّها ودفعته عنها بقرقعة ، وصاحت

تقول مروّعة : « ماء ! ماء ! » • وثاب المريض الى نفسه ، ولكنها ظلت ترتعش من الخوف ، وتنظر فى وجهه المتشنج شاحبةً اللون • انها فى تلك اللحظة انما أدركت مدى خطورة مرض ستيفان تروفيموفتش •

قالت بصوت خافت تخاطب داريا بافلوفنا :

ـ داريا • استدعى الدكتور سالزفيش حالاً فليسافر ايجور على الفور ، فليستأجر حصانا • وليركب فى المدينة عربة أخرى ليصل الى هنا مع سالزفيش قبل الليل •

خرجت داريا راكضةً • وكان ستيفان تروفيموفتش ما يزال ينظر تلك النظرة الثابتة الجامدة المرتاعة ، وكانت شفتاه الصفراوان تختلجان •

قالت فرفارا بتروفنا تخاطبه ملحةً كما يخاطَب طفل :

ـ هدىء نفسك ياستيفان تروفيموفتش • هيّا • عليك بشىء من الصبر • سترجع داريا ••• وعنـــدئذ ••• يا الهى ! يا ريّسة ••• يا ريّسة ••• تعالى ••• تعالى حالا !

كذلك نادت صاحبة البيت • ثم هُرعت تبحث عنها بنفسها من نفاد صبرها •

ـ أرجعوا « الأخرى » حالاً • نادوها • بسرعة • بسرعة •

من حسن الحظ أن صوفيا ماتفئفنا لم تكن بعيدة : لقد رحلت منـــذ لحظة قصيرة بكيسها وحزمتها الصغيرة • أعادوها • كانت يداها وساقاها ترتعش خوفاً • وكما ينقض باز على صوص أمسكتها فرفارا بتروفنا من ذراعها وجرّتها الى عند ستيفان تروفيموفتش :

ـ هى ذى • لم آكلها ! كنت تظن أننى أكلتها •

تناول ستيفان تروفيموفتش يد فرفارا بتروفنا ، وحملها الى عينيه ، وأخذ يبكي طائش العقل .

ـ طيب ، طيب ، هدىء نفسك ياعزيزي . رباه ! ولكن هلاّ هدأت نفسك ! آه ... جلاد ... جلاد ...

كذلك زعقت على حين فجأة .

فدمدم ستيفان تروفيموفتش يقول ملتفتا نحو صوفيا ماتفئفنا :

ـ عزيزتي ، اذهبي لحظة الى هناك ، الى الغرفة الثانية ... أريد أن أقول بضع كلمات ....

فأسرعت صوفيا ماتفئفنا تخرج .

ـ « عزيزتي ... عزيزتي » (بالفرنسية) .

كان يختنق . فقالت له فرفارا بتروفنا !

ـ لا تتكلم يا ستيفان تروفيموفتش ، انتظر قليلا . استرح الآن . اليك ماءً . ولكن انتظر ! قلت لك انتظر !

وجلست الى جانبه من جديد ، وحظـــــرت عليه أن يتكلم . كان ستيفان تروفيموفتش يضغط يدها بيديه ضغطا قويا . وها هو ذا يحمل هذه اليد فجأةً الى شفتيه ويقبّلها . فكانت فرفارا تحدّق الى ركن من الغرفة كازةً أسنانها .

وأفلت منه أخيرا قوله :

ـ « لقد أحببتك » (بالفرنسية) .

لم يسبق أن قال لها في يوم من الأيام كلمة كهذه الكلمة ، وبهـذه اللهجة أيضا .

فهمهمت تقول :

ـ همْ ...

ـ « لقد أحببتك طوال حياتى ... عشرين عاما ! » (بالفرنسية) .

فلزمت الصمت دقيقتين أو ثلاثا . ثم قالت فجأة بصوت مختنق ولكنه مهدَّد :

ـ ومن أجل أن يَمثل أمام داشا تعطَّر وتطيَّب .

فصُعق ستيفان تروفيموفتش .

ـ ... ووضع رباط عنق جديدا ...

صمتا مرةً أخرى .

ـ والسيجار ، هل تتذكره ؟

حاول أن يحتج فقال متأتئاً :

ـ صديقتى ...

ـ السيجار ، مساءً ، قرب النافذة ... فى ضوء القمر ... بعد العريشة .... بسكفورشنيكى ؟ هل تتذكر ؟ هل تتذكر ؟

كذلك همست وهى تنهض فجأة ، وأمسكت طرفى الوسادة التى كان يرقد عليها رأس ستيفان تروفيموفتش وأخذت تهزهما . وتابعت تقول :

ـ ... هل تتذكر أيها الرجل الطائش ، الخفيف ، الذى لا حشمة فيه ولا حياء له ، أيها الرجل التافه ، التافه كل التفاهة !

أصبح صوتها من فرط الغضب صافراً ، ولكنها حاولت أن تخنقه . وتركت الوسادة أخيراً ، وتهالكت على الكرسى وغطت وجهها بيديها . ثم قالت وهى تهب واقفة :

ـ كفى ! عشرون عاما مضت ولن تعود • ما أنا الا حمقاء !

قال هو يضم يديه :

ـ « لقد أحببتك » (بالفرنسية) •

ـ ما بالك تكرر هذا الكلام « أحببتك ، أحببتك » •

وهبَّت تقف مرة أخرى • وقالت له :

ـ اذا لم تنم فوراً فانني ••• انك في حاجة الى هدوء • نَمْ ، نم حالاً ، أغمض عينيك • رباه ! لعله يريد أن يصيب شيئاً من الطعام ؟ ماذا تأكل ؟ ماذا يأكل ؟ رباه ! أين الأخرى ؟ أين هي ؟

وعاد الاضطراب • لكن ستيفان تروفيموفتش قال بصوت ضعيف انه يريد فعلاً أن ينام « ساعة » ، وبعد ذلك يشرب « مرقاً ساخناً أو شاياً••• وانه حقا سعيد » (بالفرنسية) • وتمدد ، وبدا عليه أنه نام (لعل ذلك لم يكن الا تظاهرا) • فانتظرت فرفارا بتروفنا لحظة ، ثم خرجت ماشيةً على رءوس الأصابع •

واستقرت في الغرفة الأولى ، وأخرجت صاحب البيت وامرأته ، وقالت لداشا أن تأتيها بالأخرى التي شرعت فرفارا بتروفنا تستجوبها استجوابا كاملاً حسب الأصول •

ـ حدثيني الآن عن كل شيء • اجلسي هنا ، الى جانبي ، هيه ؟

ـ لقيت ستيفان تروفيموفتش •••

ـ قفي ، اسكتي • اعلمي أنك اذا كذبت أو أخفيت شيئاً فلن تفلتي من قبضتي ولو ذهبت الى آخر ركن في العالم • هيه ؟

ـ ••• لقيت ستيفان تروفيموفتش ••• منذ وصولي الى حاتوفو ••

كان صوت صوفيا ماتفئفنا يختنق •

ـ انتظرى ، اسكتى ! يا لها من ثرثارة ! أولاً ، من أنت ؟

روت المرأة سيرة حياتها منذ سيباستوبول بكلمات قليلة كيفما اتفق . وكانت فرفارا تجلس منتصبة القامة ، وتصغى اليها صامتة ، محدقةً بعينيها الى عينى محدثتها .

ـ مالى أراك وجلة هذا الوجل كله ؟ ما بالك تطرقين الى الأرض ؟ أحب الذين ينظرون الىّ مواجهةً ويناقشوننى مناقشة . أكملى .

وصلت صوفيا ماتفئفنا من حديثها الى لقائهما ، والى «الكتب الصغيرة» والى الفودكا التى قدمها ستيفان تروفيموفتش الى الفلاحة . فقالت لها فرفارا بتروفنا لتشجعها :

ـ أحسنت ، أحسنت ! لا تهملى أى تفصيل من التفاصيل .

وتابعت صوفيا كلامها :

ـ وكان ستيفان تروفيموفتش لا ينقطع عن الكلام ، ولكنه كان مريضا منذ ذلك الوقت . وهنا روى لى سيرة حياته كلها منذ البداية ، خلال عدة ساعات .

ـ ماذا قال لك عن حياته ؟

ارتبج على صوفيا ماتفئفنا . ثم دمدمت تقول أخيراً وهى تكاد تبكى :

ـ لا أدرى . ثم اننى لم أكد أفهم من كلامه شيئاً .

ـ غير صحيح : يستحيل أن لا تكونى قد فهمت شيئاً .

قالت صوفيا وقد احمر وجهها احمرارا شديدا اذ لاحظت أن فرفارا بتروفنا شقراء ، وأنها لا تشبه السيدة السمراء التى تحدث عنها ستيفان تروفيموفتش أى شبه :

ـ تكلم كثيراً عن سيدة سمراء عالية المقام ٠

ـ سيدة سمراء ؟ من عساها تكون ؟ أكملي ٠

ـ قال ان هذه السيدة السمراء كانت مولَّهة بحبه طوال عشرين عاما ، ولكنها لم تجسر أن تصارحه بذلك يوما ، وانها كانت تستحي من فرط بدانتها ٠

ـ يا للغبي !

كذلك قالت فرفارا بتروفنا بلهجة قاطعة ، وشرد ذهنها مع ذلك ٠

لم تستطع صوفيا ماتفئفنا أن تحبس دموعها أكثر مما حبستها الى الآن ؟

ـ لا أستطيع أن أروي لك مزيداً ، لأنني كنت خائفة عليه خوفا شديدا فلم أستطع أن أفهم عنه٠٠٠ انه ذكي جدا ٠٠٠

ـ ليس لحمقاء مثلك أن تحكم على ذكائه ٠ هل خطبك للزواج ؟

ارتجفت صوفيا ماتفئفنا ٠

ـ هل أحبك ؟ تكلمي ! هل طلب أن يتزوجك ؟

قالت صوفيا ماتفئفنا من خلال دموعها :

ـ تقريبا ٠

ثم أضافت تقول بصوت ثابت وهي ترفع رأسها :

ـ لكنني لم انتبه الى هذا كله ، بسبب مرضه ٠

ـ ما اسمك ؟

ـ صوفيا ماتفئفنا ٠

ـ طيب ٠ اعلمي يا صوفيا ماتفئفنا أن هذا رجل تافه كل التفاهة ٠٠٠ رباه ! لا بد أنك تنظرين الى نظرتك الى امرأة شقية ، هه ؟

حملقت الأخرى . وتابعت فرفارا :

ـ امرأة شقية ، امرأة طاغية حطمت حياته ، هه ؟

ـ كيف يكون هذا ممكناً وأنت نفسك تبكين ؟

كانت عينا فرفارا بتروفنا مغرورقتين بالدموع فعلاً .

ـ هيّا ، اجلسى ، لا تخافى . انظرى الىّ وجهاً لوجه مرةً أخرى. لماذا تحمرّين ؟ داشا ، تعالى الى هنا ، انظرى اليها ! ما رأيك ؟ هل قلبها طاهر نقى ؟

وما كان أشد دهشة صوفيا ماتفئفنا وما كان أشد رعبها أيضا حين ربتت فرفارا بتروفنا على خدّها .

ـ المؤسف فقط أنك غبية ، غبية جدا بالقياس الى سنك . سوف أعتنى بك . اننى أرى الآن أن الأمر لا يعدو أن يكون سفاسف . أقيمى هنا الآن . سأدفع عنك كراء الغرفة وثمن الطعام وما عدا ذلك . وسوف أستدعيك .

حاولت صوفيا ماتفئفنا أن تعترض فى وجل بأنها يجب أن تسافر . فقالت لها فرفارا بتروفنا :

ـ فيم العجلة ؟ سوف اشترى جميع كتبك . ابقى هنا . اسكتى . لا أريد أن أسمع شيئاً . لو لم أصلْ أنا لما تركته انت ، أليس كذلك ؟

قالت صوفيا ماتفئفنا بلهجة قاطعة وهى تجفف دموعها :

ـ ما كان لى أن أتركه قط .

وصل الدكتور سالزفيش فى ساعة متأخرة من الليل . انه شيخ محترم جدا ، وطبيب ممارس ذو خبرة قد ترك الخدمة منذ مدة قصيرة

على أثر مشاجرة قامت بينه وبين الادارة • فسرعان ما صار فى حمـــاية فرفارا بتروفنا • فحص المريض بانتباه وتدقيق ، وألقى عليه عـــددا من الأسئلة ، ثم أعلن لفرفارا بتروفنـا ، مع كل المداراة الممكنـة ، أن حالة المريض مقلقة جدا ، وأنه يجب « توقع تفاقمها » • فاضطربت فـــرفارا بتروفنا اضطرابا شديدا بعد أن ألفت منذ عشرين سنة الى الآن أن لا تأخذ مأخذ الجد أى أمر يتعلق بستيفان تروفيموفتش • وشحب لونها شـــحوبا شديدا •

ـ أليس هناك أى أمل حقا ؟

ـ لا يمكن القول اننا فقدنا كل أمل ، ولكن •••

لم ترقد فرفارا بتروفنا طوال الليل ، منتظرةً طلوع النهار بفـارغ صبر • وما ان فتح المريض عينيه وعاد اليه شعوره (كان ما يزال يمـلك وعيه كاملاً ، ولكن قواه كانت تتناقص تناقصا سريعا) حتى اقتربت منه عازمةً أمرها ، وقالت له :

ـ ستيفان تروفيموفتش ، يجب توقع كل شيء • لقد أرسلت فى طلب كاهن • عليك أن تقوم بواجبك •

لقد كانت تخشى، وهى تعرف اعتقاداته ، أن يرفض حضور الكاهن• لذلك أسرعت تصرخ منذ نظر اليها مدهوشا ، اذ تخيلت أنه سيرفض • قالت :

ـ سخف ! سخف ! ليس الأمر أمر سفاسف وترهات الآن ! لقد مزحت بما فيه الكفاية !

ـ ولكن ••• هل حالتى سيئة الى هذا الحد ؟

ووافق على حضور الكاهن شارد اللب • لقـــد علمت فيما بعـد ،

مدهوشا أشد الدهشة ، علمت من فم فرفارا بتروفنا نفسها ، أنه لم يخف من الموت أى خوف . لعله لم يصدّق أنه سيموت ، لأنه ظل يعد مرضه أمراً تافهاً لا قيمة له .

واعترف للكاهن وتناول القربان المقدس راضيا كل الرضى . حتى اذا انتهى من تلقى الأسرار ، أقبل عليه الجميع ، ومنهم صوفيا ماتفئفنا والخدم ، يهنئونه . وقد لقوا عناءً كبيرا فى حبس دموعهم حين رأوا وجهه الناحل المهدود ، وشفتيه البيضاوين اللتين كانتا تختلجان .

ـ « نعم يا أصدقائى » (بالفرنسية) ... وانى ليدهشنى فقط أن أراكم منشغلين هذا الانشغال كله ... غداً قد أنهض ... فنسافر ... « ان هذا الاحتفال كله » (بالفرنسية) الذى أشعر نحوه بأكبر الاحترام طبعا ، انما كان ....

أسرعت فرفارا بتروفنا تتدخل مخاطبةً الكاهن الذى كان قد نضا عنه ملابس الكهنوت فقالت :

ـ أرجوك يا أبى أن تبقى بقرب المريض . وأرجوك متى قدمت الشاى أن تتحدث فى أمور الهية تعزيزاً لا يمان المريض .

فبدأ الكاهن كلامه فقال بصوت متساوٍ رتيب ، بينما كان يحمل فنجان الشاى بيده :

ـ فى عصرنا هذا الذى بلغت فيه الخطيئة هذا المبلغ من القوة ، فان الملاذ الوحيد للجنس البشرى فى وسط آلام الوجود ومحن الحياة ، انما هو الايمان بالله ، والأمل فى السعادة الأبدية التى وُعد بها الصالحون ...

ظهر على ستيفان تروفيموفتش أنه انتعش ، وانسابت على شفتيه ابتسامة ناعمة رقيقة ...

ـ « شكراً يا أبت ، وانك لطيب جدا ، ولكن ... » (بالفرنسية) .

ـ لا « لكن » أبداً ... لا « لكن » البتة !

كذلك صاحت تقول فرفارا بتروفنا واثبةً عن كرسيّها . وتابعت كلامها تقول للكاهن :

ـ أبت ، هذا رجل ، رجل ... سيكون من الواجب حمـله على الاعتراف مرةً أخرى بعد ساعة ... ذلك هو نوع هذا الرجل !

ابتسم ستيفان تروفيموفتش ابتسامة محتشمة خفية . وقال :

ـ يا أصدقائى ، ان الله ضرورة لى ، ، لأنه الموجود الوحيد الذى يمكن أن يحبه المرء حباً أبدياً ...

تُرى أكان يؤمن بهذا الكلام فعلاً ، أم أن فخامة الاحتفال قد بثت فى نفسه الاضطراب اذ أيقظت عاطفة الفنان التى تتصف بها طبيعته ؟ مهما يكن من أمر ، فانه ، كما يقال ، قد قال بلهجة جازمة نافذة بضعة أقـوال تناقض آراءه القديمة مناقضة واضحة .

ـ ان خلودى ضرورة لازمة ، لمجرد أن الله لن يشـاء أن يرتكب ظلماً يطفىء الى الأبد العاطفة التى اشتعلت فى قلبى حباً له . وأى شئ أثمن من الحب ؟ ان الحب فوق الموجود قيمة ، انه تاج الموجود . فكيف يكون ممكنا أن لا يخضع له الموجود ؟ اذا كنت قد أحببت الله وسـعدت بهذا الحب ، فهل يمكن أن يطفئنا الله ، أنا وحبى ، وأن يغرقنا فى العدم ؟ اذا كان الله موجوداً فأنا خالد ! ذلكم هو « اعلانى لمبادئى » (بالفرنسية) .

قالت فرفارا ملحةً بصوت ضارع :

ـ الله موجود ، ياستيفان تروفيموفتش ، أؤكد لك أن الله موجود . فأنكر تلك السخافات كلها ، وانبذها ، ولو مرةً واحدة فى حياتك .

أغلب الظن أنها لم تفهم « اعلانه لمبادئه » .

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يزداد حماسة ، لحظة بعد لحظة ، غير أن صوته لا يسعفه :

- صديقتى ... حين فهمت اليوم ... مدّ الخد الأيسر ... فاننى ... فاننى ... فهمت على الفور شيئاً آخر أيضا ... « لقد كذبت طوال حياتى » (بالفرنسية) ... نعم ، طوال حياتى ! وأريد ... على كل حال ... أريد ... غداً ... أن نسافر كلنا معاً ...

أخذت فرفارا بتروفنا تبكى . وكان ستيفان تروفيموفتش يبحث بعينيه عن شىء ما .

- هى ذى ، انها هنا !

كذلك قالت له فرفارا بتروفنا ، وأمسكت صوفيا ماتفئفنا من يدها ، وقادتها الى قربه . فابتسم ابتسامة فيها رقة وحنان . وقال وهو ينتفض انتفاضة قوة :

- آه ... لكم أود لو أعيش أيضا ! ان كل دقيقة ، بل كل لحظة ، يجب أن تكون فرصةً للانسان ... نعم ... ذلك ما يجب أن يكون . واجب الانسان أن يفعل ما يجعل هذا واقعاً . ذلك قانون الانسان ... هو قانون خفى لكنه واقع . لكم أود أن أرى بتروشا ... والجميع ... وشاتوف !

يجب أن أذكر فى هذه المناسبة أن أحداً لم يكن قد سمع شيئاً عن شاتوف بعد ، لا داريا بافلوفنا ، ولا فرفارا بتروفنا ، حتى ولا الدكتور سالزفيش الذى وصل من المدينة .

وكان اضطراب ستيفان تروفيموفتش يزداد ساعةً بعد ساعة ، وكان هذا الاضطراب ينهك قواه .

ـ يكفى أن أتصور أن هناك شيئاً أعدل منى بما لا نهاية له ، وأسعد منى بما لا نهاية له ، حتى يملأنى ذلك حنانا واسعا وأن يملأنى شعورا بالمجد ، كائناً من كنت أنا ، وفاعلاً ما فعلت . لا يحتاج الانسان الى سعادته الخاصة كاحتياجه الى أن يعرف ويؤمن فى كل لحظة أن هناك فى مكان ما سعادة مطلقة وسلاما لجميع الناس ولكل الأشياء ... قوام قانون الحياة البشرية كله أن يكون فى وسع الانسان أن ينحنى أمام شىء عظيم عظمة لا نهاية لها . فاذا حُرم البشر من هذا الشىء الذى لا نهاية لعظمته رفضوا أن يعيشوا وماتوا فى اليأس . اللانهاية والمطلق لا غنى للانسان عنهما ، كما لا غنى له عن هذه الأرض التى يعيش عليها ... يا أصدقائى ، جميعاء جميعا ! عاش « الفكر العظيم » ! الفكر الأبدى ، اللانهائى ! لا غنى لكل انسان ، كائنا من كان ، عن الانحناء أمام الفكر العظيم . ان أغبى انسان فى حاجة الى شىء عظيم . بتروشا ... آه ... لكم أود أن أراهم مرة أخرى جميعا ! انهم لا يعرفون ، لا يعرفون أنهم هم أيضا تنطوى نفوسهم على ذلك « الفكر العظيم » ، ذلك الفكر الأبدى !

لم يكن الدكتور سالزفش قد حضر الاحتفال . فلما عاد فجأةً ارتاع وأخرج جميع الناس ملحاً على أن يتركوا المريض هادئاً .

مات ستيفان تروفيموفتش بعد ثلاثة أيام . ولكنه فقد الشعور قبل ذلك بكثير . ولقد توفى بهدوء ورفق كما تذوب شمعة . وقد أمرت فرفارا بتروفنا باقامة قداس فى غرفة الموتى ، وأرجعت جثمان صديقها العزيز الى سكفورشنيكى ، وجعلت قبره فى حرم الكنيسة ، وكست القبر بشاهدة من مرمر ، وأحاطته فى الربيع بسياج من حديد مشبّك .

دامت اقامة فرفارا بتروفنا فى أوستيفو ثمانية أيام . وقد اصطحبت فى عودتها صوفيا ماتفئفنا التى أقامت عندها منذ ذلك الحين اقامة أظن أنها

ستكون دائمة . يجب أن نذكر أن فرفارا بتروفنا ، منذ اللحظة التى غاب فيها عن ستيفان تروفيموفتش شعوره ، قد أبعدت البائعـــة المتجولة ، بل طردتها من العزبة ، وظلت تعنى بالمريض وحدها الى آخر لحظة . ولكن ما ان لفظ المريض آخر أنفاسه حتى استدعت صوفيا ماتفئفنا ، وعرضت عليها أن تقيم فى سكفورشنيكى (بل قل أمرتهـــا بذلك) ، فلما حاولت صوفيا أن تعترض خجلى وجلى ، لم تشأ فرفارا بتروفنا أن تسمع شيئاً ، وقالت :

ـ هذه كلها سخافات ! سأمضى معك أبيع أناجيل . لم يبق لى أحد فى هذا العالم !

فقال سالزفيش :

ـ ولكن لك ابناً !

فقالت بلهجة قاطعة :

ـ لا بل لم يبق لى ابن .

لكأنها كانت تقرأ المستقبل وتعلم الغيب .

الفصل الثامن

خاتمة

هذه الجرائم كلها ، وهذه الفظائع كلها قد اكتشفت بسرعة كبيرة ، بسرعة أكبر مما كان يقدّر بطرس ستيفانوفتش . ففي ليلة مقتل شاتوف استيقظت المسكينة ماريا اجناتيفنا قبل الفجر . فبحثت عن زوجها بعينيها فلم تجده بقربها فجُنَّت قلقاً . وحاولت المرأة العجوز التي تركتها آرينا بروخورفنا الى جانبها وباتت معها في الغرفة حاولت أن تهدئها ولكنها لم تظفر بطائل . ولذلك ما ان طلع النهار حتى ركضت الى بيت آرينا بروخورفنا التي لا بد ، كما قالت للمريضة ، أن تعرف أين يوجد شاتوف ومتى يعود . وفي أثناء ذلك كانت آرينا بروخوروفنا تشعر هي أيضا بأشد القلق : فان زوجها قد قصّ عليها ما جرى الليلة البارحة في حديقة سكفورشنيكي . ان فرجنسكي قد رجع الى داره في نحو الساعة الحادية عشرة من المساء على حالة من الجزع يُرثى لها . وقد تهالك على سريره وهو لا ينى يردد عاقفا يديه ذارفا دموعه : « ليس هذا ، ليس هذا أبدا . . » . وفي النهاية اعترف لآرينا بروخوروفنا بكل شيء طبعا . ولكنه اعترف لها وحدها . فأمرته آرينا بروخوروفنا بأن يبقى راقداً وقالت له بلهجة قاسية ان عليه اذا أراد البكاء أن يدفن رأسه في الوسادة حتى

لا يستطيع أحد أن يسمعه ، وانه سيكون غبيا كل الغباء اذا لم تتحسن سحنته في الغد • وقررت مع ذلك أن تتخذ بعض الاحتياطات استعدادا لأى طارىء ، فحرقت أو أخفت الأوراق أو الكتب الخطرة ، والمنشورات التحريضية • وفكرت فى الأمر فقالت لنفسها انه ما خطر يتهددها هى أو يتهدد أختها أو الطالبة أو أخاها شيجالوف على كل حال • فلما جاءتها العجوز فى الصباح مضت الى ماريا اجناتيفنا بغير تردد • لقد كانت تريد أن تعرف أيضا ، بأقصى سرعة ، ما الذى انتهت اليه الآمال التى كان يعقدها بطرس ستيفانوفتش على كيريلوف ، والتى حدثها عنها فرجنسكى زائغ الهيئة تماما •

ولكن وصولها الى عند ماريا اجناتيفنا كان متأخرا : فان ماريا وقد وجدت نفسها وحيدة لم تطق صبرا على البقاء فى البيت فنهضت وألقت على جسمها ما وقع تحت يدها من لباس ـ وهو ثوب رقيق جداً لا يناسب هذا الفصل من فصول السنة ـ وهرعت الى عند كيريلوف ، قائلةً لنفسها ان كيريلوف لا بد أنه يستطيع أن ينبئها عن شاتوف أكثر مما يستطيع ذلك أى شخص آخر • وتستطيعون أن تتصوروا الشعور الذى أحدثه فى نفس المسكينة ، ذلك المشهدُ الذى كان ينتظرها فى بيت كيريلوف • يجب أن نذكر أنها من شدة هلعها لم تنتبه الى الرسالة التى كانت مع ذلك متروكة على المائدة فى موضع بارز •

رجعت ماريا الى غرفتها فتناولت طفلها وولت هاربة فى الشارع الذى كان لا يزال خالياً مقفراً فى تلك الساعة • كان الجو رطباً والضباب منتشراً • وكانت هى تركض لاهثةً متعثرةً بالوحل اللزج البارد • وقررت أخيراً أن تقرع أبواب المنازل ، ولكن لم يفتح لها أحد • وظلت مع ذلك تقرع الى أن فُتح لها أخيراً أحد الأبواب : انه مسكن رجلٍ من

تجار مدينتنا اسمه تيتوف . قلبت ماريا اجناتفنا البيت كله رأساً على عقب : كانت تعول اعوالاً شديدا وتكرر أن « زوجها قد قُتل » . وكانت أسرة تيتوف تعرف شاتوف ، وكانت على شيء من العلم بقصته . والشيء الذي روّعهم خاصةً هو أن هذه المرأة التي ولدت منذ قليل كما تقــول كانت تركض في الشوارع وهي لا يكاد يكسوها شيء ، وذلك في هذا الجو البارد ، مع طفل عارٍ تقريبا تحمله في يديها . ظنوا في أول الأمر أنها تهذي ، لا سيما وأنهم لم يستطيعوا أن يفهموا من الذي قُتل : أهـــو كيريلوف أم هو زوجهــا ؟ واذ لاحظت أنهم لا يصـــدّقونها أرادت أن تهرب ، ولكنهم احتجزوها بالقوة ، رغــم أنها أخذت تصرخ وتتخبط كمجنونة فيما قيل . وذهبوا الى عمارة فيليبوف ، فما مضت ساعتان الا وكانت المدينة كلها على علم بانتحار كيريلوف وبرسالته . واســـتجوبت الشرطة ماريا اجناتيفنا التي لم تكن قد فقدت وعيها بعـــد ، وعندئذ انما اكتشفوا أنها لم تكن قد قرأت الرسالة ، وانها لا تستطيع أن تذكر كيف استنتجت موت زوجها من موت كيريلوف . كانت لا تزيد على أن تصرخ قائلة ان زوجها قد قُتل ما دام كيريلوف قد قُتل ، « لأنهما كانا معاً » . وفي نحو الظهر فقدت وعيها ، وماتت غداة غدٍ دون أن تفيق من اغمائها. أما الطفل الذي كان قد أصابه برد فانه سبقها الى القبر .

حين لم تجد آرينا بروخوروفنا لا الأمّ ماريا اجناتفنا ولا طفلها ، أحست بمجيء الكارثة وقررت أن ترجع الى البيت . ومع ذلك توقفت تحت البوابة وأرسلت العجوز « تسأل السيد الذي يسكن الجناح المستقل في صحن الدار هل ماريا اجناتفنا عنده ، أو هل يعرف على الأقل أين هي » . فعادت العجوز وهي تطلق صيحات من شأنها أن تهيج الشــارع كله . فأسرعت آرينا بروخوروفنا تسكتها بالحجة المعروفة جدا : « اسكتي والا كان لك مع القضاء متاعب » ، ورجعت الى دارها بأقصى سرعة .

واذ علمت الشرطة أن آرينا بروخوروفنا قد أشرفت على ولادة امرأة شاتوف ، فقد جاءت تستجوبها في ذلك الصباح نفسه ، ولكنها لم تستطيع أن تحصل منها على شيء ذي بال • لقد رددت بأكبر الهدوء كل ما رأته وما سمعته عند شاتوف ، ولكنها صرّحت بأنها لا تعرف شيئاً عن موت شاتوف وعن الأحداث الأخيرة •

تستطيعون أن تتصوروا الانفعال الشديد الذى أحدثه هذا كله فى المدينة • « هذه قصة جديدة ! هذا اغتيال آخر » • ولكن الوضع أخذ يظهر الآن فى ضوء جديد : ان وجود جمعية سرية تضم قتلةً ومشعلى حرائق ونوريين أصبح الآن أمراً لا يشك فيه أحد • ان موت ليزا الفظيع، ومقتل زوجة ستافروجين ، واختفاء ستافروجين ، والحريق ، وحفلة الرقص التى أقيمت لمساعدة المعلمات ، والاستهتار الذى يسود بيئة جوليا ميخائيلوفنا ، وحتى هرب بطرس ستيفانوفتش فجأة ••• ذلك كله أصبح له شكل مؤامرة واسعة• وأخذت أنواع من الشائعات تجرى عن ستافروجين • ولكن الشيء الغريب هو أن الناس لم يتكلموا الا قليلاً عن بطرس ستيفانوفتش الذى علموا أنه سافر فى ذلك المساء نفسه • ولكنهم تكلموا كثيرا عن « عضو مجلس الشيوخ » •

رابط جمهور كبير أمام عمارة فيليبوف طوال الصباح • وفى البداية صدّقت الشرطة الأكذوبة التى تضمنتها رسالة كيريلوف ، فاعتقدت بأن كيريلوف هو الذى قتل شاتوف ثم انتحر « القاتل » • ولكن السلطات اذا كانت قد انخدعت فان انخداعها لم يكن كاملاً • من ذلك أن الحديقة التى تشير اليها رسالة كيريلوف تلك الاشارة الغامضة ، لم تضلل أحداً ، على خلاف ما تنبأ به بطرس ستيفانوفتش • لقد أسرعت الشرطة الى سكفورشنيكى فوراً ، لا لأنه ليس لدينا حديقة أخرى فحسب ، بل أيضا لأن نوعا من الغريزة قاد خطى البحث : ان جميع الأحداث الرهيبة فى

تلك الأيام الأخيرة انما تتصل كثيرا أو قليلا بسكفورشنيكي وسكانها (يحسن أن أشير عابراً الى أن فرفارا بتروفنا التى لم تكن تعرف شيئاً كانت قد غادرت المدينة فى ذلك الصباح نفسه بحثا عن ستيفان تروفيموفتش) . واكتُشفت جثة شاتوف فى نحو المساء . وعلى مقربة من مكان ارتكاب الجريمة عُثر أيضا على قبعته التى قد نسيها القتلة خفةً وطيشاً . وظهر من فحص الجثة فحصاً طبياً ومن بعض العلاقات الأخرى أن كيريلوف كان له شركاء .

وأصبح من المسلَّم به اذن أن هناك جمعية سرية تضم شاتوف وكيريلوف ولها علاقة بالمنشورات . ولكن من هم شركاؤهما ؟ لم يكن « أصحابنا » يخطرون ببال أحد حتى ذلك الحين . وقد عُلم أن كيريلوف كان يعيش حياة منزوية ، وأن فدكا ، كما تذكر الرسالة ، قد استطاع أن يقيم عنده مدة طويلة بينما كان يُبحث عنه فى كل مكان ! ... والشيء الذى أدخل الاضطراب فى العقول أكثر من كل ماعداه هو أنه كان يستحيل على المرء أن يحل هذه الألغاز ويستخرج بعض النتائج . ولولا أن كل الأمور قد اتضحت فجأةً فى الغداة بفضل ليامشين ، لكان يصعب علينا أن نتخيل الافتراضات العجيبة والآراء الغريبة التى كان يمكن الوصول اليها آخر الأمر .

لم يستطع ليامشين أن يطيق صبراً . لقد حدث له ما أوجسه بطرس ستيفانوفتش نفسه فى النهاية . قضى نهاره كله فى السرير بحراسة تولكاتشنكو أولاً ثم بحراسة اركل . وكان هادىء المظهر ،ملتفتاً نحو الحائط ، يلتزم الصمت ولا يكاد يجيب حين يوجَّه اليه الكلام . لم يعلم اذن بشيء مما كان يجرى فى المدينة غير أن تولكاتشنكو الذى كان على علم بكل شيء قرر فى نحو المساء أن يترك المهمة التى أناطها به بطرس ستيفانوفتش ، وأن يرحل الى المقاطعة ، أى أن يهرب : لكأنهم قد فقدوا

صوابهم جميعا . واضح أن اركل لم يخطىء . لقد هرب ليبوتين هـو أيضا فى ذلك اليوم نفسه منذ الصباح . غير أن السلطات لم تعلم برحيله الا فى الغد ؟ وحين جاءت الشرطة الى مسكنه وجدت الأسرة كلها قلقةً لاختفائه أشد القلق ، غير أنها تكتم أمر هذا الاختفاء مع ذلك .

أعود الى ليامشين . انه منذ أصبح وحيداً (اذ كان اركل قد اتكل على تولكاتشنكو وعاد الى بيته) ، أسرع يخرج ، فما هى الا برهة قصيرة حتى كان على علم بتفاصيل الموقف طبعا .

فقرر أن يهرب بغير ابطاء ، وأن يمضى قُدُماً لا يلوى على شىء . ولكن الظلام كان حالكاً ، فبدت له مغامرته محفوفة بمخاطر شديدة . فبعد أن قطع شارعين أو ثلاثة ، رجع الى البيت ، وأقفـل على نفسه الباب بالمفتاح . يقال انه حاول فى الصباح أن ينتحر ، ولكنه لم يفلح فى ذلك. فمكث فى غرفته حتى الظهر . وعندئذٍ اتخذ قراره فجأة ، فأسرع يركض الى قسم الشرطة . يظهر أنه هناك جثا على ركبتيه ، وأخذ يزحف باكيا ناشجا ، وأنه قبَّل الأرض وهو يصيح بأنه لا يستحق أن يقبِّـل حتى أحذية الشخصيات السامية التى أمامه. وكانوا لطافاً فى معاملته الى أبعد حد. ودام استجوابه قرابة أربع ساعات . حكى كل شىء ، كل شىء تماما ، حتى أدق التفاصيل . بل لقـد كان يستبق الأسئلة من شـدة استعجاله الاعتراف الكامل ، فيروى أشياء لا داعى اليها وليس يُسأل عنها . وقد اتضح انه يعرف أمورا كثيرة . لذلك استطاع أن يكشف عن خفايا القضية: ان مأساة شاتوف وكيريلوف ، والحريق ، وموت ليبادكين وأخته ، كل ذلك كان فى المرتبة الثانية من خطورة الشأن فى حديثه ، أما المرتبة الأولى فقد كانت لبطرس ستيفانوفتش ، والجمعية السرية ، والتنظيم ، والشبكة. وحين أُلقى عليه هذا السؤال : لماذا جرائم القتل هذه كلها ، لماذا تلك الفضائح كلها ، لماذا هذه الدناءات كلها ؟ أجاب فورا بقوله : « ذلك لزعزعة

قواعد الدولة ، لتعجيل تفسخ المجتمع ، لبث اليأس فى النفوس ، لادخال البلبلة والفوضى الى العقول • وبعد ذلك يتم الاستيلاء على المجتمع الذى عمته الفوضى ، المجتمع المريض ، الحائر ، المستهتر ، الريّاب ؟ ولكن على أساس التطلع الى فكرة موجهة ؟ فبذلك تُرفع راية الثورة اعتماداً على شبكة الحلقات الخماسية التى تكون قد عملت من جهتهـــا على بث الدعاية ، ودراسة النقاط الضعيفة فى الخصم ، والوسائل العملية لمحاربته» • وصرّح ليامشين فى النهاية أن ما شوهد فى مدينتنا ليس الا محاولةً أولى لتخريب منظّم ، وهو بمثابة برنامج يجب أن تتبعه الحلقات الأخرى التى أنشأها بطرس ستيفانوفتش • ذلك كان رأى لامشين على كل حال • وقد ألح على « ضرورة النظر بعين الاعتبار الى أقواله والى الصراحة والوضوح فى عرضه للقضية كلها ، مما يدل دلالة واضحة على أنه يستطيع أن يقدم للسلطات خدمات كبيرة » • حتى اذا أُلقى عليه هذا السؤال المباشر : « هل فى روسيا عدد كبير من هذه الحلقات الخماسية ؟ » أجاب بأن هذه الحلقات لا نهاية لعددها وان شبكتها تغطى روسيا كلها • ولم يأت بأى برهان يؤيد هذه الأقوال ، ولكننى أظـــن أنه كان صادقا حين قال ذلك الكلام • وقد اكتفى بتقديم برنامج الجمعية ، المطبـــوع فى الخـارج ، وبمشروعٍ يعـــــرض توسيع نطاق العمـــل ، مكتوبٍ بخـــط بطرس ستيفانوفتش • فظهر حينذاك أن ليامشـــين ، حين تكلم عن « زعـــزعة القواعد » ، انما كان يستعير نصاً من نصوص هذه الورقة ، لا يُســقط منه نقطة أو فاصلة • ولكن ذلك لم يمنعه من أن ينسب تلك الفكرة الى نفسه• وقد تكلم عن جوليا ميخائيلوفنا فأسرع يعلن بطريقة هزلية جدا ومن غير أن يُسأل عن ذلك ، أسرع يعلن أنها « بريئة وأنها قد غُرِّر بها » • يجب أن نذكر أنه أنكر أن يكون لستافروجين أية مشاركة فى الجمعية السرية ، وأكّد أنه لم يكن ثمة أى تفاهم بين نيقولاى فسيفولودوفتش

وبين بطرس ستيفانوفتش (لم يكن ليامشين ، بطبيعة الحال ، يعرف شيئاً عن الآمال السخيفة التي كان بطرس ستيفانوفتش يعقدها على ستافروجين)• وقال ان مقتل ليبادكين وأخته كان من عمل بطرس ستيفانوفتش الذى تصرف منفردا دون أن يكون لستافروجين أي دخل في الأمر ، وذلك بغية أن يجعل ستافروجين معرّضاً للخطر خاضعاً لسيطرته • ولكن بطرس ستيفانوفتش لم يُثر في قلب ستافروجين « النبيل » الا الاستياء الشديد والألم الممض ، بدلاً من أن يثير فيه شعور الشكر والامتنان كما كان يتوقع • وأضاف ليامشين في ختام افادته عن ستافروجين ، أضاف مستبقاً الأسئلة مرةً أخرى ، أن نيقولاى فسيفولودوفتش شخص رفيع الطراز حتماً ، غير أن ههنا سراً مجهولاً ، فهو قد عاش بيننا كالمتنكر تقريبا لأنه مكلف بمهمة كبيرة ، ومن الجائز جدا أن يرجع من بطرسبرج بعد قليل (كان ليامشين مقتنعا بأن ستافروجين موجود ببطرسبرج) ، ولكن رجعته ستتم في ظروف مختلفة تماما هذه المرة ، وسيكون محاطا بأناس قد نسمع الناس يتكلمون عنهم في القريب • وقال ليامشين انه عرف هذه الأمور من فم بطرس ستيفانوفتش ، « العدو الخفي لنيقولاى ستافروجين » •

ملاحظة : ـ بعد شهرين ، اعترف ليامشين بأنه حاول تبرئة ستافروجين لأنه كان يأمل أن يحميه • لقد كان يأمل أن عقوبته ستخفّف بفضل هذه الحماية تخفيفا كبيرا ، وكان يتخيل أيضا أن ستافروجين سيرسل اليه مالاً وسيبعث اليه رسائل توصى به السلطات السيبرية خيراً • ان هذا الاعتراف يدل على أن ليامشين كان يرى في نيقولاى فسيفولودوفتش رأياً فيه كثير من المبالغة •

في ذلك اليوم نفسه قُبض على فرجنسكى طبعاً ، بل قبض على أسرته كلها من باب اظهار الحماسة للقيام بالواجب (ولقد أفرج عن آرينا بروخوروفنا واختها وخالتها والطالبة ، منذ مدة طويلة ؛ ويقول بعضهم

مؤكداً ان شيجالوف سيفرج عنه فى القريب أيضاً ، لأنه لا يدخل فى أية فئة من فئات المتهمين • وما هذه على كل حال الا أقاويل تُقال) • وقد اعترف فرجنسكى اعترافات كاملة على الفور • لقد كان راقدا على سريره يعانى من حمى شديدة حين جاءوا يعتقلونه ، ويقال انه حين رأى الشرطة قد سُرَّ تقريباً • ويُروى أنه كان فى افادته صريحاً ، مع احتفاظه ببعض الوقار والرصانة ، وانه لم يتنازل عن أمل واحد من « الآمال المضيئة » مع تنديده بالأساليب السياسية (لا الاجتماعية) التى انقاد لها فى خفة وطيش ، « مدفوعاً باعصار الظروف » • وقد نُظر بعين الاعتبار الى موقفه فى الحديقة عند مقتل شاتوف ، ويبدو أنه يأمل أن يشفع له هذا الموقف فيُخفَّف الحكم عليه ، أو ذلك ما يؤكده الناس فى مدينتنا على الأقل •

ولا كذلك اركل • فليس من المتوقع أن يُتسامح معه • لقد لزم اركل الصمت منذ القبض عليه ، أو كان يشوِّه الحقيقة ، ولم يمكن أن يُنتزع منه قول واحد يعبِّر عن الندامة • ومع ذلك استطاع أن يوقظ فى نفوس القضاة ، حتى القساة منهم ، شيئاً من العطف عليه ، وذلك لشبابه وسذاجته ، ولأن من الواضح أنه كان ضحية متآمرٍ سياسى أشعل فى نفسه نار التعصب ، ولأنه خاصة كان فتى براً بأمه اذ كان يرسل اليها نصف ايراده الضئيل تقريبا • ان أمه هى الآن هنا : انها امرأة ضعيفة مريضة هرمت قبل الأوان • وهى تبكى وتتمرغ بأقدام القضاة متوسلةً اليهم أن يرأفوا بابنها • ولا يدرى أحد كيف سينتهى الأمر • غير أن عددا كبيرا من الناس فى مدينتنا يرثون لحال اركل صادقين •

أما ليبوتين فقد قبض عليه ببطرسبرج بعد أن مكث فيها خمسة عشر يوما • ان ما وقع له يكاد يبدو غير معقول • لقد كان يملك جواز سفر باسم مزوَّر ، وكان يملك مبلغاً ضخماً من المال ، فكان فى وسعه اذن أن يهرب الى الخارج • ومع ذلك لم يتحرك من بطرسبرج • حاول

فى البداية أن يهتدى الى ستافروجين وبطرس ستيفانوفتش ، ثم أقبل فجأة على الشراب واسترسل فى دعارة مسعورة . حتى لكأنه فقد سلامة عقله وأصبح لا يدرك وضعه أى ادراك . لقد قبض عليه فى أحد المواخير سكران كل السكر . ويشيع بين الناس الآن أنه استرد شجاعته ، وأنه ما برح يكذب ، وأنه يعقد بعض الآمال (؟) على دعواه التى يتهيأ لها بعناية شديدة ، لأنه ينتوى أن يلقى خطابا طويلا . وأما تولكاشنكو فقد قُبض عليه بعد هربه الى الريف بعشرة أيام ، وهو يسلك سلوكاً أليق كثيراً ، فلا يكذب ولا يراوغ ، ويقول ما يعرفه ، ولا يحاول أن يبرىء نفسه بل هو يعترف بأخطائه ، ولكنه يبدو ميالاً الى الفصاحة والبلاغة ، فهو يتكلم كثيراً ، ويحلو له أن يتكلم كثيراً ، حتى اذا دار الحديث على الشعب وعناصره الثورية (؟) اصطنع وضعاً وقوراً وحاول أن يكون له فى نظر سامعيه مهابة . ويقال انه هو أيضا ينتووى أن يلقى خطابا أمام المحكمة . يمكننا أن نقول ، بوجه عام ، انه وليبوتين لا يبدوان خائفين مما ينتظرهما، وذلك شيء يثير الاستغراب .

أكرر أن القضية لم يُفصل فيها بعد . والآن ، بعد انقضاء ثلاثة أشهر على هذه الأحداث كلها ، قد أفاق مجتمعنا من ذهوله واسترد اتزانه، فهو يحكم على الأمور حكماً أكثر استقلالاً ، حتى ان هناك اليوم أناساً يرون أن بطرس ستيفانوفتش ان لم يكن عبقريا فهو على الأقل رجل أوتى « قدرات عبقرية » . « هذا تنظيم ! » ، كذلك كان يقول بعضهم فى نادينا رافعا اصبعه . ومهما يكن من أمر فقد كان هذا الكلام كله بريئاً . وكان بعض آخر يذهبون غير هذا المذهب . فهؤلاء على أنهم لا ينكرون ذكاء الرجل يلحون على جهله بالواقع ، وميله المفرط الى التجريد ، ونمو بعض ملكاته على حساب بعضها الآخر نمواً شاذاً ، وطيشه الخارق . أما صفاته الأخلاقية فكان عليها اجماع ، فلا جحود ههنا قط .

لا أدرى حقاً عمن يجب أن أتكلم أيضا •••

لقد رحل مافريكى نيقولايفتش لا يدرى أحد الى أين • وخرفت العجوز دروزدوف مرتدةً الى الطفولة • على أن هناك حكاية مظلمة يجب علىّ أن أقصّها • وسأكتفى برواية الوقائع •

حين عادت فرفارا بتروفنا من أوستيفو فانها لم تنزل بسكفورشنيكى بل مضت الى المدينة ، وهناك علمت فورا بكل ما جرى أثناء غيابها • فاضطربت اضطرابا شديدا عميقا ، وحبست نفسها فى بيتها • كان ذلك فى المساء ، وكان الجميع متعبين مكدودين ، فرقدوا مبكّرين •

وفى صباح الغد مدّت احدى الخادمات الى داريا بافلوفنا فى السر رسالةً قالت انها وصلت فى مساء أمس ، ولكنها وصلت متأخرة بينما كان الجميع نائمين • أما كيف وصلت الرسالة فان رجلاً مجهولاً أعطاها ألكسى ايجورتش بقرية سكفورشنيكى فسرعان ما حملها الخادم العجوز الى الخادمة وقفل راجعاً الى سكفورشنيكى •

تأملت داريا بافلوفنا ظرف الرسالة مدة طويلة ، خافقةَ القلب ، دون أن تجرؤ على فضّها • لقد كانت تعلم أن الرسالة مرسلة من نيقولاى فسيفولودوفتش • وكان مكتوبا على ظرفها : « الى ألكسى ايجورتش لنقلها الى داريا بافلوفنا » •

واليكم نص الرسالة كلمة كلمة • اننى لم أصحح أسلوب هذا السيد الروسى الذى لم يكن قويا فى النحو رغم ثقافته الأوروبية :

العزيزة داريا بافلوفنا ،

« قلت لى مرةً انك تريدين أن تكونى « ممرّضتى » ، وجعلتنى أعدك بأن أستدعيك متى احتجت اليك • اننى مسافر بعد يومين سفراً لا عودة بعده • فهل تريدين أن تسافرى معى ؟

« فى السنة الماضية أصبحت ، مثل هرتسن ، مواطنـــا فى كانتون « أورى » بسويسرا . ولا أحد يعرف هذا . حتى لقد اشتريت منزلاً صغيراً فى ذلك الكانتون . وسنقيم هناك الى الأبد . أصبحت لا أريد أبدا أن أذهب الى أى مكان .

« الموضع الذى يقع فيه المنزل حزين جدا . انه مضيق فى جبل . الجبال هناك تطغى على البصر والفكر . منظر يشيع فى النفس غماً وحداداً . وانما اخترت ذلك المكان اذ كان فيه منزل يباع . واذا لم يعجبك البيت فسوف أبيعه وأشترى بيتاً آخر فى مكان آخر .

« ليست صحتى حسنة ، لكننى آمل أن يخلصنى هواء تلك البـلاد من هواجسى . هذا شىء جسمى . أما عن حالتى النفسية فانك تعرفين كل شىء . ولكن هل هذا كل شىء حقاً ؟

« لقد رويت لك أشياء كثيرة عنى . ولكننى لم أرو كل شىء حتى لك أنت . بالمناسبة ، أؤكد لك اننى أحس فى قرارة ضميرى بأننى مسئول عن مقتل زوجتى . اننى لم أرك بعد موتها ، لذلك أؤكد لك هذا الآن . وأنا أيضا آثم فى حق ليزافتا نيقولايفنا . ولكنك عن هذا تعرفين كل شىء . انك قد تنبأت بكل شىء تقريبا .

« الأفضل أن لا تجيئى . انها لدناءة فظيعة منى أن أستدعيك . علام تقبرين نفسك معى ؟ انك تعجبينني ، ولقد كنت أشعر بارتياح الى جانبك حين ينتابنى قلق وغم . أمامك وحدك انما كنت أستطيع أن أتكلم عن نفسى بصوت عالٍ . ولكن هذا لا يعنى شيئاً . لقد قلت أنت نفسك انك ستكونين لى « ممرضة » . هذا تعبيرك ذاته . لماذا هذه التضحية الكبرى ؟ لاحظى أيضا اننى لا أشفق عليك مادمت استدعيك ، واننى لا أحترمك ما دمت انتظرك . ومع ذلك استدعيك وأنتظرك . على كل حال ، أنا فى

حاجة الى جوابك ؛ لأن علىّ أن أسافر بأقصى سرعة • وسوف أسافر وحدى اذا اقتضى الأمر •

« اننى لا آمل شيئاً من « أورى » ، ولكننى أسافر ، أسافر وكفى ! ولم يقع اختيارى على ذلك المكان الحزين عن عمد • ليس هناك ما يربطنى بروسيا : كل شىء غريب عنى هنا ، كأى مكان آخر على كل حال • صحيح أننى أحب أن أعيش فى روسيا ، وكنت لا أحب كثيرا أن أعيش فى غيرها أيضا • ولكننى حتى فى روسيا كنت عاجزاً عن كره أى شىء •

« لقد جربت قوتى فى كل مكان• ونصحتنى أنت بذلك حتى « أعرف نفسى معرفة أصدق » • وأثناء تلك التجارب ، بدت قوتى هذه غير ذات حدود ، أمام نفسى وأمام الآخرين • على مرأى منك تحملت صفعة أخيك• وأعلنت زواجى على رءوس الأشهاد • ولكن فى أى شىء يجب أن أستعمل هذه القوة ؟ ذلك ما لم أستطع أن أعرفه فى يوم من الأيام ، وما لا أعرفه حتى هذا اليوم ••• لا أعرفه رغم ما أزجيت الىّ من تشجيعات صدّقتها• أنا الآن ، كما كنت دائما ، أستطيع أن أرغب فى القيام بعمل حسن ، وأجد فى ذلك لذة • والى جانب هذا أشتهى أن أرتكب عملاً سيئاً وأذوق من ذلك هذه اللذة نفسها • ولكن الشعورين كليهما ضعيفان ، ولم يكونا قويين فى يوم من الأيام • ان رغباتى ضعيفة مسرفة فى الضعف دائما : انها لا تستطيع أن توجهنى • فى وسع المرء أن يعبر نهراً على لوح ولكنه لا يستطيع أن يعبره على قشرة • أقول لك هذا حتى لا تتخيلى اننى أعقد آمالا على أورى •

« لست أتهم أحداً ، كما لم أتهم أحداً فى الماضى • لقد جربت الدعارة ، واستهلكت قواى • ولكننى لا أحب الدعارة ولم أكن اريدها • كنت تراقبيننى فى الآونة الأخيرة • هل تعلمين اننى كنت أنظر الى أصحابنا الجاحدين نظرة كره وبغض ، ولكننى كنت أحسدهم على ماكانوا

يعقدونه من آمال ؟ غير أنك قد أخطأت اذ ساورك قلق عليّ : انني لا أستطيع أن أكون واحداً منهم ، لأنني لا أشاطرهم آمالهم • وكان ذلك يستحيل عليّ من باب السخرية وحب الشر أيضاً ؟ لا لأنني أخشى أن أكون محل هزء ـ فانني لا أخشى أن أكون محل هزء ـ بل لأنني قد احتفظت رغم كل شيء بعادات انسان ابق ، ولأن ذلك كان يثير الاشمئزاز في نفسي • ولكن لو قد كان كرهي وحسدي أقوى مما كانا ، اذ لأمكن أن أنضم اليهم •

« أيتها الصديقة العزيزة ، الحنون ، الكريمة ، التي اكتشفتها ! لعلك تأملين بما أعطيتنيه من حب كامل ، وما غمرتني به من كنوز نفسك الجميلة ، أنك ستستطيعين أن تخلقي لحياتي هدفاً في النهاية ! ولكن لا ، كوني عاقلة حكيمة : ان حبي سيكون مسكينا مثلي ، وستكونين أنت شقية تعيسة • قال لي أخوك يوماً : من يفقد كل رابطة بالأرض ، يفقدْ على الفور آلهته ، أي أهدافه • في وسع المرء أن يناقش كل شيء الى غير نهاية ، ولكنني عاجز الا عن الانكار خاليا من أي عظمة نفسية ، خاليا من أية قوة • الجحود نفسه مسكين ضعيف عندي • كل شيء كابٍ رخو • ان كيريلوف الكريم لم يستطع أن يتحمل فكرته فانتحر • ولكنني أدرك حق الادراك أنه كان كريما لأنه كان لا يملك عقله كاملا • لن أستطيع أن أفقد عقلي يوما ، ولن أستطيع أن أؤمن بفكرة يوما ، مثله • حتى انني لن أستطيع أن أهتم بفكرة • فلن أنتحر أبدا ، أبدا !

« أنا أعلم أنه يجب عليّ أن أنتحر ، أن أغيب عن وجه الأرض كحشرة مقززة • ولكنني أخاف الانتحار ، لأنني أخاف أن أظهر شيئاً من عظمة النفس • انني أعلم أن هذا لن يكون الا كذبة جديدة ، هي آخر كذبة في سلسلة طويلة من الأكاذيب • أي فائدة أجنيها من الكذب لا لشيء

الا أن أتظاهر بعظمة النفس ؟ لن أعرف الاستياء والخجل فى يوم من الأيام ، ولن أعرف اليأس اذن .

« اغفرى لى هذه الاطالة فى الكتابة اليك . لقد فعلت ذلك دون أن أريده . وهأنا ذا أمسك . فلو واصلت الكتابة على هذا النحو فلن أستطيع أن أقول كل شيء فى مائة صفحة ، مع أنه تكفينى على وجه الاجمال عشرة أسطر . ان أسطراً عشرة كافية لاستدعاء « ممرضة » .

« أقيم منذ سفرى عند مدير محطة تبعد عن المدينة ست محطات . لقد قصفنا معا منذ خمس سنين ببطرسبرج . لا أحد يعلم أننى هنا . اكتبى الىّ على اسمه . أرفق اليك العنوان .

« نيقولاى ستافروجين . »

مضت داريا الى فـــرفارا بتروفنا تطلعها على الرسالة . فلما قـرأت فرفارا بتروفنا الرسالة طلبت الى داشا أن تخرج لحظة : كانت تريد أن تعيد قراءتها وحيدة . ولكنها سرعان ما نادت الفتاة . وسألتها بما يشـبه الخجل :

ـ أتسافرين ؟

ـ نعم .

ـ استعدى . سنسافر معا .

ثم قالت فرفارا بتروفنا مجيبةً عن نظرة استفهام من داشا :

ـ ما عساى فاعلة هنا ؟ استوت عندى الأمور . أنا أيضا سأصـــبح مواطنة فى أورى ، وسأقيم فى الجبال ... لا تخشى شيئاً . لن أزعجكما.

كان ينبغى ركوب قطار الظهر ، فاذا بألكسى ايجورتش يظهر فجأة، فيروى أن نيقولاى فسيفولودوفتش قد وصل الى سكفورشنيكى فى قطار

الصباح ، وان هيئته كانت غريبة ، وأنه كان لا يجيب عن الأسئلة التى تلقى عليه ، وأنه حبس نفسه فى شقته لا يبارحها .

وأضاف ألكسى ايجورتش يقول بلهجة ذات دلالة :

ـ لقـد قررت أن أجىء الى هنـا بدون أوامر ، وأن أطلعـك على الواقع ...

ألقت عليه فرفارا بتروفنا نظرة نافذة ، ولكنها لم تلق عليه أى سؤال. وسرعان ما أُعدت العربة ، وسافرت فرفارا بتروفنا الى سكفورشنيكى مع داشا .

كانت أبواب شقة نيقولاى فسيفولودوفتش مفتوحة ، ولكن لم يمكن العثور عليه هو .

قال أحد الخدم فى حذر :

ـ أتُـراه يكون فى الطابق العلوى ؟

فصعد الجميع الى الطابق العلوى فوجدوا الغرف الثلاث خالية .

قال أحدهم وهو يشير الى باب الطابق الذى يقع تحت السقف :

ـ أتراه صعد الى أعلى ؟

ان هذا الباب الذى يكون فى العادة مغلقا كان الآن مفتوحا على سعته كلها فعلاً . ولم يكن يمكن الوصول اليه الا بصعود سلم خشبى طويل ضيق قائم . وكان فى الأعلى حجرة تشبه أن تكون زنزانة .

دمدمت فرفارا بتروفنا تقول وقد اصفر وجهها اصفرارا شديدا :

ـ لن أصعد الى فوق . ما عساه يفعل هناك ؟

ونظرت الى الخدم الذين كانوا يتأملونها صامتين . وكانت داشـا ترتعد .

وعزمت فرفارا بتروفنا أمرها أخيرا فصعدت السلم بسرعة • ولكنها ما ان دخلت الغرفة حتى أطلقت صرخة كبيرة وسقطت مغشيا عليها •

كان مواطن « أورى » مشنوقاً وراء الباب • وكان على المائدة ورقة كُتب عليها بالقلم الرصاص : « لا يُتَّهمنْ أحد • أنا الفاعل ! » • وكان الى جانب الورقة مطرقة وقطعة صابون ومسمار كبير لا شك أنه حُضِّر استعدادا لكل طارىء • لا شك فى أن الحبل الحريرى المتين الذى استعمله نيقولاى فسيفولودوفتش قد اختير سلفاً ، وأُحسن طليه بالصابون • ان كل شىء يدل على العمد وسبق الاصرار • ويدل على أن ستافروجين قد ظل الى آخر دقيقة يعى أفعاله وعياً كاملاً •

وقد نفى الأطباء الذين شرحوا الجثة ، نفوا نفياً قاطعا افتراض خلل عقلى •

اعتراف ستافروجين



الفصل التاسع

عند تيخون



لم ينم نيقولاى فسيفولودوفتش فى تلك الليلة . ظل جالسا على ديوانه الى أن طلع الصباح ، محدقاً فى بعض الأحيان الى ركن وراء المنضدة . وظل مصباحه مضيئاً طوال الليل . وفى الساعة السابعة من الصباح نام وهو ما يزال جالسا ، فلما دخل عليه ألكسى ايجورتش فى الساعة التاسعة والنصف تماماً ، على عادته منذ زمان طويل ، حاملاً اليه قهوة الصباح ، وأيقظه من نومه ، ظهرت عليه دهشة يخالطها انزعاج من أنه أمكن أن ينام فى تلك الساعة المتأخرة . وشرب قهوته بسرعة ، ولبس ثيابه ، وخرج بخطى حثيثة . فلما سأله الكسى ايجورتش محاذرا : «ماهى أوامرك ؟ » ، لم يجب بكلمة واحدة .

اجتاز الشوارع خافضا عينيه ، مستغرقا استغراقا عميقا . وكان فى بعض اللحظات فقط يرفع بصره ويبدو عليه أنه فريسة اضطراب يصعب تحديده لكنه اضطراب شاق أليم . وعند مفترق طرق ، غير بعيد عن المنزل ، كانت جماعة مؤلفة من نحو خمسين شخصا تجتاز طريقها . انهم يتقدمون هادئين ، صامتين تقريبا ، مصطفين اصطفافا فيه شىء من نظام .

وعلى مقربة من دكان انتظر عندها لحظة ، قال له أحد الناس : « هؤلاء عمال مصنع شيبجولين » ، فلم يكد ينتبه الى كلامه . وأخيرا ، فى نحو الساعة العاشرة والنصف ، وصل الى الباب الكبير من ديرنا ، دير العذراء فى « سباسو ـ افيمى » ، الذى يقع عند مخرج المدينة بقـرب النهر . وعندئذ توقف فجأة كأنه تذكر شيئاً ما ، وتلمس جيبه الجانبى بسرعة وقلق ، ثم ابتسم . حتى اذا دخل فناء الدير سأل أول راهب لقيه من الرهبـان المبتدئين أن يدخله على الأسـقف تيخون المعتكف فى هذا الدير . فقاده الراهب المبتدىء وهو يزجى اليه التحية تلو التحية . حتى اذا وصلا الى النهاية من مبنى طويل ذى طابقين ، استولى عليه راهب ضخم أشيب الشعر ، وقاده خلال لممر طويل ، دون أن ينقطع عن تحيته (ولما كان ضخما ضخامة شديدة وكان لا يستطيع أن ينحنى انحناء شديدا فقد كان يهز رأسه بحركة قصيرة منتظمة) . ورغم أن ستافروجين كان يتقدم فى سيره لا ينتظر أن يرجوه أحد أن يتقدم ، فقد كان الراهب لا ينى يدعوه أن يتبعه . وكان لا ينى يلقى عليه أسئلة شتى ، ويتكلم عن الأب الارشمندريت . فلما لم يحصل على أى جواب ، أصبح وضـعه يزداد احتراما لحظة بعد لحظة . ولاحظ ستافروجين أنه معروف فى الدير ، رغم أنه فيما يذكر لم يكن قد ذهب اليه منذ طفولته . وحين وصل الرجلان الى الباب فى آخر الممر ، فتحه الراهب بيدٍ قوية ، وسأل الخادم بغـير كلفة ، منذ هرع هذا اليهما ، هل يمكن الدخول ، ثم لم ينتظر جواب الخادم بل فتح البـاب واسـعا ، وأدخل « الضيف العزيز » . فشـكر له ستافروجين جميله ، فأسرع يغيب فورا كأنما هو يفر فرارا .

دخل نيقولاى فسيفولودوفتش غرفة ضيقة . فاذا برجـل طويل القامة نحيل الجسم يظهر فى اطار باب الغرفة المجاورة على الفور تقريبا . انه فى نحو الخمسين من عمره ، يرتدى جبة خشنة ، ويبدو عليه شىء

من مرض ، له نظرة غريبة ، خجلة وجلة ، وابتسامة على الشفتين حيرى مترددة . انه تيخون ذاك الذى سمع عنه نيقولاى فسيفولودوفتش أول مرة من شاتوف ، وجمع عنه بعد ذلك معلومات شتى . لقد كانت تلك المعلومات متناقضة ، ولكن لها جميعها سمة مشتركة : هى أن الذين يحبون تيخون والذين لا يحبونه (ان هناك أناساً لا يحبونه) كانوا يسكتون دائما عن شىء ما ، فأما الذين لا يحبونه فانهم يسكتون من باب الاحتقار ، وأما الذين يحبونه بل يحبونه بحرارة فانهم يسكتون من باب التكتم . لكأنهم يريدون أن يخفوا ضعفاً ما ، كأنهم يريدون أن يخبئوا هوساً بريئاً . وقد علم نيقولاى فسيفولودوفتش أن الرجل يقيم فى الدير منذ ست سنين ، وأن الناس كثيرا ما يفدون لزيارته (انهم أناس من الشعب ، ولكن بين زائريه كذلك أشخاصا من أعلى طبقة) ، وأن له معجبين متحمسين ، حتى فى بطرسبرج ، وأن له معجبات خاصة . ولكن نيقولاى فسيفولودوفتش سمع رجلاً مسناً خطير الشأن من أعضاء نادينا ، وهو رجل شديد التدين ، سمعه يقول : « ان تيخون هذا رجل يكاد يكون مجنونا ، وانه على كل حال انسان تافه ، وأغلب الظن أنه سكّير . » . يجب أن أقول ان هذا الاتهام الأخير كان باطلاً كل البطلان ، وان تيخون كان لا يشكو الا من روماتزم فى ساقيه ، ومن تشنجات عصبية فى بعض الأحيان . وقد علم نيقولاى فسيفولودوفتش أيضا أن الأسقف المعتكف لم يستطع ، اما لضعف فى شخصيته واما لذهول لا يغتفر له ولا يتفق ومنزلته ، لم يستطع أن يفرض على المدير ما توجبه له رتبته من احترام. حتى لقد كان يقال ان الأب الأرشمندريت ، وهو رجل متقشف وصارم فى كل ما يتعلق بموجبات الصلاة ، وهو عدا ذلك رجل مشهود له بالعلم، كان يحمل للأسقف تيخون نوعا من عاطفة العداوة ويأخذ عليه (بطريقة غير مباشرة فى الواقع) أن حياته رخوة ، كما يعيب عليه ما كان يصفه بأنه

« هرطقات » • وكان الرهبان أيضا يعاملون الأسقف المريض معاملة خالية من الكلفة ان لم يكن فيها شيء من الازدراء أيضا •

ان الغرفتين اللتين تتألف منهما شقة تيخون مؤثثتان تأثيثاً غريبا • فعلى مقربة من أثاث قديم ثقيل منجد بجلد مهترىء ، هناك عدد من الأشياء الجميلة : أريكة حافلة بالزخرف مريحة جدا ، مكتب كبير محفور خشبه حفراً رائعاً ، خزانة للكتب ، موائد ، أرفف • انها هدايا • وهذه سجادة ثمينة من سجاد بخارى تجاور حُصُراً من قش • وهناك عدد من لوحات « عصرية » ، أسطورية ، وأيقونات مرصعة بذهب وفضة منها واحدة تضم بقايا قديسين • ويقال ان المكتبة كانت كبيرة التنوع : فالى جانب مؤلفات آباء الكنيسة توجد مسرحيات ، وربما وُجد « ما هو أسوأ من المسرحيات أيضا » •

فبعد المجاملات الأولى التى تبادلها الرجلان بشىء من الانزعاج وفى غير وضوح (لا ندرى لماذا) ، أدخل تيخون ضيفه الى حجرة عمله ، وأجلسه على الديوان قبالة الطاولة • وجلس هو قريبا منه كل القرب، على مقعد من خشب الخيزران • ان نيقولاى فسيفولودوفتش الذى يجيش فى داخل نفسه انفعال قوى ، كان ذاهل الهيئة ، يبدو عليه أنه اتخذ قرارا خارقاً ، لا رجوع عنه ؛ ولكن لا يمكن تحقيقه فى الوقت نفسه • وأجال بصره فى الغرفة ، ولكن دون أن يتلبث على شىء مما يرى • كان يفكر ، ولكن لا يدرى حتماً فى أى شىء كان يفكر • وأيقظه الصمت ، وبدا له فجأة أن تيخون قد خفض عينيه مرتبكاً حتى انه ابتسم ابتسامة غريبة • فسرعان ما أيقظ ذلك فى نفس نيقولاى فسيفولودوفتش اشمئزازاً وتمرداء وأراد أن ينهض وينصرف ، لا سيما وأن تيخون كان فى رأيه سكران كل السكر • غير أن تيخون لم يلبث أن رفع عينيه فجأة ورمقه بنظرة تبلغ من الثبات ومن الامتلاء بالفكر ، ومن البعد عن التوقع ، ومن الالغاز ، فى

الوقت نفسه ، أن نيقولاى فسيفولودوفتش ارتعش تقريبا . لقد بدا له أن تيخون يعرف سلفاً السبب الذى دفعه الى المجىء ، وأنه على علمٍ بالأمر (مع أن أحداً لم يستطع أن يعرف سبب زيارته هذه) ، وأنه اذا لم يسبقه الى الكلام فذلك لأنه يداريه ويخشى اذلاله .

قال نيقولاى يسأل الأسقف بصوت متقطع :

ـ هل تعرفنى ؟ أعرَّفت بنفسى حين دخلت أم لا ؟ اننى شـــديد الذهول ...

ـ لم تعرِّف بنفسك ، ولكن سبق أن سعدت برؤيتك مرةً ، منذ أربع سنوات ، فى هذا الدير نفسه ، مصادفةً ...

كان تيخون يتكلم ببطء شديد ، وصوتٍ متساوٍ رقيق عذب ، ناطقاً كل كلمة من كلماته بوضوح وجلاء .

أجابه نيقولاى فسيفولودوفتش يسأله بما يشبه أن يكون فظاظة :

ـ أتقول اننى جئت الى هنا منذ أربع سنين ؟ أنا لم أجىء الا حين كنت طفلاً ، ولم تكن أنت حينذاك فى الدير ...

قال تيخون بأناة وروية من غير الحاح :

ـ لعلك نسيت ...

ـ لا ، لم أنس . من المضحك أن لا أتذكر ...

كذلك أجابه ستافروجين بشىء من الغلو ، وأضاف :

ـ لعلك سمعت عنى ، فتكوَّن فى ذهنك رأى معيَّن ، فتخيلت الآن أنك رأيتنى من قبل .

صمت تيخون . فلاحظ نيقولاى فسيفولودوفتش عندئذ أن وجهه

تلم به فى بعض الأحيان رعشات ، وهذه علامة مرض فى الأعصاب متأصل. فقال :

ـ لكننى أرى أن صحتك اليوم ليست حسنة ، فلعل الأفضـــل أن أنصرف .

ونهض .

قال تيخون :

ـ نعم ، أمس واليوم انتابتنى آلام فى الساقين ، ولم أنم هذه الليلة الا قليلاً ...

وتوقف تيخون عن الكلام . وعاد ضيفه يستغرق فى تفكيره الغامض فجأة . ودام الصمت مدة طويلة تقارب دقيقتين .

قال ستافروجين على حين بغتة بشىء من القلق والريب :

ـ انك تلاحظنى ...

ـ اننى انظر اليك فأتذكر ملامح وجه أمك . هناك تشابه نفسى روحى كبير ، رغم اختلاف المظهر الخارجى .

ـ ليس هناك أى تشابه ، ولا سيما من الناحية الروحية ... أبداً... ما .. من .. تشابه .. البتة !

كذلك قال نيقولاى فسيفولودوفتش بالحاحٍ فيه مغالاة ، دون أن يعرف هو نفسه لماذا . وأضاف فجأة :

ـ انك تقول هذا ... من باب الشفقة على حالتى . سخافات ! ... ولكن ماذا ؟ هل تأتى أمى اليك ؟

ـ نعم .

ـ لم أكن أعرف ذلك . لم تقل لى هى هذا فى يوم من الأيام . هل نأتى كثيراً ؟

ـ كل شهر تقريبا ، وأكثر من ذلك أحيانا .

ـ لم أعلم بهذا أبدا ، أبدا . ولكن لا شك أنك أنت قد علمت منها اننى مجنون ، أليس كذلك ؟

هذا ما أضافه سائلاً على حين بغتة .

ـ لا . لم تحدثنى عنك حديثها عن مجنون تماما . ولكننى سمعت آخرين يقولون هذا .

ـ لا شك أن ذاكرتك قوية اذا كنت تستطيع أن تتذكر أمثال هذه الترهات . وعن الصفعة ، هل سمعت شيئاً ؟

ـ بضع كلمات .

ـ أى كل شىء . وقتك واسع جدا على كل حال . وعن المبارزة ، هل حدثوك أيضا ؟

ـ عن المبارزة أيضا .

ـ انك تعرف أشياء كثيرة هنا . فى مثل هذا المكان لا حاجة الى جرائد . وهل كلمك شاتوف عنى ؟ هيه ؟

ـ لا . أنا أعرف شاتوف . لكننى ما رأيته منذ مدة طويلة .

ـ همْ ! ... ما هذه الخريطة التى عندك ؟ آ ... خريطة الحرب لأخيرة . ولكن ما حاجتك أنت ، أنت ، اليها ؟

ـ كنت أدرسها قارئاً النص . انه لوصف شائق جدا .

ـ أرنى ! نعم ، كتابة جيدة • ولكن ما أغرب أن يقرأ رجل مثلك هذه الأمور !

وشدّ اليه الكتاب وألقى عليه نظرة • انه تاريخ مفصّل جدا يسرد وقائع الحرب الأخيرة وصفاً ممتازاً ، ولكنه لا ينظر الى الأمور من الناحية العسكرية خاصة ، بل هو أقرب الى أن يكون عاما وأدبيا • قلب ستافروجين صفحات الكتاب وأعاد تقليبها ، ثم رماه نافد الصبر •

وقال مشمئز الهيئة وهو يحدق الى عينى تيخون وكأنه ينتظر منه جواباً :

ـ اننى لا أدرى حقا لماذا جئت الى هنا •

فقال له تيخون :

ـ أنت أيضا يبدو عليك أنت مريض •

ـ فعلاً •

قال ستافروجين ذلك وطفق يروى بغتةً ، بجملٍ قصيرة مقطعة ، حتى ليصعب فهمها أحيانا ، أنه توافيه هواجس غريبة ، ولا سيما فى الليل، وأنه يرى فى بعض الأحيــان أو يحس أن بقربه كائنــاً شريراً ساخراً « معقولاً » يظهر له فى صور شتى وطباع مختلفة ، « ولكنه هو هو نفسه دائما ، وأنا يستعر حنقى فى كل مرة ••• » •

غريبةً ومشــوشةً كانت هــذه الاعترافات التى تكاد تكون خليقةً بمجنون حقا • ولكن نيقولاى فسيفولودوفتش كان فى الوقت نفسه يتكلم بصراحة خارقة وصدق غريب عن طبعه ، حتى لكأن الانسان القديم فيه قد اختفى اختفاء تاما مباغتا • لم يشعر بأى خجل من التعبير عن الخشــية التى كان يوقظها فى نفسه هذا الشبح • ولكن ذلك كله لم يدم الا لحظة

واحدة ، وما لبثت هذه الحالة النفسية أن زالت على غير توقع كما جاءت على غير توقع •

قال في غضب وقد ثاب الى نفسه :

ـ هذا كله سخافات • سأمضى استشير طبيبا •

فقال تيخون يؤيده :

ـ افعل • يجب أن تفعل حتماً •

ـ انك تتكلم جازماً • فهل رأيت أناساً مثلى يعانون هذا النوع من الهواجس ؟

ـ نعم رأيت ، ولكن قليلاً • انني أتذكر واحدا • كان ضابطا وقع له ذلك بعد فقده امرأته التي كانت له حليلةً لا تضاهى • وسمعت عن واحد آخر • وقد شفي الاثنان كلاهما في الخارج • هل توافيك هـــذه الأشياء منذ مدة طويلة ؟

ـ منذ سنة تقريبا • ولكن ما هذه الى تفاهات • سأستشير طبيبا • تفاهات ! تفاهات سخيفة مضحكة ! هذا أنا نفسي في وجوه مختلفة • ذلك كل شيء • لا شك أنك تتصور ، بعد أن أضفت أنا هذه العبارة ، انني ما زلت أشك ، وانني لست واثقا بأن هذا أنا حقا وليس الشيطان •

نظر اليه تيخون نظرة استفهام • وسأله :

ـ و ••• هل تراه فعلاً ؟ أقصد دون أن تحتفظ بفكرة أن هـذا ليس الا هلوسة كاذبة مرضية ؟ هل ترى صورةً ما بالفعل ؟

أجابه ستافروجين الذي كان حنقه يزداد من جديد لدى كل كلمة :

ـ غريب الحاحك على هذا بعد أن شرحت لك انني أرى ••• أرى قطعاً •••كما أراك ! ••• أحيانا أرى ولا أثق بأنني أرى ، رغم علمي

بأن هذه هي الحقيقة : اما أنا واما هو ••• سخافات ! ولكن هل يستحيل عليك أن تسلّم بأنه الشيطان ؟ ان هذا التسليم أكثر اتفاقا ومهنتك ، هه ؟

أضاف هذا السؤال ضاحكاً ، هاوياً الى لهجة ساخرة على حين فجأة •

قال تيخون :

ـ الأرجح أن الأمر مرض ، ومع ذلك •••

ـ مع ذلك ؟

ـ الشياطين موجودون حتماً • ولكن يمكن تصورهم على أنحاء مختلفة •••

عاد ستافروجين يقول بلهجة غاضبة ساخرة :

ـ انك قد عدت تخفض عينيك لأنك تخجل عنى اذا أنا صدقت بوجود الشيطان • ولكن هأنذا أتظاهر بعدم التصديق فألقى عليك ماكراً هذا السؤال : أهو موجود حقا أم لا ؟

فابتسم تيخون ابتسامة غامضة •

قال ستافروجين :

ـ لا يناسبك البتة أن تخفض عينيك : هذا غير طبيعى ، هذا مضحك ، هذا متصنّع • ومن أجل أن أكفّر عن هذه الغلطة منى سوف أقول لك جاداً ، بصفاقة : نعم ، اننى أؤمن ايمانا مطابقا لايمان الكنيسة ، أؤمن بوجود شيطان شخصى ، لا شيطان رمزى ؛ ولست أحتاج البتة أن أسألك هذا كل شيء • لا بد أن تكون سعيدا غاية السعادة •

وانفجر ستافروجين يضحك ضحكاً مكرهاً ، عصبيا • فرمقه تيخون مستطلعا بنظرة رقيقة جدا ، نظرة كأنها تشتمل على شيء من خجل •

وهذا ستافروجين يرميه فجأة بهذا السؤال :

ـ أتؤمن بالله ؟

ـ أؤمن بالله .

ـ ولكن قيل في الكتاب : اذا آمنت وأمرت الجبل أن يسير لأطاعك ! ... هذه سخافات على كل حال ! ولكننى حريص على أن أعرف منك : هل يمكنك أن تنقل جبلاً ؟

ـ نعم ، اذا الله أمر ...

كذلك أجاب تيخون برقة وحياء ، خافضا عينيه من جديد . فأجابه ستافروجين :

ـ فكأن الله نفسه هو الذى حرّك الجبل ؟ ولكننى أسألك هل تستطيع أنت ، أنت ، أن تحرّكه مكافأةً لك على ايمانك بالله ؟

ـ ربما .

ـ ربما . جواب حسن . لماذا تشك ؟

ـ ايمانى ناقص غير كامل .

ـ كيف ؟ ايمانك أنت أيضا ؟ ناقص غير كامل ؟ ما كان لى أن أفترض هذا حين أراك .

كذلك قال ستافروجين وهو يتأمل تيخون بدهشة ، بل بسذاجة ، وهو أمر لا يتفق ولهجة السخرية التى ألقى بها أسئلته السابقة . قال تيخون :

ـ نعم ، قد لا يكون ايمانى كاملا .

ـ لكنك تؤمن مع ذلك بأنك قادر بمعونة الله على أن تنقل الجبل .

هذا وحده شيء . انك تريد الايمان على الأقل . وأنت تفهم كلمة «الجبل» بالمعنى الحقيقى لا بالمعنى المجازى . هذا وحده كثير . مبدأ عظيم . لقد لاحظت أن التقدميين بين كهنتنا يميلون ميلاً قويا الى اللوثرية ، فلا مانع عندهم من تعليل المعجزات بأسباب طبيعية . هذا أفضل على كل حال من عبارة « قليلا جدا » التى قالها أحد الكهنة ، وهو تحت السكين . أأنت مسيحى قطعاً ؟

كان ستافروجين يتكلم بسرعة كبيرة ، وصوت ساخر تارةً جادٍ تارةً أخرى . ولعله كان لا يعرف هو نفسه لماذا يقول هذه الأشياء كلها ، ولماذا يسائل تيخون ، ولماذا يضطرب ويتحرك !

دمدم تيخون يقول بنوع من الاندفاع وهو يخفض رأسه مزيدا من الخفض :

ـ ربِّ انى لن أخجل من صليبك !

وأخذت أطراف شفتيه تختلج فجأة .

سأله ستافروجين :

ـ ولكن هل يمكن الايمان بالشيطان من غير ايمان بالله ؟

ـ هذا يمكن جدا ، ويحدث كثيرا .

ورفع تيخون عينيه وابتسم أيضا .

قال ستافروجين وهو ينفجر ضاحكا :

ـ وانى لعلى يقين من أنك ترى أن هذا الايمان أجدر بالاحترام من الجحود الكامل .

فابتسم تيخون من جديد ، وقال بما يشبه المرح ، مع استمراره على تأمل ضيفه قلقاً بعض القلق :

ـ بل الالحاد الكامل أجدر بالاحترام من عدم الاكتراث .

ـ هوه ! ما أعجب هذا الكلام ! انك لتدهشني حقا !

ـ الملحد الحاداً كاملاً واقف على الدرجة الأخيرة التي تسبق الايمان الكامل (أن يخطو هذه الخطوة الأخيرة أو أن لا يخطوها فتلك مسألة أخرى) . أما الذي لا يكترث ولا يبالي ، فانه لا يملك أي ايمان ، وليس في نفسه الا شيء من الخوف أحياناً ، هذا اذا كان امرءاً حساساً .

ـ همْ ... هل قرأت رؤيا القديس يوحنا ؟

ـ نعم .

ـ هل تذكر قوله : « اكتب الى ملاك كنيسة اللاوديكيين » ؟ ...

ـ أذكر .

سأل ستافروجين وهو ينظر حوله مضطربا :

ـ أين الكتاب ؟ أريد أن أقرأ لك تلك الأسطر . هل عندك ترجمة روسية ؟

قال تيخون :

ـ أعرف تلك الأسطر . أتذكرها تذكراً واضحا .

قال ستافروجين :

ـ أتحفظه على ظهر القلب . اتله عليّ ! ...

وخفض عينيه ، ووضع يديه مبسوطتين على ركبتيه ، وتهيأ للاصغاء

تلا تيخون الأسطر : « واكتب الى ملاك كنيسة اللاوديكيين : هذا يقوله الشاهد الأمين الصادق بداءة خليقة الله : أنا عارف أعمالك . انك لست بارداً ولا حاراً . ليتك كنت باردا أو حارا . فلأنك لست باردا ولا

حارا أنا مزمع أن أتقيأك من فمى • لأنك تقول انى غنى وقد استغنيت ولا حاجة بى الى شىء ، ولست تعلم أنك شقى وفقير وأعمى وعريان ••• » •

قال ستافروجين مقاطعا :

ـ كفى ! هل تعلم ؟ اننى أحبك كثيراً •

فأجابه تيخون يقول بصوت خافت :

ـ وأنا أيضا •

وصمت ستافروجين وعاد يهوى فجأة فى أحلامه • لقد تكرر هذا ثالث مرة ، كأنه نوع من نوبة • وفى نوبة من هـــذه النوبات انما قال لتيخون : « أحبك » • وكان هو نفسه لا يتوقع ذلك •

وخيَّم الصمت دقيقة •

دمدم تيخون يقول وهو يلامس باصبعه كوع ستافروجين ملامسة خفيفة ، وكأنه هو نفسه خائف :

ـ لا تزعل •

فانتفض ستافروجين وقطب حاجبيه غاضبا ساخطا •

وسأل قائلاً بسرعة :

ـ كيف عرفت اننى زعلت ؟

فأراد تيخون أن يتكلم ، ولكن الآخر قاطعه وقد استبد به انفعـال لا يمكن فهمه ؛ قال :

ـ لماذا افترضت أننى لا بد أن أزعل ؟ نعم ، لقد غضبت • انك على حق ، وانما غضبت لأننى قلت لك اننى أحبك • انك على حق • ولكنك مستخف فظ • ان لك رأياً منحطاً جدا فى الطبيعة الانسانية • كان يمكن

أن لا يثور هذا الغضب لو كنت تخاطب شخصا آخر غيرى • على كل حال ، ان شأنك ليس مع أى شخص ، بل معى أنا • مهما يكن من أمر ، فأنت رجل طريف ، برىء •

كان يسترسل مزيدا من الاسترسال لحظة بعد لحظة ؛ والشيء الغريب أنه كان يفقد كل تروٍ فى كلامه • قال :

ـ اسمع جيدا : اننى لا أحب علماء النفس والجواسيس أو على الأقل لا أحب منهم أولئك الذين يريدون أن يدخلوا الى قرارة نفسى • اننى لا أدعو أحداً ، ولست فى حاجة الى أحد • سوف أدبر أمورى بنفسى • أتظن أننى خائف منك ؟

رفع صوته وأنهض رأسه بحركة تحدٍ • وأضاف يقول :

ـ أنت واثق اننى انما جئت اليك لأعترف لك بسر رهيب ، وأنت تنتظر هذا السر بكل ما يتصف به كاهن مثلك من فضول • ألا فاعلم اننى لن أكشف لك عن شيء ، لن أكشف لك عن أى سر ، لأننى لست فى أية حاجة اليك ••• لأنه ليس هناك أى سر ••• ما هذا منك الا تهاويل خيال •••

ألقى عليه تيخون نظرة ثابتة •

ـ لقد فجأك أن ترى أن « الحمل » يؤثر البارد على الفاتر ، كما يقول ، فأردت أن لا تكون بارداء اننى أحس ان قرارا خارقا ، قرارا لعله رهيب ، يستولى عليك • أرجوك ، أضرع اليك ، كفاك تعذيبا لنفسك وقل كل شيء •

ـ أأنت واثق اذن اننى جئت وأنا أبيّت فكرة ؟

دمدم تيخون يقول خافضا عينيه :

ـ حزرت ذلك ... من وجهك .

كان نيقولاى فسيفولودوفتش شاحباً بعض الشحوب ، وكانت يداه ترتعشان قليلا . ولبث بضع توانٍ يحدّق الى تيخون صامتاً . وأخيراً ، استل من الجيب الجانبى فى ردنجوته ملازم مطبوعة ، ووضعها على المائدة. وقال بصوت متقطع بعض التقطع :

ـ هذه الأوراق مُعدّة للنشر . فاذا قرأها ولو شخصٌ واحد ، فاعلم اننى لن أخفيها ، وأن الجميع سيقرأونها . هذا أمر مقرّر . لست فى حاجة اليك البتة ، لأننى قررت كل شىء . ولكن اقرأ ... وأثناء القراءة لا تقل شيئاً ، حتى اذا فرغت من القراءة قُلْ كل شىء ...

سأله تيخون متردداً :

ـ هل يجب أن أقرأ ؟

ـ اقرأ . اننى هادىء كل الهدوء .

ـ بدون نظارتين لا أستطيع أن أميّز شيئاً . الأحرف صغيرة جدا . هذا مطبوع فى الخارج .

ـ اليك النظارتين .

تناول ستافروجين النظارتين من على المائدة ومدّهما اليه . ثم ارتد بجسمه الى وراء مستندا على ظهر الأريكة .

واستغرق تيخون فى القراءة .

٢

هى خمس ملازم مضبورة ، من القطع الصغير ، قد طُبعت فى الخارج فعلاً على ورق من ورق الرسائل خفيةً ، وربما فى مطبعة روسية سرية . انك اذا نظرت الى هذه الملازم نظرةً أولى رأيتها تشبه كثيرا المنشورات التحريضية . وقد استهلت بهذه العبارة : « من ستافروجين » .

اننى أثبت هذه الوثيقة بنصِّها حرفاً حرفاً (ويجب أن نعتقد أن كثيرين يعرفونها الآن) . ولكننى أبحت لنفسى أن أصحح فقط بعض أخطاء الاملاء وهى كثيرة حتى لقد أدهشتنى ، لأن كاتبها رجل مثقف على كل حال ، ولا شك أنه قد قرأ كثيراً (نسبيا) . أما الأسلوب فقد تركته على حاله ، رغم أخطائه ورغم ما فيه من أنواع التفكك . انه لمن الواضح على كل حال أن صاحب هذه الصفحات ليس كاتباً . وأبيح لنفسى كذلك ملاحظة أخرى ، فاستبق الوقائع ...

فى رأيى أن هذه الوثيقة ثمرة من ثمرات المرض ، وأنها من عمل الشيطان الذى استولى على هذا الرجل . هذا شأن المريض الذى يعانى آلاماً شديدة : انه ما ينفك يتقلب على سريره يائساً يبحث عن وضع يهدىء ألمه ولو لحظة . فاذا لم يهدئه هذا الوضع أحلّ محلّه وضعاً آخر مدة دقيقة . وهو عندئذ لا يتساءل طبعاً هل هذا التبديل حسن أو معقول .

ان ما يسيطر على هذه الوثيقة هو الحاجة الرهيبة الصادقة الى العقاب، هو الحاجة الى الصليب ، الى العذاب على مرأى من الناس . غير أن هذا الظمأ الى الصلب يعذّب امرءاً لا يؤمن بالصليب . « وهذا وحده يمثل فكرة » ، كما عبَّر عن ذلك ستيفان تروفيموفتش يوما فى مناسبة تختلف عن هذه كل الاختلاف .

ومن جهة أخرى تشتمل هذه الأوراق على شيء من عنف واستفزاز وتحدٍ ، رغم أنها كتبت لغرضٍ آخر تماما . ان كاتبها يصرّح أنه « لم يستطع » أن لا يكتب، وأنه « أُجبر » على الكتابة اجباراً وهذا جائز جدا . لقد كان يسعده أن يستطيع ابعاد هذه الكأس المرة عنه ، ولكن ذلك كان يستحيل عليه حقا . لذلك انتهز هذه الفرصة فأرخى العنان لعنفه . نعم ، ان المريض يتحرك في سريره ويحاول أن يحل ألماً محل ألم . وهاهو ذا يبدو له أن الصراع ضد المجتمع سيخفف عنه بعض التخفيف ، فاذا هو يتحدى المجتمع . ان مجرد تحرير هذه الوثيقة هو تحدٍ غير متوقع ، وقلة احترام للمجتمع . ان كاتب هذه الوثيقة يهمه أن يستفزّ خصماً ما بأقصى سرعة ...

ومن يدرى ؟ لعل هذا كله ، أعنى هذه الأوراق المهيأة للنشر ، انما ينتمى الى ذلك النوع نفسه من الوقائع ، الذى تنتمى اليه واقعة عض أذن الحاكم ! لماذا توافينى هذه الفكرة اليوم بعد أن اتضحت أشياء كثيرة ؟ ذلك ما لا أستطيع أن أفهمه . اننى لا آتى بأى دليل على كل حال ، ولا أستطيع أن أؤكد أن هذه الوثبة كاذبة ، أى لفقها الخيال تلفيقا . قد تكون الحقيقة واقعةً بين هذه الطرفين الأقصيين ... ولكننى أستبق الحوادث . الأفضل أن نرجع الى الوثيقة نفسها . فاليكم ما قرأه تيخون :

« من ستافروجين

« أنا ستافروجين ، الضابط المتقاعد ، قد قضيت سنوات ألف وثمانمائة وستين و ... ببطرسبرج مسترسلاً فى الدعارة استرسالاً لم أجد فيه أية متعة . كان لى خلال فترة من تلك السنين ثلاث شقق : ففى احداها كنت أسكن مع خادم يقوم بأعمال البيت ؛ وكانت ماريا لبيادكين التى هى زوجتى شرعاً أمام القانون تسكن فى تلك الشقة أيضا . وقد استأجرت الشقتين الأخريين لأستقبل فيهما عشيقاتى : ففى احداهما كنت أستقبل سيدةً كانت

تحبني ، وفي الشقة الأخرى كنت أستقبل خادمتها . وكانت رغبتي آنذاك هي أن أجعلهما تلتقيان عندي ، كلتاهما ، السيدة والفتاة . وكنت لمعرفتي بطبعهما أتنبأ لهذه المزحة أن تحدث لي متعةً كبيرة . ومن أجل أن أهيء هذا اللقاء في يسر كان عليّ أن أذهب أحيانا كثيرة الى واحدة من هاتين الشقتين ، تقع في منزل كبير بشارع جوروخوفايا . فالى هناك انما كانت تأتي الخادمة . كنت أشغل في ذلك المنزل عند بورجوازيين صغار غرفة في الدور الرابع . وكان أصحاب البيت يشغلون غرفة أخرى أصغر ، بل غرفةً تبلغ من الصغر أن الباب الذي يفصل بيننا كان يجب أن يظل مفتوحا على الدوام . وذلك بعينه ما كنت أريده . لقد كان الزوج ، وهو يرتدي قفطانا طويلا ، يعمل في مكتب من المكاتب ، فكان يذهب في الصباح ولا يرجع الا ليلاً . وكانت المرأة وهي في نحو الأربعين من العمر تخيط وتصلح ملابس قديمة . وكانت تخرج في كثير من الأحيان لتحمل عملها الى زبائنها . فكان يُتاح الي اذن أن أنفـرد بابنتهما الطفلة . كان اسمها ماتريوشا . وكانت الأم تحبها ، ولكنها تضربها أحيانا كثيرة وتشتمها على عادة أمثال هؤلاء الناس . وكانت هذه الصغيرة تخدمني وترتب غرفتي . اني أعلن الآن أنني قد نسيت رقم تلك العمارة . وقد علمت أن المنزل القديم قد هُدم وأن عمارة جديدة كبيرة جدا قد شيدت في مكان مبنيين أو ثلاثة مبان قديمة هناك . وقد نسيت أيضا اسم صاحبي الشقة . ومن الجائز أن لا أكون قد عرفت اسميهما في يوم من الأيام . أذكر أن المرأة كان يقال لها ستيفانيدا ، أما اسمه هو فلا أتذكـــــره . أين هما الآن ؟ لا أدري البتة . أحسب أننا اذا تقصينا الأمر لدى قسم الشرطة ببطرسبرج ، فقد نهتدي الى أثرهما . كان المسكن يطل على الفناء ويحتل زاوية منه . جرى ذلك في شهر حزيران . كان المنزل مدهونا بلون أزرق شاحب .

في يوم من الأيام اختفت مطواتي من على المائدة . ولم أكن في حاجة

الى تلك المطواة على كل حال . كانت لا تعنيني في شيء . كلمت في الأمر صاحبة البيت ، دون أن يخطر ببالي أنها ستجلد ابنتها . ولكنها كانت قد أمسكتها منذ قليل بسبب اختفاء خرقة (ممسحة) ظنت الأم أن الطفلة قد استعملتها لتصنع منها لعبة (عروسة) . حتى لقد شدت لها شعرها . فلما عثر على تلك الخرقة ، فيما بعد ، تحت الحصيرة ، لم تشأ الطفلة أن تنطق بكلمة لوم واحدة ، وظلت صامتة . وقد لاحظت أنها تعمدت أن لا تنطق ، وأنا أتذكر هذا ، لأنني في تلك اللحظة انما انتبهت الى وجه الطفلة الذي لم يلفت انتباهي حتى ذلك الحين . انه أشقر شقرة شاحبة، الى بقع حمراء . وجه عادي . غير أن فيه كثيرا من الطفولة والهدوء ، بل كثيرا جداً من العذوبة والسكينة . لقد استاءت الأم من أن ابنتها لم تلمها وصمتت . وفي تلك اللحظة انما جاءت حكاية المطواة . استعر حنق الأم من أنها ضربت ابنتها ظلماً . فهاهي ذي تتناول أسواطاً وتمضي تجلد الطفلة الى أن تفجرت دماؤها على مرأى مني ، رغم أن الطفلة كانت قد دخلت السنة الثانية عشرة من عمرها . لم تصرخ ماتريوشا وهي تُجلد. ولا شك أن ذلك يرجع الى وجودي . ولكنها كانت تشهق شهيقا غريبا عند كل جلدة . ولقد ظلت تشهق ساعة كاملة بعد انتهاء الجلد . حتى اذا انتهى توقيع العقوبة عثرت على مطواتي فجأة فوق سريري في الغطاء . فوضعتها في جيب صديريتي صامتا . فلما خرجت رميتها في الشارع حتى لا يعلم أحد شيئاً . وشعرت على الفور أنني قد ارتكبت عملاً حقيراً جبانا ، لكنني أحسست أيضا بلذة ، لأن فكرة قد ومضت في ذهني فجأة وأحرقتني كجمرة ، وتلبثت أنا عليها . وقد لاحظت في تلك المناسبة انني سبق لي مرارا أن استولت عليَّ الى حد الجنون مشاعر شريرة شتى كنت أصرُّ عليها اصرارا محموما وأُشغف بها شغفا شديدا ، ولكن دون أن أفقد كل سيطرة على نفسي وكل تحكم بارادتي في يوم من الأيام . فحتى

حين تمحقنى حرارتها وحين تبلغ أقصى درجات قوتها كنت أستطيع دائما أن أنتصر عليها وأن أوقفها • ولكن كان يندر أن أريد أن أفعل ذلك • وانى أعلن فى الوقت نفسه اننى لا احاول أن أدفع عن نفسى المسئولية بحجة تأثير البيئة أو بحجة المرض •

انتظرت بعد ذلك يومين • أصبحت الطفلة بعد بكائها أشد صمتاً • انى لعلى يقين من أنها لم تكن تحمل لى أنا أية عاطفة سيئة رغم أنها شعرت حتما بشيء من الخجل لانزال العقوبة فيها على مرأى منى • لكنها وهى الطفلة الخضوع كانت تؤاخذ نفسها على هذا الخجل • أذكر هذا لأن له شأنا هاما فى قصتى ••• قضيت بعد ذلك ثلاثة أيام فى شقتى الأولى • انها منزل مفروش تفوح منه دائماً رائحة كريهة من روائح الطعام ، ويزدحم دائما بالناس : موظفين صغار ، مستخدمين بلا عمل ، أطباء لا زبائن لهم ، أنواع شتى من البولنديين يسعون حولى بغير انقطاع • اننى أنذكر كل شيء • كنت أعيش فى ذلك المنزل الذى يشبه أن يكون مدينة سدوم ، أعيش متوحداً ، متوحداً فى داخل نفسى ، لكننى محاط دائما بعصبة صاخبة من « الرفاق » الذين يخلصون لى الى أبعد حدود الاخلاص ويكادون يعبدوننى عبادةً بسبب محفظة نقودى • أظن أننا كنا نفعل دناءات كثيرة • حتى لقد كان المستأجرون الآخرون يخشوننا ، أقصد أنهم ظلوا لطافاً فى معاملتنا رغم خلاعاتنا وبذاءاتنا وحماقاتنا التى كانت فى بعض الأحيان لا تُغتفر • أعود فأكرر : لقد كنت أشعر حتى بشيء من اللذة حين أتصور أننى سأُنفى الى سيبريا • وكنت أبلغ من السأم والضجر أننى كان فى وسعى أن أشنق نفسى • واذا لم أشنق نفسى ، فلأننى كنت ما أزال يراودنى أمل ما ، كما كنت طوال حياتى • وأذكر اننى عُنيت حينذاك باللاهوت عنايةً تشتمل حتى على كثير من الجد ، وأننى استطعت أن أسلّى نفسى قليلاً • ولكن ضجرى ازداد بعد ذلك • أما عواطفى

الاجتماعية فهي لا تتجاوز الرغبة في تحطيم كل شيء ، لو كان هذا التحطيم يستحق العناء . ولكن يجب أن أضيف أن تلك الرغبة لم يكن فيها خبث وشر وانما هي ترجع الى ضجري الشديد ، لا الى شيء آخـــر . لست اشتراكيا البتة . انني أفترض أن ذلك كان مرضاً . حين سألت الدكتور دوبروليـــوبوف مازحاً : « أليس هناك عقـــار يمكن أن ينشّط الطاقة الاجتماعية » ، فان هذا الطبيب الفاشل ، الذي لا عمل له ، والذي يعول أسرة كبيرة ، ويقيم في منزلنا ؟ قد أجابني بقوله : « لتنشيط الطـــاقة الاجتماعية لا يوجد عقار فيما أظن ، ولكن قد تجد عقاقير لتنشيط الطاقة الاجرامية » . ان هذا المزاحة قد سرّته كثيرا رغم فقره الرهيب ورغم أنه مسئول عن امرأة حبلى وابنتين صـــغيرتين جائعتين . على كل حال ، لولا أن البشر راضون عن أنفسهم لما أراد أحد أن يعيش .

انقضت ثلاثة أيام أخرى ، وعدت الى جوروخوفايا . كانت الأم تتهيأ للخـروج حاملةً حـزمةً كبيرة . ولم يكن الأب في البيت طبعاً . فبقيت وحدي مع ماتريوشا . كانت النوافذ (في الفناء) مفتوحة . وكان في المنزل صنّاع كثيرون وكانت جميع الطوابق تضج بأصـوات المطارق والأغاني . انقضت ساعة . كانت ماتريوشا جالسة في ركنها ، على دكة صغيرة . كانت تخيط شيئاً ما وقد أدارت لي ظهرها . وفجأة أخذت تغني بعذوبة ، بعذوبة كبيرة . كان يحدث لها هذا أحيـــانا . استللت ساعتي ونظرت فيها . هي الساعة الثانية بعد الظهر . أخذ قلبي يخفق خفقانا قويا جدا . نهضت واقتربت من ماتريوشا ببطء . كانت النوافذ مزدانة بأصص أزهار . وكانت الشمس حارة . جلست الى جانب ماتريوشا على الأرض صامتا . ارتعشت ماتريوشا . خافت خوفا رهيبا في اللحظة الأولى ، وبادرت تنهض فجأة . تناولت يدها وقبلتها . ثم أجلستها على الدكة وجعلت أتفرس في عينيها . أما أنني قبّلت يدها فقد أضحكها ذلك كطفلة . ولكنها لم

تضحك الا لحظة قصيرة • لأنها عادت تنهض من جديد وقد اعتراها رعب بلغ من القوة أن وجهها تشنج • وحدّقت الىّ بنظرات ثابتة وأخـــذت شفتاها تختلجان كأنها تهم أن تبكى • ولكنها لم تصرخ • قبّلت يدها مرة ثانية ، وأجلستها على ركبتيّ • فاذا هى تتقهقـــر فجأة وتبتسم ، ولـكن ابتسامتها ابتسامة خجل ، ابتسامة" مائلة • واحمر وجهها حياءً • وأخيرا حدث أمر يبلغ من الغرابة أننى لن أنساه فى يوم من الأيام • انه حادث أثار فى نفسى دهشة شديدة • لقد أحاطت البنت الصغيرة عنقى بذراعيها وأخذت تقبلنى بحرارة وهوى • كان وجهها يعبّر عن الافتتان • نهضت شبهَ غاضب : ان هذه الحركة التى تبدر من هذه الانسانة الصـــغيرة قد أزعجتنى كثيرا جدا بسبب الشفقة التى شعرت بها فجأة ••• » •

انتهت الملزمة هنا وانقطعت الجملة • وحدث عندئذ أمر لا بد من ذكره •

كانت الملازم خمساً • الأولى فى يدى تيخون الذى فرغ من قراءتها، والجملة لم تكمل • والأربع الأخرى كانت فى يدى ستافروجين • فلما ألقى تيخون على ستافروجين نظرة سائلة ناوله ستافروجين التتمة فورا • فقال تيخون وهو ينعم النظر فى الملزمة :

ــ ولكن الجملة لم تكمل • وهذه هى الملزمة الثالثة بينما التالية هى الثانية لا الثالثة •

قال ستافروجين مجيباً بسرعة وهو يبتسم ابتسامة خرقاء :

ــ نعم هذه هى الثالثة • أما الثانية فقد حذفتها الرقابة الآن •••

كان ستافروجين جالسا على ركن من الديوان ، وكان يحدق الى تيخون محموما جامدا لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره •

ـ سأعطيك اياها عما قريب ، حين ••• حين تصبح جديرا بذلك •

كذلك أضاف يقول وهو يجرى بيده حركة أراد أن لا يكون فيها كلفة • وكان يضحك ، غير أن ضحكه كان يبعث على الشفقة •

قال تيخون :

ـ مع ذلك أظن أننا في النقطة التى وصلنا اليها يستوى أن تكون هذه الصحيفة هى الثانية أو الثالثة ، أليس كذلك ؟

صاح ستافروجين يسأله وهو ينهض على حين فجأة :

ـ كيف ؟ لماذا ؟ ليس يستوى الأمران قط • آه منكم معشر الرهبان• انكم تفترضون على الفور أفظع الدناءات • ألا ان الرهبان ليصلحون أن يكونوا قضاة تحقيق من الطبقة الأولى •

نظر اليه تيخون صامتا •

قال ستافروجين :

ـ اطمئن بالاً • ليس ذنبى أن البنية كانت حمقاء ولم تفهمنى • لم يحدث شىء • لم يحدث شىء البتة •

ـ الحمد لله !

ورسم تيخون اشارة الصليب •

قال ستافروجين :

ـ يطول شرح الأمر ••• لقد وقع هنا ••• وقع هنا سوء تفاهم سيكولوجى •

واحمر فجأة • وظهر فى وجهه الاشمئزاز والقلق والغم واليأس ! ••• وصمت • وأصبح الرجلان لاينظر أحدهما الى الآخر ، وساد الصمت بينهما أكثر من دقيقة •

قال ستافروجين على نحو آلى وهو يجفف العرق البارد الذى يبلل جبهته :

ـ اسمع . الأفضل أن تقرأ . و ... والأفضل أن لا تنظر الىّ بتاتاً ... يخيّل الىّ أن هذا حلم ...

ثم أضاف يقول بصوت خافت جدا :

ـ و ... ولا تستنفد صبرى .

حوّل تيخون عينيه عنه بسرعة ، وتناول الصحيفة الثالثة وأخذ يقرأ بغير توقف حتى النهاية . كانت الصحائف الثلاث التى أسلمها اليه ستافروجين لا ينقصها شىء . وقد بدأت الصحيفة الثالثة كما يلى :

« ... كانت لحظه رعبٍ حقاً ، وان لم تكن شديدة العنف . وغدوت مرحاً جدا فى ذلك الصباح وأحسنت معاملة الجميع ، وسُرّت العصبة منى كثيراً . لكننى تركتهم جميعا ومضيت الى جوروخوفايا . التقيت بها تحت ، عند المدخل. كانت عائدة من دكانٍ أُرسلت اليه لتشترى شيئاً من الهندباء . فلما رأتنى اندفعت تجرى فى السلم وقد اعتراها خوف رهيب . بل ان ما اعتراها لم يكن خوفا وانما كان رعبا أخرس يشل شللاً . وحين دخلت كانت أمها تضربها لأنها دخلت الغرفة « حثيثة الخطى خافضة الرأس » . بذلك استطاعت أن تخفى السبب الحقيقى لرعبها . كان كل شىء ما يزال اذن هادئاً . وقبعت فى ركن ولم تظهر طول المدة التى قضيتها فى البيت . وبعد ساعة خرجت . ولكننى فى المساء شعرت بالخوف من جديد ، وكان خوفى هذه المرة أشدّ كثيراً . وكان أشق شىء على نفسى فى ذلك الخوف أننى كنت واعياً اياه وعياً كاملاً . اننى لا أعرف شيئاً أغبى من هذا ولا أعنف . لم أكن قد شعرت بالخوف حتى ذلك الحين قط ، لا ولا شعرت به بعد ذلك أبدا . أما فى تلك اللحظة فقد

كنت خائفا • حتى لقد كنت أرتعش • وكنت أعى هذا الخوف وعياً تاما ، وكنت أعى كذلك مذلتى • لو استطعت أن أنتحر لانتحرت • ولكننى أحسست اننى غير جدير بالموت • على أن هذا ليس هو السبب الذى منعنى من الانتحار ، وانما منعنى من الانتحار ذلك الخوف نفسه • ان المرء ينتحر فى بعض الأحيان خوفا ، ولكن يحدث أيضا أن يستمر المرء فى الحياة خوفا كذلك • فى أول الأمر لا يجرؤ الانسان أن ينتحر ، ثم يصبح الفعل بعد ذلك مستحيلاً • أكثر من هذا أننى فى المساء ، حين كنت فى بيتى ، قد شعرت نحو البنت بكره بلغ من القوة أننى قررت أن أقتلها • فما ان طلع الفجر حتى ركضت الى جوروخوفايا حاملاً هذه الفكرة • وكنت طوال الطريق أتصور كيف سأقتلها وكيف سأحقُرها • وكان كرهى يهتاج خاصةً حين أتذكر ابتسامتها : كان يشب فى نفسى احتقار ، وكانت تمتلىء نفسى اشمئزازاً من ارتمائها على عنقى متخيلةً ما لا أدرى ! ولكننى حين عبرت نهر فونتانكا شعرت بأن صحتى سيئة • وفى الوقت نفسه انبجست فى ذهنى فكرة جديدة ، رهيبة ، رهيبة جداً ، ولا سيما لأننى كنت أعيها • فلما رجعت الى بيتى رقدت فى فراشى مرتعشاً من الحمى، واعترانى رعب بلغ من القوة اننى صرت لا أكره البنت • لقد صرت لا أريد أن أقتلها ، وتلك هى بعينها الفكرة التى انبجست فى نفسى وأنا أعبر نهر فونتانكا • وعندئذ انما أدركت أول مرة أن الخوف حين يكون قوياً يطرد الكره بل يطرد كل رغبة فى الانتقام •

« استيقظت فى نحو الظهر ، مرتاحا بعض الراحة ، بل مدهوشا كذلك من شدة العواطف التى شعرت بها فى الليلة البارحة • خجلت من أننى أردت أن أقتل • ومع ذلك كنت معتكر المزاج • ورغم اشمئزازى كله ونفورى كله اضطررت أن أذهب الى جوروخوفايا • أذكر أننى كنت أتمنى حينذاك لو أشاجر أحداً ، لو أشاجر أحداً مشاجرة خطيرة حقاً •

ولكنني حين دخلت غرفتي في جوروخوفايا وجـــدت فيها نينا ساقليفنا ، الخادمة ، التي كانت تنتظرني هناك منذ ساعة . كنت لا أحب تلك الفتاة بتاتا ، وكانت قد جاءت على شيء من الخشية ، فهي تخاف أن تســوءني زيارتها . كانت تجيء دائما على هذه الخشية . ولكن أسعدني كثيرا أن أراها ، فسرّها ذلك سرورا عظيما وافتتنت به افتتانا كبيرا . لم تكن دميمة. ثم انها كانت متواضعة وكانت تملك تلك الآداب التي يقدرها البورجوازيون الصغار قدرا عظيما . ولذلك كانت صاحبة البيت تمدحها لي مدحاً كثيرا منذ مدة طويلة . وجدتهما تشربان القهوة ، وكانت صاحبة البيت تبدو نشوى بالحديث الممتع . وفي ركن من الغرفة الثانية لمحت ماتريوشا : كانت واقفة تتفرس خفيةً في أمها والزائرة . فلما دخلت لم تختبيء كما فعلت في المرة السابقة ، ولم تهرب . هذه نقطة أتذكرها واضحةً ، لأنها خطفت اهتمامي. وقد لاحظت من النظرة الأولى أنها نحلت نحولاً شديدا، وأنها تبدو مصابة بحمى . لاطفت نينا ملاطفة كبيرة ، فلما تركتني كانت سعيدة كل السعادة . وقد خرجنا معا . ولم أعد الى جوروخوفايا بعد ذلك مدة يومين . لقد شبعت منها ، ولكنني كنت ضجراً .

« وأخيرا قررت أن أنهي كل شيء دفعةً واحدة ، وحتى أن أغادر بطرسبرج اذا لزم الأمر . ولكن حين ذهبت الى جوروخوفايا لأعلن عن سفري وجدت صاحبة البيت في ألم شديد وانفعال قوي : لقـــد كانت ماتريوشا مريضةً منذ ثلاثة أيام ، وكانت تهذي كل ليلة . وما لبثت طبعا أن سألت عما تقوله أثناء الهذيان (كنا نتحدث بصـــوت خافت جدا في غرفتي) . فدمدمت الأم تقول لي ان ابنتها تنطق بأمور فظيعة ، فهي تقول مثلاً : « قتلت الله » . اقترحت أن آتي بطبيب على نفقتي ، ولكنها رفضت قائلة : « سيعيننا الله . سيذهب عنها المرض من تلقاء نفسه . ثم انها لا تبقى راقدةً طوال الوقت . لقد أرسلتها منذ قليل في شراء شيء من الأشياء » .

قررت أن أرى ماتريوشا على انفراد • واذ كان قد أفلت من لسان صاحبة البيت أثناء حديثي معها أنها مضطرة أن تذهب فى المساء الى الضاحية ، فقد قررت أن أرجع فى المساء • وكنت على كل حال لا أدرى على وجه الدقة لماذا أعود وماذا أريد أن أفعل اذ أعود •

« تغديت فى المطعم ، ثم عدت فى الساعة الثامنة والربع • وأنا أدخل دائما بعد أن أفتح الباب بمفتاحى • كانت ماتريوشا وحيدة • وكانت راقدة وراء حاجز على سرير أمها • وقد لاحظت أنها قدَّمت رأسها لترى مَن الداخل ، ولكنها لم تتظاهر بشيء • كانت النوافذ مفتوحة • وكان الهواء حاراً بل حارقا • تقدمت بضع خطوات ثم جلست على الديوان • اننى أتذكر كل شيء الى آخر دقيقة • شعرت برضى كبير لأننى لم أكلم ماتريوشا ، بل جعلتها تنتظر فى غير طائل ، لا أدرى لماذا ! لبثت على هذه الحال ساعة كاملة • وانى لكذلك اذ سمعتها تنهض فجأة وراء الحاجز • سمعت اصطدام قدميها بأرض الغرفة حين نهضت ، ثم سمعت وقع بضع خطوات سريعة ، ثم اذا هى تظهر فى عتبة غرفتى • ما أحقرنى ! لقد بلغت من الحقارة أننى أسعدنى أن أكون قد صمدت هذا الصمود • آه ! ما كان أدنأ هذا ، وما كان أذلنى ! كانت واقفة تنظر الىَّ فى صمت • حقاً لقد نحلت نحولاً رهيباً بعد اليوم الذى رأيتها فيه آخر مرة من كثب • كان وجهها كاليابس ، ولا شك أن جبينها كان يحترق • ان عينيها اللتين أصبحتا كبيرتين تتفرَّسان فىَّ باستطلاع مبهوت فيما بدا لى أول الأمر • لبثت جالساً لا أتحرك • ومن جديد شعرت بالكره • لكننى لم ألبث أن لاحظت أن ماتريوشا لم تكن خائفة منى البتة ، وأنها لعلها كانت فى حالة هذيان • وأخذت تهز رأسها على حين فجأة ، كما يفعل الأناس السذَّج الذين لا يتصنعون ولا يتكلفون ، اذا هم أرادوا أن يلوموا أو يعتبوا • ثم رفعت اصبعها الصغيرة بغتةً وهددتنى بها من بعيد • بدت لى

هذه الحركة فى أول الأمر مضحكة ، ولكننى لم أطق صبرا عليهـا فى النهاية ، وأصبحت لا أستطيع احتمالها، نهضت بقوة واقتربت منها مرتاعا، كان وجهها يعبر عن يأس يشق على المرء أن يراه فى مخلوق صغير مثلها . استمرت تهددنى باصبعها وتهز رأسها عاتبة . كلمتها برفق وحذر، بصوت خافت ، برقة وعذوبة ، لأننى كنت خائفا . لكننى رأيت على الفور أنها كانت لا تستطيع أن تفهم عنى ، فازداد رعبى . ولكنها أسرعت تغطى وجهها بيديها كما فعلت فى المرة السابقة ، ومضت نحو النافذة مديرةً لى ظهرها . فتحولت حينذاك أنا أيضا ، وجلست بقرب النافذة . لا أستطيع بتاتا أن أفهم لماذا لم أخرج وبقيت مرتقبا هناك . كنت اذن أنتظر شيئا بالفعل . وربما كان يمكن أن أمكث زمناً طويلاً فى ذلك المكان ، لأقتلها بعدئذ كمداً ويأساً ، بغية أن أفرغ من الأمر مرةً واحدة بطريقة من الطرق .

« ولكننى لم ألبث أن سمعت خطواتها السريعة من جديد . لقد خرجت من الباب الذى يفضى الى رواق خشبى يصل منه المرء الى السلم. فاقتربت من الدرابزين بسرعة ، واستطعت أن ألمحها تدخل حجرة صغيرة هى ضرب من قن للدجاج الى جانب مكان آخر . فلما عدت أجلس بقرب النافذة تسللت الى ذهنى فكرة غريبة : اننى لا أستطيع الى الآن أن أفهم لماذا وافتنى هذه الفكرة بعينها ولم توافنى فكرة أخرى غيرها قبل كل شىء. كان كل شىء اذن ينصب فى ذلك الأمر . واضح اننى لم أكن أستطيع بعد أن أصدق ذلك الأمر ، « ومع ذلك ... » . اننى أتذكر كل شىء تذكراً كاملاً . كان قلبى يخفق . وبعد قليل نظرت فى ساعتى من جديد ، فعرفت الوقت على وجه الدقة . ما كانت حاجتى الى معرفة الوقت ؟ ـ لا أدرى . غير اننى كنت فى تلك اللحظة أريد أن ألاحظ كل شىء . اننى أتذكر اذن كل شىء تذكراً واضحا جدا، وأرى كل شىء كأنه ماثل أمامى.

كان المساء يهبط • وكانت ذبابة تدندن حولى ، وما تنفك تجيء الى فتحط على وجهى • قبضت عليها ، وأمسكتها بأصابعى بضع لحظات ، ثم تركتها تطير من النافذة • ودخلت عربة شحن الى فناء المنزل مقرقعة • وكان أجير خيّاط يغني ملء حلقه (منذ مدة طويلة) بقرب نافـذته في زاوية من الفناء • كان يعمل وكنت أستطيع أن أراه من مكانى • خطر ببالى أن أحداً لم يلقنى حين اجتزت الفناء وصعدت السلم ، فمن الأفضل حتماً اذن أن لا يلقانى أحد كذلك حين أخرج • لذلك أبعدت كرسيى عن النافذة بحذر ، وجلست بحيث لا يستطيع الجيران أن يرونى • آه ••• ما كان أحقرنى ! تناولت كتاباً ، ثم رميته ، وأخذت أرقب حركات عنكبوت صغير أحمر كان على ورقة نبتة من النباتات التى تزين النافذة • ونسيت نفسى خلال لحظة من الزمن • لكننى أتذكر اليوم كل شيء •

« استللت ساعتى بسرعة ونظرت فيها • كان قد مضى على خروجها ثلاثون دقيقة • لكننى قررت أن أنتظر ربع ساعة أخرى تماماً • أمهلت نفسى هذه المدة • خطر ببالى أيضا أن من الممكن أن تكون قد رجعت ولم أسمعها • ولكن هذا كان مستحيلاً • الصمت الآن يشبه صمت الموت ، فلو طارت ذبابة لكنت سمعتها • وفجأةً جعل قلبى يخفق خفقانا شديدا مرة أخرى • نظرت فى ساعتى : ما يزال هناك ثلاث دقائق • بقيت جالساً رغم أن قلبى خفق خفقاناً موجعاً • ونهضت أخيراً ، فوضعت قبعتى على رأسى ، وعقدت أزرار معطفى ، وفحصت الغرفة : هل خلّفت فيها أى أثر يدل على اننى مررت فيها ؟ وقربت الكرسى من النافذة ووضعته فى المكان الذى كان فيه عند وصولى تماما • وأخيرا فتحت الباب ، ثم أقفلته بالمفتاح فى رفق ، واتجهت نحو الحجرة الصغيرة • كان بابها مغلقاً ، لكنه لم يكن مقفلاً بالمفتاح • كنت أعرف ذلك حق المعرفة ، غير أننى لم أشأ أن أفتحه • نهضت على رءوس أصابع القدمين ونظرت من شقٍ فى أعلى

الباب . وفى تلك اللحظة نفسها التى انتصبت فيها على رءوس أصابع القدمين تذكرت أننى حين كنت جالساً بقرب النافذة أنظر الى العنكبوت كنت أتصور فى الواقع كيف سأنتصب على رءوس الأصابع وكيف سأنظر من شق الباب كما أفعل الآن . أذكر هذا الأمر التفصيلى لأننى أحرص على أن أبيّن أننى كنت مالكاً قواى العقلية بكاملها ، وانني لست مجنوناً البتة وأننى مسئول عن أفعالى . نظرت من شق الباب مدةً طويلة ، لأن الحجرة كانت مظلمة . لكن الظلام فيها لم يكن ظلاما تاما ، فاستطعت أن أرى ما كنت أريد أن أراه ...

« قلت لنفسى حينذاك اننى أستطيع أن أمضى ، وهبطت السلّم . لم ألتق بأحد . ولم يستطع أحد اذن أن يدلى بأقوال تشهد علىّ فيما بعد . وما انقضت ثلاث ساعات حتى كنا فى بيتى نلعب جميعا بالورق ونحتسى الشاى . كان لبيادكين يقرأ أشعاراً ويروى أنواعا من الأقاصيص ، ويحكى نكات مضحكة بمصادفة تشبه أن تكون عمداً ، وذلك بدلا من السخافات التى كان يغمرنا بها فى العادة . وكان كيريلوف حاضراً كذلك . ولم يكن أحد يشرب خمرة ، رغم أن زجاجة من الروم كانت على المائدة . لبادكين وحده شرّف الزجاجة وقال بروخـور مالوف : « حين يكون نيقولاى فسيفولودوفتش مسروراً رائق المزاج فان عصبتنا كلها تكون مرحة ، وتجيد الحديث . » لاحظت أنا هـذه الجملة . لقد كنت اذن مرحا مسرورا ، رائق المزاج ، وكنت أقول أشياء مسلية . لكننى أتذكر أننى كنت أعلم كل العلم أن فرحى بالخلاص يقوم على حقارة دنيئة ، وأننى لن أستطيع بعد اليوم أن أشعر بأننى نبيل ، لا على هذه الأرض ، ولا فى حياة أخرى ، أبدا . شىء آخر أيضا : لقد أدركت فى تلك اللحظة معنى المثل اليهودى : « المرء لا يشم نتانة رائحته . » . كنت أشعر شعورا كاملا بأننى شقى ، ولكننى لم أكن أحس من ذلك بخجل ، وكنت على وجه

الاجمال لا أتألم كثيرا • وفي تلك اللحظة ، بينما كنت أحتسي الشاي وأثرثر مع عصبتي انما استطعت أن أدرك ادراكا واضحا جدا ، أول مرة في حياتي ، أنني لا أفهم « الخير » و « الشر » ولا أحسهما ؛ وانني لم أفقد الشعور بهما فحسب ، بل أن الخير في ذاته والشر في ذاته لا وجود لهما (وقد أمتعني هذا كثيراً) ، وانهما ليسا الا وهمين من الأوهام الاجتماعية، وأنني أستطيع حتماً أن أتحرر من كل وهم اجتماعي ، ولكنني اذا بلغت هذه الحرية فقد هلكت • أدركت ذلك كله أول مرة ، في صيغة واضحة، أمام مائدة الشاي تلك ، بينما كنت أمزح وأضحك مع رفاقي لا أدري بأية مناسبة • ولكنني أتذكر كل شيء • انه يتفق كثيرا لأفكار قديمة يعرفها جميع الناس ، أن تظهر جديدة طريفة على حين فجأة •

« ومع ذلك لم أنقطع عن انتظار شيء ما • وفعلاً ، في نحو الساعة الحادية عشرة من المساء ، رأيت ابنة البواب التي أرسلتها صاحبة بيتي في جوروخوفايا ، رأيتها راكضة نحوي لتقول لي ان ماتريوشا شنقت نفسها• فتبعت الفتاة ، واستطعت أن أعرف أن صاحبة البيت كانت هي نفسها لا تدرك لماذا استدعتني • كانت تنتحب وتصرخ كما يفعل أمثال هؤلاء الناس في مثل هذه الظروف • وكان هناك ناس كثير ، وكان هناك شرطة• قضيت لحظة ثم انصرفت •

« لم يزعجني أحد في هذه القضية • ومع ذلك أُلقيت عليَّ بضعة أسئلة • ولكنني لم أزد على أن البنت كانت مريضة ، وأنها كانت في حالة هذيان ، وانني اقترحت استدعاء طبيب على نفقتي • وحدثوني أيضا عن المطواة ، فقلت ان صاحبة البيت قد جلدت ابنتها ، ولكن ذلك ليس له شأن • ولم يعرف أحد انني عدت في المساء • وهكذا انتهت المسألة •

« خلال أسبوع كامل ، امتنعت عن العودة الى جوروخوفايا ثم لم أذهب الى هناك الا لأفسخ ايجاري • كانت صاحبة البيت ما تزال تذرف

دموعا غزيرة (واني لأتذكر أنني امتعضت من ذلك) ، ولكنها كانت قد استأنفت عملها ، الخياطة . وقالت لي بدون كبير لوم : « بسبب مطواتك انما أهنتها » . وقد دفعتُ لها حسابي بحجة انني أصبحت لا أستطيع أن أستقبل نينا سافليفنا بعد اليوم في مسكنهم . وأثناء وداعنا أخذت تطرى نينا سافليفنا كثيرا من الاطراء أيضا . وأهديت اليها خمسة روبلات زيادة على ما كنت أدين لها به كراءً للغرفة .

« كنت في ذلك الأوان أعاني ضجراً يكاد يكون قاتلاً . وكان يمكن بعد زوال الخطر أن أنسى قضية جوروخوفايا نسيانا كاملا كسائر أحداث تلك الفترة لولا انني كنت من حين الى حين أتذكر الرعب الذي أحسست به فأشعر بحنق شديد ، وأصب غضبي على من يعرض لي مصادفة . وفي ذلك الأوان انما خطر ببالي ــ ولكن دون أي باعث ــ أن أفسد حياتي أغبى افسادٍ ممكن . كنت قبل ذلك بسنة أفكر في اطلاق الرصاص على رأسي . ولكنَ وسيلةً أفضل من تلك الوسيلة كثيرا تعرض لي الآن . ففي ذات يوم ، رأيت ماريا تيموفئفنا ليبادكين ، العرجاء ، منهمكةً في خدمة البيت ، فساورتني هذه الفكرة ، وهي أن أتزوجها . لم تكن قد أصبحت مجنونة بعد ، ولكنها كانت بلهاء نشوى دائماً ، وقـــد اكتشف رفاقي أنها كانت تحبني في الخفاء حباً جنونيا . ان فكرة زواج يتم بين رجـــل من آل ستافروجين وبين هذه المخلوقة الشوهاء قد أثارت أعصابي اثارة لذيذة . لا يمكن أن يتصور المرء شيئاً أسخف من هذا ولا أغبى ولا أدعى الى الضحك . لكنني لا أستطيع أن أعرف هل كان قـــراري الذي اتخذته يرجع ولو على غير شعور مني (على غير شعور ، هذا أكيد) الى الحنق الذي ملأني به حقداً على نفسي ذلك الخوف الوضيع الذي شعرت به في قضية ماتريوشا . حقا انني لا أتصور هذا . مهما يكن من أمر فان هذا الزواج لم يكن فقط « ثمرة رهان تمّ بعد عشاء تخلله شراب كثير » .

وقد كان « شهودى » كيريلوف وبطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى الذى كان ماراً يومئذ ببطرسبرج ، ثم ليبادكين نفسه ، وبروخور مافلوف (الذى توفى بعد ذلك) . وعدا هؤلاء لم يعلم أحد بشيء ، وقد قطعـــوا لى على أنفسهم عهد الشرف ليكتُمنّ الأمر . ان هذا الكتمان قد بدا لى دائمـا دناءة . ولكن السر لم يكشف حتى الآن ، وان أكن عازماً على أن أعلن كل شيء . فأنا الآن أعلن اذن هذا الزواج . وبعد الزواج ذهبت الى أمى فى الريف . اننى أذهب الى هناك لأسرّى عن نفسى ، لأن الحياة أصبحت فى نظرى لا تطاق . وقد أحس الناس فى مدينتنا بأننى مجنون ، وما يزال هذا الاحساس قائماً فى نفوسهم الى الآن ، وذلك أمر قد يؤذينى كثيراً ، كما سأشرح ذلك . وسافرت بعدئذ الى الخارج وغبت أربع سنين .

« زرت الشرق ؛ وشهدت على جبل آثوس قداسات دينية كانت تدوم ثمانى ساعات . وذهبت الى مصر ، والى سويسرا ، وحتى الى ايسلانده . وتابعت خلال سنة من السنين محاضرات جامعة جوتنجن . وفى أثناء السنة الأخيرة من اقامتى فى الخارج أصبحت بباريس صديقا لأسرة روسية رفيعة المنزلة ، وأصبحت بسويسرا صديق فتاتين روسيتين . وحين مررت بمدينة فرنكفورت منذ سنتين أبصرت فى واجهة احدى المكتبات ، بين صـــور فوتوغرافية كثيرة ، صورة بنتٍ أنيقة الملابس ، لكنها تشبه ماتريوشا كثيراً . اشتريت الصورة فورا ، حتى اذا عدت الى الفندق وضعتها على المدفأة . وظللت لا ألمسها أسبوعا بكامله ، بل اننى لم ألق عليها نظرةً واحدة ، وحين غادرت فرنكفورت نسيت أن آخذها .

« اننى أذكر هذه الواقعة لأبيّن مدى ما كنت أتمتع به من قدرة على السيطرة على ذكرياتى ، ومدى ما كنت أتصف به من عدم الاكتراث بها . كنت أنبذها كلها فى آن معاً ، دفعةً واحدة ، وكانت كتلتها كلها تغيب فورا متى أردت ذلك . كان يضجرنى دائماً أن أتذكر الماضى ، ولم أستطع

في يوم من الأيام أن أتحدث عن الماضي طويلاً كما يفعل جميع النـاس تقريبا • وفيما يتعلق بماتريوشا ، نسيت حتى صورتها على المدفأة •

« منذ سنة ، في الربيع ، بينما كنت مسافرا الى ألمانيا ، تجاوزت من ذهولي المحطة التي كان ينبغي أن أنزل فيها لأركب قطارا آخر • وتوقفت في المحطة التي بعدها • كانت الساعة هي الثالثة بعد الظهر • وكان النهار واضحا نيِّراً • هي مدينة ألمانية صغيرة جدا • دلوني على فندق • كان ينبغي أن أنتظر : ان القطار التالي لا يصل الا في الساعة الحاديه عشرة من المساء • سرتني هذه المغامرة ، فلا شيء كان يحضني على السرعة • الفندق سيء صغير ، ولكنه محاط من جميع الجوانب بأشجار وأحـواض أزهار • أعطيت غرفة صغيرة ضيقة • وأصبت غداءً طيبا • ولأنني كنت قد قضيت الليل كله في القطار فقد نمت نوما عميقا حتى الساعة الرابعة بعد الظهر •

« رأيت حلماً لا أتوقع أن أرى مثله البتة • ذلك أنني لم يسبق لي أن رأيت أحلاما كهذه الأحلام • ان أحلامي تكون سخيفه أو رهيبة على الدوام • كان متحف درسدن يضم لوحة للرسام كلود لورين عنوانهـــا « آسيس وجالاتيه » فيما أظن • وكنت أنا أسميها « العصر الذهبي » ، لا أدري لماذا ! كنت قد لاحظت هذه اللوحة منذ مدة طويلة ، وكنت قد رأيتها مرة أخرى منذ ثلاثة أيام • بل لعلني ما ذهبت الى درسدن الا لهذا الغرض • فهذه اللوحة هي ما رأيته في الحلم ، ولكنني لم أره في الحلم لوحة ، وانما رأيته واقعا كان ، كما هو في اللوحة ، ركناً من الأرخبيل اليوناني ، وكنت أنا فيما يبدو قد تقهقرت في الزمان أكثر من ثلاثة آلاف عام • أمواج زرق لعوب ، جزر وصخور ، شطآن مزدهرة • وفي بعيد، منظر فاتن ، منظر نداء الشمس الغاربة ••• ان الألفاظ عاجزة عن وصف ما رأيت • ههنا مهد الانسانية •أفعمت هذه الفكرة نفسي بحب أخوي •

هذه هي الجنة الأرضية • الآلهة تنزل من السماء وتتحد بالبشر • هنا جرت أولى مشاهد الأساطير الاغريقية • هنا كانت تعيش انسانية جميلة • البشر يستيقظون وينامون سعداء أبرياء • الغابات تدوى بأغانيهم الجذلى • فائض قواهم الغزيرة ينسكب حباً وفرحاً بريئاً • وكنت أنا أحس هذا ، وأدرك في الوقت نفسه المستقبل العريض الذى ينتظرهم ولا يخطر لهم ببال ، فكان قلبى يرتعش لهذه الأفكار • آه ••• ما كان أعظم سعادتى بأن قلبى يرتعش ، وبأننى أصبحت قادراً على أن أحب فى آخر الأمر ! كانت الشمس تسكب أشعتها على الجزر وعلى البحر وتبتهج بأبنائها الجميلة • رؤيا رائعة ! رؤيا بديعة ! حلم هو أبعد الأحلام استحالة ، ولكن الانسانية وهبت له جميع قواها ، وضحت من أجله بكل شيء • باسمه مات بعضهم على الصليب ، وفى سبيله قُتل الأنبياء ، وبدونه لا تود الشعوب أن تحيا ، ومن غيره لا تستطيع حتى أن تموت • وهذا كله قد عشته فى حلمى • لا أدرى على وجه الدقة ماذا رأيت • الأصح أن الأمر كان احساسا لا رؤيا • غير أن الصخور والبحر والأشعة المائلة التى كانت ترسلها الشمس الغاربة ـ ذلك كله كان ما يزال يبدو لى أننى أراه حين استيقظت وفتحت عينى اللتين كانتا مبتلتين بالدموع أول مرة فى حياتى • ان الاحساس بسعادة مجهولة قد شق قلبى ، حتى لقد كنت من ذلك فى ألم • وكان الوقت مساء • ومن خلال خضرة الأزهار التى كانت تزين النافذة ، كانت الشمس ترشق غرفتى بحزمة مائلة من أشعة حارة ، وتغسلنى بالضياء • أسرعت أغمض عينى كأننى أحاول أن أستعيد الحلم الغائب ولكننى ما لبثت أن ميزت فجأة فى وسط الضوء الساطع القوى نقطة صغيرة حمراء • على هذا النحو انما بدأ الأمر • وفجأة تذكرت العنكبوت الأحمر الصغير • رأيته كما سبق أن تأملته فوق ورقة الزهر بينما كانت الشمس تلقى أشعتها المائلة فى تلك اللحظة • نفذ فى نفسى

شيء حاد . نهضت جالسا على السرير . هكذا تماما جرت الأمور .

« رأيت أمامي (أوه ! لا في الواقع ! وليت ذلك كان شبحاً يمكنني أن أخاطبه) رأيت ماتريوشا مهزولة محمومة العينين ، تماما كما كانت حين وقفت في عتبة غرفتي ، وهزّت رأسها وهدّدتني باصبعها الصغيرة . ما من شيء آلمني في حياتي يوما كما آلمني هذا . يأس يثير الشفقة ويبعث على الأسى ، لدى مخلوقة صغيرة عاجزة ما يزال عقلها لا شكل له ، تهددني (بأي شيء ؟ ماذا كانت تستطيع أن تصنع بي ؟) ولكنها حتماً لا تتهم الا نفسها . لم يسبق أن حدث لي شيء شبيه بهذا في يوم من الأيام . لبثت جالساً طول الليل لا أتحرك ، فاقداً احساسي بالزمن . أود الآن لو أشرح لنفسي ما جرى ، بأقصى وضوح ممكن . أكان هذا مايسمى عذاب الضمير ، والندامة ؟ ما زلت أجهل ذلك حتى اليوم . والشيء الذي لا أطيق احتماله الآن ، انما هو تلك الرؤية ، رؤية البنت في عتبة الباب ، رافعةً قبضة يدها الصغيرة ، مهدّدة متوعدة . تلك هي الدقيقة التي تعذبني ، لا ما قبلها ولا ما بعدها . لا شيء الا مظهر البنت في تلك اللحظة ، لا شيء الا تلك اللحظة ، لا شيء الا هزّ البنت رأسها على تلك الصورة . ان تلك الحركة ،حركة التهديد عينها ، أصبحت لا تبدو لي الآن مضحكة بل فظيعة . انني أحس نحو البنت بشفقة حادة ، شفقة تذهب بعقلي وتجعلني كالمجنون . واني لمستعد أن أسلم جسمي لجميع أنواع التعذيب في سبيل أن لا يكون قد حدث ذلك الأمر في ذلك اليوم. ليست جريمتي هي ما آسف له وأندم عليه ، لا ولا موت الطفلة. ولكن تلك اللحظة ، تلك اللحظة بعينها ، هي ما يستحيل عليّ احتماله استحالةً مطلقة ، لأنني منذ ذلك الحين أصبحت تظهر لي كل يوم ، وأنا أعلم الآن علم اليقين انني هالك . هي لا تظهر لي من تلقاء ذاتها ، وانما أنا

أستحضرها ، ولكن يستحيل عليّ أن لا أستحضرها ، رغم أن هذا يجعل حياتي مستحيلة . آه ... ليتني أستطيع أن أراها مرةً أخرى في الواقع، ولو هلوسةً ! أود لو تنظر اليّ ولو مرةً واحدة ، كما فعلت في ذلك اليوم ، بعينيها الواسعتين المحمومتين ؟ أود لو تحدّق الى عينيّ ... فترى فيهما ... آه ! ... ما أغبى هذا الكلام ! فلن يحدث هذا في يوم من الأيام !

« لماذا لا توقظ في نفسي أية ذكرى من ذكرياتي شيئاً شبيهاً بهذا ؟ ما أكثر ذكرياتي مع ذلك ... بل ان بينها ذكريات أسوأ من تلك في نظر الانسان . ومع ذلك لا توقظ في نفسي الا شيئاً من كره في أكثر تقدير ، وهو من جهة أخرى كره تولّده حالتي الراهنة . كنت في الماضي أنسى تلك الذكريات بهدوء كامل ، وأبعدها جميعا ، وكنت أنعم باطمئنان اصطنعه اصطناعا .

« ظللت بعد ذلك أطوّف سنةً كاملة ، محاولاً أن أشغل نفسي . أنا أعلم أنني ما زلت أستطيع أن أنحّي صورة البنية حين أريد . انني سيد ارادتي ، لي عليها سلطة كاملة ، كما كنت دائماً . ولكن المسألة كلها هي انني لم أشأ أن أفعل ذلك في يوم من الأيام ، وانني في قرارة نفسي لا أريد ذلك ولن أريده . وسيدوم هذا الى أن أجن جنونا تاما .

« في سويسرا ، بعد شهرين (لعل ذلك كان رداً من الجسم الذي كان يكافح رغم كل شيء من أجل أن يحيا) ، اعترتني من جديد نوبة من نوبات الهوى العارم ، أو انتابتني سورة شبيهة بتلك السورات المجنونة التي عرفتها في شبابي . لقد شعرت بانجذاب الى اقتراف جريمة جديدة هي أن أتزوج امرأة ثانية فوق زوجتي (ذلك أنني كنت متزوجا) ، لكنني لذت بالفرار عملاً بنصيحة فتاة أخرى أفضيت اليها بأمري ، حتى لقد اعترفت لها بأنني لا أحمل للمرأة التي أشتهيها أي حب ، وانني على وجه

الاجمال لا أستطيع أن أحب أحدا قط ، وأن نفسى لا يحتمل فيها شىء غير الشهوة • مهما يكن من أمر ، فاننى لو اقترفت تلك الجريمة الجديدة لما كان يمكن أن تخلصنى من ماتريوشا أبداً •

« لذلك قررت أن أطبع هذه الصفحات ، وأن أدخل منها الى روسيا ثلاثمائة نسخة • فمتى حان الحين ، أرسلتها الى الشرطة ، الى السلطات المحلية • بل اننى سوف أرسلها فى الوقت نفسه الى ادارات تحرير جميع الصحف راجيا منها أن تنشرها ؟ كما سوف أرسلها أيضا الى معارفى الكثيرين فى بطرسبرج وفى روسيا كلها • وسوف تُنشر هذه الصحائف مترجمةً فى الخارج •

« أنا أعلم أننى قد لا يزعجنى القضاء ، أو اننى قد لا يزعجنى كثيراء فأنا أتهم نفسى ، ولا أحد يتهمنى • وعدا ذلك ليس هناك أدلة ، أو ليس هناك الا أدلة قليلة جدا • ثم ان كثيرا من الناس يعتقدون اننى مختل العقل • ومن المؤكد أن أهلى سيبذلون كل جهودهم ليستفيدوا من هذا الرأى ، وليلغوا بذلك كل ملاحقة قضائية خطرة • أقول ذلك لأبرهن برهانا جديدا على أننى أملك عقلى كاملاً ، وأننى أدرك الوضع الذى أنا فيه • ومع ذلك سيبقى هنالك الناس الذين سيعرفون كل شىء ، وسينظرون الىّ ، وسأنظر اليهم أيضا • أريد أن ينظر الىّ جميع الناس • تُرى هل يخفف هذا عنى ؟ لا أدرى ! ولكن ذلك أملى الوحيد •

« مرةً أخرى : اذا أُحسن البحث فى محفوظات شرطة بطرسبرج، فقد يكتشف شىء ما • لعل تلك الأسرة ما تزال فى بطرسبرج • وسوف يُتذكر المنزل حتماً : لقد كان لونه أزرق شاحباً • أما أنا فلن أبتعد ، وسأقيم فى سكفورشنيكى ، الأطيان التى تملكها أمى ، سنةً أخرى أو سنتين أخريين • واذا طُلب منى أن أحضر الى أى مكان ، فسأحضر •

« نيقولاى ستافروجين » •

٢

دامت القراءة قرابة ساعة • كان تيخون يقرأ قراءة بطيئة ، بل لعله كان يعيد قراءة بعض الفقرات • ومنذ الانقطاع الذى أحدثه ستافروجين اذ نحَّى الصحيفة الثانية جانبا ، كان ستافروجين يجلس ساكنا صامتا ، مستندا بظهره الى مسند الديوان ، وكان يبدو عليـــه الانتظار • نزع تيخون نظارتيه عن عينيه ، وتلبث لحظة ، ثم ألقى على ستافروجين نظرة مترددة • فارتعش ستافروجين ، ومال بحركة سريعة الى أمام •

قال بلهجة مباغتة جافة :

نسيت أن أنبِّهك الى أن جميع أقوالك ستكون عبثاً لا طائل تحته• اننى لن أغير ما عقدت عليه نيتى • فلا تضيِّع وقتك محاولاً أن تثنينى عن عزمى • سوف أطبع هذه الصحائف •

واحمرَّ وجهه وصمت •

ـ لم يفتك أن تنبهنى الى ذلك قبل القراءة •

كان فى لهجـة تيخون شىء من حنـق • واضح أن « الوثيقة » قد أحدثت فى نفسه أثرا قويا • لقد جُرِح شعوره المسيحى ، وهو لا يقدر دائما أن يسيطر على نفسه • يجب أن ألاحظ فى هذه المناسبة أن السمعة التى اكتسبها ، وهى « أنه لا يحسن التصرف مع الناس » ، كما كان يقول عنه الرهبان ، لم تكن باطلة • فرغم كل ما يملكه من روح المحبة كان فى صوته استياء واضح •

تابع ستافروجين كلامه بلهجة قاطعة ، دون أن يلاحظ ما طرأ على تيخون من تغير ، فقال :

ـ طيب • اننى لن أعدل عما عقدت النية عليه مهما تكن حججك

قوية • لاحظ انني حين أقول هذه الجملة البارعة ــ أو الخرقاء ان شئت ــ لا يخطر ببالى أن أتخذها وسيلة ً لاثارة حججك واستدراج رجائك•

قال ستافروجين هذه الكلمات الأخيرة وضحك ضحكة ً ساخرة •

قال تيخون :

ــ لا أستطيع أن أناقشك ولا أن أطلب منك العدول عما عزمت عليه• ان ما تنتويه شىء نبيل جدا ، ومن المستحيل أن يعبِّر المــرء عن فكرة مسيحية حقا ، تعبيرا أفضل • ان الكفارة لا يمكن أن تمضى الى أبعد من هذا : انه لعمل رائع أن يعاقب المرء نفسه كما تنتوى أن تفعل ، اذا •••

ــ اذا ؟

ــ اذا كان ذلك كفارة حقا ، اذا كان فكرة مسيحية فعلا •

دمدم ستافروجين يقول واجماً ذاهلاً :

ــ هذه حذلقات •••

ونهض وأخذ يذرع الغــرفة ذاهباً آيباً ، حتى دون أن يلاحظ ما يفعل •

وتجرأ تيخون فقال :

ــ يبدو لى أنك تعمدت أن تصور نفسك أسوأ من حقيقتك ، وأسوأ مما يريد قلبك أن تكون •

ــ أصور نفسى ؟ أنا « لم أصــوِّر نفسى » ، أنا لم أكن ألعب « أسوأ » ! ما معنى كلمة « أسوأ » هذه ؟

واحمر وجهه من جديد • وأحنقــه ذلك • فقال مشــيراً الى الصحائف :

ـ أنا أعلم أن هذا أمر صغير ، تافه ، حقير ، ولكن يجب أن يدفع صغاره نفسه الى تعمق ...

وأمسك عن اتمام كلامه فجأة كأنه خجل أن يستمر ، وكأنه رأى أن من المذلة أن يسترسل في شروح • ولكنه في الوقت نفسه كان ينصاع انصياعا أليماً ، ولو على غير شعور منه ، لضرورة أن يشرح ما بنفسه • يجب أن نلاحظ أنه ما من كلمة قيلت عن احتجاز الصحيفة الثانيـــة • فكأن هذه الصحيفة الثانية قد نسيها الرجلان كلاهما • وكان ستافروجين قد توقف بقرب مائدة الكتابة وها هو ذا يتناول عن المائدة صليبا من عاج ، ويأخذ يقلّبه بين أصابعه ، ثم اذا هو يكسره نصـــفين على حين فجأة • واعترته عندئذ دهشة ، وثاب الى رشده ، فألقى على تيخون نظرة مضطربة حائرة • ولكن شفته العليا أخذت تختلج بغتة ، كأنه أهين ، وكأنه يتهيأ لأن يرشق خصمه بتحدٍ متكبر • قال بصوت خافت ، كأنه يبذل جهداً كبيرا من أجل أن يسيطر على نفسه :

ـ كنت أفترض أنك ستقول لى شيئاً فيه جد • ومن أجل هذا انما جئت •

ورمى حطام الصليب على المائدة •

فأسرع تيخون يخفض عينيه • وقال يسأل ستافروجين بالحاح ربما يشبه أن يكون حماسة حارة :

ـ ان هذه الوثيقة تعبّر تعبيراً مباشراً عن حاجة قلب يشكو من جرح قاتل • أليس هذا ما يجب أن أفهمه ؟ نعم ، انه الحاجة الطبيعية الى التوبة والكفارة • لقد استولت عليك هذه الحاجة • فالألم الذى سببته للمخلوقة التي آذيتها وأهنتها قد بلغ من التأثير فيك أن المسألة عندك الآن أصبحت مسألة حياة أو موت : فما يزال هناك اذن أمل لك ، وأنت تسير في الطريق

القويم اذ تهيء نفسك لقبول العقاب والعار أمام جميع الناس • وانك تحتكم الى الكنيسة ، وان كنت لا تؤمن بالكنيسة • هل صدق فهمي ؟ ولكن يبدو أنك منذ الآن تكره وتحتقر جميع أولئك الذين سيقرأون هذا النص • يبدو أنك تتحداهم •

ـ أنا ؟ أتحدى ؟

ـ انك لم تخجل من الاعتراف بجريمتك ، فلماذا تخجل من التوبة ؟

ـ أنا ؟ أخجل ؟

ـ نعم ، تخجل ، وتخاف •

ـ أخاف ؟

قال ستافروجين ذلك وضحك ضحكة متشنجة ، وعادت شفته العليا تختلج • أجاب تيخون :

ـ أنت تقول : ألا فلينظروا الي ! ولكن كيف عساك تنظر أنت اليهم ! انك منذ الآن تنتظر كرههم لترد عليه بكره أكبر منه • انك كمن يتباهى بسيكولوجيته ، وانك تستفيد من أتفه الأشياء لتدهش القارىء بانعدام احساسك ، وشدة استخفافك واستهتارك وما الى ذلك مما قد لا يكون له وجود في نفسك • ومن جهة أخرى فان الأهواء الفاسدة والفراغ والبطالة قد جعلتك فعلاً منعدم الاحساس وغبياً •

قال ستافروجين وهو يضحك ضحكاً ساخراً وقد اصفر وجهه :

ـ ما الغباء برذيلة •

فعقب تيخون قائلاً بحرارة وجزم :

ـ بل هو رذيلة أحيانا • انك وقد جرحتك رؤيا البنت في عتبة الباب جرحاً قاتلاً ، تبدو في هذا النص مع ذلك كمن لا يدرك ماذا يجب أن يخجله من الناس الذين يحتكم اليهم : أهو انعدام احساسه في الجريمة أم هو الرعب الذي اعتراه ؟ حتى انك في لحظة من اللحظات تسرع مؤكداً لقارئك أن حركة التهديد التي أجرتها البنت أصبحت لا تبدو لك مضحكة بل قاتلة • ولكن هل صحيح أنها أمكن أن تبدو لك مضحكة حقاً ، ولو لحظة واحدة ؟ نعم ، لقد بدت لك كذلك ، أشهد بهذا •

وصمت تيخون • كان يتكلم كامرىء عدل عن السيطرة على نفسه •

استحثه ستافروجين قائلاً :

ـ تكلم ، تكلم • انك حانق ••• وانك تؤنبني • يعجبني هذا من راهب • ولكن اليك ما يدهشني : اننا نتناقش في أمر هذه الصحائف منذ عشر دقائق • ولست أرى فيك رغم تأنيبك أية علامة على الاشمئزاز والشعور بالعار • انك لست مشمئزاً ، وانك تكلمني كلام الند للند •

كان ستافروجين قد خفض صوته • وكأن هذه الكلمات « تكلمني كلام الند للند » قد انبجست من بين شفتيه دون أن يفكر في ذلك • فنظر اليه تيخون بانتباه • وقال بعد صمت :

ـ انك تدهشني ، لأن أقوالك صادقة • أنا أرى ذلك • وفي هذه الحالة أكون أنا المذنب في حقك • فاعلم اذن أنني كنت فظاً قليل الأدب ، وكنت مشمئزاً متقززاً ، ولكنك من شدة ظمئك الى التوبة لم تلاحظ ذلك رغم أنك لاحظت نفاد صبري وهو ما أسميته أنت تأنيباً • غير أنك تعد نفسك جديرا باحتقار أعمق من ذلك الى غير نهاية ، ولقد كانت الكلمات التي نطقت بها بدون ارادة منك حين قلت « كلام الند للند » كلمات طيبة جميلة • لا أكتمك أنها ترعبني ، هذه القوة الكبيرة العقيمة التي لا تسعى

الى غير التحقق فى دناءات • ليس يتحول المرء الى أجنبى بغير سبب : ان ثمة عقابا يطارد جميع أولئك الذين ينفصلون عن أرضهم ، وان الضجر والسأم والبطالة تحاصرهم حتى ولو أرادوا أن يعملوا • ولكن المسيحية تقبل المسئولية مهما تكن البيئة التى يعيش فيها المرء • ان الله لم يحرمنا من الذكاء • فكّر أنت نفسك : اذا كنت تسأل نفسك أأنا مسئول أم غير مسئول عن أعمالى ، فمعنى ذلك أنك مسئول ضرورةً • يستحيل أن لا تتسلل الغواية الى هذا العالم ، ولكن ويلٌ للذى به تتسلل • على كل حال ، فيما يتعلق بخطيئتك ، فان كثيرين يفعلون ما فعلت ، ولكنهم يظلون يعيشون فى سلام وهدوء ، حتى لتراهم يعدون خطيئات سن الشباب هذه أمورا لا مفرَّ منها • وهناك شيوخ تفوح منهم رائحة القبر منذ الآن ، ومع ذلك تراهم يأثمون ويتأسون عن ذلك مرحين • ان العالم زاخر بهذه الفظاعات • أما أنت فقد شعرت بكل ما فى ذلك عمق ، حتى لقد بلغت من هذا درجة نادرة كل الندرة •

قال ستافروجين وهو يضحك ساخراً :

ـ أتراك أخذت تعتبرنى بعد قراءة هذه الصحائف ؟ انك أيها الأب المحترم تيخون ـ وقد سمعتُ هذا عنك ـ لا تصلح أن تكون موجهاً للضمير ومرشداً للوجدان •

كذلك أضاف ستافروجين وهو يجبر نفسه على الابتسام اجبارا • وتابع يقول :

ـ انهم ينتقدونك كثيرا هنا • هم يقولون انك متى اكتشفت فى الخاطىء شيئاً من مذلة وشيئاً من صدق ، أُعجبت به فوراً ، حتى لتكاد تبادر الى الندم واذلال نفسك أمام من جاءك ••• تائباً •

ـ لست مسئولاً عن هذا مباشرة • ولكن من المؤكد اننى لا أحسن مخاطبة الناس • تلك كانت آفتى دائما ! •••

كذلك قال تيخون متنهـــدا ، وقـــد بلغ كلامه من البســاطة أن ستافروجين نظـــر اليه مبتسما . وتابع تيخـــون كلامه وهو ينظر الى الصحائف :

ـ أما عن هذه فلاشك أن الجريمة التي ارتكبتها لا تفوقها جريمة فى شدتها وفظاعتها .

قال ستافروجين بعد صمت لا يخلو من الغضب :

ـ كفانا قياساً بالأركين . لعل عذابى أن لا يكون قوياً الى الحد الذى وصفته هنا .

وختم كلامه فجأة :

ـ ولعلنى كذلك قد أسرفت فى اتهام نفسى .

لم يقل تيخون شيئاً . وكان ستافروجين يسير فى الغرفة طـولاً وعرضاً ، خافضاً رأسه غارقاً فى تأمله .

وفجأة سأله تيخون :

ـ وتلك الفتاة التى قطعت صلتك بها ، أين هى الآن ؟

ـ هنا .

وخيّم صمت جديد .

وعاد ستافروجين يقول مكرراً ملحاً :

ـ ولعلنى كذبت عليك فى شأنها . أنا نفسى لا أعرف معرفة واضحة حتى الآن ... على كل حال ، هبنى أستفز الناس بوقاحة اعترافى ـ مادمت قد لاحظت استفزازى ـ ففيم يهمنى هذا ؟ ذلك ما يجب . انهم يستحقون هذا الاستفزاز .

ـ أى أن كرهك لهم أسهل عليك من قبول شفقتهم .

ـ أصبت . أنا لم أعتد أن أكون صريحا ، ولكن ما دمت قد بدأت ... معك ، فاعلم اننى أحتقرهم كما أحتقر نفسى سواء بسواء ، هذا ان لم أحتقرهم أكثر من ذلك ، أكثر من ذلك ، أكثر بما لا نهاية له . مامن واحد منهم يستطيع أن يكون لى قاضياً ... لقد كتبت هذه السخافات لأن ذلك خطر ببالى ، كتبتها من باب الاستخفاف والاستهتار . ويجوز كذلك أن أكون قد كذبت لا أكثر ، فى لحظة اندفاع .

قطع ستافروجين كلامه حانقا على حين فجأة ، واحمر وجهه من جديد خجلاً من أنه تكلم بغير ارادته . واقترب من المائدة مديراً ظهره لتيخون ، وأمسك قطعة من الصليب المحطوم .

قال تيخون يسأله :

ـ أجب عن سؤالى ، ولكن بصدق ، أجبنى أنا وحدى ، أو اجب وكأنك تكلم نفسك فى خلوة ليلاً : اذ غفر لك واحد من الناس هـــذا (وأشار الى الصحائف) ، لا واحد من الذين تقدرهم أو تخشاهم ، بل شخص مجهول ، انسان لن تعرفه فى يوم من الأيام ، يغفر لك فى صمت، بينه وبين نفسه ، أثناء قـــراءة اعترافك ، فهل يهدئك أن تتصور هـــذا أم أنت لا تحفل به ؟ اذا كان يشق عليك كثيراً أن تجيب عن هذا السؤال من باب الكبرياء ، فلا تجب ، ولكن فكّر فيه بينك وبين نفسك .

قال ستافروجين بصوت خافت :

ـ ذلك يهدئنى .

وأضاف يقول بسرعة شديدة ، وبصوت يشبه أن يكون دمدمة ، ولكن دون أن يتحول عن المائدة مع ذلك :

ـ اذا غفرت لى فان غفرانك سيحسن الىّ كثيراً .

ـ ولكن على شرط أن تغفر لى أنت أيضا •

ـ ماذا ؟ آ ••• نعم ••• هذا تعبيركم فى الأديرة • تواضع سىء ! هل تعلم ، ان جميع التعابير القديمة التى تستعملونها فى الأديرة ليست جميلة البتة • ولكنكم أنتم تتصورونها جميلة جدا •

قال ستافروجين ذلك وانفجر يضحك ضحكاً حانقاً • ثم أضاف يقول فجأة وهو يلتفت :

ـ حقا لا أدرى لماذا أنا هنا • آ ••• نعم ••• لقد حطمت ••• قل لى : أحسب أن هذا يكلف خمسة وعشرين روبلاً ، أليس كذلك ؟

قال تيخون :

ـ لا تقلق لهذا الأمر !

ـ أم هو يكلف خمسين ؟ لماذا يجب أن لا أقلق لهذا الأمر ؟ ما الذى يسوّغ لى أن أجىء اليك فأكسر لك أشياءك ، وعلام تغفر لى هذا التخريب ؟ خذ ! اليك خمسين روبلاً •

قال ذلك وهو يستل المال من جيبه ويضعه على المائدة • ثم تابع كلامه يقول :

ـ اذا لم تشأ أن تأخذها لك فخذها للفقراء ، أو خذها للكنيسة •

كان ستافروجين يهتاج مزيدا من الاهتياج شيئاً بعد شىء • وواصل كلامه :

ـ اسمع • سأقول لك الحقيقة كلها : أريد أن تغفر لى ، وأن يغفر لى معك ثانٍ وثالث ، أما الجميع فليكرهونى ، فليكرهونى •

ـ أأنت قادر على أن تتحمل شفقة جميع الناس بمذلة كاملة ؟

ـ لا ، لا أقدر على ذلك . لا أريد شفقة من الجميع . ثم ان هذا سؤال خال من المعنى : فهذه الشفقة لا يمكن أن توجد . اسمع . لا أريد الانتظار . سوف أطبع هذه الصحائف . لا تحاول أن تقنعنى . لا أستطيع أن أنتظر . لا أستطيع .

كان خارجاً عن طوره .

قال تيخون شبه خجلان :

ـ اننى أخاف عليك .

ـ تخاف على أن لا أصمد للأمر ؟ أن لا أستطيع احتمال كرههم ؟

ـ لا ، لا كرههم فحسب .

ـ ماذا اذن أيضا ؟

ـ ... ضحكهم .

قال تيخون ذلك بصوت خافت ، وكأنه يقوله رغم ارادته .

لم يستطع المسكين أن يكظم ما بنفسه ، وأخذ يتكلم فيما كان يحسن السكوت عنه . وكان يعلم حق العلم على كل حال أن الصمت أفضل .

فاضطرب ستافروجين ، وظهر القلق فى وجهه . قال :

ـ أوجست هذا . اذن كنت أظهر لك شخصا مضحكا أثناء قراءتك « النص » ؟ لا تقلق ، لا تضطرب ؛ لقد كنت أتوقع ذلك .

كان تيخون قد اضطرب حقاً . وحاول أن يشرح معتذراً بأقصى سرعة ، ولكنه لم يزد على أن أفسد الأمر افساداً أكبر . قال :

ـ لكى يقوم المرء بمثل هذه الأعمال لا بد له من الهدوء النفسى . وحتى فى الألم لا بد من الاحتفاظ بقدر كبير من السكينة ورباطة الجأش .

وليس الحال كذلك فى أيامنا هذه • فالسكينة ورباطة الجأش تعوزان الناس فى هذا الزمان • فلا يرى الانسان فى كل مكان الا مناقشات ومشاجرات• ان البشر لا يتفاهمون الآن أكثر مما كانوا يتفاهمـــون فى عصر برج بابل •••

قال ستافروجين يقاطعه :

ـ هذا الكلام كله ممل مضجر ! أنا أعرف هذا الكلام • لقد كرره الناس ألف مرة حتى الآن ! •••

قال تيخون منتقلاً الى السؤال رأساً :

ـ على كل حال ، لن تبلغ هدفك • انك من الناحية القضائية لا يمكن أن ينالك أحد تقريبا • ذلك ما سينبهونك اليه قبل كل شىء ساخرين منك متهكمين عليك • وبعدئذ سيحتار كثيرون : من ذا الذى سيفهم الدوافـع الحقيقية لاعترافك ؟ لسوف يتعمدون أن لا يفهمـــوها ، لأنهم يخشـــون الأعمال التى من هذا النوع • انهم يستقبلونها فى رعب ، ويكرهونهـــا وينتقمون : الناس يحبون وحلهـم ولا يريدون أن يُحـــرّك • لذلك سيقلبون الأمر مزاحاً بأقصى سرعة • اذ بالأمازيج انما ينتصر الناس على مثل هذه الأشياء أسهل انتصار •

قال ستافروجين يستحثه :

ـ تكلم بوضوح • قل كل شىء •

ـ فى البداية سيعبرون عن شعورهم بالهـــول حتماً ، ولكن ذلك سيكون أقرب الى التظاهر منه الى الصدق ، ولن يكون له هدف الا ارضاء المواضعات الاجتماعية • لا أقصد أصحاب النفوس الطاهرة النقية : فهؤلاء سوف يرتاعون ، لكنهم سيتهمون أنفسهم ويصمتون ، فلا يلاحظهم أحد • أما الآخرون ، أقصد الناس الذين يختلفون الى المجتمع ، فانهم لا يخشون

الا ما يهدد مصالحهم رأساً • فمتى انقضت الدهشة الأولى ، ومتى انقضى الارتياع المصطنع الأول ، أخذوا يضحكون•فهؤلاء هم الذين سيضحكون• سيبدو لهم جنونك طريفا شائقا جدا • ذلك أنهم سيعدونك مجنونا ، مع استمرارهم فى تحميلك قدراً من المسئولية كافياً للضحك عليك • فهل تراك تتحمل هذا ؟ ألا يحمل قلبك عندئذ من الكره ما سوف يحطمك تحطيماً ؟ ذلك ما أخشاه •

أجابه ستافروجين منزعجا :

ـ طيب ••• وأنت ••• أنت نفسك ••• اننى ليدهشنى أن يكون رأيك فى الناس سيئاً الى هذا الحد من السوء ! انك تحكم عليهم باشمئزاز شديد •

صاح تيخون يقول :

ـ صدّق أننى اذ أقول عن الناس هذا الكلام انما أحكم عليهم اعتمادا على معرفتى بنفسى خاصة •

ـ أيكون فى نفسك اذن شىء يمكن أن يتلذذ بعذابى ؟

ـ من يدرى ؟ ربما نعم • آ ••• نعم ••• جائز جدا •

ـ كفى ! قل لى اذن : ما الذى يبدو لك من وضعى مضحكا فى هذه القصة ؟ أنا أعرفه ، ولكننى أحب أن تدلنى عليه باصبعك • اذكره لى بأكبر استخفاف ممكن ، لأنك انسان مستخف أعظم الاستخفاف حقا • انكم معشر الرهبان مستخفون استخفافا رهيبا ، لا تدرون أنتم أنفسكم مدى ما تحملونه للبشر من احتقار ••• كلمنى بأكبر صدق تقدر عليه • أعود فأقول لك مرة أخرى : انك انسان غريب الأطوار جدا •

ـ ثمة شىء مضحك فى نظر الناس ، بل شىء زائف أيضا ، حتى

فيما عقدت عليه نيتك من أمر عظيم ، أعنى قبولك هذه التوبة الرائعة ؟ ناهيك عن شكل هذه النية ، وهو شكل مضطرب متردد غير ثابت ثباتا كافيا .

وصاح يقول فجأة ، وهو فيما يشبه النشوة :

ـ أوه ! لا يراودنك شك فى انتصارك . اسوف ينتصر هذا الشكل ...

قال ذلك وهو يشير الى الصحائف بيده . وتابع كلامه :

ـ ... ولكن على شرط أن ترتضى الصفعات والبصقات صادقا كل الصدق ... وأن تحتملها الى النهاية . ان أحط صليب ينتهى دائماً بالوصول الى أعلى مجد ، ينتهى بالوصول الى القوة ، متى كانت المذلة صادقة . ولكن أأنت قادر على هذه المذلة ؟ يجب أن لا تحتقر قضاتك ، وانما ينبغى أن تثق بهم ، وأن تثق بالكنيسة . وعندئذ انما تنتصر عليهم وتجتذبهم اليك بالقدوة ، وتتحد بهم فى الحب ... آه ... ليتك تقدر أن تحتمل كل شىء الى النهاية ! ...

ـ قل لى ما الذى تراه مضحكاً فى هذه الصحائف !

ـ لماذا ، لماذا هذا الاهتمام بالمضحك ؟ لماذا هذا المرض لديك ؟

كذلك صاح تيخون فجأة وهو يهز رأسه .

قال ستافروجين :

ـ دعنا من هذا وقل لى ما هناك من شىء مضحك ...

دمدم تيخون يقول خافضاً عينيه :

ـ ان الدمامة هى التى ستقتل .

ـ الدمامة ؟ أية دمامة ؟

ـ دمامة الجريمة • انها دميمة حقا • يمكن القول ان الجريمة ، أيةً كانت ، تبدو أفظع ، ويكون تأثرها أكبر ، وتكون اثارتها أعظم ، على قدر ما يكون قد سفح فيها من دم • غير أن هناك جرائم مخزية ، دنيئة ، ترجع فظاعتها الى خطتها وخستها •••

لم يكمل تيخون جملته • قال ستافروجين :

ـ أى ان ماتراه مضحكاً فى وضعى هو أننى قبّلت يدى بنتٍ صغيرة قذرة ••• ثم أننى ارتعشت خوفا ••• الى آخر ما هنالك • اننى أفهم عنك كل الفهم • وأنت تخاف علىَّ لأن هذا العمل دميم ، ردىء ، لا ، لاردىء، بل مخزٍ ؟ مضحك • وتظن أن هذا بعينه هو ما لن أستطيع احتماله ؟ هه ؟

لم يجب تيخون وابت صامتاً • وشحب ستافروجين وتقبض وجهه • ودمدم يقول كمن يخاطب نفسه :

ـ الآن فهمت لماذا سألتنى هل آنسة سويسرا هنا !

أجابه تيخون :

ـ لست مستعداً ، لست قوياً قوةً كافية •

قال ستافروجين فجأة بحماسة وحشية :

ـ اسمع ، أريد أن أنال مغفرة نفسى • تلك هى غايتى الرئيسية ، غايتى الوحيدة • ذلك هو اعترافى كله ، تلك هى الحقيقة كلها ، وما عدا هذا كذب • فمتى نلت مغفرة نفسى ، زالت الرؤيا ، أنا أعرف ذلك • ولن تزول الرؤيا الا فى ذلك الحين • ذلك هو السبب فى توقى الى عذاب لا حدود له ، ذلك هو السبب فى أننى أسعى الى هذا العذاب •

وصرخ ستافروجين يضيف قوله كأنما على غير ارادة منه :

ـ فلا تثبط همتى ، والا هلكت غضبا وسخطا .

ولم يكن تيخون يتوقع هذه الاندفاعة ، فها هو ذا ينهض . ويهتف قائلاً بفرح :

ـ اذا كنت تؤمن بأنك تستطيع أن تغفر لنفسك ، وبأنك ستنال غفرانك فى هذا العالم بالألم ، واذا كنت لا تسعى الا الى الحصول على هذا الغفران ، فأنت اذن تؤمن ايمانا تاما . فكيف أمكنك أن تقول انك لاتؤمن بالله ؟

لزم ستافروجين الصمت .

ـ سيغفر لك الله قلة ايمانك ، لأنك تقدس الروح القدس دون أن تعرف ذلك .

قال ستافروجين مكفهر الهيئة :

ـ لن أنال غفرانا . لقد جاء فى كتابك انه ما من جريمة أفدح من ايذاء « طفل من هؤلاء الأطفال الصغار » . نعم ، فى هذا الكتاب .

وأشار الى الانجيل .

فأجاب تيخون بلهجة نافذة :

ـ جوابا عن هذا أقول لك : اذا استطعت أن تغفر لنفسك فان المسيح سيغفر لك أيضا .. آه .. لا .. لا .. لا تصدقنى .. لقد جدّفت . هبْكَ لم تصالح نفسك ولم تغفر لنفسك فانه سيعفو عنك انيتك الحسنة وعذابك الكبير ... ذلك ان اللسان البشرى تعوزه الكلمات وتعوزه الأفكار للتعبير عن جميع طرق « الحمل » الى اليوم الذى « يكشف لنا فيه عن تلك الطرق كشفاً كاملاً » . من ذا الذى يقدر أن يقيس ما يتجاوز كل قياس؟ من الذى يستطيع أن يفهم عمقه كله ؟

وارتعشت أطراف شفتيه كما حدث من قبل ، وطافت بوجهه حركة خفيفة شنجته قليلا • لقد كان جهده عنيفا مسرفا في العنف • وخفض عينيه •

تناول ستافروجين قبعته عن المائدة • وقال :

ـ سأرجع في يوم آخر •

كان يبدو مرهقاً • وأردف يقول :

ـ سوف تتكلم مرةً أخرى في هذا كله • لقد سعدت بحديثك أكبر السعادة ••• واني لأقدر الشرف والاستقامة حق قدرهما ••• وأقدر عواطفك • صدّق انني أدرك الآن لماذا يحبك بعض الأشـــخاص ذلك الحب كله •••

سأله تيخون وهو ينهض أيضا وقد دُهش دهشةً كبيرة :

ـ أتنصرف ؟ وأنا •••

وبدا عليه التردد ••• لكنه أكمل كلامه فقال :

ـ كنت أريد أن أتجه اليك برجاء ••• ولكنني لا أدرى الآن هل ••• انني أخشى أن •••

ـ أرجوك ••• تفضل •••

كذلك قال ستافروجين وعاد يجلس وهو ما يزال ممسكاً بقبعته • فنظر تيخون الى هذه القبعة والى وضع ستافروجين ، وهو وضع رجلٍ من رجـال المجتمع الراقى ، لكنـه رجل نصف مجنون • فاضطرب تيخون مزيدا من الاضطراب •

ـ انني أسألك فقط•••أنت تدرك بنفسك يا نيقولاى فسيفولودوفتش (هذا هو اسمك اذا لم أخطىء) أنك اذا نشرت هذه الصحائف كنت

تحطم حياتك ... كنت تحطم عملك فى هذه الحياة ... وسائر الأمور الأخرى ...

ـ عملى فى الحياة ؟

ألقى ستافروجين هذا السؤال وصعَّر وجهه .

قال تيخون بصوت يشبه أن يكون ضارعاً وهو يدرك خرافته تمام الادراك :

ـ لماذا تحطم كل شىء هذا التحطيم ؟

فألمَّ بوجه ستافروجين تعبير عن ألم شديد . وقال :

ـ سبق أن قلت لك وهأنذا أكرر قولى : ان كلامك كله لا فائدة منه . ثم ان هذا الحديث كله قد أصبح لا يُطاق .

وتحرك على مقعده .

ـ انك لا تفهم عنى . أصغ الىَّ دون أن تغضب . انك تعرف رأيى: اذا كان فعلك هذا ثمرة المذلة فليكوننَّ أجمل الأفعال المسيحية متى كنت قادرا على تحمله . وهبْك لم تقدر فان الرب سوف يدخل تضحيتك فى الحساب . ان كل شىء سيدخل فى الحساب : كل كلمة من كلماتك ، كل حركة من حركات نفسك ، أيسر فكرة تمر بخاطرك . لكننى أقترح عليك تضحية أخرى ، أكبر من تضحيتك هذه أيضا ...

لزم ستافروجين الصمت .

ـ انك فى حاجة الى عذاب وتضحية . فتغلب اذن على هذه الرغبة أيضا . دع هذه الصحائف ، واعدل عن خطتك ، فتنتصر عندئذ على كل شىء : تحطم كبرياءك وزهوك ، وتسحق شيطانك . سوف تظفر وتبلغ الحرية ...

كانت عيناه تسطعان . وضمَّ يديه احداهما الى الأخرى توسلاً وضراعة .

قال نيقولاى فسيفولودوفتش بأدب ولكنه كان مشمئز الهيئة قليلاً :

ـ انك تسرف في أخذ الأمر مأخذ الجد ، انك تضفى عليه كثيرا من خطورة الشأن ... ثق على كل حال انني أقدّر ... أنا ألاحظ انك تريد أن تمد لى شباكا ، على كونك تضمر أحسن النيات طبعا ، وعلى كونك تريد لى الخير من باب الرأفة والاحسان . انك تريد ، على الجملة ، أن أضع لنفسى غاية ، بل ربما أن أتزوج أيضا ، وأن أختم حياتى الماضية عضواً فى النادى ، وأن أجىء الى الدير فى أيام الأعياد . أليس كذلك ؟ على كل حال ، انك بصفتك رجلاً عارفاً بالقلب ، وبصفتك انساناً مستخفاً لا يبالى ، ربما كنت تتنبأ منذ الآن بأن الأمور ستجرى هذا المجرى نفسه، فليس عليك الا أن تلح وأن تتوسل الىّ باصرار ، لأننى فى قرارة نفسى لا أرغب الا فى هذا . أليس كذلك ؟ بل انى لأراهن على أنك فكرت أيضا فى أمى وفى طمأنينتها ...

قال ستافروجين ذلك وابتسم ابتسامة ساخرة .

وتابع تيخون حديثه متكلما بحـــرارة ، دون أن يولى ضـــحكة ستافروجين وملاحظاته أى انتباه ، فقال :

ـ لا ، ليست المسألة مسألة هذه التوبة . اننى أهىء لك توبة أخرى. اننى أعرف شيخا ليس هنا ولكنه غير بعيد عنا . انه ناسك ، متقشف ، يبلغ من الاتصاف بالحكمة المسيحية درجة لا نستطيع لا أنا ولا انت أن نتصورها. سوف يستجيب لرجائى . سوف أقص عليه حكايتك كلها . هل تأذن لى بذلك ؟ امض اليه ، واخضع لسلطته خمس سنوات أو سبعاً ، أو المدة التى ستراها ضرورية فيما بعد . افرض على نفسك هذه الكفارة . وبفضل

هذه التضحية الكبيرة سوف تنـــال كل ما أنت ظامىء اليه ، بل حتى ما لا تأمل فيه . ذلك أنك لا تستطيع الآن حتى أن تتصور ما سوف تناله.

أصغى اليه ستافروجين بجد كبـــير . وازدحم الدم فى خــديه الشاحبين .

ـ أتقترح عليّ أن أترهب فى ذلك الدير ؟

ـ لست فى حاجة الى دخول الدير . ما ينبغى أن تترهب . كن مبتدئاً فحسب ، فى السر لا فى العلانية . حتى لتستطيع أن تتابع حياتك فى المجتمع .

فقاطعه ستافروجين يقول بنفور :

ـ دعك من هذا أيها الأب تيخون .

ونهض . ونهض تيخون .

صاح ستافروجين يقول فجأة وهو يحدق الى تيخون بما يشبه أن يكون رعباً :

ـ ماذا بك ؟

كان تيخون واقفا قدامه ، ماداً يديه الى أمام ، وكان تشنج سريع قد قبّض وجهه المروّع .

ـ ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

كذلك كرر ستافروجين مندفعاً نحوه ليسنده . لقد بدا له أن الكاهن سيسقط على الأرض .

هتف تيخون يقول بصوت نافد الصبر يعبّر عن ألم شديد :

ـ انى أرى ... انى أرى بوضوح أيها الشاب الشقى أنك لم تكن

فى يوم من الأيام أقرب منك الآن الى ارتكاب جريمة أفظع من الجريمة الأولى !

فقال ستافروجين ملحاً وقد أقلقته حالة تيخون اقلاقاً شديداً :

ـ هدىء نفسك . قد أرجىء كل شىء أخيراً الى وقت آخر . انك على حق .

ـ لا ، لا بعد النشر ، بل قبل النشر ، قبل النشر بيوم ، قبل هـــذه التضحية الكبيرة بساعة واحدة ؟ ستبحث عن مخرج فى جريمة جديدة ، ولن ترتكب هذه الجريمة الا لتتحاشى نشر هذه الصحائف .

ارتعش ستافروجين من الغضب ، ومن الخوف أيضا .

وهتف يقول ساخطاً :

ـ يالعالم النفس اللعين !

وغادر الغرفة دون أن يلتفت الى وراء .

فهرس

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعيا يدافع عن "الفقراء" والمذلين المهانين" فاذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقا أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف